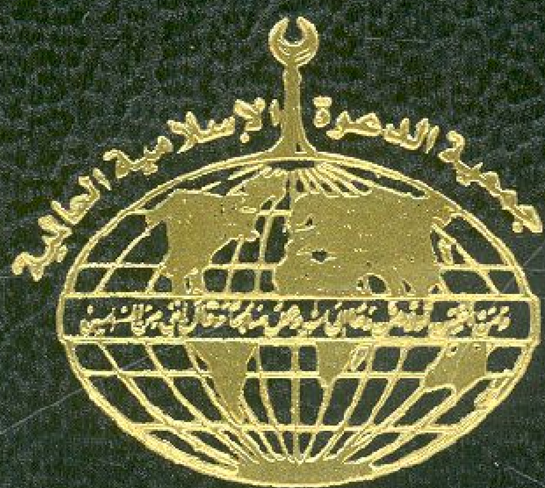
هداية البيان في تفسير القرآن

الجزء الثاني

راشد عبد الله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

هداية البيان

في

تفسير القرآن

الجزء الثاني



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

1430 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم

2000 إفرنجي

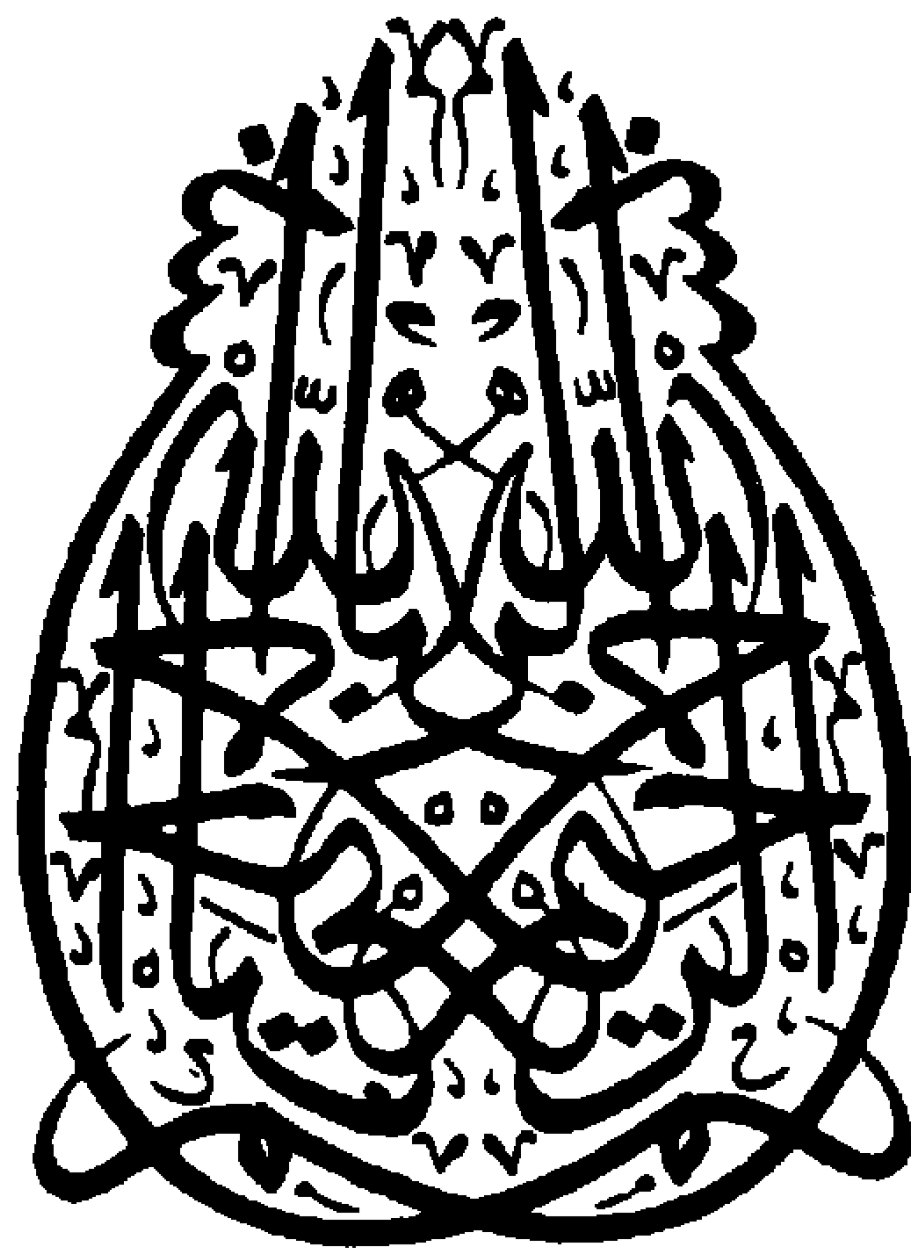
هداية البيان في تفسير القرآن

الجزء الثاني

تأليف: راشد عبدالله الفرحان



جمعية الدعوة الإسلامية العالمية



سورة الأعراف

هذه السورة سميت بالأعراف لورود ذكر أصحاب الأعراف في السورة.

ذكر السيوطي في المناسبة بين السورتين (الأنعام ـ الأعراف) أنّ سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق على وجه الإجمال، جيء بهذه السورة بعدها مشتملة على شرحه وتفصيله، فبسط فيها قصة آدم عليه السلام، وقصص الأنبياء والمرسلين وأممهم وكيفية هلاكهم فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓمٓصٓ ﴾.

﴿المص﴾ إن الله اكتفى في مفتتح السور ببعض حروف المعجم عن جملتها، والمعنى حروف المعجم التي يتألف منها كتاب أنزلنا إليك.

٢ ـ ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج﴾ أي ضيق ﴿منه﴾ ترجع إلى الكتاب والمعنى: لا يضيق صدرك بالإبلاغ ولا تخافن، ﴿لتنذر به﴾ مقدم والمعنى أنزل إليك لتنذر به، فلا يكن في صدرك حرج منه ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ لأن تنذر، والمعنى للإنذار والذكرى، وهو في موضع خفض.

ثم كما أمر الرسول بالتبليغ والإنذار مع قلب قوي وعزم صحيح، أمر الرسل إليهم بالمتابعة فقال:

٣ ـ ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ الخطاب له ولأمته لذلك حسن الجمع هنا والإفراد في الآية السابقة ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي لا تتبعوا من عدل عن دين الحق، وكل من ارتضى مذهباً فهو ولي أهل ذلك المذهب، ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ ما مؤكدة والمعنى: قليلاً ما يتذكر هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب.

القــراءة

﴿تذّكّرون﴾.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم مشددة الذال والكاف.

عاقبة العصيان

ثم ذكر ما في ترك المتابعة من الوعيد فقال:

٤ ـ ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾.

﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ كم للكثرة والمعنى: وكم من أهل قرية حذف الأصل؛ لأن في الكلام ما يدل عليه ﴿فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون﴾ والمعنى: فجاءهم بأسنا أي عذابنا غفلة وهم غير متوقعين له، إما ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائلون: من القائلة نصف النهار.

٥ ـ ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.

الدعوى بمعنى الدعاء والمعنى: فما كانت غاية ما يدّعونه من الدين وزعمهم فيه، أنهم على الحق أو ما كانوا يدعونه على الرسل من التكذيب إلا الاعتراف بأنّهم كانوا ظالمين لأنفسهم، فيما كانوا عليه والشهادة ببطلانه.

والعبرة في الآية أن كل مذنب يقع عليه عقاب ذنبه في الدنيا، يندم ويتحسر ويعترف بظلمه وجرمه إذا علم أنه هو سبب العقاب.

السؤال يوم القيامة

ولما أنذرهم سبحانه بالعذاب في الدنيا عقّبه بالإنذار بعذاب الآخرة فقال:

٦ ـ ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ يعني الأمم يسألون هل بلغكم الرسل، وماذا أجبتم ويسأل الرسل: هل بلّغتم وماذا أُجبتم ﴿ولنسألن المرسلين﴾.

والمعنى: أنّ الله سبحانه وتعالى يسأل الخلق عن أعمالهم يوم القيامة سؤال التوبيخ والتقريع ومثله ما ورد في سورة الحجر الآية ٩٢ ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ وهو من أنواع العذاب، وهو سؤال مثبت عام.

وأما ما ورد في سورة الرحمن قوله تعالى: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جـان﴾. وقوله تعالى في سورة القصص الآية: (٧٨) ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾. فهو سؤال منفيٍ خاص بالذنوب. ويعني الاستخبار والاستعلام، لأن الله سبحانه أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ (المجادلة الآية: ٦).

٧ ـ ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾.

﴿فلنقصّن عليهم بعلم﴾ أي فلنخبرنهم بما عملوا بعلم منا ﴿وما كنا غائبين﴾ عن الرسل والأمم.

ثم بيّن أن من جملة أحوال يوم القيامة وزن الأعمال فقال:

٨ ـ ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ أي العدل ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾.

والمعنى: وفي الآخرة يكون الترجيح للحق وحده، والثقل في الوزن للإيمان، والذين ترجح كفتهم هم الفائزون، أما الآخرون فهم من ذكروا في الآية التالية:

٩ ـ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿ومن خفت موازينه﴾ الذين تخف موازينهم وهم الماديون والوثنيون، والذين بقوا على حالهم في معارضة الإيمان بالله ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ بسبب تصرفهم وسلوكهم.

نعم الله على الناس

ثم ذكر سبحانه نعمه على البشر بالتمكين في الأرض، وما خلق فيها من الأرزاق، مضافة إلى نعمه السابقة عليهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل فقال:

١٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ولقد مكنّاكم في الأرض﴾ سهلنا عليكم التصرف فيها ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ ما تعيشون به من المأكل والمشرب، فأنزل الله المطر وأنبت الزرع وسخّر الشمس والهواء، وأنضج الثمر كل ذلك من تسهيل الله وجعله معايش للناس ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي أن الإنسان كثيراً ما ينغمس في هذه النعم والمعايش وينسى ذكر الله وشكره ويظهر أن ذلك من عنده وقوته إلا المتقون فهم الذين يشكرون الله.

تكريم آدم

ومن جملة نعم الله تعالى علينا أن خلق أبانا آدم، فجعله مسجوداً للملائكة، فلذلك ذكر تلك القصة عقيب تذكيرالنعم فقال:

١١ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾ يا بني آدم أوجدناكم في ظهر آدم أولاً، ثم في أصلاب آبائكم ثم صورناكم في الأرحام، وأعددناكم إعداداً خاصاً متميزاً ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ يوم أن خلقه الله وذلك لتميز الإنسان الذي أصبح به أفضل من غيره، أمر الله الملائكة بالطاعة والخضوع لآدم ﴿فسجدوا إلا

إبليس لم يكن من الساجدين﴾ يبدو أنّ الأمر بالسجود شمل إبليس رغم أنّه ليس من الملائكة بل كان من الجن، وكان وجوده آنذاك بين الملائكة، وهو استثناء من غير جنس، فأبى واستكبر على آدم، وفسق عن أمر ربه.

ثم ذكر سبحانه خطابه لإبليس حين امتنع عن السجود لآدم بقوله:

١٢ - ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ ما استفهام ومعناها الإنكار، والمعنى: أي شيء منعك من السجود ولا مؤكدة ومثله ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾[1]. قال ابن قتيبة وإنما زاد (لا) لأنه لم يسجد ومثلها ﴿أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾[2] وقال الفراء (لا) ها هنا جحود محض، وليست زائدة قال الزجاج: وسؤال الله لإبليس ﴿ما منعك﴾ توبيخ له وليظهر أنه معاند، ولذلك لم يتب وأتى بشيء في معنى الجواب ولفظه ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وقع الخطأ من إبليس حين قاس مع وجود النص، وخفي عليه فضل الطين على النار، وفضله أن من طبع النار الطيش والالتهاب والعجلة، ومن طبع الطين الهدوء والرزانة، إن الطين سبب فى جميع الإنبات والإيجاد، والنار سبب الإعدام والإهلاك، وإن الطين سبب جمع الأشياء والنار سبب تفريقها.

١٣ - ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

﴿قال فاهبط منها﴾ أي من المكانة التي أنت فيها بجوار الملائكة ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾ لأنه لا يجوز التكبر في هذه المكانة، وإن هناك مكاناً آخر من الأرض يصلح لك ولأتباعك، والصغار الذل استكبر إبليس بإبائه السجود، فأعلمه الله أنه صاغر بذلك.

١٤ - ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ أي أمهلني وأخرني وذريتي، وقد بيّن الله مدة إمهاله في سورة الحجر بقوله: ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾.

١٥ - ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾.

﴿قال إنك من المنظرين﴾ أجابه الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بحكمه وملكه إنّك من الممهلين المؤخرين.

١٦ - ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

﴿قال فبما أغويتني﴾ أي بسبب ذلك التكليف الذي جعلني أقع في الغيّ ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ لأجتهدن في اعتراضهم وإغوائهم حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت أنا بسببهم، ثم كشف عن الطريقة التي سوف يستعملها فقال:

١٧ ـ ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾.

﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ وهذه إشارة إلى أنه سوف يأتيهم من الجهات الأربع، مترصداً لهم كما يفعل قطاع الطريق للسابلة، وذكر الجهات الأربع للمبالغة في التأكيد على الغواية، أي لأسوّلن لهم قدر المستطاع ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ أي لا تجد أكثرهم مطيعين لك شاكرين نعمتك.

ثم بيّن سبحانه ما فعله بإبليس من الإهانة والإذلال، وما أتاه آدم من الإكرام والإجلال فقال:

١٨ ـ ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

﴿قال﴾ الله للشيطان: ﴿اخرج منها﴾ من المكانة التي أنت عليها بين الملائكة. اخرج من رحمة الله بدليل قوله تعالى: ﴿مذؤوما مدحورا﴾ الذأم هو الذم قال ابن قتيبة المذؤوم: المذموم بأبلغ الذم، والمدحور المبعد من رحمة الله ﴿لمن تبعك منهم﴾ اللام موطئة للقسم والضمير في ﴿منهم﴾ لعدد من المكلفين من ذرية آدم ومن الجن ومن ذرية إبليس ﴿لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾ يجمع الله الخلائق المختلفة في النار، والعرب ترجع في الخطاب من الغيبة إلى الحضور وبالعكس، وفي هذه الآية قد أكد الله سبحانه خروج إبليس من مكانته، موسوماً بالحقارة والطرد، وإن إرادة الله باقية ونافذة فيما يتصل بالمؤمنين بفوزهم ونجاتهم. وإن المعارضين العاصين ممن تستهويهم الحياة المادية ويستهويهم طريق إبليس المادي سنملأ جهنم منهم أجمعين.

جنة آدم في الدنيا

١٩ ـ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ سبق تفسير الجنة في سورة البقرة، إنّ الله خلق آدم في الأرض فقال: ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾ ثم أمر الملائكة أن تسجد تكريماً له فاستكبر إبليس وطرد من رحمة الله، ومن المكانة التي هو فيها بين الملائكة ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ ثم أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجته الجنة، حيث خلق، والله قادر على أن يأمر الملائكة بالسجود له، بالطريقة التي حصلت دون أن نعرف تفاصيلها وأين مكانها، وأباح له الأكل والتمتع فقال: ﴿فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

والمعنى: اسكن يا آدم أنت وزوجتك حواء تلك الجنة التي خلقها الله، وأباح لكما التمتع فيها بالأكل

والمشي والرزق رغداً واسعاً، وافراً لا حجر فيه، وأن الله سبحانه أراد الاختبار والامتحان، فنهاه أن يقرب شجرة معينة من شجر تلك الجنّة عرفها آدم بالوحي، وقد حذّر من قبل بأن من يأكل منها قد يظلم نفسه أو يظلم غيره، وهذا وصف الظالمين.

٢٠ - ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾.

﴿فوسوس لهما الشيطان﴾ أي أنه وصل إليهما في الجنة التي أبيح لآدم وحواء التمتع فيها، والله أعلم بها وبمكانها وهذا دليل آخر على أن الجنة التي استطاع الشيطان دخولها بعد أن أبى السجود لآدم وتكبر هي جنة الدنيا ﴿ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما﴾ أي ليظهر ويكشف ما ستر منهما، وذلك أن عاقبة الوسوسة أدت إلى ظهور عوراتهما ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ ولو أن تلك الجنة التي حصلت فيها الوسوسة هي جنة الآخرة والجزاء التي يكون المؤمنون والأنبياء والصالحون مخلدين فيها، لما طمع آدم وحواء في أن يكونا في مكانة أحسن مما هما فيها، فما بعد الجنة التي وعد المتقون بـها من جنة، وكون آدم وحواء طمعا بأكثر مما كانا فيه، بأن يكونا ملكين فيجمعان بين خصائص الملائكة كالقوة وطول البقاء والنقاء وعدم التأثر وغير ذلك، وبين خصائص الإنسان الذي يملك الإرادة والاختيار يدل على أنّ الجنة التي هم فيها ليست جنة الخلد. ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ من الخلود وطول البقاء وما أكثر ما يحرص عليه الآدمي.

٢١ - ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

﴿وقاسمهما﴾ أي حلف لهما ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ كذب وما هو بناصح، ولم يكن آدم يعلم أن إبليس خلق للشر ولإغواء الإنسان ونسي ما حذره ربه، ولولا وجود إبليس وإغواؤه آدم لما كان هناك شرّ ولما احتاج الناس إلى الثواب والجزاء، ولما ارتكبوا المعاصي وعوقبوا عليها فكان بذلك شأنهم شأن الملائكة ولكن لله في خلقه شؤون.

٢٢ - ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿فدلهما بغرور﴾ الغرور هو الخداع بالباطل، ولذلك سمي الشيطان الغرور؛ لأنه يخـدع الناس والمعنى: فما زال يخدعهما بالترغيب في الأكل من الشجرة الممنوعة، ويقسم لهما أنه ناصح حتى أسقطهما في كيده وحطهما عما كانا فيه من المكانة، ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سؤآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ بيّنا في الآية (٢٠) أن السوءة للإنسان هي عورته التي يسوءه ظهورها، ولما ذاقا الشجرة ظهرت لكل منهما سوأته وسوأة صاحبه، وكانت قبل ذلك غير بادية، والأقرب أن معنى ظهورها لهما أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبهتهما إلى ما كان خافياً عنهما من أمرها، فخجلا من ظهورها، وشعرا

بالحاجة إلى سترها فشرعا يلزقان على بدنيهما من أشجار الجنة لستر ما ظهر وانكشف[١]. ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾، الاستفهام في الآية ﴿ألم﴾ للتوبيخ، وذكر الرب هنا بعد الضمير في ﴿وناداهما﴾ للدلالة على أنه تعالى هو الذي يربيهما في طور المخالفة والعصيان، كما يربيهما في حال الطاعة والإذعان، وجاء تفصيل القول في سورة طه بصورة أوضح ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾[٢].

٢٣ ـ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾.

اعتراف بعد التذكر لنهي الرب.

٢٤ ـ ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

﴿قال اهبطوا﴾[٣] الخطاب لآدم وحواء وإبليس، أي اهبطوا من هذه الجنة أو من هذه المكانة ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ الشيطان عدو للإنسان، وأما الإنسان فليس عدواً للشيطان، لأنه ليس مندفعاً إلى إغوائه وإيذائه. وإنما يجب عليه أن يتخذه عدواً بأن لا يغفل عن مدافعته، لئلا تنفذ فيه عداوته وإغراؤه، وفي سورة طه: ﴿قال اهبطا منها﴾ وهذه التثنية لآدم وحواء كفريق سمي بعضاً، والشيطان وذريته فريق آخر، هو البعض الآخر، لأن العداوة بين الإنسان والشيطان لا بين المرء وزوجه، ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي مكان استقرار وحياة ﴿ومتاع إلى حين﴾ ومتاع تنتفعون به في معيشتكم إلى وقت معلوم، وزمن مقدر في علم الله تعالى.

٢٥ ـ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾.

هذا بيان للمجمل في الآية السابقة فالاستقرار هو الحياة مدة العمر المقدر، وفيها أي في الأرض تموتون وتدفنون، ومنها تخرجون بعد موت الجميع، وعندما يريد الخالق أن يبعثكم تخرجون، كما قال سبحانه في سورة طه: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[٤] وهي تشبه النشأة الأولى إذ قال[٥]: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإنسان خلق في الأرض وعاش في الأرض ولم يبرحها إلى سواها وأن الجنة التي وعد المتقون بها في الآخرة لا يدخلونها إلا في الآخرة، والله سبحانه وحده الذي يعلم مكانها وزمنها.

القـــراءة

﴿منها تخرجون﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر ﴿ومنها تخرجون﴾ بفتح التاء وقرأ الباقون ﴿تخرجون﴾ بالضم على ما لم يسم فاعله.

(١) راجع تفسير المنار ج ٨ ص ٣٥٠.
(٢) الآية: ١١٧.
(٣) فصلنا القول في معنى الهبوط في البقرة الآية: ٣٥.
(٤) الآية: ٥٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

بني آدم

لما ذكر سبحانه نعمته على بني آدم في ثبوته الدار والمستقر عقبه بذكر النعمة في الملابس والستر فقال:

٢٦ ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا﴾ الريش والرياش معناه المال والرزق، ويطلق على ما يستر الإنسان به جسمه ونفسه، من المال والرزق، وقال ابن قتيبة وهو ما ظهر من اللباس ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ اللباس المعنوي المجازي، أي اللباس الحقيقي الذي يتقي الله به، فيواري عورته التي انكشفت عند الله من الذنوب، وهو خير ستر من لباس الدنيا الذي يستر العورة عن الناس، ولأن يستر الإنسان نفسه من الله، خير له وأفضل قبل أن يستر نفسه عن الناس ﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ يعني الثياب والمال من آيات الله وصنعه لكي يذكروا فيعتبروا في صنعه حيث ذلّل لهم الأنعام لينتفعوا بها في ذلك.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر والكسائي: ﴿وريشاً ولباسَ التقوى﴾ بالنصب، عطفوا على الريش، وقرأ الباقون: بالرفع.

تحذير لبني آدم

ثم حذّر أولاد آدم من قبول وسوسة الشيطان فقال:

٢٧ ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ أي لا يخدعنكم ويضلنكم بغروره، ﴿كما﴾ سبق له ذلك بالوسوسة والتزيين لأبويكم ﴿أخرج أبويكم من الجنة﴾ التي كانا فيها أول خلقهما ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾ وهي ما خفي من بدنهما أو من غرائزهما بسبب الأكل ﴿إنه يراكم هو وقبيله﴾ أعوانه وذريته ﴿من حيث لا ترونهم﴾ لأنه يجري في ابن آدم مجرى الدم ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ سلطناهم عليهم موالين لهم أعواناً وقرناء.

٢٨ ـ ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

الاستفهام في الآية إنكاري، ومعنى الفاحشة يعم كل ذنب عظم قبحه، ولم يثبت عن الله سبحانه وتعالى ـ لا في كتبه ولا على لسان أنبيائه ـ أنه أمر أو أباح مثل ما يقول به الكفار، مما وجدوا آباءهم يفعلونه.

قال المفسرون إنّ الآية جاءت لترد على المشركين الذين كانوا يطوفون ببيت الله الحرام عرايا، والآية التالية توضح الارتباط رغم ما فيها من العموم.

لما بيّن سبحانه أنّه لا يأمر بالفحشاء، وهو اسم جامع للقبائح والسيئات عقّبه ببيان ما يأمر به من القسط وهو اسم جامع لجميع الخيرات، فقال:

٢٩ ـ ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾.

والمعنى: قل لهم جواباً على فعلهم وقولهم في الآية السابقة أمر ربي بالقسط الذي هو العدل، وعدم تجاوز الحد، بفعل الفحشاء التي تستقبحها النفوس، وتأباها العقول السليمة، والعبرة بالحق لا باتباع الضلال وتقليد الآباء، فكل إنسان مستقل بعقل يخالف غيره الآخر، وكل إنسان يستطيع أن يميز الحق من الباطل، ثم أمر سبحانه أن نتوجّه إليه بالعبادة وأن نجتهد في تكميل العبادات.

هداية الله للناس وإضلالهم

ثم بين أن جهلهم مركب لا بسيط فقال:

٣٠ ـ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

﴿فريقا هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ في الحياة الآخرة سوف يقسم الناس إلى فريقين: فريق المؤمنين المهتدين وفريق غير المؤمنين الضالين، وهداية الله للناس لا تكون بالجبر ولا بالقسر، وإنما تكون بإرسال الرسل وإنزال الكتب واستجابة الدعاء الخالص بالرحمة، والمغفرة عند التوبة، ألا ترى أن الأنبياء وعباد الله الصالحين المخلصين، لم يسلموا من وسوسة الشيطان، ولكن اختيارهم للخير وابتعادهم عن الشر جعلهم من المهتدين الذين اهتدوا بهدى الله الذي آمنوا به، فهدى الله للناس هو إنارة الطريق لهم ليسلكوه، والفريق الضال هو ذلك الفريق الذي اختار الشر وترك الطريق المستقيم الذي نوره الله له فسلك طريق الضلال والظلام، فاتخذ الشيطان ولياً له من دون الله، ولفرط ما هم فيه من خداع ولشدة ما أخذوا به ووقعوا تحت تأثيره من ماديات الحياة يحسبون ويظنون أنهم يسلكون الطريق الصحيح وما هم كذلك.

توجيهات في الملبس والمطعم

لما تقدم ذكر ما أنعم الله سبحانه على عباده من اللباس والرزق، أمرهم في إثرها بتناول الزينة والتستر والاقتصاد في المأكل والمشرب فقال:

٣١ - ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾.

﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ المراد الثياب الحسنة، والواجب في الصلاة ما يستر العورة، والأمر في الآية للندب ليظهر المسلمون في عبادتهم بمظهر حسن أمام الكفار، ولأن ذلك أجدر في عبادة الله خالق الإنسان ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ كلوا ما شئتم من الطيبات، ولا تسرفوا في اللباس والأكل، وهذا نهي يقتضي الوجوب والطاعة، والكف عن الإسراف وعدم فعله، بل عليكم الاعتدال في جميع الحالات لأن الخالق لجميع هذه النعم لا يحب المسرفين فيها، ويكفي لأن يرتدع المرء وأن يكون من الملتزمين لأوامر الله.

الإسراف

الإسراف تجاوز الحد في كل شيء وما نهى الله عنه إلّا لمصلحة الإنسان، وهذا الأمر إرشاد عال، فيه صلاح للبشر في دينهم ومعاشهم ومعادهم، لا يستغنون عنه في وقت من الأوقات، ولا في عصر من العصور، وكل ما بلغوه من العلم والطب لم يغنهم عنه شيئاً، فكلوا من الطيبات واشربوا من المياه وغيرها من الأشربة النافعة والمستلذات، ولا تسرفوا فيها، ولا تعتدوا بل الزموا الاعتدال، يرى علماء الطب أن الآية تبصِّر الناس بضرر الإكثار من الأكل والشراب، الكافي لعملياته الحيوية، فإن زادت عن ذلك زادت أعباء الجهاز الهضمي، وإرهاقه، وزادت فضلاته ومخلفاته التي قد تتراكم في الجسم وتلقي عبئاً على الأجهزة الأخرى المختلفة التي تساعد على ظهور أمراض كثيرة، ، مثل تصلّب الشرايين وارتفاع ضغط الدم والنقرس، والروماتيزم، وأمراض القلب، والرسول ﷺ يقول: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة آكلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه». ويقول الشاعر الحكيم: فإن الداء أكثر ما تـراه يكون من الطعام أو الشراب.

ثم بين أن الزينة والطيبات خلقت في الحياة الدنيا لأجل المؤمنين بالأصالة، وللكفرة بالتبعية، وفي الآخرة فإنها خالصة للمؤمنين قال:

٣٢ - ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿قل من حرم زينة الله﴾ فيه إنكار على الكفار بتحريم بعض الأمور من اللبس والأكل ﴿التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ وإضافة الزينة إلى الله يؤذن باستحسانها والمنة بها، وإخراجها للناس عبارة عن خلق موادها لهم وتيسيرها عليهم، وتعليمهم خواصها، وطرق صنعها وكيفية الاستفادة منها، بما أودعه الله فيهم من غرائز واستعداد فطري للإبداع ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي أن هذه الزينة يسرها الله ليتمتع بها المؤمنون والكفار، إلّا أنها خالصة للمؤمنين وحدهم يوم القيامة، لكونها من النعيم الذي وعد به المتقون ﴿كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي لديهم الاستعداد للتعلم وباطلاعهم عليها يعلمون مصالحهم ودينهم.

القـــراءة

﴿خالصة يوم القيامة﴾ قرأ نافع ﴿خالصة يوم القيامة﴾ بالرفع، وقرأ الباقون ﴿خالصة﴾ نصباً على الحال.

ثم بيّن سبحانه المحرمات فقال:

٣٣ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿قل إنما حرّم ربي الفواحش﴾ ما قبح فعله وقوله من القوة الشهوية ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ سرها وجهرها مواجهة أو خفية[1] و﴿الإثم﴾ المعاصي المتعلقة بالفاعل نفسه ﴿والبغي﴾ الاعتداء والاستطالة على الناس ﴿بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ السلطان الحجة البينة، لأن لها سلطة على العقل والقلب ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ حرم الله تعالى على عباده أن يقولوا عليه شيئاً بغير علم، والرأي والظن ليسا من العلم، قال تعالى في سورة النجم الآية (٢٨): ﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلّا الظن وإنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ وما شرع من اجتهاد الرأي في حديث معاذ وغيره، فهو خاص بالقضاء لأنه نص فيه، ويتوقف عليه ومثله سائر الأحكام الدنيوية من سياسة وإدارة، لا في أصول الدين والعبادة، وليس لحاكم ولا لمفت أن يسند رأيه الاجتهادي إلى الله تعالى فيقول: هذا رأي الشرع أو حكم الله ودينه، بل يقول هذا مبلغ اجتهادي[2].

لكل أمة أجل

٣٤ ـ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

﴿ولكل أمة أجل﴾ أمد ووقت مضروب لحياتها مثل أقوام نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبّع وغيرهم، وهذا النوع خاص بأقوام الرسل أولي الدعوة، وقد انتهى ببعثة خاتم النبيين محمد ﷺ حيث بعثه الله رحمة إذ قال[3]: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وفيما مضى من أنواع العذاب للأمم السابقة عبرة وعظة، وإنذاراً لقومه خاصة، الذين أخّر الله عنهم العذاب والهلاك رحمة بهم ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ أي وقت هلاكهم وفنائهم وهو في علم الله ﴿لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ الساعة في اللغة عبارة عن أقل مدة زمنية، والساعة الفلكية اصطلاح.

والمعنى: فإذا جاء وقت عقاب أمة لا تملك طلب تأخيره، كما لا تملك طلب تقديمه.

لما تقدم ذكر النعم الدنيوية عقبه بذكر النعم الدينية فقال:

---

(١) راجع تفسيرنا في الشورى الآية: ٣٧ الكبائر والفواحش والإثم والبغي.

(٢) راجع تفسير المنار ج ٨ ص ٣٩٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

٣٥ ـ ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ إما مركبة من (إن) الشرطية و(ما) التي تفيد تأكيد الشرط، والعموم.

والمعنى: أن يأتيكم من أبناء جنسكم البشر، يتلون عليكم آياتي لبيان ما أفرضه عليكم من الإيمان والأعمال الصالحة، وما أحرمه عليكم من الشرك والرذائل والأعمال المفسدة، فمن اتقى ما نهيت عنه وأصلح نفسه، بما أوجبت عليه، فلا خوف عليهم مما يترتب على التكذيب والعصيان من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون عند الجزاء، ولا في الدنيا كحزن غيرهم وندمهم على ما فرطوا.

٣٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

ثم ذكر سبحانه وعيد المكذبين فقال:

٣٧ ـ ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾.

﴿فمن أظلم﴾ أى لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذبا﴾ بنسبة الشرك والولد إليه، أو بتحريم الحلال وتحليل الحرام، أو القول بأنه أوحي إليه ﴿أو كذّب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ كتاب المقادير الذي كتب الله فيه نظام العالم كله، ومنها أعمال الأحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الأسباب، وما يترتب عليها من المسببات كالسعادة والشقاء والصحة والمرض ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ الرسل هنا هم ملك الموت وأعوانه ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون﴾ تعبدون ﴿من دون الله قالوا ضلوا عنا﴾ أي غابوا عنا فلا نرجو منهم منفعة واعترفوا بأنهم كانوا كافرين بدعائهم إياهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ عند الموت ﴿أنّهم كانوا كافرين﴾.

ثم شرح بقية أحوال الكفار فقال:

٣٨ ـ ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت﴾ مضت إلى العذاب ﴿من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت

أمة لعنت أختها﴾ هذه أخوة الدين والملة لا أخوة النسب، يلعنون من كان قبلهم، وإنما تلاعنوا لأن بعضهم ضلّ باتباع بعض، ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾ تلاحقوا وتتابعوا واجتمعوا ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ الأتباع للمتبوعين ﴿ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ والمعنى: يخاطب الله الكفار الذين افتروا على الله الكذب واستكبروا في الأرض فيقول لهم ادخلوا في جملة الأمم الذين مضوا إلى العذاب يوم القيامة، من قبلكم من الجن والإنس وصار كل فريق، يلقي اللوم على الفريق الذي تسبب في إضلاله وقاده إلى هذا الموقف المشين المهين، الذي لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر، أي لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق من العذاب.

القــــراءة

﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ قرأ أبو بكر ﴿قال لكل ضعف ولكن لا يعلمون﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء.

٣٩ ـ ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾.

﴿وقالت أولاهم لأخراهم﴾ قال المتبوعون للأتباع، والفضل المراد ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ في الكفر أي نحن وأنتم فيه سواء ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ثم عاد الكلام إلى الوعيد فقال سبحانه:

٤٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا تقبل أعمالهم ولا ترفع إلى الله عز وجل كما ترفع أعمال الصالحين، كما قال: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ أي لا يصعد إلى الله من عملهم شيء ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾.

والمعنى: أنهم لا يدخلون الجنة، كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة، مثل يقال لاستحالة وقوع ما يتصور وقوعه، ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾.

القــــراءة

قرأ أبو عمرو ﴿لا تفتح﴾ بالتاء والتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي بالياء والتخفيف ﴿لا يفتح﴾ وقرأ الباقون بالتاء والتشديد.

لما بين أنهم لا يدخلون الجنة، ذكر أنهم يدخلون النار فقال:

٤١ ـ ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

﴿المهاد﴾ هو الفراش، والغواشي هي الأغطية، ومفردها غاشية، والمراد أن جهنم مطبقة عليهم، ومحيطة بهم من كل جانب.

يسر الدين

لما تقدم وعيد الكفار بالخلود في النيران، أتبع ذلك بالوعد للمؤمنين بالخلود في الجنان فقال:

٤٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ طاقتها من العمل ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ من سنة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد، والثواب والعقاب يبدأ بأحدهما لمناسبة السياق قبله، ويقفي عليه بالآخر، ولهذا عطف ببيان جزاء السعداء على بيان عقاب الأشقياء في هذه الآية على ما قبلها. والمعنى: لا نفرض على القادر المكلف إلا ما يكون في وسعه عمله، وهو ما لا يضيق به ذرعه، ولا يشق عليه أداؤه ومنها ما ورد في آيات الصيام، وآية الوضوء في عدم الحرج من سورتي البقرة والمائدة، فهذه نصوص قاطعة في يسر الدين وسهولته، وهذه الآية حجة على المتوسعين في الاستنباط والاجتهاد، في أحكام العبادات التي جعلوها حملاً ثقيلاً يعسر تعلمه، ولا يدخل في وسع أحد عمله إلا المتنطعين في العبادة وما هم بقادرين عليه، حتى أن أحكام الطهارة وحدها لا يمكن تلقي ما كتبوه فيها إلا في عدة شهور، ولقد قرأت في بداية تعليمي في أحد الكتب المقررة أن لتكبيرة الإحرام اثني عشر شرطاً، وانظر قول الرسول ﷺ في الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[١] وفي الحج «خذوا عني مناسككم»[٢].

ثم وصف أخلاق أهل الجنة فقال:

٤٣ ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ الحسد والعداوة، والمقصود بهؤلاء هم الصالحون في الدنيا والمؤمنون جميعاً في الآخرة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تحت قصورهم ﴿وقالوا﴾ بعد الاستقرار في منازلهم ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ صيرنا إلى هذا العمل الذي هذا جزاؤه ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ وما كان من شأننا ولا مقتضى بديهتنا أو فكرتنا أن نهتدي إليه بأنفسنا لولا أن الله شرح صدورنا بهدايته، وتوفيقه لاتباع رسله ومعونته، علاوة على فطرته التي فطرنا عليها ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ هذا مصداق ما وعدنا

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.

من الجزاء على التوحيد والعمل الصالح، وهو قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانا ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أورثتموها بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الصالحات، فعلامة البعد في اسم الإشارة للبعد المعنوي، إذ أن نداء الله لهم بعد دخولها والتبوء من غرف قصورها، والأقرب أن تكون الإشارة زمنية مراداً بها الجنة الموصوفة على ألسنة الرسل في الدنيا، وقد بعد عهد ذكرها والوعد بها.

تكرر في القرآن التعبير بالإرث للمؤمنين للجنة، والمعنى: أنه ما من أحد إلا له مكان في الجنة والنار، يسعى إليه بعمله ورحمة ربه.

القــــراءة

﴿وما كنا لنهتدي﴾ قرأ ابن عامر ﴿ما كنا لنهتدي﴾ بغير واو وهي كذلك في مصاحف أهل الشام، وقرأ الباقون بالواو. قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿أورتموها﴾ مدغمة من غير ثاء، وقرأ الباقون ﴿أورثتموها﴾ غير مدغمة.

ثم ذكر سبحانه ما يجري بين أهل الجنة والنار بعد استقرارهم في الدارين فقال:

٤٤ ـ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾ من العذاب وفيه تعيير ﴿قالوا نعم فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ أي نادى مناد بينهم.

القــــراءة

﴿قالوا نعم فأذن مؤذن﴾ قرأ الكسائي ﴿قالوا نعِم﴾ بكسر العين، قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو، والقواس عن ابن كثير، ﴿أن لعنة الله﴾ ﴿أنْ﴾ خفيفة ﴿لعنةُ الله﴾ رفع، وقرأ الباقون ﴿أنَّ﴾ بالتشديد ﴿لعنةَ﴾ نصب.

٤٥ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾.

﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي أذن المؤذن على الذين كفروا وصدوا الناس عن سبيل الله، وهدى الإسلام، ﴿ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾ عوج الطريق زيغه، وعوج الدين والخلق في الإنسان فساده، وميله، وأما بغي الظالمين، أن تكون سبيل الله عوجا غير مستوية على الحق كما أنزل القرآن وما أتى به الرسول، فأهل الإلحاد والشرك لا يريدون التوحيد، وأهل الزندقة والنفاق يبغونها عوجا بالتشكيك والتأويل، لقصد البطلان والضلال، وعدم الثقة، وأهل البدع والمناكر يبغونها عوجا بما يزيدون في الدين من المحدثات التي لا أصل لها، وأهل الجور في الأحكام يبغونها عوجا بترك التحري عما شرع الله من التزام الحق وإقامة الميزان بالنصوص والمساواة.

ثم ذكر سبحانه الفريقين في الجزاء فقال:

٤٦ - ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾.

﴿وبينهما حجاب﴾ أي بين أصحاب النار وأصحاب الجنة حاجز وهو السور الذي ذكره الله في سورة الحديد ﴿فضرب بينهم بسور له باب﴾[1] وسمي هذا السور بالأعراف لارتفاعه، والأعراف عند العرب كل ما ارتفع من الأرض وعلا، ومنه عرف الديك وعرف الفرس ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾ لا شك أنهم صالحون وربما كانوا أنبياء لجلوسهم على هذه الدرجة العالية، والمستوى الرفيع في القبول عند الله، ولكونهم يعرفون كلاً من النوعين أصحاب الجنة وأصحاب النار بعلامتهم التي بها يميزون، ومن الجائز أن جلوسهم في هذه المكانة مؤقتاً قبل دخولهم الجنة ﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ في دخولها.

والمعنى: أن أصحاب الأعراف لكونهم يعرفون كلا الفريقين حق المعرفة، فهم ينادون الطامعين في دخول الجنة ممن كتب الله لهم دخولها فيقولون لهم قبل دخولها، سلام عليكم أي لا تخافوا فأنتم من أهل الجنة، حيث كشف الله لهم بالعلامات التي رأوها فيهم، ولا شك أن وجودهم في هذه المنزلة العالية لأجل هذه الشهادة لأصحاب الجنة، وهذه من خصائص الملائكة أو الأنبياء والرسل والدعاة الصالحين.

٤٧ - ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

والمعنى: أن أصحاب الأعراف إذا نظروا جهة أهل النار وحيالهم، تعوذوا منهم ومن حالهم، وكونهم ليسوا منهم فيقولون ربنا لا تجعلنا نحشر معهم وإن كانوا في الدنيا معنا لأنهم ظالمون.

ثم بين سبحانه خطاب أصحاب الأعراف لأصحاب النار فقال:

٤٨ - ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا﴾ من أصحاب النار ﴿يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم﴾ في الدنيا مالكم ولا جمعكم حيث جاءتكم النذر والآيات ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ أي الذي تتعظون عن الإيمان به.

٤٩ - ﴿ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾؟ يواصل أهل الأعراف تهكمهم على أصحاب النار الذين يعرفونهم بسمات خاصة، فيقولون لهم مشيرين إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزىء بهم أهل النار، أهؤلاء الذين أقسمتم في الدنيا أنهم مبعدون من رحمة الله، احتقارا لهم وإعجاباً بأنفسكم؟،

(١) الآية: ١٣.

فانظـروا إليهـم فإنهم في الجنة اليوم وأنتم في النار ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ هذا كلام مستأنف موجه إلى الضعفاء والمؤمنين، إمّا من الله عز وجل أو من الملائكة بأمر الله، وهذه صفة أولياء الله الصالحين ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[1].

من مناظر يوم القيامة

ثم ذكر سبحانه كلام أهل النار وما أظهروه من الافتقار بدلاً مما كانوا عليه من الاستكبار فقال:

٥٠ ـ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ والمعنى: أن أهل النار يستجدون أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام، وقدموا طلب الماء لأن من كان في سموم وجحيم يكون شعوره بالحاجة إلى الماء البارد أشدّ من شعوره بالحاجة إلى الطعام الطيب حيث ينادي الرجل أخاه فيقول يا أخي أغثني فإني قد احترقت فأفض عليّ من الماء فيقال أجبه، فيقول إن الله حرمهما على الكافرين.

ثم وصف هؤلاء الكافرين بأنهم:

٥١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾.

﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا﴾ المستهزؤون الذين تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم، واللهو واللعب بالدين عام يشمل كل أنواعه، مما زيّنه الشيطان لأوليائه، في الأكل والشرب والقول والفعل ﴿وغرّتهم الحياة الدنيا﴾ بزينتها ومباهجها، فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها حراماً كانت أم حلالاً، لأنها مطلوبة عندهم لذاتها ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ والمراد نعاملهم يوم الحشر معاملة المنسي، الذي لا يفتقده أحد كما جعلوا هذا اليوم منسياً في الدنيا.

الكفار وما يلاقونه وأمانيهم

لما ذكر حال الفريقين بين سبحانه أنه قد آتاهم الكتاب والحجة فقال:

٥٢ ـ ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي القرآن بيناه بإيضاح الحق من

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٧.

الباطل ووضحنا فيه الحلال من الحرام، والوعد والوعيد، وذكرنا فيه القصص للعبرة والأخبار للذكرى.

ثم لما بيّن إزاحة العلة بسبب إنزال الكتاب المفصل الموجب للهداية والرحمة بين بعده حال من كذّب به فقال:

٥٣ ـ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ والمعنى: هل يتبعون ما جاء فيه إلا بعد أن يروا بأعينهم ما يؤول إليه وعد الله ووعيده، وأن وعد الله ووعيده حق يوم يتحقق، وذلك يوم القيامة في الآخرة يكون العمل بما جاء في كتاب الله قد انتهى، وعندئذ يكون حال الذين نسوا لقاء الله وأنكروا اليوم الآخر في دنياهم غير حال الذي يقر ويعترف برسالة الله وأنها حق لا مرية فيه ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ وفوات الوقت عليهم حينئذ يجعلهم يتساءلون في صورة التمني، أهناك من شفيع يشفع لنا؟ أم سترتد عملية الزمن إلى الوراء مرة أخرى، وتعود الدنيا مجال تجربة واختبار للعمل الإنساني من جديد، وعندئذ تكون الفرصة مواتية لنوع آخر من العمل غير العمل الذي كنا نباشره فيما مضى؟ ﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ وفي هذا اليوم يكونون قد خسروا فعلاً أنفسهم بمعارضتهم لآيات الله وإنكار البعث والإيمان بالله، فلا يملكون اليوم دفع الخسران عنهم نتيجة عملهم السابق، وينكشف ساعتئذ ما كانوا يباشرونه من كذب على أنفسهم وعلى الله وعلى رسوله وعلى الناس.

لما ذكر سبحانه الكفار وعبادتهم غير الله سبحانه، احتجّ عليهم بمقدوراته، ومصنوعاته، ودلّهم بذلك على أنه لا معبود سواه، فقال مخاطباً لجميع الخلق:

٥٤ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ أي ستة مراحل زمنية ومقدار كل يوم منها ألف سنة، وعلينا أن نؤمن به دون أن نبحث في تفاصيله وكيفية خلقه ولو كان لنا مصلحة فيه لبينه الله لنا ﴿ثم استوى على العرش﴾ الاستواء على العرش معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، ولو كان يتعلق بالناس مصلحة في معرفة كيف استوى وماهية العرش الذي استوى لبينه سبحانه فدل ذلك على الكف عن الخوض فيما وراء ذلك ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا﴾ أي أن الليل يأتي على النهار فيغطيه، ولم يقل يغشي النهار الليل، لأن في الكلام دليلاً عليه وقد قال في موضع آخر ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ ومن المعلوم أن الليل والنهار نتيجة لدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، فالجزء الذي تضيئه

الشمس يكون نهاراً، والجزء الذي لا تصله الشمس يكون ليلاً، والطلب الحثيث هو السريع ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ المذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب المدبر لهن.

أمر الله وإرادته

إنّ الله سبحانه له الخلق والأمر، وأمره نوعان، أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه، متعلقة بخلقه، وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحبّه وبما يكرهه كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس، وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار، والأعيان والأفعال المسخوطة له، وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعاً، فهو محبوب للرب واقع بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني، ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة، والمحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، فالأمر التشريعي قد يعصى، قال الله تعالى في سورة الزمر الآية (٧) ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وقال في سورة البقرة الآية (٢٠٥) ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

القــــراءة

﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿يغشّي الليل النهار﴾ بالتشديد وقرأ الباقون: بالتخفيف، قرأ ابن عامر ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات﴾ بالرفع وقرأ الباقون: بالنصب.

من آداب الدعاء

ثم أمر سبحانه بعد ذكر دلائل توحيده بدعائه على وجه الخشوع كافة عبيده فقال:

٥٥ ـ ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ التضرع التذلل والخضوع، والخفية خلاف العلانية ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ في كل شيء، ومنه المتجاوز في الحد ممن يدعون على غيرهم بالشر كالخزي واللعنة، وهذا ليس بدعاء بل هو سب ولهذا نهى الله عنه. ثم نهى عن مجامع المفاسد والمضار فقال:

٥٦ ـ ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ لا تفسدوا بالكفر والمعاصي بعد إصلاحها بالإيمان، والصلاح بهداية الرسل ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾.

من أدلة الحق

ثم إنّه سبحانه لما ذكر دلائل الألوهية وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي أتبعه ذكر الدلائل والأحوال لهذا العالم ومن جملتها أحوال الرياح فقال:

٥٧ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا﴾ حملت سحابا، وسمي بذلك لانسحابه في الهواء وهو الماء الذي ينزل مطراً ﴿سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ هذا التشبيه يزيل استبعادكم للبعث إذا تذكرتم خروج النبات الحي من الأرض الميتة، إذ لا فارق بين حياة النبات وحياة الحيوان، فكل منهما خاضع لقدرة الله القادر على كل شيء، وانظر تفسيرنا في الأنعام لآية فالق الإصباح، ففيها شرح لمخرج الميت من الحي الآية (٩٦).

القــــراءة

﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿نُشُرا بين﴾ بضم النون والشين، وقرأ الباقون: ﴿نُشْرا﴾ بضم النون وسكون الشين، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿نَشْرا﴾ بفتح النون وسكون الشين، وقرأ عاصم: ﴿بُشْرا﴾ بالباء وإسكان الشين. ثم ضرب مثلاً في الأرض الزراعية للمؤمن والكافر والبر والفاجر فقال:

٥٨ ـ ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾.

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ أي والبلد الذي خبثت أرضه لا يخرج نباته إلا نكدا، وأصل النكد هو العسر الممتنع عن إعطاء الخير بخلا.

والمعنى: أن الأرض منها الطيبة التربة التي يخرج نباتها بسهولة وينمو بسرعة، ويكون كثير الغلة طيب الثمرة، ومنها الخبيثة التربة كالحجرية والرملية والسبخة التي لا يخرج نباتها على قلته وخبثه إلا بعسر وصعوبة وهو مثل للمؤمن والكافر، والبر والفاجر ﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ النعمة.

قصة نوح عليه السلام

لما بين سبحانه الأدلة على وحدانيته، ذكر بعدها حال من عاند وكذب رسله تسلية لنبينا محمد ﷺ وتثبيتا

له على احتمال الأذى من قومه، وتحذيراً لهم عن الاقتداء بأولئك فينزل بهم ما نزل بهم، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام فقال:

٥٩ ـ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ نوح هو أول رسول إلى قومه المشركين حسب ما يظهر ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾.

القـــراءة

﴿مالكم من إله غيره﴾ قرأ الكسائي: ﴿مالكم من إله غيره﴾ بالخفض، وقرأ الباقون: ﴿مالكم من إله غيره﴾ بالرفع.

٦٠ ـ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي على نهج خلاف نهج دين آلهتنا، حيث ذهبت في طريق غير طريقهم وفي اعتقادهم أنه الصواب والحق ومعنى الرؤية رؤية القلب.

٦١ ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾ جهالة عن الحق وضياع عن النهج الصحيح، والضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بي شيء من الضلال ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أهديكم باتباعي إلى ما يوصلكم إلى السعادة في دنياكم وأخراكم.

٦٢ ـ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ آيات ربي وأحكامه المتعددة ﴿وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

القـــراءة

﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ قرأ أبو عمرو ﴿أبلغكم رسالات﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون ﴿أبلّغكم﴾ بالتشديد.

٦٣ ـ ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل أكذبتم وعجبتم، والمعنى: أترمونني بالضلالة والبعد عن الحق؟ وتعجبون أن يجيء إليكم تذكير من الله خالقكم، على لسان رجل جاء إليكم لينذركم بالعقاب إن كذبتم، وليدعوكم إلى الهداية وإصلاح القلوب، وتجنب غضب الله تعالى رجاء أن تكونوا في رحمة الله في

الدنيا والآخرة، فلا يصح أن تعجبوا وتكذبوا مع قيام البينات المثبتة للرسالة، حيث عبر عنها الله بقوله ﴿رسالات ربي﴾ أي آياته.

٦٤ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾.

﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ الفلك السفينة، فأنجيناه من الغرق بالطوفان والذين معه، ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ والقصة مفصلة في سورة هود ونوح، قيل نوح وأولاده الثلاثة، سام وحام ويافث وأزواجهم، والفلك الذي صنعه نوح ومن آمن معه ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بالطوفان ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ عميت قلوبهم عن معرفة الله غير مستبصرين، والفرق بين العمى والعامي، أن العمى يدل على عمى ثابت والعامي على عمى حادث.

قصة هود عليه السلام

٦٥ ـ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أخاهم ليس من النسب بل في الجنس تقول العرب في ذلك يا أخا العرب، وإنما قيل أخاهم لأنه بشر مثلهم ومن قومهم، وعاد قبيلة من ولد سام بن نوح كانت تسكن الأحقاف فيما بين مسقط وحضرموت باليمن الجنوبي، وكانت لهم أصنام يعبدونها، وكانوا ذوي قوة وشدة ﴿ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾.

٦٦ ـ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾.

﴿قال الملأ﴾ الأشراف والسادة ﴿الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ السفاهة الجهل وهي خفة الحلم والرأي ﴿وإنا لنظنّك من الكاذبين﴾ فكفروا به بالظن، لا بالعلم والتيقن وهذا تسرع وجحود.

٦٧ ـ ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكنّي رسول من رب العالمين﴾ هذا موضوع أدب وخلق في حسن المخاطبة، فإنه دفع ما سبوه به من السفاهة بنفيه فقط دون أن يتبعه بأذى لهم.

٦٨ ـ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾.

﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ أمين على الرسالة التي هي الآية والمعجزات، وكنت فيكم أميناً قبل اليوم، وعرفت بالنصح والأمانة وعدم الكذب، فما حقي أن أتهم منكم.

٦٩ ـ ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر﴾ وعظ ﴿من ربكم على رجلٍ منكم﴾ تعرفونه بالصدق ﴿لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ ذكّرهم بالنعمة حيث أهلكَ من كان قبلهم وأسكنهم مساكنهم، فاذكروا استخلافكم ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي طولا وقوة ﴿فاذكروا آلاء الله لعلّكم تفلحون﴾ وآلاء الله نعمه وعطاياه، وواحد الآلاء ﴿إلَى﴾ وهو مفعول به وليس بظرف، أي اذكروا استخلافكم.

٧٠ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة ﴿ونذر ما كان يعبد آباؤنا فآتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي آتنا من نزول العذاب إن كنت صادقاً في أن العذاب نازل بنا وفي نبوءتك وإرسالك إلينا.

٧١ ـ ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾.

﴿قال قد وقع﴾ وجب ﴿عليكم من ربكم رجس﴾ عذاب ﴿وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ يعني الأصنام، حيث سموها آلهة ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ حجة ودليل ﴿فانتظروا﴾ نزول العذاب ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ الذي يأتيكم من العذاب في تكذيبكم إياي.

٧٢ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿فأنجيناه والذين معه﴾ من المؤمنين ﴿برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ خرجت سحابة من واد لهم يقال له المغيث فاستبشروا بها بعد أن حبس عنهم المطر مدة طويلة، وقالوا هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

قصة ثمود والناقة

٧٣ ـ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا

تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ سميت ثمود لقلة مائها: الثمد: الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى وهي عاد الثانية. وهي بالقرب من تبوك. ﴿قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ معجزة على صدق نبيكم ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ علامة تدل على قدرة الله وإنما قال لكم لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت لهم ولغيرهم ممن يأتي بعدهم، وكونها آية أنها خرجت من صخرة، ولكونهم عاينوها وليس الخبر كالعيان وأضيفت لاسم الله تعظيماً لشأنها، ولكونها جاءت آية خاصة مكونة من غير فحل. ويروى أن عاداً لما أهْلِكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض وسميت عاداً الثانية، وكثروا وعمروا أعماراً طوالاً فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش فعتوا عن أمر الله، وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسبا، فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلا القليل منهم المستضعفون فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية، فقال أية آية تريدون؟ قالوا أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة، فأخذ عليهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن قالوا: نعم، فصلى ودعا فتمخضت الصخرة فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا، فآمن به رهط من قومه فمكثت الناقة ترعى الكلأ والعشب وتشرب الماء مع ولدها، فكانت تشرب يوماً بعد يوم ﴿فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾.

٧٤ - ﴿ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ فقال ابن عباس: اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف ونقبوا في الجبال للشتاء وقيل إنهم ملّوا من إعادة البنيان فتفننوا في حفر الجبال واتخاذ المنازل فيها.

٧٥ - ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿قال الملأ﴾ الأشراف والسادة من قومه ﴿الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسل﴾ هذا استفهام إنكار ﴿من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾.

القـــراءة

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾. قرأ ابن عامر في قصة صالح: ﴿وقال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ بزيادة واو، وقرأ الباقون: بغير الواو.

٧٦ - ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

٧٧ ـ ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

﴿فعقروا الناقة﴾ أي قتلوها قال ابن قتيبة: والعقر يكون بمعنى القتل، ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ جاوزوا المقدار في الكفر ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ من العذاب بسبب قتل الناقة والكفر إذا كنت صادقاً بأنك مرسل من الله.

٧٨ ـ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ الرجفة الزلزلة الشديدة، واضطربوا لها في دارهم أي في بلادهم ومدنهم وفي مساكنهم جاثمين هامدين، لا يتحركون موتى يقال: الناس جُثم أي قعود لا حراك بهم.

وقال ابن قتيبة: الجثوم البروك على الركب. وقال غيره: كأنهم أصبحوا موتى على هذه الحال أي أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم، قال المفسرون: ﴿جاثمين﴾ بعضهم على بعض، أي أنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب.

٧٩ ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ الظاهر أنه شاهد ما جرى لقومه، وأنه تولى بعدما أبصرهم جاثمين، تولى مغتماً متحسراً يتحزن لهم ويقول مخاطباً الأجداث يا قوم لقد بذلت فيكم وُسعي ولم آل جهدي في إبلاغكم النصيحة ولكن ظهر أنكم لا تحبون الناصحين.

قصة لوط عليه السلام

٨٠ ـ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ أي أدبار الرجال يعني إتيان واستغناء الرجال بالرجال ﴿ما سبقكم بها من أحد﴾ أي أن قوم لوط هم أول من مارس هذه الفعلة الشنيعة ﴿من العالمين﴾ خير ما يعرف به لوط عليه السلام أنه ابن أخي إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، وأنه ولد في أشور الكلدانين، وهي في طرف الجانب الشرقي من جنوب العراق الغربي من ولاية البصرة، وكانت تلك البقعة تسمى أرض بابل، وأنه بعد موت والده سافر مع عمه إبراهيم إلى ما بين النهرين الذي كان يسمى الجزيرة وهنالك كانت مملكة آشور ثم إلى أرض كنعان من سورية، ثم أسكنه إبراهيم في شرق الأردن باختياره لها لجودة مراعيها، وكان في ذلك المكان المسمى السديم

بقرب البحر الميت الذي سمي ببحر لوط، القرى والمدن الخمس، وسكن لوط في عاصمتها التي كانت تعمل الخبائث، ولا يعلم أحد الآن أين كانت تلك القرى من جوار بحر لوط إذ لم يوجد من الآثار ما يدل عليها.

٨١ - ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾.

﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ هذا استفهام إنكار والشهوة معناها الاشتهاء لا حامل لكم عليه، إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمة، ولا داعي لهم من جهة العقل البتة، كطلب للنسل ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء، حتى في المنكرات فمن ثم أسرفوا في بعض قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد من البشر، بل إنهم قوم عادون وذلك لأنه لم يسبقهم أحد إلى هذا الفعل وهذه المعصية، كما لم يسبقهم في ذلك حتى البهائم من الحيوانات.

القـــراءة

قرأ نافع وحفص: ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ بكسر الألف على الخبر، وقرأ أبو عمرو: ﴿أإينكم﴾ بهمز ثم بمد بعد الهمز، قرأ ابن كثير: ﴿أينكم﴾ بهمزة واحدة غير مطولة، قرأ ابن عامر في رواية هشام: ﴿أائنكم﴾ بهمزتين بينهما مد قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: ﴿أئنكم﴾ بهمزتين.

عقوبة من عمل عمل قوم لوط

نرجح أن عقوبة اللواط هي التعزير بحسب ما يراه أولو الأمر من الظروف التي ارتكبت فيها الجريمة بالنسبة للسن والإكراه وغير ذلك مما يكشف عنه التحقيق ونرى أن قول الله في آية النساء ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما﴾، المترتبة بعد الآية التي قبلها ﴿واللاتي يأتين الفاحشة﴾ نص في عقوبة اللواط خصوصاً بعد أن اختلف السلف في تحديد الحد الذي يطبق على عقوبة اللواطي واختار ذلك كثير من العلماء المحققين.

٨٢ - ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

﴿وما كان جواب قومه إلّا أن قالوا أخرجوهم﴾ أي لوطاً وأتباعه ﴿من قريتكم إنّهم أناس يتطهرون﴾ وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار والنصيحة شيئاً مما يدخل في باب الاحتجاج ولا الاعتذار، إلّا التذرع بأنهم أناس يتطهرون ويتنزّهون عن مشاركتهم في رجسهم، فلا سبيل إلى معاشرتهم ولا مساكنتهم مع هذه المباينة، فإن الناقص يستثقل معاشرة الكامل الذي يحتقره.

وفي سورة العنكبوت(١) اختلف فيها جواب قومه ﴿فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن

---

(١) الآية: ٣٩.

كنت من الصادقين﴾ والآيتان محمولتان على أنّ الوقوع حصل في وقتين، أنه كان ينهاهم كثيراً فكان يسمع في كل وقت ومن كل جماعة منهم كلام من حضر منهم، وقصص القرآن لم يقصد منها سرد حوادث التاريخ، بل العبرة والموعظة، فيذكر في القصة الواحدة من المعاني والمواعظ ما لا يذكر في الأخرى، ولذلك جاز التقديم والتأخير في بعض وقائع حوادثها.

٨٣ ـ ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

﴿فأنجيناه وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الباقين في العذاب، الماضين في الهلاك، لأنها كانت كافرة والتذكير في ﴿الغابرين﴾ لأن صفة النساء مع صفة الرجال تذكر إذا أشرك بينهما.

٨٤ ـ ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

وأمطر الله عليهم العذاب حجارة رجموا بها.

قصة شعيب

٨٥ ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ شعيب هو من أنبياء العرب المنحدرين من ذرية إبراهيم الخليل عليه السلام، ومدين ماء كان عليه قوم شعيب، ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام لصلبه، والمعنى: أرسلنا إلى ولد مدين، فعلى هذا هو اسم قبيلة، ويكون اسماً للمدينة، والمعنى: إلى أهل مدين، والمدْينيون عرب أرضهم كانت تمتد من خليج العقبة إلى طور سيناء ﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ لم تذكر آية شعيب عليه السلام وقد قال الرسول ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» رواه الشيخان من حديث أبي هريرة، والبينة هي كل ما يتبين به الحق من الباطل فهي تشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية، والمعروف من الأمم السابقة أنها لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات، قال تعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ البخس النقص والقلة ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل وإرسال الرسل.

٨٦ ـ ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ بكل طريق ﴿توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا﴾ توعدون من آمن بشعيب بالشر، وتخوفونهم بالعذاب والقتل فإن قيل كيف أفرد الفعل وأخلاه من المفعول بقوله ﴿توعدون﴾ فهلا قال: ﴿توعدون بكذا﴾ فالجواب أن العرب إذا أخلت هذا الفعل من المفعول لم يدل إلا على الشر، فيكون مثل أوعدت فلانا، قال الفراء: «يقولون وعدته خيراً وأوعدته شراً» فإذا جاؤوا بالباء قالوا وعدته بالشر ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ بالعدد والمال، والغنى والخير ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الشعوب المجاورة لكم، كقوم لوط، وقوم صالح، وغيرهم وكيف أهلكهم الله تعالى بفسادهم، فيجب أن يكون لكم ولمن بعدكم عبرة في ذلك.

٨٧ - ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾.

أي إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلني الله به إليكم من التوحيد والأحكام المقررة، وبعضكم لم يؤمن به بل أصروا على شركهم، وإفسادهم، فستكون عاقبتكم كعاقبة من قبلكم فاصبروا، حتى يحكم الله بيننا وبينكم بالفعل، وهو خير الحاكمين، لأنه يحكم بالحق والعدل.

ثم أخبر سبحانه عما دار بينه وبين قومه فقال:

٨٨ - ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾.

﴿قال الملأ﴾ السادة الأشراف ﴿الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ يعني ديننا وهو الشرك، والكلام في لتعودن معناه، معنى إلاّ أو معنى حتى، ومثله ﴿والله لأضربنك أو تقرّ لي، ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ قال شعيب عن نفسه وقومه الذين آمنوا معه، أو تجبروننا على ملتكم إن كرهناها والألف للاستفهام، ومن المعلوم أن شعيباً لم يكن كافراً بالابتداء حتى يطلب منه أن يعود إلى الكفر، ولكنه يتكلم ذلك لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافراً من قومه ثم آمن، خاطبوا شعيباً بخطاب أتباعه فردّ عليهم من جنس خطابهم.

٨٩ - ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾.

﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم﴾ وذلك أنَّ القوم كانوا يدعون أنَّ الله أمرهم بما هو عليه، فلذلك سموه ملة ﴿بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي في الملّة ﴿إلاّ أن يشاء الله ربنا﴾ إلا أن

يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها، ﴿وسع ربنا كل شيء علما﴾ قال ابن عباس يعلم ما يكون قبل أن يكون ﴿على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي توكلنا على الله فيما توعدتمونا به، وفي حراستنا عن الضلال وافتح بيننا، أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وينكشف ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ الناصرين والحاكمين.

ثم ذكر الله سبحانه ما قالت الجماعة الكافرة الجاحدة بآيات الله فقال:

٩٠ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أشرافهم الذين يثبطونهم عن الإيمان، أي قال بعضهم لبعض ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾ اللام لام قسم، وذلك الخسران لاستبدالهم الضلالة بالهدى، كقوله تعالى:(١) ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾ أو تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف في الوزن؛ لأنه كان ينهاهم عنها ويحملهم على الإيفاء والتسوية، وإنكم لخاسرون هو جواب الشرط، والقسم سدّ مسدّ الجوابين.

٩١ ـ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ باركين على الركب ميّتين، تقدم تفسير جاثمين في الآية (٧٨) الأعراف.

٩٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ ويغنوا فيها: أي كأن لم يقيموا وينزلوا ويعيشوا ويتنعّموا ويطربوا بدارهم، فكل هذه المعاني يشملها لفظ يغنوا ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ كرر لفظ الذين كذبوا شعيباً للمبالغة في ذمهم، كما تقول فلان الذي أخذ أموالنا، فلان الذي شتم أهلنا، والذين كذبوا شعيباً مبتدأ وخبر، وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص كأنه قيل: الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا، كأن يقيموا في دارهم لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، والذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه فأتباعه هم الرابحون.

٩٣ ـ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

﴿فتولى عنهم﴾ أعرض وانصرف ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ فلم تؤمنوا ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ الأسى الحزن الشديد، أصاب شعيباً على قومه حزن شديد، ثم عاتب نفسه فقال كيف آسى على قوم كافرين ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم، واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد لقد أعذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حلّ بكم، فلم تسمعوا قولي ولم تصدقوني فكيف آسى عليكم؟.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦.

ثم ذكر سبحانه بعد ما قص من قصص الأنبياء، وتكذيب أممهم لهم وما نزل بهم من العذاب، سنته في أمثالهم تسلية لنبينا ﷺ فقال:

٩٤ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾.

﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ يقال لكل مدينة قرية لاجتماع الناس فيها ﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء﴾ شدة الفقر ﴿والضراء﴾ المرض ﴿لعلّهم يضرعون﴾ ويتذللون، ويحطون أردية الكبر والعزة، ومقصود الآية، إعلام النبي محمد ﷺ وأمته من بعده بسنة الله في المكذبين، وتهديد قريش وكل متكبر.

ثم بين أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد فقال:

٩٥ ـ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا﴾ الكلام على أهل القرى أي ثم أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة أعطيناهم الرخاء والصحة والسعة كقوله تعالى: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات﴾[1] حتى عفوا كثروا وغدوا في أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النبات، وعفا الشجر والوبر، من العافية، ومنه قول الرسول ﷺ: «وأعفوا اللحى» ﴿قالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء﴾ هذا قول الخلف يحكون عن سلفهم، يعني أن ما أصاب آباءهم من قبل، أن هذا دأب الدهر وليس بعقوبة من الله على عصيان الرسل، أو قولهم هذا نتيجة لبطرهم النعمة التي تركهم الله فيها حيث بدل لهم مكان السيئة الحسنة ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي فأخذ الله أهل القرى بالعذاب فجأة من غير شعور منهم حتى أهلكهم.

ثم بيّن سبحانه أن كل من أهلكه من الأمم المتقدم ذكرهم، إنما أتوا في ذلك من قبل نفوسهم فقال:

٩٦ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿ولو أنّ أهل القرى﴾ اللام في القرى إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ كأنّه قال ولو أن أهل تلك القرى الذين كذّبوا وأهلكوا ﴿آمنوا﴾ بدل كفرهم ﴿واتقوا﴾ المعاصي مكان ارتكابها ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ لآتيناهم الخير من كل جهة، الغيث من السماء، والنبات من الأرض.

ومعنى: فتح البركات عليهم تيسيرها عليهم كما يسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها ﴿ولكن كذبوا﴾ الرسل ﴿فأخذناهم﴾ عاقبناهم ﴿بما كانوا يكسبون﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.

القـــــراءة

﴿لفتحنا عليهم﴾. قرأ ابن عامر: ﴿لفتحنا﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون: بالتخفيف.

ثم خوّف المكلفين بنزول العذاب عليهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل وحال الضحى بالنهار فقال:

٩٧ ـ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾.

﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا﴾ عذابنا ﴿بياتاً﴾ ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ غافلون مستغرقون في النوم.

٩٨ ـ ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾ نهاراً ﴿وهم يلعبون﴾ يشتغلون فيما لا يجدي عليهم نفعاً كأنهم يلعبون.

القـــــراءة

﴿أو أمن أهل القرى﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿أو أمن أهل القرى﴾ بإسكان الواو، وقرأ الباقون ﴿أو أمن﴾ بفتح الواو.

٩٩ ـ ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿أفأمنوا مكر الله﴾ استدراجه لهم بالنعمة، وأخذهم بغتة ﴿فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون﴾ والتعبير بمكر الله استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، فعلى العاقل أن يكون في خوف من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين.

ثم أنكر سبحانه تركهم الاعتبار بمن تقدمهم من الأمم فقال:

١٠٠ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أو لم يبين الله للذين يخلفون من خلا قبلهم من الأمم، والمراد بهم المشركون، وفسروا بأهل مكة ومن حولها ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ أي ونحن من شأننا وسنتنا أن نطبع على قلب من لم نرد منه الإيمان، حتى لا يتعظ بأحوال من قبله، ولا يلتفت إلى الأدلة ﴿فهم لا يسمعون﴾ سماع تفهم واعتبار، ويدلّ على أنهم مطبوع على قلوب، لأن المراد استمرار هذه الحال لأن عدم السماع كان حاصلاً و﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ ظاهر الدلالة على أن الوارثين والموروثين كل من أهل الطبع وكذا قوله سبحانه ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ كل ذلك بسبب اختيارهم وعنادهم وكفرهم في الأصل.

في قصص الماضين عبرة

ثم أخبر عن الأقوام المذكورين تسلية للنبي ﷺ فقال:

١٠١ ـ ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ تلك إشارة إلى قرى الأمم المحكية من قوم نوح وعاد وثمود، واللام للعهد، فتلك القرى على أسلوب ذلك الكتاب، ونقص خبر ثان على أن لها قصصاً، وأحوالاً أخرى مطوية ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أن رسول كل أمة من الأمم المهلكة الخاص بهم، جاءهم بالمعجزات البينة الجمة ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي ﴿بما كذّبوا من قبل﴾ تكذيبهم من لدن مجيء الرسل عليهم السلام إلى وقت الإصرار والعناد فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية تلك المعجزات بما كذّبوا قبل رؤيتها، يعني أول ما جاؤوهم، فجاأوهـم بالتكذيب فأتوا بالمعجزات فأصروا على التكذيب، ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم يطبع الله على قلوبهم فوضع المظهر موضع المضمر ليدلّ على أن الطبع بسبب الكفر وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة.

ثم شرح حال المكلفين فقال:

١٠٢ ـ ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾.

﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ أي الأمم المذكورين ﴿من عهد﴾ على تقدير مضاف أي ما وجدنا وفاء عهد كائن لأكثرهم فإنّهم نقضوا ما عاهدوا عليه الله تعالى عند مساس البأساء والضراء قائلين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴿وإن وجدنا أكثرهم﴾ أي أكثر الأمم أو أكثر الناس أي عَلِمْنَاهُم ﴿لفاسقين﴾ اللام الفارقة أي ما وجدنا أكثرهم إلاّ فاسقين.

قصة موسى عليه السلام

هذه هي القصة السابعة من قصص هذه السورة قصة موسى عليه السلام فقال:

١٠٣ ـ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ يعني الأنبياء المذكورين ﴿موسى بآياتنا﴾ أي بعثناه بعثاً متلبساً بها وأريد بها الآيات التسع المفصلة ﴿إلى فرعون﴾ هو اسم شخص: قال الشيخ المراغي في تفسيره: «إذ الراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح بن رعمسيس، وكان يلقب بسليل الإله

«رع» أي الشمس، وقد كتب بجانب هيكله الذي بدار الآثار المصرية الآية ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾(١) ثم صار لقباً لكل ملوك مصر من العمالقة، كما أن كسرى لقب من ملك فارس، وقيصر لقب من ملك الروم، والنجاشي لقب من ملك الحبشة، وتبع لقب من ملك اليمن، ويلقب بفرعون كل عات ﴿وملإيه﴾ أي أشراف قومه وتخصيصهم بالذكر مع عموم بعثته عليه السلام لقومه كافة لأصالتهم في تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم ﴿فظلموا بها﴾ أي بالآيات(٢) والمعنى: ظلموا بها كافرين بها أو مكذبين بها ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أى آخر أمرهم، ووضع المفسدين موضع ضميرهم للإيذان بأن الظلم مستلزم للإفساد.

١٠٤ ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٠٥ ـ ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

﴿حقيق﴾ جدير ﴿على أن لا أقول على الله إلاّ الحق﴾ جواب لتكذيبه عليه السلام المدلول عليه بقوله سبحانه ﴿فظلموا بها﴾ وعلى الأول بمعنى: الباء ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ يعني العصا ﴿فأرسل بني إسرائيل﴾ أي أطلق عنهم وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة، واتركهم يذهبون معي إلى الأرض المقدسة، والفاء لترتيب الإرسال أو الأمر به.

القــــراءة

﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلاّ الحق﴾ قرأ نافع ﴿حقيق عليّ﴾ مشدّدة الياء، وقرأ الباقون ﴿حقيق على ألاّ أقول﴾ بالتخفيف.

١٠٦ ـ ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

﴿قال﴾ فرعون ﴿إن كنت جئت بآية فأت بها﴾ أي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك فإن كونك من جملة المعروفين بالصدق يقتضي إظهار الآية لا محالة.

١٠٧ ـ ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿فألقى عصاه﴾ التي يهش بها على غنمه ولا يعني نوعها أو من أي شجرة هي ﴿فإذا هي ثعبان﴾ أي حية ضخمة طويلة والثعبان هو الذكر العظيم من الحيات ﴿مبين﴾ أي ظاهر أمره لا يشك في كونه ثعباناً، فهو إشارة إلى أن الصيرورة حقيقية لا تخيلية.

١٠٨ ـ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٢) الآيات التسع مذكورة في الإسراء، الآية: ١٠٠ وفي الأعراف، الآية: ١٣٢.

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أدخل يده في جيبه، ثم أخرجها فإذا هي تبرق مثل البرق، لها شعاع، بيضاء من غير برص، ثم أدخلها في جيبه فصارت كما كانت.

السحـــر

ثم ذكر سبحانه ما قاله أشراف قوم فرعون فقال:

١٠٩ ـ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿قال الملأ من قوم فرعون﴾ أي الأشراف منهم وهم أهل مشورته ووزراء دولته ﴿إنَّ هذا لساحر عليم﴾ أي مبالغ في السحر ماهر فيه ثم قال فرعون لمن حوله عن موسى:

١١٠ ـ ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾.

﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ أرض مصر ﴿فماذا تأمرون﴾ أي تشيرون في أمره.

١١١ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾.

﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ أي أخر أمرهما ولا تعجل حتى ترى رأيك فيهما قال ابن قتيبة: أرجه: أخره، وقد يهمز يقال: أرجأت الشيء وأرجيته ومنه قول الله عـز وجلّ: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ ﴿وأرسل في المدائن حاشرين﴾ في البلاد جمع مدينة، حاشرين أي رجالاً يجمعون السحرة.

القـــراءة

﴿قالوا أرجه وأخاه﴾، قرأ ابن كثير وهشام عن ابن عامر: ﴿أرجئه﴾ مهموزة بالإشباع، وقرأ أبو عمرو: ﴿وأرجئه﴾ مضمومة الهاء من غير إشباع، وقرأ نافع والكسائي: ﴿أرجهي﴾ بغير همزة وبجر الهاء، يصلان بياء، وقرأ الحلواني عن نافع: ﴿أرجه﴾ بكسر الهاء من غير إشباع، وقرأ عاصم وحمزة، ﴿أرجه﴾ بترك الهمزة وسكون الهاء، وقرأ ابن عامر: ﴿أرجئه﴾ بالهمز وكسر الهاء من غير إشباع.

١١٢ ـ ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.

﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ أي ماهر في السحر يفضل موسى في علم السحر فجمعوا ذلك له.

السحر وأنواعه

كان السحر فناً من فنون قدماء المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون، وعند البابليين والهنود لا يزال يؤثر عنهم بعض أعمال سحرية غريبة، اهتدى بعض علماء الإفرنج إلى تعليل بعضها أو

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥١.

كشف حقيقته، ولا يزالون يجهلون تعليل البعض الآخر، والسحر أنواع منها:

١ ـ ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة الكيماوية ومنها الزئبق الذي قيل إنَّ سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعُصيهم.

٢ ـ الشعوذة التي مدار البراعة فيها على خفة اليد في إخفاء الأشياء، وإظهار بعضها، كالذي يخرج الفرخة من البيضة ثم يرجعها كما كانت ويدخل في ذلك جميع الحيل التي يستعملها الدجالون، ومدّعو الكرامات.

٣ ـ ما مداره على تأثير الأنفس ذوات الإرادة القوية في الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام والانفعالات، وهذا النوع هو الذي يستعين به أصحابه على أعمالهم بأرواح الشياطين، ومن هذا الباب دخل علم التنويم المغناطيسي.

القـــراءة

﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ قرأ حمزة الكسائي: ﴿بكل سحّار عليم﴾ بالألف بعد الحاء، وقرأ الباقون: ﴿يأتوك بكل ساحر﴾ الألف قبل الحاء.

١١٣ ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾.

﴿وجاء السحرة فرعون﴾ ولايهمنا عددهم فليس في ذلك خبر صحيح ﴿قالوا إن لنا لأجراً﴾ أي عوضاً وجزاء عظيماً ﴿إن كنا نحن الغالبين﴾.

القـــراءة

﴿إن لنا لأجراً﴾. قرأ نافع وابن كثير وحفص: ﴿قالوا إن لنا لأجرا﴾ على الخبر، وقرأ أبو عمرو: ﴿إين﴾ بالمد، وقرأ هشام بن عمار بهمزتين بينهما مدة، وقرأ الباقون: ﴿أئن﴾ بهمزتين.

١١٤ ـ ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾.

﴿قال نعم﴾ إن لكم لأجراً ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ والمعنى: إن لكم لأجراً وإنكم مع ذلك لمن المقربين، أي إني لا أقتصر لكم على العطاء وحده وإن لكم ما هو أعظم منه وهو التقريب والتعظيم.

١١٥ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾.

ما معنا من السحر.

١١٦ ـ ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿قال﴾ موسى ﴿ألقوا﴾ وثوقا بشأنه وتحقيراً لهم وعدم مبالاة بهم، وجوز لهم التقديم لا لإباحة فعلهم بل لتحقيرهم، وإنما أذن لهم ليبطل سحرهم فهو إبطال للكفر بما عنده من آيات، وتحقيق لمعجزته عليه السلام ﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم ﴿سحروا أعين الناس﴾ بأن خيلوا إليها ولم يقل سبحانه سحروا الناس ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾[1] واسترهبوهم خوفوهم، حيث خيلوها حيات تسعى إرهاباً شديداً ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾.

١١٧ ـ ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ التي علمت من أمرها ما علمت، وأن تفسيرية ﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ الفاء الفصيحة أي فألقاها فصارت حية، وتلقف معناها تبتلع، والإفك صرف الشيء وقلبه عن الوجه المعتاد، ويطلق على الكذب أي ما يأفكون، ما يكذبون.

القــــراءة

﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿فإذا هي تلقف﴾ ساكنة اللام من (لقفت الشيء ألقفه) وقرأ الباقون: ﴿تلقّف﴾ بالتشديد للقاف.

١١٨ ـ ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فوقع الحق﴾ ثبت وظهر وتبين، والحق أمر موسى عليه السلام ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ أي ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله.

١١٩ ـ ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾.

﴿فغلبوا﴾ أي فرعون وقومه ﴿هنالك﴾ أي في ذلك الجمع العظيم الذي هو يوم الزينة يوم العيد، والاحتفال الكبير ﴿وانقلبوا صاغرين﴾ أي صاروا أذلاء ورجعوا إلى المدينة كذلك.

١٢٠ ـ ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾.

﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ لأن ذلك كان بمحضر من فرعون قطعا أي خروا ساجدين، وعبروا بذلك، تنبيهاً أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك فكأن أحداً دفعهم وألقاهم.

١٢١ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قالوا﴾ أي السحرة ﴿آمنا برب العالمين﴾ أي مالك أمرهم والمتصرف فيهم.

١٢٢ ـ ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

﴿رب موسى وهارون﴾.

---

(١) سورة طه، الآية: ٦٦.

اتهام فرعون للسحرة

ثم ذكر سبحانه ما صدر من فرعون عن إيمان السحرة، فقال سبحانه:

١٢٣ ـ ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿قال فرعون﴾ منكراً عليهم موبخاً لهم على مافعلوه ﴿آمنتم به﴾ أي برب موسى وهارون أو بالله ﴿قبل أن آذن لكم﴾ اي قبل أن آمركم بذلك ﴿إن هذا﴾ الذي صَنعتموه ﴿لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ لحيلة احتلتموها أنتم وموسى، وليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة وصنيع صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع، لتستولوا على مصر، فتخرجوا منها أهلها ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة ما صنعتم وهذا تمويه منه على قومه القبط ليريهم أنهم ما غلبوا ولا انقطعت حجتهم.

القـــراءة

﴿قال فرعون آمنتم به﴾، قرأ ورش عن نافع، وحفص: ﴿قال فرعون آمنتم به﴾ على لفظ الخبر بغير استفهام، وقرأ نافع والبزي عن ابن كثير، وأبو عمرو وابن عامر: قال فرعون آمنتم؟ بالهمز والمد على الاستفهام، وقرأ ابن كثير في رواية القواس: ﴿قال فرعون وامنتم﴾ بواو في اللفظ إذا وصل ولا يهمز، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿قال فرعون أآمنتم﴾ بهمزتين.

١٢٤ ـ ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي من كل جانب عضواً مغايراً للآخر كاليد من جانب والرجل من آخر أو اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ في جذوع النخل تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم والتصليب مأخوذ من الصلب وهو الشد على خشبة أو غيرها.

١٢٥ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي إلى رحمته سبحانه وثوابه عائدون إن فعلت بنا ذلك راجعون إليه.

١٢٦ ـ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.

﴿وما تنقم منا﴾ وما تكره منا، ولا تطعن علينا ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ وذلك أصل المفاخر وأعظم المحاسن ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾ على القطع والصلب حتى لا نرجع كفارا ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي ثابتين على ما رزقتنا من الإسلام غير مفتونين من الوعيد.

ثم أخبر سبحانه عن قوم فرعون فقال سبحانه:

١٢٧ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.

﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ الأشراف والوزراء مخاطبين له بعدما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ماشاهدوا ﴿أتذر موسى﴾ أي تتركه ﴿وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ هذا إغراء من الملأ لفرعون ومرادهم بالفساد دعاؤهم الناس إلى مخالفة فرعون وترك عبادته، ﴿ويذرك وآلهتك﴾ قال الزجاج المعنى: ويذرك وربوبيتك ﴿قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ نستبقي نساءهم للخدمة كفعلنا فيهم من قبل ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ قادرون وغالبون كما كنا لم يتغير حالنا وهم مقهورون تحت أيدينا.

القـــراءة

﴿قال سنقتّل أبناءهم﴾ قرأ نافع وابن كثير: ﴿قال سنقتل أبناءهم﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد لكثرة القتل مرة بعد مرة.

١٢٨ ـ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿قال موسى لقومه﴾ تسلية لهم حين تضجروا مما سمعوا ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ على ما سمعتم من الأقاويل الباطلة ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ الذين أنتم منهم، وحاصله أن الأمر ليس كما قال فرعون: ﴿إنا فوقهم قاهرون﴾ فإن القهر والغلبة لمن صبر واستعان بالله وإن وعد الله حق.

القـــراءة

﴿يورّثها﴾ قرأ الحسن وهبيرة عن حفص عن عاصم بالتشديد.

١٢٩ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿قالوا أوذينا﴾ من جهة فرعون ﴿من قبل أن تأتينا﴾ بالرسالة يعنون بذلك قتل أولادهم قبل مولده، وسبب ذلك أن فرعون قيل له سوف يولد لبني إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويكون هلاكك على يديه ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ أي رسولا يعنون بعد ما توعدهم به فرعون، من إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والعذاب والاستخدام ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ الذي فعل بكم ما فعل وتوعّدكم ما توعّد ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ أي يجعلكم خلفاء في التعمير ﴿فينظر كيف تعملون﴾ أحسنا أم قبيحاً فيجازيكم.

جزاء العصاة منهم في الدنيا

ثم بين سبحانه ما فعله بآل فرعون وأقسم عليه فقال:

١٣٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ بالقحط ﴿ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ يتعظون فيؤمنون، قال قتادة: أما السنون فكانت في بواديهم ومواشيهم، وأما نقص الثمرات فكانت في أمصارهم وقراهم، وروى الضحاك عن ابن عباس قال يبس لهم كل شيء وذهبت مواشيهم، حتى يبس نيل مصر.

١٣١ ـ ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ الرخاء والخصب والعافية بعد المرض، وربما أعم من ذلك مما يستحسنوه من الأمور ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي إنا مستحقوها ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي ضائقة وجدب ومرض أو عقوبة وبلاء ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي يتشاءموا بهم ويقولوا ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم ﴿ألآ إنما طائرهم عند الله﴾ سيق لرد مقالتهم الباطلة، وتحقيق للحق في ذلك وتصديره بكلمة التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمونه، أي ليس شؤمهم إلا عند الله، أي من قبله وحكمه، أي ليس الشؤم الذي يلحقهم إلا الذي وعدوا به من العقاب عنده، لا ما ينالهم في الدنيا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ذلك فيقولون ما يقولون.

١٣٢ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين، أي بمصدقين بنبوءتك.

١٣٣ ـ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ عقوبة لجرائمهم وكفرهم، الطوفان في اللغة ما طاف بالشيء وغشيه، وغلب اللفظ في طوفان الماء، سواء أكان من المطر أم فيضان الأرض، والظاهر أنه المطر، وأما الروايات الأخرى بأنه الموت وغيره فغير صحيحة لذا كان التفسير الأقرب للغة أولى ﴿والجراد والقُمَّل﴾ بضم القاف وتشديد الميم، وجزم الراغب بأن القَمْل صغار الذباب وهو موافق لما في التوراة ﴿والضفادع والدم آيات مفصلات﴾ مبينات لا يشك عاقل أنها آيات إلهية لا سحر كما يزعمون، مميز بعضها عن بعض منفصلة بالزمان، لامتحان أحوالهم، قيل إنها تسع آيات بتسع سنين في كل سنة آية ﴿فاستكبروا﴾ عن الإيمان بها ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ جملة مقررة لمضمون ما قبلها، قال الله في سورة الإسراء ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾.

الآيات التسع

١ ـ العصا
٢ ـ اليد.
٣ ـ أخذ آل فرعون بالسنين الجدب.
٤ ـ نقص الثمرات والأنفس.
٥ ـ الطوفان.
٦ ـ الجراد.
٧ ـ القمَّل.
٨ ـ الضفادع
٩ ـ الدم

ثم فصّل استكبارهم وإجرامهم فقال:

١٣٤ ـ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ نزل بهم العذاب الذي سلّطه الله عليهم من الآيات ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي بعهده سبحانه عندك وهو النبوة، وما أوصاك به ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ أي أقسمنا بعهد الله تعالى عندك.

١٣٥ ـ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز﴾ بعد أن دعا موسى ربه ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ أي إلى حد من الزمان هم واصلون إليه، ولا بد فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق ﴿إذا هم ينكثون﴾ أي ينقضون العهد، وأصل النكث فلّ طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانياً، فاستعير لنقض العهد بعد إبرامه.

١٣٦ ـ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾.

﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم﴾ الفاء تفسيرية ﴿في اليمّ﴾ أي البحر ويطلق اليمّ على النهر الكبير العذب الماء كذلك ﴿بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ تعليل للإغراق يعني سبب الإغراق، وما استوجبوا به ذلك العقاب هو التكذيب بالآيات العظام ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم مبالاتهم بها بحيث صاروا كالغافلين.

المستضعفون

ثم بين ما فعله بالمحقين بعد إهلاك المبطلين فقال:

١٣٧ ـ ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾.

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ أي يستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء وتسخير الرجال ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ أي مطلق الأرض، لأن الله سبحانه بعد أن أغرق فرعون وجنوده، انكسر الطوق عن بني إسرائيل في العيش في الأرض بحرية من غير عبودية سواء في مصر أو في غيرها، والتعبير بمشارق الأرض ومغاربها يفيد جميع الجهات ونواحيها، على سطح الكرة الأرضية من البلاد المتعددة، ﴿التي باركنا فيها﴾ بالماء والشجر والرزق ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل﴾ والمراد بالكلمة وعده تعالى لهم بالنصر والتمكين على لسان نبيهم وهو قوله: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة ووصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يحبون ويستحسنون، والتفت من التكلم إلى المخاطب في قوله سبحانه ﴿ربك﴾ لأن ما قبله من القصص كان غير معلوم له ﷺ ﴿بما صبروا﴾ أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وحسبك بهذا حاثًا على الصبر ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع، وكله الله تعالى إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج ﴿ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ دمّر الله ما كان يصنع فرعون من العمارات والمزارع، والدمار الهلاك وما يعرشون من الجنات أو ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان ﴿كم تركوا من جنات وعيون﴾[1].

القـــراءة

﴿وما كانوا يعرشون﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر ﴿يعرشون﴾ بضم الراء، وقرأ الباقون بكسر الراء.

خروج بني إسرائيل من مصر

ثم أخبر الله سبحانه عن أحوال بني إسرائيل فقال:

١٣٨ ـ ﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ شرع الله بعد قصة فرعون في قصة بني إسرائيل ﴿فأتوا على قوم﴾ أي مروا في طريقهم بعد مجاوزتهم البحر الأحمر ولها قصة مفصلة في آيات أخرى، هؤلاء القوم من لخم اسم قبيلة بني عدي بن عمرو من سبأ وقيل: كانوا من العمالقة الكنعانيين ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ أي يواظبون

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٥.

على عبادتها ويلازمونها، قيل إنها من بقر، وهو أول شأن لهم بمعرفة العجل ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ تعجب عليه السلام من قولهم هذا، بعد ما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى فوصفهم بالجهل على أتم وجه.

القـــراءة

﴿فأتوا على قوم يعكفون﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿يعكفون﴾ بكسر الكاف، وقرأ الباقون بالضم.

١٣٩ - ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

﴿إن هؤلاء﴾ أي القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام ﴿متبر ما هم فيه﴾ مدمر مهلك ما هم فيه من الدين الذي هم عليه ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي ما استمروا على عمله من عبادتها، والجملة تعليل لإثبات الجهل المؤكد للقوم.

١٤٠ - ﴿ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿قال أغير الله أبغيكم إلها﴾ أي أطلب لكم، وهو استفهام إنكار ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أي عالم زمانهم بنزول الآيات الكونية، ويجعل أكثر الأنبياء منهم، وهداكم إلى التوحيد، وهذا أكبر فضل في الوقت الذي حولكم أناس كثيرون مشركون، ولقد اغتر اليهود وظنوا أنهم شعب الله المختار فما شكروا نعمة الله وما رعوا فضله عليهم.

ثم خاطب الله سبحانه بني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فقال لهم على وجه الامتنان عليهم بما أنعمه على أسلافهم:

١٤١ - ﴿ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾.

﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾ بإهلاكهم وتخليصكم منهم، أي اذكروا صنيعنا معكم في ذلك الوقت، وهو تذكير من جهته تعالى بنعمته العظيمة ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يولونكم ذلك ويكلفونكم إياه ﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم﴾ سوء العذاب﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ محنة.

القـــراءة

﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾ قرأ ابن عامر ﴿وإذ أنجاكم من آل فرعون﴾ بغير ياء ولا نون، وقرأ الباقون ﴿وإذ أنجيناكم﴾ بالياء والنون، وقرأ نافع ﴿يقتلون أبناءكم﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد.

نزول التوراة

ثم بين سبحانه تمام نعمته على بني إسرائيل فقال:

١٤٢ ـ ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ روي أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة، ﴿وأتممناها بعشر﴾ من ذي الحجة، وأجملت الأربعون في البقرة وفصلت هنا ﴿فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة﴾ الميقات بمعنى الوقت، والميقات وقت قدّر فيه عمل من الأعمال، ومنه مواقيت الحج ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي﴾ قال حين توجه إلى مناجاة الله حسبما أمره كن خليفتي في قومي وراقبهم فيما يأتون وما يذرون، واستخلافه لأخيه مع أنه كان نبياً مرسلاً مثله قيل: لأن الرياسة كانت له دون هارون، فهو نبي بحكم الأصالة، ورسول بحكم التبعية، فلعل هذا الاستخلاف من آثار تلك التبعية ﴿وأصلح﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم، وقيل المراد احملهم على الطاعة والصلاح ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي لا تتبع سبيل من سلك الإفساد بدعوة وبدونها.

ثم ذكر سبحانه حديث الميقات فقال:

١٤٣ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ أي لوقتنا الذي وقتناه، أي بعد تمام الأربعين، واللام للاختصاص، كما في قوله سبحانه ﴿لدلوك الشمس﴾ ﴿وكلمه ربه﴾ أسمعه كلامه من غير واسطة ﴿قال رب أرني أنظر إليك﴾ أي إلى ذاتك أي أرني نفسك ﴿قال لن تراني﴾ أي لا قابلية لك وأنت على ما أنت عليه ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ استدراك لبيان أنه عليه السلام لا يطيق الرؤية والمراد من الجبل جبل طور سيناء ﴿فإن استقر مكانه﴾ وثبت ولم يتضعضع ﴿فسوف تراني﴾ إذا تجليت ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ أي ظهر له على الوجه اللائق وبان ﴿جعله دكا﴾ أي مدكوكاً متفتتا، والدك والدق بمعنى واحد، والمعنى: مستوياً مع وجه الأرض، وقيل ساخ الجبل، والجبل مندرج في الأشياء التي تسبح بحمد الله ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾[1]، ﴿وخر موسى صعقاً﴾ أي سقط من هول ما رأى مغشياً عليه ﴿فلما أفاق قال سبحانك﴾ تعظيما وتنزيها لك عن مشابهة خلقك في شيء أو من أن يثبت أحد لرؤيتك، أو من أن أسألك شيئاً بغير إذن منك ﴿تبت إليك﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ بعظمتك وجلالك.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

القـــراءة

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿جعله دكاء﴾ بالمد والهمز، وقرأ الباقون ﴿دكاً﴾ منونا.

ثم أخبر سبحانه عن عظيم نعمته على موسى بالاصطفاء وإجلال القدر وأمره إياه بالشكر بقوله:

١٤٤ ـ ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ استئناف سيق لتسلية موسى عليه السلام، من عدم الإجابة إلى سؤاله كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام، حيث اخترتك واتخذتك صفوة على الناس الموجودين في زمانك، وهذا كما فضل قومه على عالم زمانهم في قوله تعالى ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾[1]، ورسالاته تعالى هي أسفار التوراة، وبكلامي أي بتكليمي بغير واسطة أو بسماع كلامي، والمراد فضلتك بمجموع الأمرين ﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير ﴿اني اصطفيتك على الناس برسالتي﴾ على التوحيد، وقرأ الباقون ﴿برسالاتي﴾ على الجمع.

ثم فصل تلك الرسالة فقال:

١٤٥ ـ ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ أي التوراة، مما يحتاج إليه في الدين ﴿ موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي كتبنا كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام، ومن تبعيضية، والمعنى: كتبنا بعض كل شيء في الألواح من نحو السور والآيات، وكتبنا فيها تفصيل كل شيء يحتاجون إليه، من الحلال والحرام ونحو ذلك ﴿فخذها بقوة﴾ أي بجد وحزم ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ والمعنى: بأحسن الأجزاء التي فيها لاشتمالها على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض كالقصاص، والعفو، والانتصار والصبر، وقيل الفرائض والنوافل، وأدناها المباح.

أي مرهم أن يأخذوا بذلك على طريقة الندب، والحث على الأفضل كقوله تعالى[2] ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليك﴾ ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ أي سأقص عليكم وكأنكم ترون ذلك عيانا، ما لحق بديار الفاسقين الكافرين الظالمين من دمار وخراب لتعتبروا وتتعظوا، وهذا يشمل منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة ودار

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٥.

فرعون وقومه وكل من يدخل تحت الفاسقين عن أمر ربهم من الأمم، وفي ذلك تهديد للمخالف وتحذير للموافق.

إنه تقدم ذكر المعجزات وما رام فرعون من إبطالها، فبين سبحانه بقوله: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ أنه يمنع عن إبطال المعجزات فقال:

١٤٦ ـ ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾.

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ استئناف عام مسوق لتحذيرهم من التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي كتبت في ألواح التوراة، المتضمنة للمواعظ والأحكام وغيرها من الآيات الكونية، التي من جملتها ما وعدوا إراءته من دار الفاسقين، ومعنى صرفهم عنها منعهم بالطبع على قلوبهم، فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون فيها، لاختيارهم ذلك وإصرارهم عليه، أي التجبر والتكبر عن الإيمان بالآيات كما فعل الله بفرعون وقومه، وكقوله سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[1] ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ والآية هنا المعجزة المحسوسة أو المنزلة المسموعة، والمراد عموم النفي بكل آية ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ أي طريق الضلال ﴿يتخذوه سبيلا﴾ أي يختارونه لأنفسهم مسلكاً مستمراً لا يكادون يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم، وإفضائه بهم إلى شهواتهم ﴿ذلك﴾ المذكور من التكبر وعدم الإيمان بالآيات، وإعراضهم عن سبيل الهدى وإقبالهم التام على سبيل الضلال حاصل ﴿بأنهم﴾ أي بسبب أنهم ﴿كذبوا بآياتنا﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ غير معتدّين بها فلا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا ما فعلوا من الباطل.

القـــراءة

﴿وان يروا سبيل الرُشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿الرَشَد﴾ بفتح الراء والشين، وقرأ الباقون بضم الراء وسكون الشين.

ثم بيّن أن أولئك المتكبرين مجزيون شر الجزاء، وإن صدر عنهم صورة الإحسان والخير فقال:

١٤٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي بطلت أعمالهم التي عملوها في الدنيا من البر والإحسان والخير، فلا ثواب لهم عليها.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

اتخاذ بني إسرائيل العجل

ثم عاد الكلام إلى قصة بني إسرائيل وما أحدثوه عند خروج موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فقال سبحانه:

١٤٨ ـ ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾.

﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أي من بعد ذهابه إلى الجبل لمناجاة ربه سبحانه ﴿من حليهم﴾ جمع حلية وهو ما يتخذ للزينة ويتحلّى به من الذهب والفضة، وهذه الحلي لم تكن لهم وإنما أضيفت لهم على أنها كانت معهم، وفي حوزتهم يحملونها، وقد كانت للقبط قوم فرعون، حصلوا عليها بأي وسيلة منهم غير مشروعة لأنه لا تحل لهم الغنائم ولذلك قالوا ﴿حمِّلنا أوزاراً من زينة القوم﴾[1] أي إثما بحملها من مصر فأرادوا التخلص منها بالحرق والصهر كما صور لهم السامري ﴿عجلاً جسداً له خوار﴾ اتخذ بمعنى صاغ وعمل، والعجل ولد البقرة، أي على صورة العجل جسداً، والجسد الذي لايعقل ولا يميز إنما هو بمعنى الجثة فقط، والخوار صوت البقر، ولما كان العجل تمثالاً على شكل جسد مصنوع من الذهب لا روح فيه، فكان خواره صوتاً مصنوعاً مثله بحيث كان مجوفاً ومن استطاع أن يصنع ذلك العجل على تلك الهيئة، ويقنع بني إسرائيل بعبادته، فله القدرة بالحيلة أن يجعل له صوتاً كصوت البقر بفعل الريح التي تهب عليه مع ما فيه من صنعة داخلية تساعده، ولم يرد في القرآن ولا في الصحيح أنه مشى أو تكلم أو تحرك أو نفع أو ضر، بل الآيات على عكس ذلك.

لقد كانت فكرة اتخاذ العجل إلهاً لبني إسرائيل منذ خروجهم من مصر يوم مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، حيث صدَّهم موسى وأنكر عليهم ورماهم بالجهل، ولكن للذهب بريق أخاذ بالعقول والأنفس فلما خلوا بعد ذهابه لمناجاة ربه، وصاغ لهم السامري ذلك العجل جسداً بدون روح، وصنعه على هيئة خاصة، تجعل له خواراً كخوار الثيران، تهافتوا عليه ولم يتذكروا وصية نبيهم من قبل، ولم يتدبروا حقيقة هذا العجل، ولم ينظروا إن كان يستحق العبادة أم لا يستحق، وإنها لصورة زرية للبشرية تلك التي ظهر فيها القوم ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي أنه صنم جامد.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿من حليهم﴾ بكسر الحاء، وقرأ الباقون: بالضم.

ثم أخبر سبحانه أنهم ندموا على عبادة العجل فقال:

١٤٩ ـ ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٧.

﴿ولما سقط في أيديهم﴾ كناية عن شدة الندم وغايته إذا اشتد ندمه عض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها، وخصت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي تبينوا ضلالهم باتخاذ العجل وعبادته، وأنهم قد خدعوا بهذا الإله المزعوم وأنه مجرد جسد لا حقيقة ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ بالتوبة ويتجاوز عن خطيئتنا، واللام في ﴿لئن﴾ موطئة للقسم، أي والله لئن، ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ جواب القسم، وكانت الندامة والرجوع عن عبادة العجل إلى الله بعد رجوع موسى من الميقات.

القــــراءة

﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا. .﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿لئن لم ترحمنا﴾ بالتاء على الخطاب، ﴿ربنا﴾ بالنصب على النداء، ﴿وتغفر﴾ بالتاء، وقرأ الباقون ﴿لئن لم يرحمنا﴾ بالياء، ﴿ربُّنا﴾ بالرفع على الخبر ﴿ويغفر﴾ بالياء أيضاً.

ثم أخبر سبحانه عما فعل موسى عليه السلام حين رجع من مناجاة ربه، ورأى عكوف قومه على عبادة العجل فقال:

١٥٠ ـ ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان﴾ مما حدث منهم ﴿أسفاً﴾ أي شديد الغضب أو حزينا عليهم والتكرير للتأكيد، وعلم موسى ذلك بالوحي ﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ أي بئس ما عملتم بعد فراقي لكم في الوقت الذي خلفتكم فيه، حيث عبدتم العجل، والذم للسامري وأشياعه ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ يقال عجلت الأمر سبقته وأعجلته استحثثته والمعنى: أعجلتم ميعاد ربكم مع موسى فلم تصبروا له حتى يأتي إليكم، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم، فحدثتم أنفسكم بموته، فغيرتم عبادة الله إلى عبادة غيره، ﴿وألقى الألواح﴾ وهي صحف موسى أو كتابه التوراة، أي وضعها على الأرض ليأخذ برأس أخيه، ليصبح في وضع لتفرغ يده، فيأخذ رأس أخيه، فعبر عن ذلك الوضع بإلقائها تفظيعاً لفعل قومه، حيث كانت معاينته سبباً لذلك، وداعياً إليه مع ما فيه من الإشارة إلى شدة غيرته وفرط حميته، وليس في ذلك ما يتوهم منه نوع إهانة لكتاب الله تعالى بوجه من الوجوه.

﴿وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ أي بشعر رأس هارون وفي سورة طه بلحيته، وكلها بالرأس وإن كان هارون أكبر من موسى، إلا أن لموسى أكبر مرتبة ورياسة وكان هارون وزيراً له، وكان حليماً ليناً، ولم يقصد موسى بهذا الأخذ إهانته أو الاستخفاف به، بل لكي يسائله، ويسأله: كيف وقع هذا التحول في عبادة القوم وهو بينهم على التقصير المظنون، وقيل إنما فعل ذلك لأنه توهم أنه عصى بمقامه بينهم وترك اللحوق به، وتعريفه ما أحدثوه بعده، ليرجع إليهم، فيتلافاهم ويردهم إلى الحق وذلك قوله تعالى: ﴿ما منعك إذ رأيتهم

ضلوا ألا تتبعن﴾ سورة طه ﴿قال ابن أم﴾ بحذف حرف النداء ﴿إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ أي أنا لم أقصر في إرشادهم ونصحهم والعودة بهم إلى عبادة الله وحده، ولقد قال لهم هارون من قبل في غيبة موسى يا قوم إنما فتنتم به أي ابتليتم بهذا الصنم وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا رداً على نصيحة هارون لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي فلا تتسبب بغضبك علي ما يشمتون بي لأجله، فإنهم لا يعلمون سر فعلك، والشماتة سرور العدو بما يصيب المرء من مكروه، كما لا تميل إلى التصديق بأني قصرت في رسالة الله في أثناء بعدك عنا وبذلك تدخلني في زمرة الظالمين لأنفسهم ولدينهم.

القــــراءة

﴿قال ابن أم إن القوم استضعفوني﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص: ﴿قال ابن أمَّ﴾ بفتح الميم، وقرأ أهل الشام والكوفة ﴿قال ابن أمِّ﴾ بالكسر وكذلك في طه.

١٥١ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ اغفر لي ما صنعت بأخي، ولأخي إن كان اتصف بما يعد ذنباً من التقصير بالنسبة إليه في أمر أولئك الظالمين، وفي ذلك ترضية لهارون ورفع للشماتة عنه ﴿وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾.

جزاء عبدة العجل

ثم أخبر عن مجازاة القوم فقال:

١٥٢ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾.

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب﴾ عذاب ﴿من ربهم وذلة في الحياة الدنيا﴾ والمعنى: إن الذين اتخذوا عبادة العجل من بني إسرائيل عموماً حتى الذين ندموا منهم، لا بد وأنه سينالهم عذاب الله في الدنيا، وأنه نتيجة لذلك العذاب سيلحقهم ذلك في الحياة الدنيا، والأحداث الجارية بعد ذلك تفسر نوع العذاب والذلة التي أصابتهم ولحقتهم، وكل قد ناله منها بالقدر الذي ارتكب والنصيب المكتوب، والآية لم تشر إلى العذاب في الآخرين وقت ذلك ﴿ وكذلك نجزي المفترين﴾ على بعدهم وكل من يصنع مثلهم.

١٥٣ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا﴾ ولم يصروا على ما فعلوه ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي

من بعد التوبة أو عقوبة الدنيا التي تحصل بها التوبة كما في بني إسرائيل ﴿لغفور رحيم﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة بهم.

١٥٤ ـ ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ حيث كسرت سورة غضبه باعتذار أخيه إليه، وضمه نحوه، والتعبير بسكت، فيه من المبالغة والبلاغة فكأن الغضب حي يتكلم ﴿أخذ الألواح﴾ التي ألقاها ﴿وفي نسختها﴾ أي فيما نسخ فيها وكتب ﴿هدى﴾ أي بيان للحق عظيم ﴿ورحمة﴾ جليلة بالإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي يخافون أشد الخوف، واللام لام الأجل أي هدى ورحمة لأجلهم.

السبعون رجلا

١٥٥ ـ ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾.

﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ من اثني عشر سبطاً ممن لم يعبدوا العجل ﴿لميقاتنا﴾ إنه ميقات وقّته الله لموسى وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ليدعوا ربهم، فيعتذروا إليه عن فعل عبدة العجل ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة فصعقوا منها، وذهب من المفسرين الكثير على أنهم ماتوا ثم أحياهم، وذلك لأنهم قالوا يا موسى أرنا الله جهرة ﴿قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم فصاروا هم الظالمين، بتفريطهم من قبل في النهي عن عبادة العجل، وما فارقوا عبدته حين شاهدوا إصرارهم عليها ﴿وإياي﴾ لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وأنا معهم ليكون ذلك آية أمامهم، وهذا الهلاك هو هلاك مؤقت كان من نتيجة الصاعقة التي سبقتها الرجفة ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ السفهاء ها هنا عبدة العجل، وقد ظن موسى أنهم أهلكوا بسبب اتخاذ أصحابهم العجل، وإنما أهلكوا بقولهم: ﴿أرنا الله جهرة﴾(١) والهمزة للاستعطاف أي لا تهلكنا، وكأن هذا القول صدر على لسان موسى من أحد السبعين حين شعروا بالرجفة تهزهم، ونقله موسى يخاطب به الله على لسانهم لأنهم الذين أصيبوا بما أصيبوا به دونه ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ استئناف مقرر لما قبله واعتذار مما وقع منهم، أي ما الفتنة إلا محنتك وابتلاؤك، وامتحانك ليتميز بها الخير من الشر، والإيمان من الكفر، والصالح من الطالح من عبادك ﴿تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ أي إن إرادتك وقدرتك فوق ما يشاء البشر ويختارون، فمن أطاعك فقد اختار الهداية ومن عصاك فقد اختار الضلال ﴿أنت ولينا﴾ ناصرنا وحافظنا لا غيرك ﴿فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

١٥٦ - ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ أي اكتب لنا فيها حسنة وهي المثوبة الحسنى والجنة ﴿إنا هُدْنا إليك﴾ أي تبنا ومنه ﴿الذين هادوا﴾ كما في البقرة (٦٢) كأنهم رجعوا من شيء إلى شيء، وهاد ويهود ويهيد، بمعنى واحد ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي أنها واسعة تبلغ كل شيء ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وسعته ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ الله ومن تقوى الله التوبة عن المعصية ومن التقوى كذلك ما اتصفوا بقوله ﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة عليهم ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه

ثم وصف سبحانه الذين يتقون بصفة أخرى فقال:

١٥٧ - ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿الذين يتبعون الرسول النبي﴾ محمداً ﷺ من باب ذكر العام قبل الخاص ﴿الأمي﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ نسبة إلى أمة العرب، لأن الغالب عليهم في ذلك الوقت ﴿الذين يجدونه مكتوباً عندهم﴾ أي أهل الكتاب يجدون صفة ونعت النبي محمد ونبوته ﴿في التوراة والإنجيل﴾ اللذين يعتد بهما بنو إسرائيل ﴿يأمرهم﴾ أي يأمر من أرسل إليهم أي الناس كافة ﴿بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ المعروف الحق والمنكر الباطل، ﴿ويحل لهم الطيبات﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ من المطاعم والمشارب والمناكح، والأقوال والأفعال ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ الإصر الثقل، والمراد منه التشديد الذي كان عليهم ﴿والأغلال﴾ جمع غُل، بضم الغين، وذكر الاغلال جاء تمثيلاً، ألا ترى أنك تقول جعلت هذا طوقاً في عنقك وليس هناك طوق، والتعبير القرآني جاء بما اعتبروه كذلك تشديداً عليهم مما فرض عليهم من الأحكام، وجاء في التفسير المأثور كما قال الألوسي أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، وتعين القصاص، في العمد والخطأ من غير شرع الدية، وقال ابن الجوزي نقلاً عن مسروق: لقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب، فيصبح وقد كتب على باب بيته أن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما، وما ورد في القرآن من أن التوبة لا تقبل إلا بالقتل ﴿فالذين آمنوا به﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿وعزروه﴾ نصروه وأعانوه على أعدائه في الدين ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وهو القرآن وعبّر عنه بالنور لظهوره في نفسه وبإعجازه وإظهاره لغيره من الأحكام ﴿أولئك هم المفلحون﴾.

القـــراءة

﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾، قرأ ابن عامر: ﴿ويضع عنهم آصارهم﴾ على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿إصرهم﴾.

محمد رسول الله إلى الناس كافة

ثم أمر سبحانه نبينا أن يخاطب جميع الخلق من العرب والعجم وغيرهم فقال:

١٥٨ ـ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ لما حكى في الكتابين نعوته ﷺ وشرف من يتبعه، أمر بأن يصدع بالدعوة بما فيه تبكيت لليهود الذين زعموا أنه مرسل إلى العرب خاصة، والناس هنا عامة فدلت على عموم رسالته ﴿الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو﴾ بيان لما قبله، ووجه ذلك البيان أن من ملك العالم علويه وسفليه هو الإله ﴿يحيي ويميت﴾ دلالة على زيادة اختصاصه تعالى فهو يحيي ويميت من يشاء فيهما ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ والفاء لتفريع الأمر على ما تقرر من رسالته ﷺ ﴿النبي الأمي﴾ لزيادة تقرير أمره، وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتب ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ أي رجاء لاهتدائكم.

من نعم الله على بني إسرائيل

ثم عاد الكلام إلى قصة بني إسرائيل فقال سبحانه:

١٥٩ ـ ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ جماعة من بني إسرائيل ﴿يهدون﴾ الناس ﴿بالحق﴾ أي بكلمة الحق ﴿وبه﴾ أي بالحق ﴿يعدلون﴾ أي بالأحكام الجارية فيما بينهم، والمراد أن هناك أناساً كانوا كذلك على عهد موسى عليه السلام، والكلام مسوق لدفع ما عسى أن يتوهم من حرمان أسلاف قوم موسى من كل خير، وبيان أن كلهم ليسوا كما ذكرت أحوالهم بل منهم الموصوف بكيت وكيت.

١٦٠ ـ ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما﴾ أي فرقناهم اثنتي عشرة فرقة، وذكر أن السبط مفرداً ولد الولد، أو ولد البنت أو الولد أو القطعة من الشيء، ثم استعمل في كل جماعة من بني إسرائيل، كالقبيلة في العرب كل قبيلة تنتمي إلى سبط من أولاد يعقوب ﴿إسرائيل﴾ عليه السلام ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ أي طلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يسقيهم ما يشربون، هم ومواشيهم، وذلك لأنهم قد عطشوا بنفاد مائهم، فأوحى الله لموسى إجابة لطلبهم ﴿أنْ اضرب بعصاك الحجر﴾ ال في ﴿الحجر﴾ تفيد أنه حجر معين ﴿فانبجست﴾ أي انفجرت ﴿منه اثنتا عشرة عيناً﴾ بعدد الأسباط بعضها معروف الآن بعيون موسى شرق السويس.

﴿قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن السلوى﴾ هذه بعض النعم العشر التي أنعم الله بها على بني إسرائيل. والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى قد امتن على بني إسرائيل فجعل لكل سبط منهم عيناً يشربون منها الماء حتى لا يحصل النزاع بينهم، وجعل الغمام يظللهم من حر الشمس يسير بسيرهم ويقف بإقامتهم، وأنزل عليهم المن، وهي حلوى تشبه العسل الأبيض، كانوا يجدونه على أوراق الأشجار، أو ينزل مثل سقوط الثلج، وأما السلوى فهو طائر السماني يأتي إليهم أسراباً متلاحقة، تهبط فتكاد تغطي الأرض لكثرتها، ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ والمعنى: قلنا لهم كلوا من مستلذاته بدون كد وعناء، ولا زرع ولا حصاد، ولكنهم جاروا وظلموا، وكفروا بنعمة الله عليهم، فردّ الله عليهم متهكماً وموبخاً بأن كفرهم بالنعم وعدم الشكر للمنعم المتفضل وهو الله لا يضره شيء ولا يناله منها نفع بل هو راجع إليهم وبهم.

١٦١ - ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة﴾ أي استغفروا ربكم، والمعنى: احطط عنا خطايانا، واعف عنا ﴿وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾ أي ادخلوا خاضعين لربكم مستكينين لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة لذنوبهم والثواب العاجل والآجل، وقد أشار إلى أن هذه الزيادة تفضل محض، ليس في مقابلة ما أمروا به، والسين دالة على تلك الزيادة والنعمة.

القـــراءة

﴿وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾ قرأ نافع ﴿تغفر لكم﴾ بالتاء مضمومة ﴿خطيئاتكم﴾ على الجمع وقرأ ابن عامر ﴿تغفر﴾ بالتاء أيضاً إلا أنه وحّد فقرأ ﴿خطيئتكم﴾ وقرأ أبو عمرو: ﴿نغفر لكم﴾ بالنون وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة ﴿نغفر﴾ بالنون أيضاً، ﴿وخطيئاتكم﴾ بالتاء مهموزة على الجمع.

١٦٢ - ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾ قالوا بدل طلب المغفرة: حبة في شعرة، يقصدون حنطة في أكياس من شعر، وبدلوا الفعل كذلك، فدخلوا يزحفون على أستاهم، وليس ذلك من الخضوع في شيء، فعاقبهم الله بعذاب من عنده سماه رجزاً، قيل هو الطاعون، وذلك بسبب ظلمهم وبغيهم.

أصحاب السبت

ثم ابتدأ سبحانه بخبر آخر من أخبار بني إسرائيل فقال مخاطباً لنبيه:

١٦٣ ـ ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾.

﴿واسألهم﴾ والخطاب للنبي ﷺ لمن بحضرته من نسل اليهود، أي اسأل اليهود والمعاصرين لك، سؤال تقريع وتقرير بتقديم تجاوزهم الحدود، والمراد إعلامهم بذلك لأنهم كانوا يخفونه خوف الاطلاع عليه مع كونه عليه الصلاة والسلام ليس ممن مارس كتبهم أو تعلمها من علمائهم ما يقضي أن يكون ذلك عن وحي ومعجزة شاهدة عليهم ﴿عن القرية﴾ أي عن خبرها وحالها وما وقع بأهلها وهي قرية بين مدين والطور ﴿التي كانت حاضرة البحر﴾ أي قريبة منه على شاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يظلمون ويتجاوزون حدود الله تعالى في الصيد يوم السبت، حيث كانوا يعدّون آلات الصيد يوم السبت وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾ أي ظاهرة على الماء قريبة من الساحل، ومنه شراع المركب وكل من وصل وقرب وظهر يقال له شرع، وسبتهم أي تعظيمهم للسبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ أي أنَّ الحيتان التي هي السمك لا تأتي إلى الساحل في غير أيام السبت، لكي لا تصاد لاعتيادها أحوالهم، وذلك محض تقدير العزيز العليم المدبر لهذا الكون حسب سننه وشرعه وناموسه ﴿كذلك نبلوهم﴾ أي نعاملهم معاملة المختبرين لهم، ليظهر منهم ما يظهر بعد الامتحان من أعمالهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب فسقهم المستمر في كل ما يأتون ويذرون.

١٦٤ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

﴿وإذا قالت أمة منهم﴾ جماعة من صلحائهم، أي أهل القرية وهم الذين لم يعتدوا، قالوا للوعاظ الذين كانوا يعظون الذين يعدون في السبت ﴿لم تعظون قوماً الله مُهلكهم﴾ مستأصلهم بالكلية ومطهر وجه الأرض منهم، وذلك لعلمهم أنهم مصرون على التجاوز والفسق والعصيان ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ وهو نوع من الهلاك فقد يكون لبعضهم عذاب شديد، ولبعضهم موت بعد العذاب، وأو هنا المانعة من خلو وقوع أحد العذابين لا المانعة لجمعهما فهي لا تنفي اجتماعهما، وفي الآية من الإيجاز البليغ ﴿قالوا معذرة إلى ربكم

ولعلهم يتقون﴾ وهذا قول الوعاظ لمن لامهم على وعظ من أصر على المعصية حيث لا ينفع معه الوعظ.

والمعنى: أن أهل تلك المدينة صاروا ثلاث جماعات: ففرقة اعتدت وعصت، وفرقة وعظت ونصحت، وفرقة لامت الواعظين على وعظهم من أصبح بفعله منجراً إلى العذاب والهلاك بفعل المعصية.

القـــراءة

﴿قالوا معذرة...﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿قالوا معذرة﴾ بالنصب على المصدر، وقرأ الباقون: ﴿معذرة﴾ بالرفع.

١٦٥ ـ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾.

﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ترك الناس للشيء ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي عن العمل الذي تسوء عاقبته، أنجيناهم من العقاب الذي استحقه فاعلو السوء بظلمهم ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ أي شديد من البأس وهو الشدة أو البؤس وهو المكروه أو الفقر ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

القـــراءة

﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ قرأ ابن عامر: ﴿بعذاب بِئْس﴾ بكسر الباء وبهمزة ساكنة، وقرأ نافع ﴿بعذاب بيس﴾ بغير همزة، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿بيأس﴾ على فيعل، وقرأ الباقون: ﴿بعذاب بئيس﴾ على وزن فعيل من البؤس وتفسيره الشديد.

١٦٦ ـ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾.

﴿فلما عتوا﴾ أي تكبروا ﴿عما نهوا عنه﴾ بترك ما نهاهم عنه الواعظون ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ صاغرين أذلاء وهذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة.

ثم خاطب سبحانه النبي فقال:

١٦٧ ـ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿وإذ تأذن ربك﴾ بمعنى آذن أي أعلم ﴿ليبعثن عليهم﴾ أي اليهود بمعاصيهم ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ هذه الآية خاتمة قصة بني إسرائيل في هذه السورة، والمعنى: اذكر أيها الرسول الخاتم إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة، أنه قد قضى في علمه وكتب على نفسه، وفاقاً لما قام عليه نظام كونه في عباده، ليبعثن ويسلطن عليهم في الدنيا إلى يوم القيامة من يسومهم، ويوليهم سوء العذاب الذي يريده

ويوقعه بهم عقاباً على ظلمهم وفسادهم، ولقد سلط الله عليهم الأمم وصدق وعده فيهم ﴿إنّ ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب وآمن.

١٦٨ ـ ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿وقطعناهم في الأرض أمما﴾ أي فرقناهم في الأرض شراذم مشتتين، في بلدان متعددة بعد أن كانوا أمة واحدة كما هي حالهم اليوم ﴿منهم الصالحون﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت، والذين آمنوا بالأنبياء والرسل ﴿ومنهم دون ذلك﴾ دون وصف الصلاح، وهم درجات منهم الغلاة في الكفر والفسق، كالذين يقتلون النبيين ومنهم السماعون للكذب الأكالون للسحت ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ أي امتحنّاهم بالنقم التي تسوء وقيل الحسنات الخير، والخصب والعافية والصحة، والسيئات الجدب، والشر والشدائد، ﴿لعلهم يرجعون﴾ لكي يتوبوا.

ثم ذكر سبحانه الأخلاف بعد ذكر الأسلاف فقال:

١٦٩ ـ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ أي من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح، والبر والفاجر، خلف سوء وبعد وشر لأنه خلف بسكون اللام خلف الشر والسوء وبفتحها خلف الخير والصلاح ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي يأخذون هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا، والمراد به ما كانوا يأكلونه من السحت والزنى والرشى ﴿ويقولون سيغفر لنا، وإن يأتهم عَرَض مثله يأخذوه﴾ أي يقولون ذلك، والحال أنهم مصرون على ذنبهم إنْ يأتهـم عرض آخر مثله، أى مثل الذي أخذوه أولا بالباطل يأخذوه ولا يتعففون عنه ومغفرة الله للتائبين الذين يتركون الذنوب ندماً وخوفاً ويصلحون ما أفسدوا قال الله تعالى في سورة طه[1]: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق﴾ وهو الميثاق المذكور في التوراة حيث أكّد الله عليهم في التوراة أن لا يقولوا إلا الحق فقالوا الباطل ﴿ودرسوا ما فيه﴾ قرأوه فهـم ذاكرون له ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ أي أن الباقي خير من الفاني.

القــــراءة

﴿أفلا تعقلون﴾، قرأ نافع وابن عامر وحفص: ﴿أفلا تعقلون﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون: بالياء.

---

(١) الآية: ٨٢.

ثم لما ذكر حال من ترك التمسك بالتوراة، أتبعها حال من تمسّك أي اعتصم به فقال:

١٧٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

﴿والذين يُمَسِّكون بالكتاب﴾ أي يستمسكون به في أمور دينهم وهم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى فلم يحرفوه، ولم يكتموه، والكتاب في الآية عام يشمل كل كتب الله بما فيها القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾ تخصيصها بالذكر من بين سائر العبادات مع دخولها بالتمسك بالكتاب للتأكيد عليها ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ تنبيهاً على أن الصلاح كالمانع من التضييع أي لا نضيع أجرهم لصلاحهم أنفسهم وإصلاحِهم غيرهم.

القــــراءة

﴿والذين يمسكون الكتاب﴾، قرأ أبو بكر: ﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون: ﴿يمسّكون﴾ بالتشديد.

عاد الكلام إلى قوم موسى عليه السلام فقال سبحانه:

١٧١ ـ ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة﴾ النتق الرفع قال الله تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾(١) والجبل هو جبل الطور في سيناء بمصر كأنه غمامة أو سقيفة والظلّة: كل ما علا وأظلّ ﴿وظنّوا أنّه واقع بهم﴾ أي ساقط عليهم وتيقنهم أن الجبل ساقط لا محالة عليهم لعلمهم أن الجبل في الجو لا يثبت أبداً ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾.

ومعنى الآية: ختم الله قصة بني إسرائيل بهذه الآية هنا للتذكير ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم في إثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته فإن في تلك الفاتحة إشارة إلى هذه الخاتمة وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذوا بالشريعة بقوة وعزم فعصوا وتركوا أمر ربهم وتثاقلوا العمل بها فرفع الله فوقهم جبل الطور وأوقع الرعب من خوف وقوعه بهم، وقد تقدّم في معنى هذه الآية آيتان من سورة البقرة (٦٣) والنساء الآية: (١٥٤).

آية الميثاق لبني آدم

ثم ذكر سبحانه ما أخذ على الخلق من المواثيق بعقولهم بعد ما ذكره من المواثيق التي في الكتب جميعاً بين دلائل السمع والعقل وإبلاغا في إقامة الحجة فقال:

١٧٢ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ الظهور جمع ظهر وهو العمود الفقري للإنسان، والذرية السلالة للإنسان من الذكور والإناث، والمعنى: اذكر أيها الرسول في إثر ذكر ميثاق الوحي على بني إسرائيل خاصة ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع فيهم غريزة الإيمان، وجعل في مدارك عقولهم الضرورية بما يتناسب وحالهم أنهم مخلوقون لخالقهم، وخالق آبائهم وأمهاتهم، وربهم رب آبائهم وأمهاتهم، ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ والمراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد.

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى(١): ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة هل تجدون فيها من جدعاء» ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو ﴿من ظهورهم ذرياتهم﴾ بالألف وكسر التاء، وقرأ أهل مكة والكوفة ﴿ذريتهم﴾. قرأ أبو عمرو ﴿أن يقولوا يوم القيامة﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء.

١٧٣ ـ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾ اخترعوا الإشراك وهم سنوه من قبل زماننا فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿وكنا ذرية من بعدهم﴾ لا نهتدي إلى سبيل التوحيد فاتبعنا منهاجهم على جهل منا بألوهيتك ﴿أفتهلكنا﴾ تعاقبنا ﴿بما فعل المبطلون﴾ من آبائنا المضلين.

القــــراءة

﴿أو تقولوا﴾ قرأ أبو عمرو ﴿أو يقولوا﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء.

١٧٤ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أي ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم لعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم، والآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

يعذر يوم القيامة بالشرك بالله تعالى، ولا بفعل الفواحش والمنكرات التي تنفر منها الفطر السليمة، وتدرك ضررها وفسادها العقول المفكرة، وإنما يعذرون بمخالفة هداية الرسل فيما من شأنه ألا يعرف إلا بواسطتهم وهو أكثر العبادات التفصيلية.

مثل المكذبين الضالين

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ، أن يقرأ عليهم قصة أخرى من أخبار بني إسرائيل فقال:

١٧٥ - ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾.

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله، على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها، وأحكامها قادراً على بيانها، لكنه لم يعمل بها وخالف علمه عمله لها فسلبها الله، لأن العلم الذي لا يعمل به ولا ينتفع به الناس لا يلبث أن يزول فأشبه بالحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض ﴿فأتْبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ أي لما صار من غير علم يردعه تبعه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة له إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته، فصار من المفسدين الضالين الراسخين في الغواية.

ثم عمّم بالتمثيل جميع المكذبين فقال:

١٧٦ - ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي الآيات أي ولو شئنا رفعه لرفعناه إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي ركن إلى الدنيا واختارها ومال إليها ﴿واتبع هواه﴾ في اختياره للشر ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ وبه يضرب المثل للخساسة، لأنه يأكل الجيف ويرجع في قيئه ﴿إن تحمل عليه﴾ إذا شددت عليه وطردته ﴿يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي أنه دائم اللهث على كل حال واللهث اندلاع اللسان مع النفس الشديد وذلك طبع الكلب ﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ لأن الكافر إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، وهو مع إرسال الرسل إليه كمن لم يأته رسول ولا بينة ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أي فاقصص تلك الحال المشابهة حالة هؤلاء المكذبين بما جئت به من آيات القرآن البينات، رجاء أن يتفكروا فيها فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم. والآية تدل على ضرب الأمثال في تأثير الكلام، كما تدل على شأن التفكير وكونه مبدأ العلم وطريق الحق، ولذلك حث الله عليه في مواضع من كتابه، وبين أن الآيات والدلائل إنما تساق إلى المتفكرين لأنهم هم الذين يعقلونها.

ثم ذكر تأكيداً آخر في باب التحذير فقال:

١٧٧ ـ ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾.

﴿ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وقبحت صفتهم في الصفات وبما اختاروه لأنفسهم من الإعراض عن التفكر في الآيات وإنما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادتي الدنيا والآخرة.

صفة أهل النار

ثم بيّن أن الهداية والضلال بتقديره فقال:

١٧٨ ـ ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾.

أي من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلوك الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة، وإرشاد الدين فهو المهتدي، ومن يخذله الحرمان فيتبع هواه وشيطانه في ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته تعالى وشكر نعمته، فهو الضال الكفور الخاسر لسعادتي الدنيا والآخرة.

قال سبحانه في معرض الذم:

١٧٩ ـ ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾.

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس﴾ ذرأنا خلقنا ومنه ذرية الرجل إنما هي الخلق منه، وهمزها بتركه أكثر العرب، واللام لام العاقبة مثل قوله تعالى: ﴿ليكون لهم عدوا﴾[1] وقد أخبر الله في هذه الآية بنفاذ علمه في الثقلين من الجن والإنس أنهم يصيرون إلى النار بسبب كفرهم كما يصير فريق آخر إلى الجنة ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾[2] ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾[3] ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ لما أعرض القوم عن الحق والتفكّر فيه، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يسمع ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أي ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله في خلقه، ويؤخذ من آيات القرآن الكثيرة المرشدة إلى النظر في آياته تعالى في الأنفس والآفاق، وفي تدبر القرآن، والاستفادة مما يرى ويؤثر من تاريخ البشر للعبرة، فإن الآذان قد خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع، كما أن الأبصار خلقت ليستفيد من كل ما يبصر، قال تعالى في آخر سورة ألم السجدة ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٧.

زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ شبههم بالبهائم لأنها تسمع وتبصر ولا تعتبر ومع ذلك فإنها تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند فيقدم على النار ﴿أولئك هم الغافلون﴾.

أسماء الله الحسنى

ثم نبّه بقوله:

١٨٠ - ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ الحسنى تأنيث الأحسن والمعنى: أن أسماء الله كلها حسنى، ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها لابتنائها على أحسن المعاني وأشرفها ﴿فادعوه بها﴾ أي سموه وادعوه بها مثل يا الله، يا رحمٰن، يا رب، وعددها تسعة وتسعون ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ قال الأخفش: ألحد ولحد: لغتان، والإلحاد العدول عن الاستقامة، وقال ابن قتيبة: يحدرون عن الحق ويعدلون فيقولون: اللات والعزى ومناة، ومنه لحد القبر وقال الزجاج: ولا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يسم به نفسه، وعليكم أن تتركوا وتهملوا الذين يلحدون في أسمائه بالميل في ألفاظها، أو معانيها من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل أو شرك، أو تكذيب أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى، ذروا هؤلاء الملحدين ولا تبالوا بهم ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي سيلقون جزاء عملهم.

القــــراءة

﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ قرأ حمزة: ﴿وذروا الذين يَلحَدون﴾ بفتح الياء والحاء، وقرأ الباقون: ﴿يُلحِدون﴾ بضم الياء وكسر الحاء.

المهدون والضالون

١٨١ - ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿وممن خلقنا أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ عطف على جملة ولقد ذرأنا وكلتاهما تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾ وهذه الأمة هي الفرقة الناجية وهي تشمل المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، وكان ابن جريج يقول: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «هذه أمتي بالحق يأخذون ويعطون ويقضون».

١٨٢ - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ الاستدراج مأخوذ من الدرج واستدرجه رقاه من درجة إلى درجة، وقيل استدعى هلكته من درج إذا مات، وقال الراغب الأصفهاني سنستدرجهم من الآية: سنطويهم طي الكتاب عبارة عن إغفالهم، والمراد يسترسلون في غيهم وضلالهم من حيث لا يدرون شيئاً عن عاقبة أمرهم لجهلهم سنن الله تعالى في المنازعة بين الحق والباطل والمصارعة بين الضار والنافع وكون الحق يدفع الباطل وما ينفع الناس يصرع ما يضرهم، كما قال تعالى[1]: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾.

١٨٣ ـ ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾.

﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ الإملاء الإمداد في الزمن والإمهال، والتأخير وأملى للبعير إذا أرخى له الزمام ووسّع له القيد ليتسع له المرعى ﴿واهجرني ملياً﴾[2] أي زمناً طويلاً.

والمعنى: وأمهل هؤلاء المكذبين المستدرجين في العمر وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب بمقتضى سنتي في نظام الكون للبشر، كيداً لهم ومكراً بهم لا حباً فيهم ونصراً ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾[3] ﴿أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾[4].

إنه تعالى لما بالغ في تهديد الملحدين المعرضين عن آياته الغافلين عن التأمل في بيناته عاد إلى الجواب عن شبهاتهم فقال:

١٨٤ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ، وما استفهامية إنكارية والجنة بمعنى الجنون والمعنى: كذبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنون ما كائن بصاحبهم الذي هو محمد ﷺ والخطاب للكفار ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ تقرير لما قبله وتكذيب لهم فيما يزعمونه حيث تبين حقيقة حاله.

ولما كان النظر في أمر النبوة مفرعاً على دلائل التوحيد قال:

١٨٥ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ الملك العظيم والمراد مجموع العالم ﴿وما خلق الله من شيء﴾ في كل منهما وإن دق وصغر وخفي واستتر، ففي كل شيء له آيه تدل على أنه الخالق ﴿وأن عسى أن

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٤٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥ ـ ٥٦.

يكون قد اقترب أجلهم﴾ والمعنى: أولم ينظروا كيف يسير نظام هذا الملكوت ومنه اقتراب أجلهم أي موتهم فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ المعنى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو النهاية في البيان فبأي كلام يؤمنون بعده.

١٨٦ - ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ من أراد الله له الشر في الدنيا والعقاب في الآخرة حسب علمه سبحانه ونظامه، فلا أحد يستطيع أن يحوله إلى غير الطريق الذي يسر له، والعقاب الذي أعد له، فلا بد أن يناله ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ بيان لسبب ضلالهم من كسبهم وهو الطغيان، وهو تجاوز الحد في الباطل والشر، من الكفر والظلم والفجور الذي ينتهي بضيق النفس، وهو التردد في الحيرة والارتكاس في الغمة.

القــــراءة

﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ قرأ نافع وابن عامر وابن كثير: ﴿ونذرهم في طغيانهم﴾ بالنون والرفع على الاستئناف وقرأ أبو عمرو وعاصم: ﴿ويذرهم﴾ بالياء والرفع على الاستئناف أيضاً، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ويذرهم﴾ بالياء والجزم، عطفاً على موضع الفاء في قوله: ﴿فلا هادي له﴾.

السؤال عن الساعة

لما تكلّم في النبوة والتوحيد والقضاء والقدر أتبعه في المعاد فقال:

١٨٧ - ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ المراد بالساعة التي يموت فيها جميع الخلق، وهذه الآية نزلت جواباً لسؤال وجه للنبي ﷺ، وأيان بمعنى متى ومرساها ثبوتها ومنه مرسى السفينة، ويجليها يظهرها ﴿ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي ثقل وقعها، وعظم أمرها على الخلائق، لأن الله تعالى نبأهم بأهوالها، ولم يشعرهم بميقاتها، فهم يتوقعون أمراً عظيماً لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه، قال تعالى في أول سورة الحج: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد﴾.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ هذا تكرار للجواب إثر تكرار السؤال للمبالغة في التأكيد بوقت مجيئها، وتخطئة من يسألون عنها، ولا يعلمون أنّ اختصاص علمها به وحده تعالى، ومعنى حفي عنها أي كأنك معني بطلب علمها ومبالغ في السؤال عنها.

ثم أمر نبيه بإظهار ذلة العبودية حتى لا ينسب إليه نقص ولا يعاب من قبل عدم العلم بالغيب فقال:

١٨٨ ـ ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلّا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾.

نفي الشرك عن آدم وحواء

ثم رجع إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك فقال:

١٨٩ ـ ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ أي خلقكم من جنس واحد كانت في الأصل نفس واحدة هي آدم، وجعل الزوجة من جنس الذكر إنسانة مثله، وذلك لكي يسكن إليها، ترتاح له ويرتاح لها، كما قال الله تعالى[1]: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ قال تعالى: ﴿فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ الغشاء الغطاء، وهو في الآية كناية نزيهة عن الجماع، فحملت الأنثى من الزوج فمرت بهذا الحمل الخفيف في حياتها من غير اهتياج، فلما حان وقت وضعها توجه الناس إلى الله يدعونه بأن يعطيهما ولداً صالحاً، أي سوياً من الأمراض تام الخلقة ليفرحوا به وتقرّ به أعين والديه دعوة مخلصين مقسمين له ناذرين أنفسهم لشكر الله.

١٩٠ ـ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

قال الحسن وقتادة الضمير في قوله تعالى: ﴿جعلا له شركاء﴾ عائد إلى النفس وزوجه من نسل آدم لا إلى حواء وآدم، أي فلما ولد لهما ولد كان هذا المولود سبباً لوقوع الشرك منهما، أو ظهور ما هو راسخ في أنفسهما منه. واختتم الله الآية بتعظيم نفسه، وتنزّهه عن زعمهم بأن الأصنام أو الشياطين شاركت في خلقه مع الله.

القـــراءة

﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾، قرأ نافع وأبو بكر: ﴿جعلا له شِركا﴾ بكسر الشين، وقرأ الباقون: ﴿شركاء﴾.
ثم أقام الحجة على أن الأوثان لا تصلح للألوهية فقال:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

١٩١ ـ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

والمعنى: إنَّ الله سبحانه ينكر عليهم عبادتهم للشياطين والأصنام وغيرها من المعبودات حال كونها مخلوقة، وإنما قال: ﴿ما﴾ ثم قال: ﴿يخلقون﴾ يعني بذلك الأصنام، لأن عابديها ادعوا أنها تعقل وتميز فأجريت مجرى الناس، فهو كقول نبي الله يوسف عليه السلام[1]: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ أي الشمس والقمر.

ثم بيّن أن المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرّ فقال:

١٩٢ ـ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بهذه الآيات آدم وحواء اعتماداً على بعض الآثار الواردة من أهل الكتاب وقد فندها الإمام ابن كثير في تفسيره وقال في المجلد الثاني: وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم من آثار أهل الكتاب، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد المشركون من ذريته ولهذا قال: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ وذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الذرية وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس.

وبعد أن ذكر أنها لا تنفع ولا تضرّ بين أنها لا علم لها بشيء من الأشياء وأنها لا يصح منها إذا دعيت إلى الخير والصلاح الاتباع فقال:

١٩٣ ـ ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾.

﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ لانغماسهم في الكفر والشرك ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ والمعنى: وإن تدع يا محمد هؤلاء المشركين إلى الهدى لا يتبعوكم، فدعاؤكم إياهم وصمتكم عنهم سواء لأنهم لا ينقادون إلى الحق.

القـــراءة

﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ قرأ نافع ﴿لا يتبعوكم﴾ ساكنة التاء، وقرأ الباقون: ﴿لا يتبعوكم﴾ من، اتّبع، يتّبع.

١٩٤ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ يعني الأصنام ﴿عباد أمثالكم﴾ في أنهم مسخرون مذللون لأمر الله، وإنما قال عباد وقال فادعوهم لرعاية معناها، إنما هو بحسب اعتقادهم فيها، وإجرائهم لها مجرى العقلاء وتسميتها آلهة، ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ تحقيق لتقرير مضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم، أي فادعوهم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤.

في رفع ضر أو جلب نفع، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه.

١٩٥ ـ ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾.

﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ تبكيت إثر تبكيت مؤكد لما يفيد الأمر التعجيزي من عدم الاستجابة، ببيان فقدان آلاتها بالكلية، وفي هذا تفضيل العابدين على المعبودين، وتوبيخ لهم حيث عبدوا من هم أفضل منه ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾ أمر للنبي ﷺ بأن يناصبهم الحجة ويكرر عليهم التبكيت بعد أن بين أن شركاءهم لا يقدرون على شيء أصلاً، أي ادعوا شركاءكم واستعينوا بهم عليّ جميعاً، وبالغوا ما تقدرون عليه ﴿فلا تنظرون﴾ فلا تمهلوني ساعة فإني لا أبالي بكم أصلاً، وياء المتكلم في الحالين، كيدوني وفلا تنظروني.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو ﴿كيدوني فلا تنظروني﴾ باثبات ياء فيهما، وقرأ الباقون بحذف الياء فيهما.

ثم لما أمره ﷺ بالتبرىء حثه على التولي فقال:

١٩٦ ـ ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

﴿إنّ وليي الله الذي نزل الكتاب﴾ القرآن ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ تذليل مقرر لمضمون ما قبله أي إن من عادته جل شأنه أن ينصر الصالحين من عباده وهو ناصرهم لأنه وليهم.

ثم أعاد وصف الأصنام بمثل الصفات المذكورة فقال:

١٩٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾.

﴿والذين تدعون من دونه﴾ أي تعبدونهم ﴿لا يستطيعون نصركم﴾ في أمر من الأمور ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ إذا أصيبوا بحادثة.

١٩٨ ـ ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

﴿وإن تدعوهم﴾ أي الأصنام ﴿إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك﴾ يقابلونك كالناظر بمعاينتك لهم ﴿وهم لا يبصرون﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، لما ذكر فساد طريقة عبدة الأصنام وبيّن النهج القويم والصراط المستقيم أرشد إلى مكارم الأخلاق فقال:

١٩٩ ـ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾.

﴿خذ العفو﴾ الميسور ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس، ولا تحصي عليهم الأخطاء فتظهر منهم

البغضاء ﴿وأمر بالعرف﴾ أي بالمعروف المستحسن من الأفعال فإن ذلك أقرب إلى قبول الناس من غير تكبر، ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أي لا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم واحلم عليهم، وقال الآلوسي: ولا ضرورة إلى دعوى النسخ في الآية، كما لا يخفى على المتدبر، بل قال العلماء إنّه ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

٢٠٠ ـ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ﴾ النزغ والنخس هو إدخال الإبرة أو طرف العصا في الجلد، يقال: أنزغت ما بين القوم إذا أفسدت ما بينهم، ومن الشيطان وسوسته حيث شبّه وسوسته إغراء للناس على المعاصي ﴿فاستعذ بالله﴾ فاستجر به والتجىء إليه سبحانه في دفعه عنك، إنّه سميع عليم يعلم كذلك تضرّعك إليه.

ثم بيّن أن حال المتقين قد تزيد على حال النبي في باب وسوسة إبليس، وقد يكون للنبي النزغ أما المتقون فقد يمسّهم الشيطان وذلك قوله:

٢٠١ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

﴿إن المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا﴾ أي لمسة منه، وتنوينه للتحقير، والمراد وسوسته بأي شيء ما ﴿تذكروا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ الحق ومواقع الخطأ ومناهج الرشد فيحترزون عما يخالف أمر الله.

القـــراءة

قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿طائف﴾ بالألف وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿طيف من الشيطان﴾ أي لمسة وخطرة من الشيطان.

لما بين أن المتقين إذا وسوس لهم الشيطان تذكروا ما أمر الله به ونهى، بين بعده أن إخوان إبليس من كفار الإنس يعاونون بعضهم بعضاً في الضلال من التزيين لهم فقال:

٢٠٢ ـ ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾.

﴿وإخوانهم﴾ أي إخوان الشياطين من الكفار ﴿يمدونهم في الغيّ﴾ أي يعاونونهم في الضلال من التزيين لهم ﴿ثم لا يقصرون﴾ أي لا يمسكون ولا يكفون عن إخوانهم حتى يردوهم، سادرين.

القـــراءة

قرأ نافع: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ بضم الياء وكسر الميم، وقرأ الباقون: ﴿يمدونهم﴾ بفتح الياء، ثم ذكر نوعاً واحداً من إغوائهم فقال:

٢٠٣ ـ ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ من القرآن عند تراخي الوحي، أو بآية كونية كما اقترحوا، ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي هلا جمعتها ولفقتها من عند نفسك افتراء، أو هلا أخذتها من الله تعالى بطلب منه، وهو تهكم منهم لعنهم الله، ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي﴾، من غير أن يكون لي دخل، كأنه قال ما أفعل إلاّ اتباع ما يوحى إليّ منه تعالى دون الاختلاق ﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر﴾ حجج بمنزلة البصائر للقلوب، بها تبصر الحق، وتدرك الصواب، والكلام خارج مخرج التشبيه البليغ، ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ للإيذان بأن كون القرآن بصائر متحقق بالنسبة إلى الكل وبه تقوم الحجة على الجميع وكونه هدى ورحمة مختص بالمؤمنين، إذ هم المقتبسون من أنواره، المقتطفون من ثماره.

قراءة القرآن

ولما عظّم شأن القرآن بتلك الأوصاف علّم المكلفين أدباً حسناً في بابه فقال:

٢٠٤ ـ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ إرشاد إلى المنافع التي ينطوي عليها القرآن والاستماع معروف ﴿لعلكم ترحمون﴾ والآية دليل على وجوب الإنصات إذا قرىء القرآن في الصلاة أو خارجها.

ثم أمر نبيه وأمته بتبعيته ﷺ بالذكر العام قرآناً كان أو غيره على سبيل الدوام فقال:

٢٠٥ ـ ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾.

﴿واذكر ربّك في نفسك تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً وخائفاً﴿ودون الجهر من القول﴾ فالله سبحانه يسمع ويعلم السر وأخفى ﴿بالغدو﴾ جمع غدوة، وهو ما بين صلاة الصبح إلى طلوع الشمس فعبّر بالفعل عن الوقت كقولك: أتيتك طلوع الشمس، أي وقت طلوعها، ﴿والآصال﴾ جمع أصيل وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس، وخصّ هذان الوقتان بالذكر قيل: لأن الغدوة عندها ينقلب الحيوان من النوم الذي هو كالموت إلى اليقظة التي هي كالحياة، والعالم يتحوّل من الظلمة التي هي طبيعة عدمية إلى النور الذي هو طبيعة وجودية، أو لأنهما وقت فراغ فيكون الذكر فيهما ألصق بالقلب، ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكر الله تعالى.

٢٠٦ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾.

﴿إن الذين عند ربك﴾ وهم الملائكة، والمراد من العندية القرب من الله تعالى بالزلفى والرضا والطاعة لا المكانية لتنزه الله تعالى عن ذلك، ﴿لايستكبرون عن عبادته﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا ﴿ويسبحونه﴾ أي ينزهونه عما لا يليق بحضرته، ﴿وله يسجدون﴾ أي ويخضعون له ويخصونه بغاية العبودية، والتذلل.

سُورَةُ الأَنفَالِ

سورة الأنفال سميت بها لأنها تتحدث عن الأنفال والغنائم.

لما ذكر الله جلّ وعلا في سورة الأعراف قصص الأنبياء وختمها بذكر نبينا محمد ﷺ افتتح سورة الأنفال بذكره ثم ذكر ما جرى بينه وبين قومه فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿يسألونك عن الأنفال﴾ جمع نفل وهو الزيادة، ولذا قيل للتطوع نافلة، ثم صار حقيقة في العطية، والمراد فيها بالآية الغنائم، والسؤال عن حكمها ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ يحكمان فيها ﴿فاتقوا الله﴾ بترك مخالفته ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ بالرد إلى الله والرسول فيما نلتم، وترك المنازعة تسليماً لله ورسوله ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه فإنَّ في ذلك مصالح لا تعلمونها.

لما قال سبحانه: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ ذكر صفة المؤمنين فقال:

٢ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الذين إذا ذكر الله﴾ بعظمته وقدرته وما خوف به من عصاه فزعت قلوبهم استعظاماً لشأنه الجليل وتهيباً منه جل وعلا والاطمئنان المذكور في قوله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[1] لا ينافي الوجل والخوف لأن الذكر في إحداهما ذكر رحمة، وفي الأخرى ذكر عقوبة ﴿وجلت قلوبهم﴾ خافت ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ أي تصديقاً ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾.

٣ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

المراد الصلوات الخمس والزكاة.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ثم لما فرغ من أعمال القلب وهي الخشية والتسليم والتوكل. شرع في وصفهم بأعمال الجوارح، وذكر منها رأسها وسنامها وهما الصلاة والصدقة، ثم عظمهم بقوله:

٤ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ لا شك في إيمانهم كشك المنافقين، ثم أخبر عن مآل حالهم فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ منازل في الجنة يرتقونها ﴿ومغفرة ورزق كريم﴾ ما أعدّ لهم فيها.

غزوة بدر الكبرى

٥ ـ ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾.

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ أي إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله يقسمها، بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها فهي كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر، وكون تلك الطائفة هي المقاتلة في الواقع، والحال أن كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال، أو لأي سبب من الأسباب، أي إخراجاً متلبساً بسبب الحق وهو الجهاد والدعوة، والمراد بالبيت مسكنه بالمدينة وإضافة الإخراج إلى الرب إشارة إلى أنه كان بوحي منه عز وجل ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ الخروج إما لعدم الاستعداد للقتال أو للميل إلى الغنيمة.

ثم بيّن الكراهة بقوله:

٦ ـ ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾.

﴿يجادلونك في الحق﴾ في الجهاد الذي خرجوا له يوم بدر لأنهم خرجوا بغير عدة كاملة ﴿بعد ما تبيّن﴾ الحق لهم بإعلامك أنهم ينصرون، وبيان ذلك أن المسلمين كانوا في حالة ضعف، فكان من حكمة الله أنْ وعدهم إحدى الطائفتين تكون لهم على الإبهام، فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام بقيادة أبي سفيان، وكانت كبيرة ومليئة بالأموال، ولأنها كسب عظيم لا مشقة في إحرازه لضعف حاميته، فلما ظهر أنها فاتتهم باتخاذ أبي سفيان طريقاً آخر، وإن طائفة النفير خرجت من مكة بكل ما كان عند قريش من قوة وقد قربت منهم، وتعين عليهم قتالها، إذ تبين أنها هي الطائفة التي وعدهم الله تعالى، فلم يبق غيرها، صَعُبَ على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها وضعفهم وقوتها، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها، فطفقوا يعتذرون للنبي ﷺ، اعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا إلاّ للعير لأنه لم يذكر لهم قتالاً كبيراً فيستعدوا له ﴿كأنما يساقون إلى الموت﴾ مجرورين له من غير دفع عن أنفسهم ﴿وهم ينظرون﴾ كأنهم ينظرون مصيرهم بأعينهم.

٧ ـ ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ تولى سبحانه إقامة الحجة عليهم بالحق فيما جادلوا فيه رسوله ﴿وتودون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي وتحبون أن يكون لكم العير بدلاً من جيش قريش ولم يكن في العير إلا أربعون فارساً، والشوكة الحدة والقوة ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ المنزلة على رسوله وهو وعده لكم إحدى الطائفتين ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ المعاندين من مشركي مكة وأعوانهم.

٨ - ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ أي يقره ويثبته وهو الإسلام، ويبطل الباطل يزيله ويمحقه، وهو الشرك ﴿ولو كره المجرمون﴾ أولو الاعتداء والطغيان من المشركين، ولا يكون ذلك بالعسير بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت.

ثم ذكر سبحانه ما أتى المسلمين من النصر فقال:

٩ - ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

﴿إذ تستغيثون ربكم﴾، تطلبون منه النصر على الأعداء ﴿فاستجاب لكم أنّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ متتابعين يردف بعضهم بعضاً، وأردفْتُه: إذا أركبته خلفي، ويقال: أردفت الرجل، إذا جئت بعده فمعنى مردفين يأتون فرقة بعد فرقة.

القــــراءة

قرأ نافع: ﴿مردَفين﴾ بفتح الدال مفعول به، وقرأ الباقون: ﴿مردِفين﴾ بكسر الدال.

١٠ - ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وما جعله الله إلّا بشرى﴾ أي الإمداد ﴿ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلّا من عند الله إنّ الله عزيز حكيم﴾.

يقول ابن جرير الطبري[1]: «لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضاً وتتابعها بالمسير إليكم أيها المؤمنون مدداً لكم إلّا بشرى لكم، أي بشارة لكم تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم، ولتطمئن به قلوبكم، ولتسكن بمجيئها إليكم، وتوقن بنصر الله لكم وما النصر إلا من عند الله».

ثم ذكر منة أخرى، منّ بها على المؤمنين كانت من أسباب نصرهم على المشركين في ميدان المعركة فقال:

(١) تفسير الطبري ج ٩ ص ١٢٩.

١١ ـ ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ هذه منة أخرى منّ الله بها على المؤمنين، وهي التي كانت من أسباب ظهورهم على المشركين، وهي إلقاؤه النعاس عليهم حتى غشيهم أي غلب عليهم، تأميناً لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم؛ وذلك أنّ من غلب عليه النعاس لا يخاف كما أن الخائف لا ينام، وفي غزوة أحد ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم﴾[1] ﴿وينزّل عليكم من السماء ماء ليطهّركم به﴾ أي لتشربوا وتتوضؤوا وتغتسلوا فتطهروا من الأحداث والجنابات والأوساخ والأقذار، لأن من كان في الحرب يكون في أمسّ الحاجة للتطهير المادي والمعنوي ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ كيده ووسوسته حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة، وقد يسمى كيد الشيطان رجزاً لأنّه سبب له، والرجز العذاب ثم إنّه قد يسمى الكفر والنفاق رجزاً قال الله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾ يعني الأوثان وقال الله حكاية عن فرعون: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾[2] ﴿وليربط على قلوبكم﴾ الربط الشد.

فالمعنى: وليربط قلوبكم بالصبر والإيمان بالله وإن النصر من عنده، ﴿ويثبت به الأقدام﴾ ﴿به﴾ الضمير يرجع إلى الماء فإن الأرض كانت رملية فاشتدت بالمطر للمشي عليها وثبتت عليها الأقدام لأنّ المسلمين كانوا يقاتلون وهم على الأرض مشاة ليس فيهم راكب فرس إلا المقداد.

القــــراءة

﴿إذ يغشّيكم النعاس . . .﴾ قرأ أبو عمر وابن كثير: ﴿إذ يغشاكم﴾ بالألف، ﴿النعاسُ﴾ رفع، وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة: ﴿إذ يُغشيكم﴾ بضم الياء وتشديد الشين، ﴿النعاس﴾ نصب، وقرأ أهل المدينة ﴿إذ يغشيكم﴾ بضم الياء وسكون الغين، ﴿النعاس﴾ نصب.

تثبيت الملائكة لجند الله

١٢ ـ ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾ والمعنى وليربط إذ يوحي، واذكروا إذ يوحي وهذا الوحي إلهام بالعون والنصرة ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ في المواطن التي تحتاج إلى ذلك في القتال، كلام مستأنف موجّه للرسول ﷺ وأصحابه ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ البنان أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، والواحدة بنانة والمراد بها في الآية حقيقة الأصابع لأنّها التي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

تمسك السيوف والرماح وآلات الحرب، فإذا سقطت أو جرحت تعطل المقاتل.

يرى بعض المفسرين اعتماداً على روايات ضعيفة أو مرسلة أنّ الملائكة قاتلت إلى جانب الصحابة في غزوة بدر، والصحيح ما عليه جمهور المفسرين، أن الملائكة نزلت بأمر الله للتثبيت، والربط على القلوب وتكثير سواد المؤمنين، حيث لم يرد حديث صحيح عن النبي ﷺ، وقال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار[1]: «ليس في القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل وقوله تعالى: ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ مقتضى السياق فيه أنّ وحي الله للملائكة قد تمّ بأمره بتثبيت المؤمنين كما يدل عليه الحصر في قوله تعالى عن إمداد الملائكة ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ وقوله تعالى: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ بدء كلام خوطب به النبي ﷺ والمؤمنون تتمة للبشرى فيكون الأمر بالضرب موجّهاً إلى المؤمنين قطعاً وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر.

ثم بيّن أنّ الذي نزل بالكفار في ذلك اليوم شيء يسير، وقدر نزر في جنب ما أعدّ الله لهم ولأمثالهم في الآجل فقال:

١٣ - ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى العذاب لهم والأمر والضرب فوق الأعناق وتمكين المسلمين من الكفار. ﴿بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ جانبوا فصاروا في شق غير شق المؤمنين به، ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ كأنه قيل ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله تعالى.

١٤ - ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

الخطاب للمشركين مسوق للوعيد أي ذلكم العقاب الذي نالكم ونال أصحابكم، فذوقوه عاجلاً مع أن لكم عذاب النار آجلاً فوقع الظاهر موضع الضمير لتوبيخهم بالكفر وتعليل الحكم به.

توجيهات حربية في الإسلام

إنه سبحانه لما أمرهم بالقتال في الآيات المتقدمة ذكر عقبها ما كان من الفتح يوم بدر، فقال:

١٥ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ في ميدان المعركة، والزحف جماعة يزحفون إلى الميدان للقاء عدوهم، والتزاحف: التداني والتقارب، والمعنى: إذا واقفتموهم للقتال وجهاً لوجه فلا تدبروا ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ والمعنى: إذا لقيتم الكفار ماشين لقتالكم متوجهين لمحاربتكم، أو ماشياً كل واحد منهم نحو صاحبه فلا تدبروا، وتقيد النهي بذلك لإيضاح المراد بالملاقاة ولتفظيع أمر الإدبار لأنه مناف لتلك الحال.

ونهى عن الفرار فقال:

(١) ج ٩ ص ٦١٣ بتصرّف.

١٦ ـ ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ أي يوم اللقاء ووقته أي تاركاً خندقه والمكان الذي يحارب فيه ويحرسه ثم بيّن أن الانهزام محرّم إلا في حالتين فقال: ﴿إلّا متحرفاً لقتال﴾ أي تاركاً موقعه إلى موقع أصلح منه ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أو متوجهاً إلى قتال طائفة أخرى أو بانضمامه إلى جماعة أخرى من المؤمنين حسب تكتيك القتال وأوامر القادة ومتطلبات الحال ومن خالف ذلك ﴿فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾.

١٧ ـ ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿فلم تقتلوهم﴾ الخطاب للمؤمنين بقوتكم وقدرتكم ﴿ ولكن الله قتلهم﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ خطاب لنبيه ﷺ أي ما رميت تلك القبضة من التراب بإلقائها في الهواء فأصابت وجوههم ولكن الله هو الذي رمى وجوههم كلهم بما أوصل التراب الذي ألقيته في الهواء إليها مع قلته ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم﴾ ينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والأجر.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر: ﴿ولكن﴾ بالتخفيف ﴿الله﴾ رفع، وكذلك الذي بعده، وقرأ الباقون: ﴿ولكن﴾ بالتشديد ﴿الله﴾ نصب.

١٨ ـ ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى القتل والرمي والبلاء الحسن ﴿وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ الموهن المضعف والكيد المكر أي أن الله مضعف مكر الكافرين ومحاولاتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن تقوى وتشتد.

القــــراءة

﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿موهن﴾ بالتشديد ﴿كيد﴾ نصب، وقرأ أهل الكوفة وأهل الشام ﴿موهن﴾ بإسكان الواو، كلهم ينصبون ﴿كيد﴾ وينونون ﴿موهن﴾ إلا حفصاً عن عاصم فإنه أضافه، فقرأ ﴿موهنُ كيدِ﴾.

ثم وجه الخطاب للمشركين على سبيل التهكم فقال:

١٩ ـ ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿إن تستفتحوا﴾ خطاب للمشركين على سبيل التهكم فقد روي أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين ﴿فقد جاءكم الفتح﴾ حيث نصر أعلاهما أو فقد جاءكم الهلاك والذلة ﴿وإن تنتهوا﴾ عن حرب الرسول ومعاداته ﴿فهو خير لكم﴾ من الحرب الذي ذقتم بسببها ما ذقتم، من القتل والأسر والجراح ﴿وإن تعودوا﴾ إلى حرابة النبي وأصحابه ﴿نعد﴾ لما شاهدتموه وعرفتموه ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً﴾ جماعتكم التي تجمعونها من القبائل وتستغيثون بها ﴿ولو كثرت﴾ ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ ناصرهم.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر وحفص: ﴿ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين﴾ بفتح الألف.

تحذير من المخالفة

إنه سبحانه بعد ذكر نحو من قصة بدر والغنائم أدّب المؤمنين أحسن تأديب، فأمرهم بطاعته وطاعة رسوله في قسمة الغنائم وغيرها، فقال:

٢٠ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا﴾ أي تتولوا تعرضوا ﴿عنه وأنتم تسمعون﴾.

٢١ ـ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين يدّعون السماع ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماعاً ينتفعون به، لأنهم لا يصدقون ما سمعوه ولا يفهمونه حسن فهمه، والمنفي سماع خاص، لكنه أتى به مطلقاً للإشارة إلى أنهم نزلوا منزلة من لم يسمع أصلاً بجعل سماعهم كالعدم.

ثم ذكر سبحانه الكفار فقال:

٢٢ ـ ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿إن شر الدواب عند الله﴾ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم، مبالغة في التحذير وتقرير للنهي، والدواب جمع دابة أي أن شر من يدب على وجه الأرض من البهائم في حكم الله وقضائه ﴿الصم﴾ الذين لا يسمعون ﴿البكم﴾ الذين لا ينطقون، ثم وصفوا بعدم التعقل في قوله تعالى: ﴿الذين لا يعقلون﴾ تحقيقاً لكمال سوء حالهم، فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره، أما إذا كان فاقد العقل فقد بلغ الغاية في الشرّية وسوء الحال.

٢٣ ـ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ هذه الآية مرتبطة بما قبلها، والضمير فيهم يعود على الدواب والمعنى: ولو علم الله أزلاً أن في هذه الدواب فائدة في سماع كلام البشر لجعل لهم ذلك ﴿ولو أسمعهم﴾ الله الكلام بأن جعله يصل إليهم كسائر الحيوانات الأخرى التي تسمع كلام الآدميين وتقلده، أي ولو أسمعهم ذلك، ومع ذلك ﴿لتولوا﴾ مشوا ﴿وهم معرضون﴾ أي غير عابئين بما يقال لهم، لكونهم حيوانات بهيمة لا تفهم حتى ولو سمعت، ولذلك لم يجعل الله لهم السمع أصلاً، وهذا مثل، ضربه الله لأولئك الذين أعطاهم الله القلوب والسمع والبصر والعقل والأطراف لكي يستعملوها فيما خلقت له، لكنهم كانوا يقولون سمعنا وهم لا يسمعون ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾[1] يعني كسارحة الغنم، تسمع نغمة صراخ الناعق فترفع رؤوسها ولكنها لا تفهم له معنى، فإذا سكت عادت إلى مرعاها.

قال الله في سورة الأعراف ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾[2].

حياة المسلمين بدينهم

ثم أمر سبحانه بطاعة الرسول ﷺ فقال:

٢٤ ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ لما يعزكم ويرفعكم ويعلي شأنكم وهو الجهاد في سبيل الله، فبالعز تكون الحياة، وبالذل يكون الموت، والاستجابة للرسول قد بعثت الحياة في أمة الإسلام فعلا، والتاريخ خير شاهد على ذلك، والدين سبب الحياة، فهو يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ أصل الحول تغير الشيء وانفصاله عن غيره، والمعنى: اعلموا أيها القاعدون عن الجهاد بأن الله يأخذ الإنسان بغتة فيحول بينه وبين روحه بالموت، فلا يقدر أن يحصل شيئاً من الأعمال التي فاز بها المجاهدون غيره ﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي اعلموا أنكم إلى الله تجمعون يوم القيامة فيجازيكم.

ثم حذرهم الفتن والاختلاف فقال:

٢٥ ـ ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي لا تختص إصابتها من يباشر الظلم منكم بل تعمه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

(٢) الآية: ١٧٩.

وغيره، والمراد بالفتنة الذنب وفسر بنحو إقرار المنكر، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وافتراق الكلمة ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن خالف أمره.

ثم ذكر سبحانه حالتهم السالفة في القلة والضعف وإنعامه عليهم بالنصر والتأييد والتكثير فقال:

٢٦ - ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ عددكم ﴿مستضعفون في الأرض﴾ أي في أرض مكة ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ كفار قريش وغيرهم، أي واذكروا حالكم وقت قلتكم وذلتكم وهوانكم على الناس وخوفكم من اختطافكم ﴿فآواكم﴾ إلى المدينة ﴿وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾ الغنائم ﴿لعلكم تشكرون﴾ هذه النعم الجلية.

الأمانات

ثم أمر سبحانه بترك الخيانة فقال:

٢٧ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله﴾ تعالى بتعطيل فرائضه، أو تعدي حدوده وانتهاك محارمه، التي بينها في كتابه ﴿والرسول﴾ بالمخالفة لسنته ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ أي ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم من الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمالية وغيرها، وآكد أمانات السر وأحقها ما يكون بين الزوجين وما يكون من الساسة لمصلحة الوطن والخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا عهد له ولا دين لمن لا عهد له» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ﴿وأنتم تعلمون﴾.

ثم كان الداعي إلى الخيانة هو محبة الأموال والأولاد، نبه الله سبحانه على أنه يجب على العاقل أن يحترز من المضار المتولدة من ذلك الحب فقال:

٢٨ - ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ الفتنة الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره فتكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ فلا تفرطوا في ثواب الله من أجل حب المال والأولاد، فما عندكم ينفد وما عند الله باق.

تقوى الله وأثرها

لما أمر الله بالطاعة وترك الخيانة، بيّن بعده ما أعده لمن امتثل أمره في الدنيا والآخرة فقال:

٢٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ أي هداية ونوراً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم﴾ أي يسترها في الدنيا ﴿ويغفر لكم﴾ بالتجاوز عنها ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ تعليل لما قبله.

عداوة الكفار للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بمكة

٣٠ ـ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾.

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك﴾ أي ليمنعوك من التحرك، والمراد به الشّد بالوثاق والإرهاق بالقيد والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم للإسلام ﴿أو يقتلوك﴾ بسيوفهم ﴿أو يخرجوك﴾ أي من مكة ﴿ويمكرون﴾ أي يتآمرون ﴿ويمكر الله﴾ أي يرد مكرهم، بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج فأحبط مكرهم وأخرج رسوله من بينهم إلى حيث مهد له في دار الهجرة ووطن القوة والدعوة، ويجعل وخامته عليهم ﴿والله خير الماكرين﴾ لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله، وخذل للباطل وإذلال لأهله.

ثم أخبر سبحانه عن عناد هؤلاء الكفار ومباهتهم للحق فقال:

٣١ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ من القرآن ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وأياً ما كان القائل فهو غاية المكابرة، ونهاية العناد، إذ لو استطاعوا شيئاً مما يقولون لفعلوه، وقد تحداهم عليه الصلاة والسلام، وقرعهم بالعجز عشرين سنة ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا بما سواه، مع أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا أو يتحداهم أحد، لا سيما في ميدان البيان، ومجال البلاغة والفصاحة ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي قصصهم وأحاديثهم التي سطرت في الكتب على علاتها وما هو بوحي من الله.

لا عذاب لأمة محمد في الدنيا

٣٢ ـ ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

﴿وإذْ قالوا اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾

روى البخاري أنَّ القائل هو أبو جهل، وقد نسب هذا القول لغيره من طواغيت قريش فلا إشكال فقد يكون أنَّ الذي قال أول من قال أبو جهل، وردده غيره حيث أنزل الله ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾.

ثم شرع في الجواب عن شبهتهم فقال:

٣٣ ـ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ قال الله ذلك رداً عليهم، أي ليس من سنن الله ولا من مقتضى رحمته أن يعذب أمتك لأن الله أرسلك رحمة للعالمين ونعمة لا عذابا ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أي ما دام الشر يعم وأن هناك من يستغفر الله من المؤمنين ومن يستغفر الله ويتوب من الكافرين، فإن الله سبحانه اقتضت حكمته أن يؤخر العذاب عن أمة محمد كما وردت بذلك العديد من الآيات التي مرت بنا والتي سيمر الكثير منها، ومنها ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[1].

ثم بين نوع العذاب الذي يمكن أن يصيبهم في الدنيا من الجهاد على أيدي المسلمين فقال:

٣٤ ـ ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وما لهم﴾ أي الكفار المعاندون ﴿ألا يعذّبهم﴾ وحدهم بأيديكم ﴿الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ يمنعون النبي ﷺ وأصحابه أن يطوفوا به ويصلوا فيه ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أوصياء على المسجد من الله وكلاء مفوضين ﴿إن أولياؤه﴾ أي ما أولياء المسجد الحرام ﴿إلا المتقون﴾ للشرك والمراد بهم المسلمون ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن لا ولاية للكفار عليه.

التصفيق والصفير عبادة الجاهلية

ثم ذكر بعض أسباب سلب الولاية منهم فقال:

٣٥ ـ ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ الحرام الذي صدُّوا المسلمين عنه ﴿إلا مكاء﴾ أي صفيرا ﴿وتصدية﴾ أي تصفيقاً وهو ضرب اليد باليد، بحيث يسمع له صوت وصدى وهو ترجيع الصوت ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

ولما شرح أحوال هؤلاء الكفار في الطاعات البدنية أتبعها شرح أحوالهم في الطاعات المالية فقال:

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٧.

٣٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله﴾ إن هؤلاء الذين كفروا ينفقون أموالهم في الصرف منها على كل من يعادي الدعوة الإسلامية، أو يقف حائلاً ضدها، بل كل من يحارب المسلمين وذلك ليمنعوا الناس من الإيمان بالحق ﴿فسينفقونها﴾ الآن في الدنيا ﴿ثم تكون عليهم حَسْرة﴾ ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه ﴿ثم يغلبون﴾ إما في المعارك أو على أمرهم بسبب كفرهم ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي يساقون إليها.

ثم بيّن الغاية والغرض فيما يفعل بهم من الغلبة، ثم الحشر إلى جهنم فقال:

٣٧ ـ ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح، واللام متعلقة بيحشرون وقد يراد بالخبيث ما أنفقه المشركون لعداوة رسول الله ﷺ ﴿من الطيب﴾ ما أنفقه المسلمون لنصرته ﷺ ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾ كله ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الخبيث ﴿هم الخاسرون﴾ الواقعون في الخسران، لا ربح في تجارتهم مع الله لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

القــــراءة

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ليميز﴾ خفيفة، وقرأ حمزة والكسائي: بالتشديد.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بدعائهم إلى التوبة والإيمان فقال:

٣٨ ـ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصدهم عن سبيل الله، قفى عليه ببيان حكم الذين يرجعون ويدخلون في الإسلام، لأن الأنفس صارت تتشوق لهذا البيان، وتتساءل عنه بلسان الحال أو المقال ﴿قل للذين﴾ أي قل أيها الرسول إن ينتهوا عما هم عليه، من عداوتك وعنادك بالصَّد عن سبيل الله ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من الذنوب فلا يعاقبهم على شيء، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون ﴿وإن يعودوا﴾ إلى القتال والصّد وما كانوا عليه من العداء والكفر ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ سنة الله في خلقه السابقين الجارية في الذين تحزبوا على الأنبياء فنصر الله المؤمنين عليهم، وخذلهم ودمّرهم ونظير ذلك قوله تعالى[1]: ﴿سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ مع أنها سنة الله

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٧.

ولكنها أضيفت إليهم باعتبار جريانها على أيديهم.

ثم أمر بقتالهم إن أصرّوا على الكفر فقال:

٣٩ ـ ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي وقاتلوهم أيها الرسول ومن معك من المؤمنين، حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الإيذاء، من الصد مما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان في مكة، وفسر بعض المفسرين الفتنة بالشرك، أي قاتلوهم حتى لا يكون هناك شرك في الأرض ﴿ويكون الدين كله لله﴾ أي لا يستطيع أحد أن يفتن عن دينه ليكرهه على تركه إلى دين المكره فيتقلده، فيكون الدين حراً لله، أي يكون الناس أحراراً في الدين لا يكره أحد على تركه إكراهاً، ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيباً ويدل على العموم قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾[1] ﴿فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾.

٤٠ ـ ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

﴿وإن تولّوا﴾ فأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فاعلموا أنَّ الله مولاكم﴾ أي فأيقنوا أن الله تعالى هو ناصركم ومتولي أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا فهو ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾.

الغنائم

ثم بيّن سبحانه حكم الغنيمة فقال مخاطباً المسلمين:

٤١ ـ ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ ما نيل من المشركين والكفار في حال الحرب فحكمه أنْ يقسم خمسة أخماس، خمس منها لله وللرسول ولقرابة النبي واليتامى، وهم أطفال المسلمين الذي مات آباؤهم وهم فقراء، والمساكين وهم ذوو الحاجة من المسلمين، وابن السبيل وهو المنقطع في سفره المباح، والمخصص من خمس الغنيمة لله وللرسول، يرصد للمصالح العامة التي يقررها الرسول في حياته، والإمام بعد وفاته، وأربعة أخماس الغنيمة تقسم على المقاتلين في الجيش. ﴿فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾ هو يوم بدر حيث فرق في ذلك اليوم بالسيف

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ الجيشان المؤمنون والكافرون والذي أنزل هذه الآيات من القرآن لتقرر الأحكام ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

بيان مراكز المسلمين والمشركين يوم بدر

ثم بيّن سبحانه نصرته للمسلمين ببدر فقال سبحانه:

٤٢ ـ ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ عدوة الوادي وعدوته جانبه، والجمع عدى والدنيا تأنيث الأدنى والمعنى: اذكروا إذ كنتم بشفير الوادي الأدنى من المدينة ﴿وهم﴾ أي المشركون ﴿بالعدوة القصوى﴾ أي البعدى من المدينة، أي بشفيره الأقصى بعد المدينة والأدنى من مكة، وكان الجمعان قد نزلا وادي بدر على هذه الصفة، والقصوى تأنيث الأقصى ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعني القافلة التي كانت قادمة من الشام بقيادة أبي سفيان، وأسفل أي مكاناً أسفل من مكانكم، يعني ساحل البحر حيث اتخذت طريقاً للنجاة بعيداً عنكم، وأصبحت في حماية المشركين ولم يبق أمامكم إلا النفير الذي قدم من مكة لمجابهتكم ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ أي لو كان خروجكم في الأصل لملاقاة جيش المشركين ولم يكن لطلب القافلة التي نجت وكنتم على استعداد تام ودراية عن عددهم وعدتهم وكانوا هم قد خرجوا أصلاً لملاقاتكم، لا لنجدة عيرهم وقافلتهم التي كانت تحمل تجارتهم القادمة من الشام، أي لو كان الحال كذلك لحصل ارتباك من الطرفين، واختلاف في تقدير النزول في الأماكن، ولما كان وضعكم في مقابلتهم بهذه الصورة، والتحكم في موضع الماء وغيره ﴿ولكن﴾ تلاقيكم على غير موعد بين واستعداد تام ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ نصر المؤمنين وقهر المشركين قال الله تعالى ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[1] ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيٍّ عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ أي المراد بالبينة الحجة الظاهرة والآية الواضحة.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾ بكسر العين فيهما، وقرأ الباقون: بالرفع فيهما، قرأ نافع والبزي عن ابن كثير، وأبو بكر: ﴿ويحيا من حيي﴾ بياءين، وقرأ الباقون: ﴿حيّ﴾ بالإدغام.

٤٣ ـ ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ رأى النبي ﷺ عسكر المشركين في المنام قبل لقائهم في قلة، وأخبر أصحابه بما رأى وكان ذلك تثبيتاً لهم ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ أي لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي لاختلفتم في حربهم، فيكون ذلك من دواعي الهزيمة ﴿ولكن الله سلم﴾ أي أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾، قال في ظلال القرآن: والرؤيا صادقة في مدلولها الحقيقي، فقد رآهم الرسول ﷺ قليلاً في عددهم، وهم كثير ولكنهم قليل في قوتهم قليل في أثرهم قليل في قيمتهم، ولكن إرادة الله في تدبير المعركة أرتهم للرسول ﷺ قليلاً في عددهم لإدخال الطمأنينة على قلوب المسلمين، والله عليم بسرائرهم مطلع على قلتهم وما تحدثه في نفوسهم من أثر، عالم أنهم لو عرفوا كثرة في عددهم لضعفوا عن مواجهته ولتنازعوا على لقائه، ولكن إرادة الله الغالبة دبّرت ذلك التدبير[١].

٤٤ ـ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾ صدق الله رؤيا رسوله التي أخبر بها المؤمنين عن قلة عددهم قبل لقائهم بأن قلّلهم وقت اللقاء في أعينهم ويروى عن ابن مسعود أنه قال: «لقد قلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال كنا ألفاً»، والأمر كما قال ابن عباس استقل المسلمون المشركين، واستقل المشركون المسلمين، فاجترأ بعضهم على بعض، إذ في ذلك إغراء للفريقين على خوض المعركة وكررت الرؤية لإفادة أن الأولى في المنام، والثانية في اليقظة ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ كان هذا التقليل في ابتداء الأمر قبل التحام القتال ليجترؤوا عليهم، ويتركوا الاستعداد والاستبداد، ثم كثرهم سبحانه حتى رأوهم مثليهم، لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور﴾ كرر لاختلاف الفعل إذ هو لاجتماعهم بلا ميعاد، وهنا تقليلهم ثم تكثيرهم.

الأمر بالثبات في لقاء العدو وذكر الله

ثم أمر سبحانه بالقتال والثبات في الحرب فقال:

٤٥ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة﴾ أي إذا حاربتم جماعة من الكفرة، واللقاء غلب التعبير فيه بالقتال والجهاد ﴿فاثبتوا﴾ للقائهم ولا تولوهم الأدبار ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ وفسر بالتكبير واستحضار وعد الله في الدنيا والآخرة ليدعوكم ذلك إلى الثبات في القتال ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي تفوزون بمرامكم من النصر والمثوبة.

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب جزء: ١٠ ص ٢٣ بتصرف.

النهي عن التنازع والاختلاف

ثم نهى المؤمنين عن التنازع والاختلاف لأن وحدة الرأي وطاعة القائد من أسباب النصر وعدم الانهزام فقال:

٤٦ ـ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في كل ما تأتون وما تذرون وهو عام في كل ما أمروا به ﴿ولا تنازعوا﴾ باختلاف الآراء ﴿فتفشلوا﴾ فتجبنوا عن لقاء العدو وتضعفوا ﴿وتذهب ريحكم﴾ عزكم ونصركم يقال: هبت له ريح النصر إذ كانت له الدولة، ولا يخرج المعنى عن الصولة والقوة والعزة ﴿واصبروا إنَّ الله مع الصابرين﴾ أي اصبروا على الشدائد في الحرب فإن الله مع الصابرين بالإمداد والإعانة.

نهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم بطرين مرائين بأعمالهم كإطعام الطعام ونحوه، فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾.

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا﴾ أي فخراً وأشراً ﴿ورئاء الناس﴾ ليمدحهم الناس ويثنوا عليهم بالشجاعة، والمراد بهم أهل مكة، ومن على شاكلتهم ﴿ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾ وتصوير هذا الموقف يتجلى في قريش حينما خرجت لإنقاذ العير، ولكن أبا سفيان أرسل لهم يخبرهم أن ارجعوا، فقد سلمت العير فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً ونشرب الخمر، وتعزف علينا القينات، ونطعم بها من حضرنا من الناس فوافوها ببطرهم فسقوا كأس المنايا بدل الخمر، وناحت عليهم النوائح، بدل القينات وكانت أموالهم غنائم بدلاً من بذلها كرما.

الشيطان يتخلص وقت الشدائد من الكفار

ثم عطف على ما تقدم من أعمال الكفار مبيناً أن الشيطان يزين لهم بوسوسته وإغرائه وعندما يرى أن مقصوده قد تحقق يكف عن الوسوسة وفي ذلك يقول سبحانه:

٤٨ ـ ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾.

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي المشركين قبل المعركة صور لهم بوسوسته وشره ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ وقوله هذا كله بالوسوسة، فهو لاينطق بكلام يسمعه البشر، وقد يكون شيطان من الإنس ممن تلبسهم الشيطان فينطقون بلسانه، والناس هنا هم عامة الناس ويدخل فيهم المسلمون المعادون للمشركين

﴿وإني جار لكم﴾ أي ألقى في روعهم وخيل لهم، أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وأوهمهم أنه ناصرهم وربما كان ذلك الشيطان سراقة بن مالك المدلجي هو نفسه حقيقة الذي قال ذلك، إذ كان من أشراف بني كنانة وكانت قريش تخشى من كنانة أن تنقض عليهم بهذه الحرب ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾[1] ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ أي قربت إحداهما من الأخرى في ميدان المعركة، أي صارتا بحيث رأت إحداهما الأخرى ﴿نكص على عقبيه﴾ أي رجع القهقرى والمراد كف عن الوسوسة والإغراء، عندما رأى أن مقصوده قد تحقق ﴿وقال﴾ بلسان الحال ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله﴾ تبرأ منهم بتركهم وانهزم قبلهم قال الآلوسي وقد يقال: المقصود من هذا الكلام أنه عظم عليهم الأمر وأخذ يخوفهم بعد أن كان يحرضهم ويشجعهم كأنه قال يا قوم الأمر عظيم والخطب جسيم، وإني تارككم لذلك وخائف على نفسي الوقوع في مهاوي المهالك ﴿والله شديد العقاب﴾.

٤٩ ـ ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿إذ يقول المنافقون﴾ وهم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد، أي تثور بهم الشكوك والشبهات تارة فتزلزل اعتقادهم وتسكن تارة فيكونون كسائر المسلمين، وهل يميز أهل اليقين من الضعفاء إلاّ الامتحان بمثل هذه الشدائد، إذ لم يروا علة يعللون بها هذا الإقدام من المؤمنين الصادقين وهذا النصر الذي نالوه إلا قولهم ﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾ قال ذلك المنافقون وضعفاء الإيمان ويعنون به المسلمين قبل التحام المعركة وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يكونوا في جيش المسلمين من أهل بدر، وإنما هم محسوبون على المسلمين من حيث العدد ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ جواب لهم ورد على مقالتهم.

لما شرح أحوال هؤلاء الكفار في حياتهم شرح أحوالهم حين وفاتهم فقال:

٥٠ ـ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾.

﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ ولو الامتناعية ترد المضارع ماضيا، هذا بيان لبعض مضمون قوله تعالى: ﴿والله شديد العقاب﴾ ومعناه ولو رأيت أيها الرسول والخطاب لكل من سمع وقرأ إذ يتوفى الذين كفروا من قتلى بدر وغيرهم ملائكة العذاب حالة كونهم ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي ظهورهم ولسان حالهم يقول: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ والمراد بعذاب الحريق عذاب النار في الآخرة.

القـــراءة

قرأ ابن عامر: ﴿ولو ترى إذ تتوفى الذين كفروا﴾ بالتاء وقرأ الباقون: ﴿إذ يتوفى﴾ بالياء.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

ثم بين سبب ذلك العذاب فقال:

٥١ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

﴿ذلك﴾ المذكور من الضرب والعذاب عند الوفاة ﴿بما قدمت أيديكم﴾ الباء للسببية وتقديم الأيدي مجاز عن الكسب والعمل المنهي عنه، والمعنى: ذلك واقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي أن الله لا يعذب من غير ذنب.

ثم بين سبحانه أن حال هؤلاء الكفار كحال الذين من قبلهم فقال:

٥٢ ـ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

﴿كدأب آل فرعون﴾ أي كعادتهم والمعنى: كذب هؤلاء كما كذب أولئك فنزل بهم العذاب كما نزل بأولئك قال ابن عباس: أيقن آل فرعون أن موسى نبي الله فكذبوه، فكذلك هؤلاء في حق محمد ﷺ ﴿والذين من قبلهم﴾ من الأمم الذين فعلوا ما فعلوا، ولقوا من العذاب ما لقوا كقوم نوح وعاد وثمود وأضرابهم ﴿كفروا بآيات الله﴾ تفسير لدأبهم ﴿فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب﴾.

ثم ذكر ما يجري مجرى العلة في العقاب الذي أنزله بهم فقال:

٥٣ ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ذلك بأن الله﴾ أي ذلك الأخذ والعقاب ﴿لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ حذفت النون تخفيفاً كما يحذف حرف العلة بالجزم، وأنفسهم أي ذواتهم من النيات والأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملابستهم للنعمة ويتصفوا بما ينافيها ﴿وأن الله سميع عليم﴾.

٥٤ ـ ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾.

﴿كدأب آل فرعون﴾ أي كعادتهم حيث كذبوا نبيهم وهم موقنون بنبوته ورسالته من الله ﴿والذين من قبلهم﴾ مثلهم من الأمم السابقة مثل بني إسرائيل ﴿كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون﴾ في البحر الأحمر وقت عبورهم حيث لحقوا بموسى وقومه ﴿وكل﴾ أي كل من الفرق المذكورين أو كل هؤلاء وأولئك ﴿كانوا ظالمين﴾ أي لأنفسهم بالكفر والمعاصي والفسق بغير الحق.

حال من نقض العهد

ثم ذمّ سبحانه الكفار فقال:

٥٥ ـ ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿إن شر الدوابّ عند الله﴾ الدواب هو كل ما يدبّ على وجه الأرض، وغلب استعماله في البهائم ذوات الأربع، ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ ولما كانت البهائم لا تعقل حتى تؤمن فقد انصرف اللفظ عن معناه الحقيقي فيهم، إلى الناس الكفار الذين أصبحوا بكفرهم وعنادهم يعيشون حياتهم، بروح الحيوان في تحصيل شهواتهم ﴿إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾(١).

ثم ذكر سبحانه شيئاً من رذائلهم المذمومة فقال:

٥٦ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾.

﴿الذين عاهدت منهم﴾ ﴿من﴾ للإيذان، والمراد عاهدتهم، والإيذان بأن المعاهدة التي هي عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين معتبرة ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ من مرات المعاهدة ﴿وهم لا يتقون﴾ أي يستمرون على النقض والحال أنهم لا يثقون نتيجة الغدر ومغبته، ولا يتقون الله فيه.

ثم حكم سبحانه في هؤلاء الناقضين للعهود فقال لنبيه ﷺ:

٥٧ ـ ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي تظفر بهم ﴿فشرد بهم﴾ أي فرق بهم ﴿من خلفهم﴾ أي من وراءهم من الكفرة، والمعنى: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك، فعلاً من القتل والتنكيل العظيم، يفرق عنك ويخافك بسببه من خلفهم، ويعتبر به من سمعه من أهل مكة وغيرهم ﴿لعلهم يذّكرون﴾ أي لعل المشردين يتعظون بما يعلمونه مما نزل بالناقضين فيرتدعون ويسالمون ولا يفكرون بسوء نحو المسلمين.

٥٨ ـ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾.

﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ بيان لأحكام الذين تساورهم أنفسهم بنقض العهد، إثر بيان أحكام الناقضين له بالفعل، والخوف مستعار للعلم والمعنى إما تعلمن من قوم معاهدين لك خطة أو عزماً على نقض العهد، بما يلوح لك منهم من الدلائل القوية التي ترجح العلم ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾ فاطرح إليهم عهدهم لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواء ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ تعليل للأمر بالنبذ.

لما تقدم الأمر بقتال الكفار عقّبه سبحانه بوعد النصر والأمر بالإعداد لقتالهم فقال:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

٥٩ ـ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾.

﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي لا يحسبن أولئك الكافرون أنفسهم سابقين أي مفلتين من أن يظفر بهم وأنهم فاتوا بسلامتهم الآن، والمراد من هذا إقناطهم من الخلاص وقطع أطماعهم الفارغة من الانتفاع بالنبذ ﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي لا يفوتون الله تعالى، فالله ليس عاجزاً عن إدراكهم وهو تعليل للنهي.

القـــراءة

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص: ﴿ولا يحسبنّ الذين كفروا﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿ولا تحسبن الذين﴾ بالتاء، قرأ ابن عامر: ﴿أنهم لا يعجزون﴾ بفتح الألف، وقرأ الباقون: ﴿إنّهم﴾ بالكسر على الابتداء.

ثم إنه لما اتفق لأصحاب النبي ﷺ في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة وعدة، أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله، ويتأهبوا لقتال الأعداء فقال:

٦٠ ـ ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ القوة هي الرمي بكل ما تحتمله الكلمة من معنى في اصطلاح العصر القديم والحديث بالنبال أو بالرماح أو بالبندقية أو المدفع أو الصاروخ، والرمي لا بد له من رماة وهم الرجال وهم القوة الحقيقية فقبل إعداد العدة يجب أن نعد الرجال، ونزودهم بالقوة المعنوية والمادية، والقوة المعنوية هي الروح لأن الإنسان مكون من روح وجسد، فالروح هي صلة العبد بربه وخالقه، وإيمانه بالله وثقته بنصر الله وعقيدته، بأن يقاتل في سبيل الله يطلب الشهادة ليكون مع الصديقين والصالحين عند الله في جنات النعيم، ولا يقاتل من أجل سمعة ولا غرض دنيوي، وإنما يدافع لتكون كلمة الله هي العليا، ومن كان مع الله كان الله معه ولا بد ناصره، لأن الله وعد بنصر جنده وأوليائه فقال ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾(١) ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾(٢) ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾(٣) وأما الجسد فهو ذلك الجندي الذي يطيع الأوامر التي تصدر إليه من القيادة وحتى يكون مع الروح القوة، لا بد أن يدرب ويعلم كيف يحارب العدو وكيف يستعمل السلاح، ويجب قبل كل شيء أن يعلم الكرامة والعفة، وآداب الجهاد والقتال وألا يشعر بأنه دمية أو آلة بل يجب أن يشعر بأنه شخص وإنسان ومجاهد ومناضل. ﴿ومن رباط الخيل﴾ إشارة إلى إعداد السلاح والعتاد المناسب لدحر العدو ثم ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال: ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ إشارة إلى أنه يجب أن يكون المسلمون على استعداد دائم بجيش قائم، استعداداً للجهاد في سبيل الله لقتال أعداء الله ﴿وآخرين

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٦ والأنفال الآية: ١٠.

(٢) سورة محمد، الآية: ٧.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٧.

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ هم الجواسيس والمنافقون ورجال المخابرات ثم رغّبهم في الإنفاق في باب الجهاد فقال: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ فربكم عادل فلا تخشوا الإنفاق.

الميل للسلام وتقوية الروح المعنوية للجيش

ثم رخّص في المصالحة إن مال الأعداء إليها فقال:

٦١ - ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

﴿وإن جنحوا﴾ الجنوح الميل ومنه جناح الطائر لأنه يتحرك ويميل والمعنى: وإن مالوا ﴿للسلم﴾ أي الصلح على ما فيه مصلحة المسلمين ﴿فاجنح لها﴾ أي للسلم والتأنيث للفعلة، كقوله تعالى: ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾(١)، ﴿وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ يسمع أقوالهم ويعلم نياتهم.

القـــراءة

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ بالكسرة، وقرأ الباقون: بالفتح وهما لغتان.

ثم خاطب الله جل وعلا نبيه ﷺ فقال:

٦٢ - ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ ومن معك بإظهار السلم ﴿فإن حسبك الله﴾ الذي يتولى كفايتك، الله ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ بالتثبيت لك ﴿وبالمؤمنين﴾ من المهاجرين والأنصار.

تأليف قلوب المؤمنين بالإسلام

ثم بين كيف أيده بالمؤمنين فقال:

٦٣ - ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وألف بين قلوبهم﴾ أي المؤمنين المهاجرين والأنصار والأوس والخزرج، مع ما جبلوا عليه كسائر العشائر والقبائل من الحمية والعصبية، حتى صاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ لتناهي عداوتهم وقوة أسبابها حيث كانوا ذوي أنفة شديدة، فلو أن رجلاً لطم رجلاً لقاتلت

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٣.

عنه قبيلته حتى تدرك ثأره، فآل بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه، وأخاه في سبيل الله ﴿ ولكن الله ألف بينهم﴾ بالإسلام ﴿إنه عزيز حكيم﴾.

ثم أمر سبحانه بقتال الكفار وحث عليه بقوله:

٦٤ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي أن الله تعالى هو كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء، وكاف كذلك لمن أيدك بهم من المؤمنين، فالحسب في الآية السابقة كفاية خاصة به ﷺ، وفي هذه الآية كفاية عامة له ولمن اتبعه من المؤمنين.

ثم بين سبحانه أن كفايته مشروطة بالجد والاجتهاد في الجهاد فقال:

٦٥ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا﴾ هذا الكلام لفظه لفظ الخبر المراد به الأمر، وهذه الآية محكمة وليست منسوخة بما بعدها، فالمراد بها الرخصة في مواجهة العدو إذا داهمهم وهم على حال كالتي وصفتها الآية بنسبة العشر، ومثلها مثل المسافر الذي يفطر ويقصر الصلاة فهي للحاجة، وقيل إنها مقيدة بكونها خبراً للمؤمنين بما كان عليه النبي وأصحابه بينما خفف لمن بعده ﴿من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ الدين الإسلامي الذي جعل القتال شريعة يبتغي فيها المسلم وجه الله ويطلب إحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة، فهو رابح لاخاسر وأن من تأييد الله لأوليائه المؤمنين أن أمرهم بالصبر والثبات في ميدان القتال في سبيل الله، وأن على المسلمين إذا كانوا عشر الكفار وهاجموهم أو التقوا معهم لا يجوز لهم الفرار بل عليهم القتال، وأنهم موعودون من الله بالنصر والغلبة، والعبرة ليست بكثرة العدد، إنما بالصبر والثبات، لأن النهاية والخاتمة لا بد وأن تحسم لصالح المؤمنين الصابرين المتقين، أما أصحاب كؤوس الخمر والفسوق والعصيان والإلحاد، ممن هم محسوبون في عداد المسلمين فهم المنافقون الذين هم بلاء هذه الأمة والسبب في هزائمها وتفرقها الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، ونصر الله الذي وعد لا يكون إلا لعباده الصالحين وصدق الله إذ يقول: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ وتحقق نصر الله فعلا في أماكن كثيرة.

القــــراءة

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر ﴿وإن تكن منكم مئة﴾ بالتاء، وقرأ الباقون بالياء.

ثم رغّب في الثبات على الجهاد فقال:

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

٦٦ ـ ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله﴾ هذه الآية خاصة بالمؤمنين بعد النبي ﷺ، إذ بدأت الجيوش الإسلامية تقتحم وتهاجم معاقل الكفار بهذه النسبة وهي النصف وليس في ذلك نسخ ﴿والله مع الصابرين﴾.

وهذا هو الإمام أبو محمد علي بن حزم الظاهري يقول: وقد ادعى قوم في قوله تعالى: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ أنه منسوخ بقوله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ وهذا خطأ لأنه ليس إجماعاً، ولا فيه بيان نسخ، ولا نسخ عندنا في هذه الآيات أصلاً، وإنما هي في فرض مبارزة المشركين. وأما بعد اللقاء، فلا يحل لواحد منا أن يولي دبره جميع من على وجه الأرض من المشركين، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة. ويؤيده الإمام القرطبي في تفسيره حيث يرى أن الآية الأولى غير منسوخة وإنما هي من قبيل التخفيف.

القـــراءة

﴿فإن يكن منكم مائة صابرة . . .﴾. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو: ﴿فإن تكن منكم مئة صابرة﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: بالياء، قرأ عاصم وحمزة: ﴿وعلم أنَّ فيكم ضعفاً﴾ بفتح الضاد، وقرأ الباقون: بالرفع.

القرآن ينزل موافقا لرأي عمر في الأسرى

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد.

٦٧ ـ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ المقصود بذلك النبي محمد ﷺ وأصحابه بدليل قوله تعالى: ﴿تريدون﴾ وهذه الآية نزلت في غزوة بدر لما أخذوا الفداء من أسرى بدر وهم في حاجة إلى المال يومئذ، ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ الثخانة معناها الغلظ والكثافة في الأجسام ثم استعير للمبالغة، والمعنى: حتى يهابه الناس في الأرض مما بلغهم من قوته وتمكنه لدرجة أن كل محارب يخشى على نفسه أن يقع في الأسر فلا ينجو، فلا يقدم على حرب النبي وصحبه ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ أي تريدون حطام الدنيا بأخذكم الفداء ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي يريد لكم ثواب الآخرة بإعزاز دينه وقمع أعدائه ﴿والله عزيز حكيم﴾ يعلم ما يليق بحال المسلمين عندما أمر بالإثخان ونهى عن أخذ الفدية حيث كان المسلمون في بداية أمرهم ضعفاء، وشوكة أعدائهم قوية، ولما قويت شوكة المسلمين وذلّ عدوهم خيروا بين أخذ الفدية والإحسان ﴿فإمّا مناً بعد وإما فداء﴾[1].

---

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو: ﴿ما كان لنبي أن تكون له أسرى﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿أن يكون﴾ بالياء.

٦٨ ـ ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لولا حكم من الله بإحلال الغنائم والأسرى سبق عليكم ﴿لمسّكم فيما أخذتم﴾ من الفداء وعدم قتل الأسرى ﴿عذاب عظيم﴾ ومن هذه الآيات يفهم بأن الرسول ﷺ لم يكن يعلم أن مسألة الأسرى في مثل ذلك الظرف، مسألة دينية يتوقف أمرها على الوحي، وإلّا لما استشار الصحابة وأخذ برأي اللينين منهم، لكن الله أراد أن يعلمه بأنه كان الأولى عليه أن يتوقف حتى يسمع حكم الله من الوحي ولذلك كان هذا العتاب لأخذه بخلاف الأولى، وفي ذلك دليل ساطع على نبوة محمد ﷺ إذ لو كان القرآن من عنده لكان قد دارى مثل هذه المواقف ولم يذعها على الناس، لكنّه رسول الله يتلو صحفاً مطهرة.

لما أمسكوا عن الغنائم وأخذ الفداء قال:

٦٩ ـ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

هذه الآية بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية والمراد كلوا مما غنمتم من الفدية وغيرها من الغنائم مطلقاً فقد غفر لكم ذنوبكم وأباح لكم ما أخذتم.

ورخّص لكم فيما رخّص من أخذ الفداء ثم قال لاستمالة قلوب الأسارى:

٧٠ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ إيماناً وتصديقاً وإخلاصاً ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ من الفداء والآية نزلت في أسرى بدر من الكفار ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾.

القـــراءة

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسارى﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿من الأسرى﴾ بغير ألف.

٧١ ـ ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وإن يريدوا﴾ أي الأسرى ﴿خيانتك﴾ أي نقض ما عاهدوك عليه بالكفر بعد الإسلام ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ بدر بالكفر ونقض الميثاق ﴿فأمكن منهم﴾ أي أقدرك عليهم حسبما رأيت في بدر ﴿والله عليم حكيم﴾.

الرابطة الإسلامية هي أقوى الروابط

ثم ختم الله سبحانه السورة بإيجاب موالاة المؤمنين وقطع موالاة الكافرين فقال:

٧٢ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿إن الذين آمنوا وهاجروا﴾ هم المهاجرون الذين هجروا أوطانهم وتركوها لأعدائهم في الله عزّ وجلّ ﴿وجاهدوا بأموالهم﴾ فصرفوها بالعتاد والسلاح وأنفقوها على المحاويج من المسلمين ﴿والذين آووا ونصروا﴾ الأنصار آووا المهاجرين وأنزلوهم منازلهم، وآثروهم على أنفسهم ونصروهم على أعدائهم ﴿أولئك﴾ المذكورون ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ في النصرة والإرث ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ مثل المسلمين ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾ أي توليهم وإن كانوا قرابتكم ﴿حتى يهاجروا﴾ وحينئذ يثبت لهم الحكم السابق ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ أي فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ فلا تنصروهم عليهم لما في ذلك من نقض العهد ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلا تخالفوا أمره.

القــــراءة

﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ قرأ حمزة: ﴿ما لكم من ولايتهم﴾ بكسر الواو، وقرأ الباقون: ﴿من ولايتهم﴾ بفتح الواو.

ثم ذكر سبحانه وتعالى حكم الكافرين فقال:

٧٣ - ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾.

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ في النصرة والمؤازرة ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي لا تتعاونوا وتتناصروا في الدين وإذا لم يتول المؤمن المؤمن تولياً حقاً ويتبرأ من الكافر جدياً أدى ذلك إلى الضلال والفساد.

ثم كرر تعظيماً لشأن المؤمنين وثناءاً عليهم فقال:

٧٤ - ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ كلام

مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار الفائزون ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي لا تبعة له ولا منة فيه.

ثم وصف اللاحقين بالهجرة بعد السابقين إليها فقال:

٧٥ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا معكم﴾ أي في بعض أسفاركم وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية، وهي الهجرة الثانية ﴿فأولئك منكم﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ والمعنى إن أولي الأرحام من الأقارب مقدمون على غيرهم في الميراث لما لهم من القربى والتعاطف والنسب.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

سورة التوبة سميت بها لما فيها من ذكر التوبة، وتسمى سورة البراءة، والمبعثرة، والمثيرة، والمخزية، والفاضحة، والمشرِّدة، وسورة العذاب، وكثرة أسمائها الواردة دليل على أنها سورة مستقلة ليست جزءاً مما قبلها، وإذا كانت كذلك، فلم تركت البسملة في أولها؟؟ نقول: لأنّ النبي ﷺ لم يأمر بذلك والقرآن يؤخذ بالتلقّي وفي الكشاف سئل ابن عيينة رضي الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان فلا يكتب في النبذ والمحاربة[1].

لما ختم الله سبحانه سورة الأنفال بإيجاب البراءة عن الكفار افتتح هذه السورة بأنه تعالى ورسوله بَريئان منهم، كما أمر المسلمين بالبراءة منهم فقال:

١ ـ ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي هذه براءة واصلة والتنوين للتفخيم كما تقول هذا كتاب من فلان إلى فلان ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ كانوا عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم في صلح الحديبية، على السلم والأمان عشر سنين، بشروط، وذلك لنشر الدعوة واتساع الرقعة، مذ دخلت خزاعة في عهد رسول الله والمؤمنين، كما دخلت بنو بكر في عهد قريش، ثم عدا هؤلاء على أولئك، وأعانتهم قريش بالسلاح، فنقضوا عهدهم، فكان ذلك سبب عودة حال الحرب العامة معهم وفتح مكة الذي خذل الله به شوكة الشرك وأذل أهله، فما زالوا يحاربون سواء في حال الضعف أو حال القوة لعنادهم.

وبعد أن أعلن سبحانه البراءة من المشركين ورسوله، أمهلهم أربعة أشهر قبل قتالهم فقال:

٢ ـ ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿فسيحوا﴾ أي سيروا أيها المشركون ﴿في الأرض أربعة أشهر﴾ أولها شوال ولا أمان لكم بعدها ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي فائتي عذابه ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ مذلهم في الدنيا بالقتل والأخرى بالنار، وقال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: هي لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾[2].

---

(١) راجع زاد المسير ج ٣ ص ٣٩٠ ـ ٣٩١. والتفسير الواضح للأستاذ محمد محمود حجازي ص ٢١ ـ ٢٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٤.

ثم بيّن سبحانه أنه يجب إعلام المشركين بالبراءة منهم لئلا ينسبوا المسلمين إلى الغدر فقال:

٣ ـ ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

﴿وأذان من الله ورسوله﴾ أي إعلام ﴿إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾ يوم النحر العاشر من ذي الحجة ﴿أنّ الله بريء من المشركين ورسولُه﴾ أي من عهودهم، وقد بعث النبي في سنة تسع علياً، فأذن بمنى بهذه الآيات «وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» رواه البخاري ﴿فإن تبتم﴾ والخطاب للكفار ﴿فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ في الآخرة.

ثم استثنى من ذلك الذين بينهم وبين المسلمين معاهدات عدم اعتداء، وحافظوا على تلك العهود، ولم ينقضوها فقال:

٤ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ استثناء والمعنى: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فقولوا لهم سيحوا، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقصوكم، فأتموا إليهم عهدهم، وهو بمعنى الاستدراك كأنه قيل فلا تمهلوا الناكثين غير أربعة أشهر، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجرى الناكثين ﴿ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً﴾ يعاونوا ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى﴾ انقضاء ﴿مدتهم﴾ التي عاهدتم عليها ﴿إن الله يحب المتقين﴾.

وجوب قتال المشركين

ثم بيّن سبحانه الحكم في المشركين بعد انقضاء المدة فقال:

٥ ـ ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿فاقتلوا المشركين﴾ أي من لم يكن له عهد أو من كان له عهد ونكث في ذلك العهد كالمشار إليهم في أول السورة ﴿حيث وجدتموهم﴾ في أي مكان ﴿وخذوهم﴾ في الأسر ﴿واحصروهم﴾ أي احبسوهم ﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾ في أي طريق يسلكونه ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾. وقال ابن الجوزي إن الآيتين محكمتان، والأسير إذا حصل في يد الإمام، فهو مخير إن شاء منَّ عليه، وإن شاء فاداه، وإن شاء قتله صبرا، أي ذلك رأى فيه مصلحة للمسلمين فعل، وهو قول جابر بن زيد ومن الإمام أحمد وعامة الفقهاء.

أقول: والإمام يأمر بقتل الأسرى إذا ما رأى أن في وجودهم خطراً على الدعوة الإسلامية، وعلى المسلمين، وهو الذي يقدرها بحدود تقوى الله ورضاه ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾(١).

ويفدي بالمال أو بالمبادلة بأسرى المسلمين إذا ما رأى أن ذلك في مصلحة الجيش أو بتقوية الاقتصاد والمال الإسلامي بالفداء في المال.

ويحبس إذا رأى أنّه لا خطر من وجودهم، ولا فائدة من فدائهم أو لا حاجة للمبادلة بهم.

لما أوجب الله سبحانه قتل المشركين ربما توهّم أنّه لو طلب أحد من المشركين الدليل والحجة لم يلتفت إليه فأزال الله تعالى هذه الشبهة فقال:

٦ ـ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾ وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتلهم استأمنك يبتغي أن يسمع القرآن وينظر فيما أمر به ونهى عنه ﴿فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ أي الموضع والمكان الذي يأمن فيه من القتل ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ جهلة بخطاب الله وإنما يعاندون تبعاً لغيرهم.

لما أمر سبحانه بنبذ العهد إلى المشركين بيّن أنّ العلة في ذلك ما ظهر منهم من الغدر وأمر بإتمام العهد لمن استقام على الأمر فقال:

٧ ـ ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾ هذا الاستفهام للإنكار المشرب لمعنى التعجب، والخطاب للمؤمنين الذين رسخ خلق الوفاء في قلوبهم، وكان بعضهم عرضة لقبول كلام المنافقين في إنكار النبذ، والمعنى بأية صفة وأية كيفية يثبت للمشركين عهد من العهود عند الله يقره لهم في كتابه، وعند رسوله ﷺ يفي لهم به وتفون به اتباعاً له ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ ولم يظهر منهم نكث كبني كنانة وبني حمزة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ يعني أن التربص بهم من أعمال المتقين، وعند المسجد الحرام أي بجواره في الحديبية وهو ما يقتضي تأكيد الوفاء به بذلك العهد ومن المعلوم من قواعد الإسلام تعظيم شأن العهود قال الله: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾(٢) وكان نبذ عهود المشركين مما يظن بادىء الرأي أنه مخل به، أو ما قد يظن قليل العلم بالقرآن، والجمع بين نصوصه بالفهم الصحيح أن هذا النبذ ناسخ لوجوبه كما زعم بعضهم، أو أن ذلك التعظيم للوفاء بالعهد وتأكيده

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

كان مقيداً بحال ضعف المسلمين كما قال آخرون، مثل هذا في آيات العفو أو الصفح عن المشركين، بين الله تعالى لنا في هاتين الآيتين وما بعدهما كون هذا النبذ وما يترتب عليه لا ينافي ولا يجافي شيئاً من تلك النصوص المحكمة وإنما هو معاملة للأعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين.

صلح الحديبية

ذكر أهل السير أن رسول الله ﷺ لما صالح سهيل بن عمرو في الحديبية، كتب بينه وبينه «هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا أسلال(١) ولا أغلال(٢) وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه ردّه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه، وأن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا في قابل في أصحابه فيقيم بها ثلاثا، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر السيوف في القرب، فوثبت خزاعة فقالوا نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ووثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عهد قريش وعقدها، ثم إن قريشاً أعانت بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح، فبيتوا خزاعة ليلاً فقتلوا منهم عشرين رجلاً، ثم إن قريشاً ندمت على ما صنعت وعلموا أن هذا نقض للعهد والمدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وخرج قوم من خزاعة إلى النبي ﷺ فأخبروه بما أصابهم فخرج إليهم وكانت غزوة فتح مكة.

ثم كرّر الاستبعاد فقال:

٨ ـ ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ يقدروا ويظفروا ﴿لا يرقبوا فيكم إلاًّ﴾ القرابة ﴿ولا ذمة﴾ العهد ﴿يرضونكم بأفواههم﴾ أي يخادعونكم في حال الضعف بما ينبذونه من الكلام العذب الذي يرون أنه يرضيكم سواء أكان عهداً أو وعداً أو يميناً مؤكدة ﴿وتأبى قلوبهم﴾ المملوءة بالحقد والضغن إن في حال القوة، أو إذا خلوا إلى بعضهم أن يقولوا بألسنتهم الحق(٣) ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ خارجون عن قيود العهود والمواثيق.

٩ ـ ﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

عام يشمل اليهود وغيرهم.

١٠ ـ ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾.

---

(١) الأسلال: السرقة.
(٢) الأغلال: الخيانة.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١١.

١١ - ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

الحرب في الإسلام مقيدة بالشرع لا بالأهواء

١٢ - ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾.

﴿وإن نكثوا أيمانهم﴾ أي نقضوا مواثيقهم ﴿من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوا عليه وهذا يوجب قتل الذمي إذا طعن في الإسلام، لأن المأخوذ عليه ألّا يطعن فيه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ رؤساء المشركين وصناديدهم الذين كانوا يغرونهم بعداوة النبي ﷺ والطعن في الإسلام ويقودونهم لقتاله، والآية عامة صريحة في مشركي العرب أصحاب العهود مع المؤمنين من بقي منهم، ويدخل في حكمها كل من كانت حاله مع المؤمنين كحالهم ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ أي إن عهودهم كلا عهود، لأنها مخادعة لسانية لم يقصد الوفاء بها ﴿لعلهم ينتهون﴾ عن كفرهم وشركهم وما يحملهم عليه، من نكث أيمانهم، ونقض عهودهم، وهو يتضمن النهي عن القتال، اتباعاً لهوى النفس أو إرادة منافع الدنيا، من سلب وكسب، وانتقام، وهذا مما امتاز به الإسلام عن جميع شرائع الأمم وقوانينها، من جعل الحرب ضرورة مقيدة بإرادة حمل الدعوة الإسلامية لمنع الباطل وتقرير الحق والفضائل.

القــــراءة

﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون﴾. قرأ ابن عامر وأهل الكوفة(١): بهمزتين، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿أيمة﴾ بغير مدّ بهمزة واحدة. قرأ ابن عامر: ﴿إنّهم لا إيمان لهم﴾ بكسر الألف، وقرأ الباقون: ﴿لا أيمان لهم﴾ بالفتح جمع يمين.

التحريض على قتال المشركين

ثم زاد في التوبيخ فقال:

١٣ - ﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول﴾ هذا على وجه التوبيخ، ومعناه الحض على قتالهم، وهذا نزل في نقض قريش عهد رسول الله الذي عاهدهم بالحديبية، حيث أعانوا بني بكر على خزاعة،

(١) كلمة أهل الكوفة تعني عاصم النجود والكسائي وحمزة.

وقد نصرهم النبي ﷺ وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة، وهمهم بإخراج الرسول لما تشاوروا بدار الندوة بمكة ﴿وهم بدؤوكم﴾ بالقتال ﴿أول مرة﴾ حيث قاتلوا خزاعة حلفاءكم مع بني بكر فما يمنعكم من قتالهم ﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾.

ثم أكد سبحانه ما تقدم بأن أمر المسلمين بقتالهم وبشّرهم بالنصر والظفر عليهم فقال:

١٤ ـ ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾.

هم الذين غدر بهم المشركون كخزاعة والذين كانوا في دار الشرك عاجزين عن الهجرة.

١٥ ـ ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ الذي كان وقر فيها من الغدر والظلم، فشفاء الصدور يعز الإسلام بالنصر العام الشامل لهؤلاء ولغيرهم ﴿ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾.

ثم نبه سبحانه على جلالة موقع الجهاد فقال:

١٦ ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ أم للاستفهام ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ قال ابن قتيبة هي البطانة من غير المسلمين وقال أبو عبيدة: وكل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة، ﴿والله خبير بما تعملون﴾.

والمعنى: أم حسبتم أن تتركوا وشأنكم بغير امتحان ولا افتتان، والحال أنه لم يظهر فيكم إلى الآن ما يمتاز به أولئك الذين جاهدوا منكم في الله حق جهاده، من المنافقين ومرضى القلوب ولم يتخذوا لأنفسهم دخيلة وبطانة، من المشركين الذين يخادعون الله تعالى بالشرك به، ويخادعون رسوله بالصّد عن دعوته ويقاتلون المؤمنين، يطلعون أولئك الولائج على أسرار الملة ويقفون بهم على سياسة الدولة، كما فعل ويفعل المنافقون ومرضى القلوب فيكم فهو بمعنى قوله تعالى[1] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ عبر عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين الصادقين وتميزهم، من المنافقين وضعفاء الإيمان بعدم علمه بهم لأن التعبير بعدم العلم بالشيء برهان على عدم ثبوته أو وجوده، أولا يوجد هؤلاء ممتازين ظاهرين إلّا بما مضت به سنة الله من الابتلاء بالشدائد، كقوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ألم﴾ ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
(٢) أول العنكبوت.

عمارة المساجد

لما أمر الله سبحانه بقتال المشركين وقطع العصمة والموالاة عنهم أمر بمنعهم من المساجد فقال:

١٧ ـ ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ ما كان ينبغي ولا يصح للمشركين ولا من شأنهم أن يعمروا مسجد الله الأعظم وبيته الحرام بالإقامة فيه، للعبادة أو الخدمة أو الولاية عليه أو أن يزوروه حجاجاً أو معتمرين ولا شيئاً من ذلك، له أو سائر مساجد الله ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي ما كانت لهم عمارته في حال إقرارهم بالكفر.

ثم بين ما هو الحق في هذا الباب فقال:

﴿أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ أي فسدت أعمالهم التي يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وغيرها، من أعمال كقرىٰ الضيف وصلة الرحم، أي بطلت وفسدت حتى لم يبق لها أدنى تأثير في صلاح أنفسهم مع الشرك والكفر ولأنها لم يرتج بها وجه الله في الأصل، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر بالإسلام والنبي محمد ﷺ بقولهم أنهم ليسوا على دينه.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مسجد الله﴾ على التوحيد في هذه الآية والآية القادمة، وقرأ الباقون ﴿أن يعمروا مساجد الله﴾ بالألف فيهما.

ثم وصف من له استئهال عمارة المسجد فقال:

١٨ ـ ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ بالبناء والعبادة ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾ بعد أن بين عدم استحقاق المشركين لعمارة مساجد الله، أثبتها للمسلمين وجعلها مقصورة عليهم بالفعل وبمجرد الشأن والاستحقاق ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ ﴿فعسى﴾ ترج وفاعل هذه الخصال مهتد بلا شك والمراد أنه من كان على هذه الصفات المذكورة كان من أهل عمارتها.

فضل الإيمان والجهاد

١٩ ـ ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ سبب نزولها اختلاف الصحابة في أي الأعمال أفضل وذلك فيما رواه مسلم من حديث النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم فزجرهم عمر، وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكني إذا صليت دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فنزلت هذه الآية ﴿لا يستوون عند الله﴾ أي لا يساوي الفريق الأول الثاني ثم صرح بالمفضول فقال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

ثم صرح بالفريق الفاضل فقال:

٢٠ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

ثم فسر الفوز بقوله:

٢١ ـ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾.

لا يرتحل عنهم وهو الدائم.

ثم أكد المعاني المذكورة بقوله:

٢٢ ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿خالدين فيها أبداً﴾ تأكيد لما يدل عليه الخلود ودفع احتمال أن يراد منه المكث الطويل ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ لا قدر بالنسبة إليه لأجور الدنيا.

ولاية المؤمنين للكافرين وخطرها

ثم نهى الله سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين وإن كانوا في النسب الأقربين فقال:

٢٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ نهي لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة فرد من المشركين، لا عن موالاة طائفة منهم، وإن صح الأثر في سبب نزولها في المهاجرين الذين تعلقوا بأولادهم، وأزواجهم وتجارتهم، أو الذين لهم أعمال كسقاية الحاج وعمارة المسجد، أو في حاطب بن بلتعة الذي كتب إلى قريش يخبرها بعزم النبي ﷺ على فتح مكة عن حسن نية، أو غيرهم فهي عامة يدخل فيها كل موالاة تضر الدين الإسلامي، والدعوة الإسلامية ويفسر ذلك بقية الآية ﴿إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ وأصروا عليه ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها.

ثم أخر النهي في الأبناء والأزواج لأنهم ليسوا من أهل المشورة بل هم في القرب والمحبة أولى من كل أحد فقال:

٢٤ - ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ لم يذكر الأبناء والأزواج فيما سبق، وذكرهم هنا، لأن ما تقدم في الأولياء وهم أهل الرأي والمشورة، والأبناء والأزواج ليسوا كذلك، وهم هنا في المحبة وهم أحب من كل أحد ﴿وعشيرتكم﴾ أي ذوو قرابتكم، وقيل عشيرة الرجل أهله الأدنون، وذكرها للتعميم والشمول ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي اكتسبتموها، وأصل الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره ﴿وتجارة﴾ أي أمتعة اشتريتموها للبيع والشراء والربح ﴿تخشون كسادها﴾ بفوات وقت رواجها بغيبتكم عن مكة ﴿ومساكن ترضونها﴾ منازل تعجبكم الإقامة فيها، والتعرض للصفات المذكورة للإيذان بأن اللوم على محبة ما ذكر من زينة الحياة، لا ينافي ما فيها من مبادىء المحبة، وموجبات الرغبة وأنها مع ما لها من فنون المحاسن بمعزل عن أن تكون كما ذكر سبحانه بقوله: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾ عطف سبحانه الجهاد على حب الله ورسوله، وجعله نكرة لأنه أظهر آياتهما، وفي إبهام الجهاد إفادة أن كل نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله، قلّ أو كثر فإن تاركه لأجل حب شيء من تلك الأصناف الثمانية، وتفضيلها عليه يستحق الوعيد الذي في الآية وهي ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ والمعنى: إذا كان الأمر كذلك فلا ريب أن من كان ما ذكر من الأصناف الثمانية كلها أو بعضها أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فهو غير تام الإيمان، وعليه الانتظار حتى يأتي أمر الله وهو وعيد وتهديد لتذهب فيه النفس كل مذهب، ولكون الآية نزلت بعد فتح مكة وحنين وتبوك، وأنها مما بلّغ عام تسع بعد سقوط فريضة الهجرة، فيكون أمر الله عاقبة ما يحل بالذين يتقاعسون عن الجهاد، واغترار بهذه الأمور المذكورة ولم يعلموا أن صونها في حب الله ورسوله والذود عن دعوته ودينه ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

القـــراءة

﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ قرأ أبو بكر: ﴿وعشيراتكم﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿وعشيرتكم﴾ بغير ألف.

وقعـة حنيـن

لما تقدم أمر المؤمنين بالقتال ذكرهم بعده بما آتاهم من النصر حالاً بعد حال فقال:

٢٥ - ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾.

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ حنين واد بين مكة والطائف والمقصود فيه يوم قتالكم فيه هوازن وذلك في شوال سنة ثمان ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً، وكان الكفار أربعة آلاف حيث قالوا لن نغلب عن قلة، فانهزموا بعد ساعة، وقد ثبت رسول الله ﷺ ونفر من أصحابه ﴿فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ أي وليتم ظهوركم لعدوكم.

٢٦ ـ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله والمؤمنين﴾ أي بعد أن انهزموا بسبب إقبالهم على الغنائم يجمعونها وتركهم أماكن الدفاع اغتراراً بالكثرة فحمل عليهم الكفار، والمراد بالسكينة الأمن والطمأنينة التي تسكن بها القلوب ﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ بأبصاركم من الملائكة للتثبيت ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والأسر والهزيمة ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ لكفرهم.

وحيث أن الله تعالى نص في الآية: (١٤) أن عذاب الكفار بالقتل بأيدي المؤمنين دل ذلك على وجود الملائكة للتثبيت فقط.

٢٧ ـ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك﴾ التعذيب ﴿على من يشاء﴾ أن يتوب عليه فهم في حالة الإسلام ﴿والله غفور رحيم﴾.

لما تقدّم النهي عن ولاية المشركين، أزال سبحانه ولايتهم عن المسجد الحرام وحظر عليهم دخوله فقال:

٢٨ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ معناه قذر، والمراد أنه كان علينا اجتنابهم كما تجتنب الأجناس، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ والمقصود جميع الحرم وعامهم هو سنة تسع من الهجرة، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر وقرئت ﴿براءة﴾ وأخذ من هذه الآية حكم منع الكافرين من دخول الحرم ﴿وإن خفتم عيلة﴾ أي فقراً بانقطاع تجارتهم عنكم ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ وفضل الله عام وكثير، ومن ذلك أن أسلم أهل نجد وجرش، وأهل صنعاء، فحملوا الطعام إلى مكة فأغناهم الله به ﴿إن الله عليم حكيم﴾.

آيـة الجزيـة

ثم بيّن الله سبحانه وتعالى أنّ من الكفار من يجوز تبقيته بالجزية فقال:

٢٩ ـ ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾.

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية في حكم قتال أهل الكتاب وهي تمهيد للجهاد الخارجي بعد أن فرغ الرسول من قتال من يليه من المشركين من العرب ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ لأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴿ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾ هذا بيان للذين لا يؤمنون وهم لا يدينون بدين الحق وهو الإسلام وصار هو الحق لأن غيره منسوخ به كقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(١) ووصف دين الإسلام بالحق إشارة إلى التحريف الكبير الذي طرأ على الأديان السابقة والكتب المنزلة بما خلط بها من كلام الآدميين وسيرهم، كما في التوراة والإنجيل، والتلمود شاهد على ذلك ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ الجزية هي عبارة عن المال الذي يؤخذ من الكتابي المقاتل بعقد الذمة، وهي فعلة من الجزاء كأنها جزت عن قتله، ونفعت في حمايته، وفي حقيقتها أنها الخراج الذي يستعان به على الحرب لدفع الأعداء بدماء المسلمين، حماية للذميين ولا تؤخذ الجزية من المرضى والعجزة، والأعمى والمفلوج والشيخ الكبير والنساء والصبيان والرهبان الذين لا يخالطون الناس، وكلمة ﴿عن يد﴾ معناها عن قدرة وهي تدل على المناولة ومن لا قدرة له لا يد عنده ولا جزية عليه، وهم صاغرون أي حالة كونهم مغلوبين لكم، خاضعين لسيادتكم وحكمكم، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم والذين تؤخذ منهم الجزية اليهود والنصارى على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم بنص القرآن والمجوس والصابئون، وقد قبل الصحابة ومن بعدهم من أمراء المسلمين الجزية منهم، أما مشركو العرب فلا تقبل منهم بالإجماع، وأما ما عدا هذه الأصناف من الوثنيين ممن لم ينص عليهم في الكتاب ولا في السنة فأمرهم اجتهادي للإمام يفعل بما يرى فيه المصلحة العامة، ككل مسكوت عنه وآية السيف تخص مشركي العرب فقط كما هو التعبير دائماً في القرآن(٢).

عـزيـر

ثم ذكر الله سبحانه اليهود والنصارى وأقوالهم الشنيعة فقال:

٣٠ ـ ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٢) تفسير المنار ج ١٠ ص ٢٩٩.

﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ أي قال بعضهم، واليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيراً، وفي رواية عن ابن عباس أن بختنصر لما هدم بيت المقدس وقتل قراء التوراة، دنسوها بما علا فيهم من الفسق وعملوا بغير الحق، وأحيا الله عزيراً بعد موته مائة عام لما رأى بيت المقدس مخرباً وهو المعنى في الآية ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾[1] الله إلى بني إسرائيل، وكانت آيته أن قرأ عليهم التوراة وكتبها لهم فصدقوه، وقالوا هذا ابن الله تقديساً ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل﴾ وهو قول بالفم، لابيان فيه ولا برهان، ولا تحته معنى صحيح، ويضاهؤن يشابهون قول من تقدمهم من كفرتهم فإنما قالوه اتباعاً لمتقدميهم الذين قالوا ذلك مثل قول اليهود والمشركين ثم قال على عادة محاورات العرب معجباً ومستفهماً على سبيل الإنكار: ﴿قاتلهم الله أنىّ يؤفكون﴾ عاداهم الله وأبعدهم من رحمته، من أين يصرفون عن الحق.

القـــــراءة

قرأ عاصم والكسائي: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون: بغير تنوين.

ثم وصفهم بضرب آخر من الإشراك ونزّه نفسه عما قاله الظالمون فقال:

٣١ ـ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿اتخذوا أحبارهم﴾ جمع حبر وهو العالم من أهل الكتاب ﴿ورهبانهم﴾ جمع راهب ومعناه في اللغة الخائف وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة، والرهبانية بدعة كما قال الله: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم﴾[2] ﴿أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ ولم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرموه، فصاروا كالأرباب لهم بجامع الطاعة ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ معه غيره في قولهم المسيح ابن الله وقولهم المسيح إله.

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى أنهم بكلماتهم كمن يريد إبطال نور الشمس وذلك سعي باطل وكيد زاهق ولهذا قال:

٣٢ ـ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي دينه وهو الإسلام بالطعن فيه والصّدِ عن دعوته بالباطل ﴿ويأبى الله إلاّ أن يُتّم نوره ولو كره الكافرون﴾.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

ثم أكّد المعنى المتقدّم بقوله:

٣٣ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾.

﴿هو الذي أرسل رسوله﴾ محمداً ﷺ ﴿بالهدى﴾ القرآن ﴿ودين الحق﴾ الإسلام ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ والمعنى: يخبر الله رسوله بأن الله سوف يظهر دينه في حياة الرسول على كل الملل سواء التي يدين بها أهل الكتاب أو التي يعتقدها المشركون من عبادة الأوثان، وقد تحقق وعد الله فأظهر دينه على المشركين، وكلما وردت كلمة المشركين في القرآن يراد منها مشركو العرب كما هو السياق فيه.

سلوك رجال الدين من أهل الكتاب

ثم بيّن سبحانه حال الأحبار والرهبان فقال:

٣٤ ـ ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ بالظلم والرشاوى ﴿يصدون عن سبيل الله﴾ الإيمان بالرسول واتباع الحق بالحكم. ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ من الكفار المشركين وأهل الكتاب والمسلمين فهي عامة في الذين صار جمع الأموال والافتتان بكثرتها وخزنها في الصناديق واستغلالها في المصارف ﴿البنوك﴾ أعظم همهم وغاية مطلبهم في الحياة، لأنهم فقدوا لذة الحياة الروحية بمعرفة الله وخشيته، ومحبته وعبادته ﴿ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ قال ابن عمر: ما أدي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً.

٣٥ ـ ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾.

﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم﴾ أي على الأموال قال ابن مسعود: والله ما من رجل يكوى بكنز، فيوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾ أي تقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيهم هذا العذاب الأليم الواقع بكم هو جزاء ما كنتم تكنزون في الدنيا ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ أي ذوقوا وباله ونكاله، والمعنى: إن ما كنتم تظنون من منفعة كنزه لأنفسكم خاصة بها لا يشاركم فيها أحد كان لكم خلفاً، وعليكم ضدا، فإنه صار في الدنيا لغيركم وكان عذابه في الآخرة خاص بكم.

بعض صور الجاهلية

لما ذكر الله سبحانه وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير إخراج الزكاة وغيرها من حقوق الله منه، اقتضى ذلك أن يذكر النهي عن مثل حاله وهذا الظلم في الأشهر الحرم الذي يؤدي إلى مثل حاله أو أكثر منه، في المنقلب فقال:

٣٦ ـ ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿إن عدة الشهور عند الله﴾ للسنة الواحدة في اللوح المحفوظ ﴿اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم﴾ رجب وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم وسميت حرماً لتحريم بدء القتال فيها وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك أيضاً ﴿ذلك الدين القيم﴾ ذلك الحساب الصحيح ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي في الأشهر الحرم في بدء القتال، أو بارتكاب المعاصي أو بالنسيء فيهن كما يفعل أهل الجاهلية ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ دليل على فرضية الجهاد على كل قادر على حمل السلاح، والنفير لمقابلة العدو بالقدر الذي يصده حسب تقدير قواد الجيش ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ للظلم والعدوان والفساد في الأرض بالشرك والمعاصي.

حكم القتال في الشهر الحرم

للعلماء رأيان، والأرجح ما ذهب إليه عطاء من أن القتال في الشهر الحرام حرام لقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾[١] قال ابن جريج: حلف لي عطاء بالله أنه لا يحل للناس الغزو في الحرم ولا في الشهر الحرام إلا على سبيل الدفع، وأن هذا حكم باق إلى يوم القيامة، وبه قال مقاتل[٢].

وأجاب العلماء عن الرأي الثاني وهو القول بالنسخ بقوله تعالى بآية السيف ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فقال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار: «أنكر بعضهم هذا لأنه نسخ للخاص بالعام»[٣].

وقال علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي: «إنه لم ينسخ لأن المطلق محمول على المقيد وهذه الآية مقيدة لعموم الأمر بالقتال مطلقاً، ولأنّ من جملة مزية الأشهر الحرم بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم كما يجوز في البلد الحرام[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٢) زاد المسير لابن الجوزي ج ٣ ص ٤٣٤.
(٣) تفسير المنار ج ٢ ص ٣١٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ج ١ ص ١٢٨.

تأخير حرمة الأشهر الحرم

لما قدم سبحانه ذكر السنة والشهر عقبه بذكر ما كانوا يفعلونه من النسيء فقال:

٣٧ - ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

﴿إنما النسيء﴾ أي التأخير والمراد به تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرام شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ﴿زيادة في الكفر﴾ إمعان فيه يزداد به الذين كفروا ضلالاً على ضلالهم ﴿يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ أي ليوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله عدد ما حرم الله من الأشهر فلا يزيدوا على تحريم أربعة ولا ينقصوا ﴿فيحلوا ما حرم الله زُين لهم سوء أعمالهم﴾ فظنوه حسناً ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يضل﴾ بضم الياء وفتح الضاد على ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون: ﴿يضل﴾ بفتح الياء وكسر الضاد.

لا يجوز التخلف عن الجهاد في الدعوة العامة له

ثم عاتب سبحانه المؤمنين في التثاقل عن الجهاد فقال:

٣٨ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ إلى الجهاد لصدِّ الأعداء القادمين لقتال المسلمين في غزوة تبوك، وكانوا في عسرة وشدة وحر فشقّ عليهم ﴿اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ والمعنى: يا أيها المؤمنون ما لكم حينما قال لكم الرسول أخرجوا للجهاد في سبيل الله، تباطأ بعضكم عن الخروج للجهاد؟ والخطاب لهم لا ينبغي ذلك، أآثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة الآخرة الباقية، ونعيمها الذي لا يزول؟ ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ أي تافه.

ثم لما رغبهم في الجهاد بعرض الثواب عليهم أرهبهم بشديد العقاب عند تركه فقال:

٣٩ ـ ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما﴾ بما ينالكم في الدنيا من الذل والخزي بين أصحابكم، أو القهر والغلبة من عدوكم، بسبب ترككم الجهاد ورضاكم بالقعود وفي الآخرة كل واحد يأخذ جزاءه ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي ينصر نبيه بقوم آخرين غيركم فيكونون أهلاً منكم للثواب والمغفرة أو ينشىء جيلاً غيركم لا يعرف الخوف والجبن والقعود عن الجهاد والدفاع عن الدين والوطن، كما استبدل الله قوم موسى بجيل جديد غيرهم، حينما قالوا له ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾[1] ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ أي إن ترككم الجهاد لا يضر الله وإنما تعود خسارته على أنفسكم فقط، ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار

ثم أعلمهم الله سبحانه أنّهم إن تركوا نصرة رسوله لم يضره ذلك شيئاً كما لم يضره قلة ناصريه حين كان بمكة وهمّ به الكفار فتولى الله نصره فقال:

٤٠ ـ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿إلا تنصروه﴾ إن لم تستجيبوا للرسول فتخرجوا للجهاد في سبيل الله ﴿فقد نصره الله﴾ من قبل بمكة يومئذ ﴿أخرجه الذين كفروا﴾ وتآمروا عليه ليقتلوه وهو ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ أي الكهف في الجبل، وهو غار في جبل الثور ﴿إذ يقول لصاحبه﴾.

والمعنى: إن لم تنصروه فإن الله كفيل بنصره كما أيده ونصره حينما اضطره الذين كفروا للخروج من مكة، وليس معه إلا رفيقه أبو بكر، وكان ثاني اثنين، وبينما هما بالغار مختفيان من المشركين الذين يتعقبونهما، خشي أبو بكر على حياة النبي فقال له الرسول مطمئناً ﴿لا تحزن إنّ الله معنا﴾ بالنصرة والمعونة عند ذلك ﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾ في غزوة بدر وحنين ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

التجنيد العام

ثم أمر سبحانه بالجهاد وبيّن تأكيد وجوبه على العباد فقال:

٤١ ـ ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ أي على كل حال، من يسر وعسر من فقر ومرض أو قلة العيال وكثرتهم ومن الكبر في السن أو الحداثة، وغير ذلك من الأسباب مما ينتظم في المساعدة الحربية، بعد الإمكان والقدرة واستثنى من هذه الآية ما ورد بقوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾[1] وهذه الآية محكمة ومجال تطبيقها في التعبئة العامة عندما يتطلب الدفاع النفير العام ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما.

ثم نزّل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين فقال:

٤٢ ـ ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿لو كان عرضاً قريبا﴾ أي لو كان ما استنفرتم له منفعة ومتاعاً مما لا ثبات له ولا بقاء قريب المنال ﴿وسفراً قاصداً﴾ وسطا ﴿لاتبعوك﴾ طلباً للغنيمة ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ المسافة فتخلفوا ﴿وسيحلفون بالله﴾ إذا رجعتم إليهم ﴿لو استطعنا﴾ الخروج ﴿لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم﴾ بالحلف الكاذب وهو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ وهؤلاء هم المنافقون.

ثم عاتب نبيه حين أذن للبعض في التخلف عن الجهاد، وهو عتاب لطيف على ترك الأولى فقال:

٤٣ ـ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

﴿عفا الله عنك لم أذنْت لهم﴾ أي لأي سبب أذنت لهؤلاء في التخلف وهذا عتاب لطيف على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي فيما اخبروا به عند الاعتذار من عدم الاستطاعة ﴿وتعلم الكاذبين﴾ المنافقين.

ثم بيّن سبحانه حال المؤمنين والمنافقين في الاستئذان فقال:

٤٤ ـ ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٩١.

تنبيه على أن يستدل عليه الصلاة والسلام باستئذانهم على حالهم ولايأذن لهم، أي ليس من شأن المؤمنين وعادتهم أن يستأذنوك.

ثم بيّن الذين من شأنهم الاستئذان فقال:

٤٥ ـ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾.

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره ﴿فهم في ريبهم﴾ وشكهم المستمر في الإيمان ﴿يترددون﴾ يتحيرون.

من طبيعة المنافقين تفريق الكلمة

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء المنافقين فقال:

٤٦ ـ ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾.

﴿ولو أرادوا الخروج﴾ للجهاد وبيتوا النية له ﴿لأعدّوا له عدة﴾ أي أهبة من الزاد والراحلة وسائر ما يحتاج إليه المسافر ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي خروجهم ﴿فثبّطهم﴾ بتسليط الشيطان عليهم فأطاعوه ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ اقعدوا مع العاجزين فلا خير فيكم.

٤٧ ـ ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

﴿لو خرجوا فيكم﴾ بيان لكراهة الله انبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ما زادوكم﴾ شيئاً ﴿إلّا خبالا﴾ أي شراً وفساداً، وأصل الخبل الاضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون، ويفسر هنا في الآية بالاضطراب في الرأي. ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ الإيضاع سير الإبل إذا أسرعت، والخلال جمع خلل وهو الفرجة، ومعنى الآية ولو كانوا معكم في صفوفكم لسعوا بينكم بالنميمة وإفساد ذات البين ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي يطلبون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم وتهويل أمر العدو عليكم وإلقاء الرعب في قلوبكم ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم أو فيكم قوم مسلمون ضعاف الإيمان يسمعون قولهم، ويرجحون اقتراحاتهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ علماً محيطاً بظواهرهم وبواطنهم وأفعالهم سواء السماعون أو القاعدون.

ثم سلّى نبيه بتوهين كيد أهل النفاق قديماً وحديثاً فقال:

٤٨ ـ ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾.

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ من قبل هذه الغزوة يوم أحد، حين انصرف عبد الله بن أُبيّ بن سلول بأصحابه وقد تخلف بهم عن هذه الغزوة ﴿وقلّبوا لك الأمور﴾ أي المكايد، والمراد تدبيرها بالمكايد والحيل ﴿حتى جاء الحق﴾ أي النصر والظفر الذي وعده الله تعالى ﴿وظهر أمر الله﴾ أي غلب دينه وعلا شرعه ﴿وهم كارهون﴾ أي على رغم منهم.

٤٩ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

﴿ومنهم من يقول ائذن لي﴾ في القعود عن الجهاد ﴿ولا تفتنّي﴾ لا تجعلني أقع في الضرر أي لا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر ﴿ ألا في الفتنة سقطوا﴾ في الهلكة بتخلفهم وترديهم في دركات الردى أسفل سافلين ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ وعيد لهم على ما فعلوا.

من أخلاقهم الفاسدة

هذا نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين.

٥٠ ـ ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾.

﴿إن تصبك حسنة﴾ من الظفر والغنيمة ﴿تسؤهم﴾ تلك الحسنة أي تورثهم مساءة وحزناً لفرط حسدهم ﴿وإن تصبك مصيبة﴾ من الله شدة مطر أو ريح أو مثل ما وقع يوم أحد ﴿يقولوا﴾ متبجحين ﴿قد أخذنا أمرنا﴾ أي تلافينا ما يهمنا من الأمر بالتخلف والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة ﴿من قبل﴾ أي من قبل أن تقع المصيبة ﴿ويتولوا﴾ من مكان الاجتماع الذي حصل فيه القول ﴿وهم فرحون﴾ بما صنعوا وبما أصاب المسلمين.

ثم أمر نبيه ﷺ بأن يقول في جوابهم:

٥١ ـ ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ قل ذلك تبكيتاً لهم ولغيرهم بأن ما أصابنا هو من عند الله، في الدائرة التي تسيطر علينا بما هو مقدر علينا ﴿هو مولانا﴾ المتولي أمورنا بالنصر والخذلان ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

ثم أمره بجواب ثان فقال:

٥٢ ـ ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ

بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾.

﴿قل هل تربصون بنا﴾ التربص الانتظار والتمهل والمعنى ما تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ أي إحدى العاقبتين اللتين كل منهما أحسن من جميع العواقب، وهما إما النصر وإما الشهادة وثوابها الجنة. ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ فيهلككم بالموت في الفراش أو في الحرب ﴿أو بأيدينا﴾ أي ننفذ فيكم حكم الله بالقتل على الكفر، وذلك عندما ينكشف أمركم، وتقيد القتل بكونه على الكفر وفيه إشارة إلى أنهم لا يقتلون حتى يظهروا الكفر ويصروا عليه، لأنهم منافقون والمنافق لا يقتل ابتداء ﴿فتربصوا إنّا معكم متربصون﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فتربصوا لتجدوا نتيجة نفاقكم.

جزاء النفاق في الدنيا والآخرة

ثم بين سبحانه أن هؤلاء المنافقين لا ينتفعون بما ينفقونه مع إقامتهم على الكفر فقال:

٥٣ ـ ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

﴿قل أنفقوا﴾ أموالكم في مصالح الجيش ﴿طوعا أو كرها﴾ في معنى الشرط أي إن أنفقتم على أي حال ﴿لن يتقبل منكم﴾ أي أنفقوا ما شئتم من أموالكم في الجهاد أو غيره مما أمر الله به حال التطوع للتقية أو الكره خوف العقوبة فمهما تنفقوا في الحالين لن يتقبل الله منكم شيئاً منه، ما دمتم على شك مما جاءكم به الرسول من أمر الدين وهو كقوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾[1] ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لرد اتفاقهم، والمراد بالفسق العتو والتمرد.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرها﴾ بضم الكاف، وقرأ الباقون: بالنصب.

ثم علل منع القبول بأمور ثلاثة فقال:

٥٤ ـ ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾.

﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا شيء من الأشياء إلا كفرهم بالله ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ ففعلهم لهذين الركنين من أركان الإسلام اللذين هما أظهر آيات الإيمان، لا يدل على صحة إيمانهم، لأنهم يأتونها رياء وتقية لا إيماناً بوجوبهما، ولا احتساباً لأجرهما عند الله.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٠.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿وما منعهم أن يقبل منهم نفقاتهم﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿أن تقبل منهم نفقاتهم﴾ بالتاء.

ثم لما قطع رجاء المنافقين عن منافع الآخرة أراد أن يبيّن أن ما يظنونه من منافع الدنيا فهو أيضاً في الحقيقة سبب لتعذيبهم وبلائهم، وتشديد المحنة عليهم، فقال مخاطباً الرسول عليه السلام:

٥٥ ـ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ أي لا يروقك شيء من ذلك ﴿إنما يريد الله ليعذّبهم بها في الحياة الدنيا﴾ إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده حين يوفقه إلى الشكر على النعمة والإصلاح بها في الأرض، والتوجه بها إلى الله فإذا هو مطمئن الضمير ساكن النفس واثق من المصير كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرا، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب، فإذا السكينة النفسية تغمره والأمل في الله يسري عنه، وقد تكون نقمة وعذاباً يصيب الله بها عبداً من عباده، لأنه يعلم من أمره الفساد فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيماً، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى وإنما هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا أو إذا صحوا، وكم من الناس يعذبون بسبب أبنائهم ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي يموتون حال كونهم كافرين. يقول الشاعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض النــاس بـالنعم

ثم أظهر سبحانه سراً من أسرار القوم فقال:

٥٦ ـ ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾.

﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ لكفرهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الكاذبة، وأصل الفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر.

ثم أكد نفاقهم بقوله:

٥٧ ـ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

﴿لـو يجدون ملجأ﴾ أي حصناً يلجؤون إليه أو مكاناً أميناً ﴿أو مغارات﴾ كهوفاً في الجبال يخفون أنفسهم فيها وهي جمع مغارة ﴿أو مدخلا﴾ نفقاً ينجحرون فيه ﴿لولّوا إليه وهم يجمحون﴾ أي لصرفوا وجوههم إليه وهم مسرعون.

ويذكر الله من جملة قبائحهم فيقول:

٥٨ ـ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾.

﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ أي يعيبك في شأنها ﴿فإن أعطوا منها﴾ بيان لفسادهم ولمزهم ﴿رضوا وإن لم يعطوا منها﴾ ذلك المقدار الذي يرضونه ﴿إذا هم يسخطون﴾.

القـــراءة

قرأ يعقوب والحسن والأعرج: ﴿يلمُزك﴾ بضم الميم، وقرأ ابن كثير: ﴿يلامزك﴾ بالألف.

ثم أرشدهم إلى ما هو صلاحهم في نفس الأمر فقال:

٥٩ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾.

﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ من الغنائم والصدقات ﴿وقالوا حسبنا﴾ كافينا ﴿الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ من غنيمة أخرى ما يكفينا ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ لكان خيراً لهم.

مصارف الصدقات في الزكاة

ثم بين سبحانه لمن الصدقات فقال:

٦٠ ـ ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ يعني أن من يقسم له من مال الله، من اتصف بإحدى هذه الصفات دون غيره إذ القصد الصلاح، والمنافقون ليس فيهم سوى الفساد فلا يستحقونه، وفي ذلك حسم لأطماعهم ورد لمقالتهم الباطلة، والمراد من الصدقات الزكاة المفروضة، والفقير من عنده بعض شيء لا يكفيه، والمسكين من لا شيء عنده يكفيه فيحتاج للمسألة ويدخل تحت لفظ المسكين غير المسلم المحتاج ﴿والعاملين عليها﴾ وهم الذين يبعثهم حاكم المسلمين لجمعها كالجباة والكتاب والحراس.

﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف صنف كان رسول الله يعطيهم ليسلموا، وصنف أسلموا لكن على ضعف كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي، وصنف كانوا يعطون لدفع شرهم عن المؤمنين وحكم إعطاء هؤلاء متروك للإمام حسب تقدير المصلحة العامة، فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه منع إعطاء المؤلفة قلوبهم، حيث قال فأما اليوم فقد أعز الله تعالى الإسلام وأغنى عنكم فإن ثبتم

على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف ﴿وفي الرقاب﴾ أي في فك رقاب العبيد ﴿والغارمين﴾ أي الذين عليهم دين من غير معصية ما لم يتب ﴿وفي سبيل الله﴾ جميع القرب فيدخل فيه كل من سعى في طاعة الله، ومنها طلب العلم وكل سبيل للخير والبر، ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر الذي انقطع عن ماله ويعطى بقدر حاجته، والحق فيه كل من غاب عن ماله وإن كان في بلده غنياً ﴿فريضة من الله﴾ أي فرض لهم الصدقات أي فرض الله ذلك فريضة ﴿والله عليم حكيم﴾.

أذى المنافقين للنبي ﷺ

ثم رجع سبحانه إلى ذكر المنافقين فقال:

٦١ ـ ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ أي ومن المنافقين من يقول نقول في النبي محمد ﷺ مانشاء، ثم نأتيه فيصدّقنا بما نقول؛ لأنه أذن سامعة فلا يغضب منا ﴿قل أذن خيرلكم﴾ كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نعم الأذن ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص.

والمعنى: أذن خير يسمع آيات الله تعالى ودلائله فيصدقها، ويسمع قول المؤمنين فيسلمه لهم ويصدقهم به، وإن النبي ﷺ لا يسمع قول المنافقين إلاّ شفقة عليهم لا أنه يقبله لعدم تمييزه عليه ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

القــــراءة

﴿قل هو أذن خير لكم﴾قرأ نافع: ﴿قل هو إذْن﴾ بإسكان الذال في كل القرآن كأنه استثقل ثلاث ضمات فسكّن، وقرأ الباقون: بضم الذال على أصل الكلمة. قرأ أبو بكر في رواية الأعشى[1]: ﴿قل هو أذن﴾ منون، ﴿خير لكم﴾ بالرفع والتنوين، وقرأ الباقون: ﴿أذنُ خيرٍ﴾ بالإضافة. قرأ حمزة: ﴿ورحمة للذين آمنوا﴾ بالخفض على العطف على ﴿خير﴾ المعنى: أذن خير وأذن رحمة للمؤمنين، وقرأ الباقون: ﴿ورحمةٌ﴾ أي ﴿وهو رحمة﴾ خبر ابتداء.

من آثار النفاق

ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة فقال:

٦٢ ـ ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾.

---

(١) هو يعقوب بن محمد بن خليفة، أبو يوسف الأعشى التميمي الكوفي، أخذ القراءة عرضاً عن أبي بكر شعبة، وأجلّ أصحابه، توفي في حدود المئتين.

والمعنى: إن حلفهم لكم كاذبين لتصدقوهم وترضوا عنهم، إذا كان كذبهم غير ظاهر وغير معلوم باليقين، ولكن الله الذي لا يخفى عليه شيء يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو يوحي إلى رسوله من أمور الغيب فيعلم، فهما أحق بالرضى.

ثم وبخهم بقوله:

٦٣ ـ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي يخالف أمر الله وأمر رسوله ﴿فأنّ له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم﴾ أي الذل والهوان المقارن للفضيحة.

٦٤ ـ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ بشأنهم ﴿تنبئهم بما في قلوبهم﴾ أي تفضحهم وتكشف أسرارهم من النفاق وهم مع ذلك يستهزؤون ﴿قل استهزؤوا﴾ هذا يدل على أنه وقع منهم استهزاء والأمر للتهديد ﴿إن الله مخرج ماتحذرون﴾ أي يكشفه فيما ينزل من أسراركم ونفاقكم.

ثم أمر نبيه أن يقول في جوابهم:

٦٥ ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿ولئن سألتهم﴾ عما قالوه ﴿ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ في الكلام دون قصد ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ والاستفهام للتوبيخ أي قل لهم غير ملتفت إلى اعتذارهم.

٦٦ ـ ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾.

﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي لا تشتغلوا بالاعتذار فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام، والطعن فيه بعد إيمانكم أي إظهاركم الإيمان ولا إيمان في نفس الأمر لهم ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم وإخلاصهم والخطاب لجميع المنافقين ﴿نعذب طائفة﴾ أي المصرّين على النفاق وهم غير التائبين، والعذاب إما على يد المسلمين في الدنيا بيد الحاكم والسلطان، أو بالآخرة كعذاب الأمم الكافرة من قبل أمة محمد ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾.

القــــراءة

قرأ عاصم: ﴿إن نعف﴾ بالنون ﴿نعذب﴾ بالنون أيضاً، ﴿طائفة﴾ بالنصب، وقرأ الباقون: ﴿إن يعف﴾ بالياء وضمها، ﴿تعذب﴾ بالتاء ﴿طائفة﴾ رفع على ما لم يسم فاعله.

آية المنافقين وصفاتهم

٦٧ ـ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي متشابهون في النفاق والمراد الاتجاه في الحقية والصورة كالماء والتراب، والآية متصلة بكل ما ذكر من قبائحهم ثم فصّل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم بحال المؤمنين فقال: ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ المعروف في مقابلة المنكر ومن المنكر الذي يأمر به بعضهم بعضاً الكذب والخيانة وإخلاف الوعود، والفجور والغدر بنقض العهود، قال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»(١) وفي حديث آخر، «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» رواه أحمد والشيخان، ﴿ويقبضون أيديهم﴾ عن الإنفاق في طاعة الله كناية عن الشح والبخل، وقبض الأيدي ضم أصابعها إلى باطن الكف، وهو كناية عن الامتناع عن البذل، كما أن بسطها كناية عن البذل ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ النسيان مجاز عن الترك، والمراد لم يطيعوه، فمنع لطفه وفضله عنهم، والتعبير بالنسيان للمشاكلة ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الفسق الخروج عن الطاعة حتى كأنهم الجنس كله.

٦٨ ـ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾.

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار﴾ أي المجاهرين فيه، عطف العام على الخاص لأنهم جنس واحد يجمعهم الكفر والعذاب الواحد ﴿نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم﴾ جزاءً وعقاباً أي كافيتهم ﴿ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ دائم لا ينقطع.

ثم عاد لخطاب المنافقين الذين نزلت في شأنهم الآيات فقال:

٦٩ ـ ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟

(١) متفق عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿كالذين من قبلكم﴾ عود لخطاب المنافقين الذين نزلت في شأنهم الآيات: أنتم أيها المؤذون لله ورسوله وللمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم في أقوام الأنبياء ﴿كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي فكان مطلبهم من أعمالهم وسعيهم التمتع والتنعم بنصيبهم وحظهم الدنيوي من الأولاد والأموال، التمتع بعظمتها تطغيهم بالقوة، وبلذاتها تغريهم ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ من القوة والأموال والأولاد سواء، لم تفضلوا عليهم بشيء فكنتم أجدر باللائمة والعقاب منهم ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي خضتم في حمأة الباطل كالخوض الذي خاضوه، من كل وجه على ما بين حالكم وحالهم من الفرق الذي كان يقتضي أن تكونوا أهدى منهم ﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً ولا كرامة حبط وفسد وذهبت فائدته، يقال حبط بطن البعير انتفخ وفسد من كثرة ما أكل من الخضر ومن النبات، وحبطت أعمالهم في الدنيا إذا ظهر نفاقهم وافتضح أمرهم، وأما أعمال النفاق الدنيوية في أيام الملوك والأمراء الظالمين الفاسقين، فإنها تكون أكثر رواجاً ونتاجاً من أعمال الصادقين المخلصين، ولا دليل على فساد الملوك والأمراء والرؤساء، أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم، قال النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» متفق عليه. ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ الكاملون في الخسران.

لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين بيّن أن أولئك الكفار من هم فذكر ست طوائف فقال:

٧٠ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح﴾ كيف أغرقوا بالطوفان ﴿وعاد﴾ أهلكوا بالريح ﴿وثمودَ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿وقوم إبراهيم﴾ أهلك نمرود رئيسهم ببعوض وأبيدوا بعده ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة أو بالصيحة والرجفة.

﴿والمؤتفكات﴾ جمع مؤتفكة من الائتفاك وهو الانقلاب والخسف وهي قرى قوم لوط. ﴿أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم﴾، أي فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى ولم يكن من عادة الله ولا من سنته أن يظلم أحداً ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

المؤمنون وصفاتهم وجزاؤهم

لما ذكر الله تعالى المنافقين ووصفهم بقبيح خصالهم، اقتضت الحكمة أن يذكر المؤمنين وبعضهم بضد أوصافهم، ليتصل الكلام بما قبله اتصال النقيض بالنقيض فقال:

٧١ - ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ إشارة إلى تناصرهم وتعاضدهم ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنَّ الله عزيز حكيم﴾ في أخذه الكفار بظلمهم حيث كانوا على الضد من صفات المؤمنين المذكورة.

ثم فسّر ما أجمل من الرحمة فقال:

٧٢ - ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ الجنات البساتين الملتفة الأشجار، بحيث تجن الأرض تغطيها وتسترها، والخلود فيها عبارة عن المقام الدائم، والمساكن الطيبة في جنات عدن، التي يطيب لساكنيها المقام والاستقرار ومعنى العدن الإقامة والاستقرار والثبات ومنه الدهن العداني ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أعظم من ذلك كله ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾.

ثم عاد مرة أخرى إلى شرح أحوال المنافقين فقال:

٧٣ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ هذا يقتضي مقاتلتهم، وحيث سووا بالكفار دليل على أنَّ الحكم يشمل من يظهر الكفر منهم كما سيأتي في الآية التالية ﴿واغلظ عليهم﴾ بالقول والفعل والعذاب بالعقوبة حيث أن المسلمين أصبحوا في حالة من القوة والمنعة، وأصبح الموقف يقتضي عدم التسامح من الصفح والعفو ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ المخصوص بالذم محذوف أي بئس مصيرهم.

ثم أظهر سبحانه أسرار المنافقين فقال:

٧٤ - ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿يحلفون﴾ كاذبين ﴿بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وأن ما بلغك عنهم ليس بصحيح، أي إذ قالوا قولاً كقول من قال منهم «ليخرجن الأعز منها الأذل» والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد في الاستهزاء بالدين وبالرسول ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد إظهار الإسلام وإلا فكفرهم الباطن كان ثابتاً قبل، والإسلام الحقيقي لا وجود له ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ من الفتك برسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك ﴿ومانقموا﴾ أي ما كرهوا وعابوا شيئاً ﴿إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ حيث كانوا فقراء فأغناهم الله ورسوله بما نالهم من الغنائم التي هي عندهم غاية الغايات، وهذا التعبير يسمى في البلاغة المدح في معرض الذم وهو نوع من أنواع البديع كقول الشاعر:

وما نقموا منا بني العرب خلة سوى أنّ خير الخلق لم يك أعجما

﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ من النفاق وما هم فيه من القبائح ﴿وإن يتولوا﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الإعراض ﴿يعذبهم الله عذاباً أليما في الدنيا﴾ بمتاعب النفاق وسوء الذكر ومن ينكشف منهم بقتل ﴿والآخرة﴾ في النار ﴿ومالهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ يشفع لهم أو يدافع عنهم.

ولا تعارض بين هذه الآية والآيات الكثيرة التي تشير إلى تأخير العذاب عن أمة محمد إلى اليوم الآخر بعد الحساب، فعذاب الدنيا هو الذي يتولاه الإمام بالجهاد أو إقامة الحدود والتعزيرات، علاوة على العذاب النفسي، وقد أفادتنا هذه الآية بأن النفاق جريمة معاقب عليها في الإسلام متى انكشف مرتكبها.

قصة ثعلبة بن حاطب

ثم بيّن أن هؤلاء كانوا ينافقون الرسول والمؤمنين فكذلك ينافقون ربهم فيما يعاهدونه عليه فقال:

٧٥ ـ ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ أي من هؤلاء المنافقين من عاهد الله وأقسم وأكد الأيمان لئن آتاهم الله مالاً وثروة ليشكرنَّ له نعمته بالصدقة منها والأعمال الشرعية النافعة وأعاد اللام في ﴿لنكونن﴾ لتأكيد العزم على الاستعانة والتوسل بفضل المال.

ثم وصفهم بصفات ثلاث فقال:

٧٦ ـ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ سعة في الرزق ﴿بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ أي ما لبثوا أن بخلوا بما آتاهم عقب حصولهم عليه وأمسكوه فلم يتصدقوا بشيء منه وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة والصلاح بل تولوا وهم معرضون بكل قواهم ووعيهم وانتباههم فكان الإعراض صفة راسخة فيهم.

٧٧ - ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.

﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ يقال أعقبه الشيء إذا كان عاقبة أمره وثمرته ﴿إلى يوم القيامة﴾ للحساب في الآخرة لأنه بلغ المنتهى الذي لا رجاء معه في التوبة ﴿ذلك بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ ذكر سببين هما أخص صفات المنافقين وأظهر الآيات الدالة على نفاقهم إخلاف الوعد والكذب، فكيف إذا كان الوعد مع الله سبحانه مع العهد والقسم، وعبر بالكذب بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار لأن ذلك شأنهم الدائم فالمنافق لا يعيش بدون الكذب.

المنافقون صنفان صنف ينكشف نفاقه بالكفر في الدنيا، فيعاقب بالقتل والنار في الآخرة.

وصنف يظل يظهر خلاف ما يبطن، ظاهره الإسلام وباطنه الكفر والعصيان، فهؤلاء عاقبهم الله في الدنيا بأن جعلهم يكابدون عاقبة عملهم نفاقاً مستمراً بين الناس وهي عملية نفسية صعبة أن يستمر عليها الإنسان، والناس ينظرون إليه باحتقار وازدراء وفي الآخرة يعذب بالنار، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾.

أيمان المنافقين

ثم وبّخهم على التجاهل أو عدم العلم بعلم الله وإحاطته بضمائرهم وتناجيهم فقال:

٧٨ - ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.

﴿ألم يعلموا أنَّ الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون، ويقولون ما لا يفعلون ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان، ولمزِ الرسول، أنَّ الله يعلم سرهم الكامن في أعماق قلوبهم، ونجواهم التي يخصون بها من يثقون بمشاركته إياهم في نفاقهم ﴿وأنَّ الله علّام الغيوب﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنذار، فالمنافقون كانوا يؤمنون بوجود الله، وعلمه، إيماناً إجمالياً تقليدياً وإنما كانوا يرتابون في الرسالة والوحي والبعث.

من أذى المنافقين للمؤمنين وجزاؤهم

ثم وصفهم الله بصفة أخرى فقال:

٧٩ - ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات﴾ أي الذين يعيبون المتصدقين تطوعا ﴿والذين لا

يجدون إلا جهدهم﴾ عطف على المطوعين وهو من عطف العام على الخاص، والجهد الطاقة.

والمعنى: ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقتهم وما تبلغه قوتهم وهم الفقراء ﴿فيسخرون منهم﴾ عطف على يلمزون لبيان اللمز ﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم على سخرهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

٨٠ ـ ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾.

﴿استغفر لهم أولا تستغفر لهم إنْ تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ هذه الآية بمعنى آية سورة المنافقين ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1] وفيها زيادة تأكيد بذكر السبعين مرة، والتصريح بأن سبب عدم المغفرة هو الكفر، وعدد السبعين ليس المراد به العدد بل الكثرة المطلقة كما هو في عرف العرب، بل المعنى مهما تكثر من الاستغفار فلن يستجاب لك فيهم، وحسنت هذه الزيادة فيها لتأخر نزولها فهي أمر معناه الخبر، معناه: الاستغفار لهؤلاء المنافقين المعينين ممن كان الرسول يستغفر لهم رجاء توبتهم فيغفر الله لهم، سيان وهو العالم بأحوال العباد وكان الرسول من رحمته ولطفه يستغفر للمشركين كلما اشتد إيذاء الكفار له فيقول: ﴿اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون﴾ ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ هذا وصف لهؤلاء المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام بأنهم كفار وفسقة فلا يجوز لهم الاستغفار ولا ينفعهم، وهذا الحكم لمن عينهم الله بالوحي وإلاّ فإن المسلمين أمروا أن يحكموا بالظاهر والله يتولى السرائر.

المتخلفون عن الجهاد

ثم أخبر سبحانه أنّ جماعة من المنافقين الذين خلفهم النبي ﷺ ولم يخرجهم معه إلى تبوك استأذنوه في التأخر: فأذن لهم، فرحوا بقعودهم فقال:

٨١ ـ ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ عاد الكلام إلى بيان حال الذين تخلفوا عن الخروج للقتال وظلوا في المدينة ولم يذهبوا لغزوة تبوك ﴿وكرهوا أنْ يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾. أي قالوا بعضهم لبعض ﴿لا تنفروا﴾ تخرجوا للجهاد ﴿في الحر قل نار جهنم أشدُّ حراً﴾ من تبوك فالأولى أن يتقوها بترك التخلف ﴿لو كانوا يفقهون﴾ لو كانوا يعلمون أنها كذلك.

ثم أخبر عن عاجل أمرهم فقال:

٨٢ ـ ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

(١) سورة المنافقون، الآية: ٦.

﴿فليضحكوا قليلاً﴾ في الدنيا وهو إخبار عن عاجل أمرهم ﴿وليبكوا كثيراً﴾ في الآخرة ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من فنون المعاصي.

كيف عامل النبي زعماء النفاق

ثم عرّف نبيه وجه الصلاح في سائر الغزوات فقال:

٨٣ ـ ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾.

﴿فإن رَجَعَك الله إلى طائفة منهم﴾ أي إلى المنافقين من المتخلفين في المدينة ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ من الأعداء بصيغة ما، لا بالسفر ولا بالخروج ولا بغير ذلك لأي مكان، ثم بين سبب هذا الحرمان من شرف الجهاد فقال ﴿إنكم رضيتم بالقعود أولَ مرة﴾ أي أنكم رضيتم لأنفسكم بخزي القعود أول مرة دعيتم فيها ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ وقد يكون الخالف المتخلف عن القوم في الغزو وغيره كقوله تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ ويراد به الصبيان والعجزة والنساء الذين لا يكلفون القيام بشرف الجهاد للدفاع عن الحق.

ثم نهى سبحانه نبيه ﷺ: أن يصل عليهم صلاة الميت فقال:

٨٤ ـ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾.

﴿ولا تصل على أحد منهم مات﴾ صلاة الميت ﴿أبداً ولا تقم على قبره﴾ ولا تقف عند قبره عند الدفن للدعاء له بالتثبيت كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم، ويلزم عدم تشييع جنائزهم، ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ تعليل لعدم الصلاة عليهم.

٨٥ ـ ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

موقف المنافقين من الجهاد

ثم بيّن سبحانه تمام أخبار المنافقين فقال:

٨٦ ـ ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾.

﴿وإذا أُنزِلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطَّول منهم﴾ الطول بالفتح يطلق على الغنى والثروة وعلى الفضل والمنة، والمراد بها أولوا المقدرة على الجهاد المفروض بأموالهم وأنفسهم، أي استأذنوك بالتخلف عن الجهاد ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ أي دعنا نكن مع القاعدين في بيوتهم لعذر من الضعفاء والمسنين العاجزين عن القتال كالمشلولين والصبيان والنساء.

٨٧ ـ ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ النساء المتخلفات العاجزات وكل من لا خير فيه ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ أي ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق.

٨٨ ـ ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ هذا استدراك على قعود المنافقين عن الجهاد مع الرسول ﷺ عملاً بداعي الإيمان، لكن الرسول والذين آمنوا وكانوا معه في كل أمور الدين لا يفارقونه قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فقاموا بالواجب خير قيام كما يقتضيه الإيمان والإسلام ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بسيادة الدنيا مع سعادة الآخرة.

٨٩ ـ ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

المتخلفون من الأعراب

لما تقدم حديث المخلفين صنف الله تعالى الأعراب منهم صنفين فقال سبحانه:

٩٠ ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿وجاء المعذرون﴾ المعتذرون ﴿من الأعراب﴾ إلى النبي ﷺ ﴿ليؤذن لهم﴾ في القعود لعذرهم فأذن لهم ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ من الأعراب أي أظهروا الإيمان بهما كذباً، وإيهاماً، يقال كذبته نفسه إذا حدثته بالأماني والأوهام التي لا يبلغها، وكذبته عينه إذا أرته ما لا حقيقة له ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾.

القــــراءة

قرأ الكسائي في رواية قتيبة: ﴿وجاء المعذرون﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون ﴿وجاء المعذِّرون﴾ بالتشديد أي المعتذرون.

الضعفاء وأهل الأعذار

ثم ذكر سبحانه أهل العذر فقال:

٩١ - ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ في الجهاد ﴿حرج﴾ أي ضيق في حكم الشرع ولا إثم في القعود عن الجهاد الواجب ﴿إذا نصحوا الله ورسوله﴾ إذا أخلصوا لله تعالى في الإيمان ولرسوله في الطاعة وأدوا الأمانة، ومن النصح لله ورسوله في هذه الحالة كل ما فيه مصلحة للأمة، ولا سيما المجاهدين منا، فالنصح العام ركن من الأركان المعنوية العامة للإسلام، ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ السبيل الطريق السهل يطلق على الحسي منه، والمعنوي في الخير والشر، قال تعالى: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[1] ﴿والله غفور رحيم﴾.

٩٢ - ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ معك إلى الغزو ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ معطوف على نفي الحرج من الضعفاء والمرضى والفقراء ونفي السبيل عن المحسنين، أي لا حرج على من ذكر بشرط النصح ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل فيخرجوا معك فلم تجد ما تحملهم عليه، وهؤلاء جماعة من الفقراء ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾ أي انصرفوا من مجلسك وهم في حال بكاء هاجه حزن عميق فكانت أعينهم تمتلىء دمعاً ﴿حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ أي على عدم وجدانهم عندك ولا عندهم ما ينفقون ولا ما يركبون.

٩٣ - ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع الخوالف والمخالفين من النساء والأطفال والعجزة المعذورين ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ فأحاط بهم ما جروا عليه من خفاياهم وذنوبهم بحسب سنن الله تعالى في أمثالهم ﴿فهم لا يعلمون﴾ كنه حالهم ولا سوء مآلهم.

ثم أخبر الله سبحانه عن هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ فقال:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

٩٤ ـ ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿يعتذرون إليكم﴾ المنافقون في التخلف ﴿إذا رجعتم إليهم﴾ من الغزو ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي لن نصدقكم قد أخبرنا الله بطريق الوحي على نبيه أنه ليس لكم عذر ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ إن عملتم خيراً وتبتم من تخلفكم ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ في السر والعلانية.

ثم ذكر أن منافقي الأعراب سيؤكدون أعذارهم بالأيمان الكاذبة مثل ما حكى تعالى عن منافقي المدينة فقال:

٩٥ ـ ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم﴾ رجعتم ﴿إليهم﴾ من تبوك إنهم معذورون في التخلف ﴿لتعرضوا عنهم﴾ بترك المعاقبة ﴿فأعرضوا عنهم إنهم رجس﴾ قذر لخبث باطنهم ﴿ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾.

ثم بين أنهم طلبوا إعراض الصفح بقوله:

٩٦ ـ ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾.

الأعراب

لما تقدم ذكر المنافقين بين سبحانه أن الأعراب منهم أشدّ في ذلك وأكثر جهلاً فقال:

٩٧ ـ ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿الأعراب﴾ أهل البدو من المنافقين ﴿أشدّ كفراً ونفاقاً﴾ كفرهم ونفاقهم أشد من أهل المدينة وأغلظ طباعاً منهم لأنهم أقسى وأجفى من أهل الحضر ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾. والمعنى: أجدر وأولى من أن يعلموا حدود ما أنزل الله من الحلال والحرام والفرائض ﴿والله عليم حكيم﴾.

ثم نوّع جنس الأعراب فقال:

٩٨ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾.

﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق﴾ إذا خرج في الغزو بجعل ما أنفقه في سبيل الله ﴿مغرماً﴾ أي خسراناً لأنه لا يرجو به ثواب الله، المغرم: هو الغرم والخسر ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي ينتظر بكم دوائر الزمان بالمكروه بالموت أو القتل أو الهزيمة أو موت الرسول ﷺ، وتغلب المشركين عليكم، لأنه خرج للجهاد كارهاً وأنفق المال عليه لغير وجه الله، بل خوفاً من العقاب ورياءً للناس وطمعاً في الغنيمة ﴿عليهم دائرة السوء والله سميع عليم﴾ عليم يعود ما ينتظرونه من البلاء.

القـــراءة

﴿عليهم دائرة السوء﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿عليهم دائرة السوء﴾ بضم السين، وقرأ الباقون بالفتح.

ثم ختم الكلام بذكر الصالحين منهم فقال:

٩٩ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق﴾ في الجهاد والصدقة ﴿قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم﴾ القربات جمع قربة وهي ما يقرب العبد من رضى الله ومحبته، وصلوات الرسول استغفاره ودعاؤه ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جنته ﴿إن الله غفور رحيم﴾.

القـــراءة

﴿ألا إنّها قربة لهم﴾ قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل: ﴿ألا إنّها قربة﴾ برفع الراء مثل الرُعب والسُحت، وقرأ الباقون: «قربة لهم» بإسكان الراء مثل جُرعة..

لما تقدم ذكر المنافقين والكفار عقبه سبحانه بذكر السابقين إلى الإيمان فقال:

١٠٠ ـ ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ إن هذا الوصف ينطبق على كل مهاجر هجر الشرك ولحق بالنبي ﷺ بالمدينة، وينطبق على كل واحد من الأنصار الذين ناصروا النبي وعزروه ووقروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وينضوي في ذلك كل من صلى إلى القبلتين، وكل من حضر بدراً وكل من شهد بيعة الرضوان، وكل من ناصر النبي وبايعه في منى عند العقبة في المرة الأولى، سنة إحدى عشرة من البعثة وكانوا سبعة، وأهل بيعة العقبة الثانية وكانت في سنة اثنتي عشرة، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين.

﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ وهذه هي الطبقة الثانية، الذين لم يدركوا الهجرة والنصرة والصحبة، وإنما أدركوا هؤلاء السابقين فأخذوا عنهم واتبعوهم حالة كونهم محسنين في أقوالهم وأعمالهم ونياتهم باطنهم مثل ظاهرهم، فكانوا مثلهم في الجهاد والنصرة لدين الله ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ صدقوا الله فصدقهم شكروا الله فغفر لهم ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز بعده والإشارة للبعد، تدل على منزلتهم في الفضل، وعظم الدرجة وسبقهم على من سواهم من الأعراب وغيرهم وكما في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب﴾.

القــــراءة

﴿وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ قرأ ابن كثير: ﴿وأعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار بزيادة ﴿من﴾ وقرأ الباقون: ﴿تحتها﴾ من غير ﴿من﴾.

المنافقون

ثم عاد الكلام إلى ذكر المنافقين فقال سبحانه:

١٠١ ـ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾.

﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ أي من القبائل من أهل البادية حول المدينة ﴿ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق﴾ أي مرنوا عليه وثبتوا فيه، وقال أبو عبيدة عتوا ومرنوا عليه، وهو من قولهم تمرد فلان ومن شيطان مريد. ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا تعرفهم بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها لحذقهم في التقية وتجنب مثارات الشبهة وهؤلاء أخفى نفاقاً وأشد نقية ممن قال فيهم ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج أضغانهم، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول﴾[١] لكونهم مردوا على النفاق ﴿سنعذبهم مرتين﴾ العذاب الأول هو المعاناة النفسية والعصبية التي ترهقهم من العيش بالشخصية الازدواجية، شخصية بين المسلمين وشخصية داخلية مع نفسه وجماعته فلا هو يستطيع إظهار الكفر فيقتل ولا هو مخلص فيسلم متردد محتار. والعذاب الثاني عذاب الآخرة ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ تفسير للعذاب الثاني، ولذلك يسمى عذاب الآخرة.

١٠٢ ـ ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

(١) سورة محمد، الآية: ٢٩ ـ ٣٠.

﴿وآخرون﴾ من غير هؤلاء المنافقين وربما كانوا من الأعراب لكون السياق فيهم ﴿اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنَّ الله غفور رحيم﴾ ويدخل في الآية ممن تخلف من غير أعذار صحيحة يوم تبوك ثم تابوا إلى الله ورجوا وأنابوا، والاعتراف بالذنب أدعى إلى الصدق بالتوبة والقبول لأن الله كثيرُ المغفرة للتائبين واسع الرحمة للمحسنين ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾(١) ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾(٢).

ثم خاطب الله سبحانه النبي ﷺ وأمره بأخذ الصدقة من أموالهم تطهيراً لهم وتكفيراً لسيئاتهم، فقال:

١٠٣ ـ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ قال المفسرون لما تاب الله عز وجل على أبي لبابة وأصحابه الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك من غير عذر، وربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وأنزل الله الآية في شأنهم قالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا فقال: ﴿ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً﴾ فنزلت الآية ﴿تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ الصلاة هنا الاستغفار لهم والسكن بمعنى الطمأنينة والتثبيت والرحمة.

القــــراءة

﴿وصلِّ عليهم إنَّ صلاتك سكن لهم﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ على التوحيد، وكذلك في سورة هود، وقرأ الباقون: ﴿إن صلواتك﴾ على الجمع.

١٠٤ ـ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿ألم يعلموا﴾ أي المتخلفون الذين تابوا ﴿أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ المخلصين فيها وعن بمعنى من ﴿ويأخذ الصدقات﴾ أي يتقبلها ويثيب عليها فالأخذ هنا استعارة للقبول، ونسبة الأخذ للرسول أولاً في قوله سبحانه ﴿خذ﴾ ثم نسبته إلى ذاته تعالى إشارة إلى أن الرسول ﷺ لا يأخذ الصدقات لنفسه وإنما هي لله وفي سبيل الله، تصرف حيث أمر الله. ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾.

ثم أمر نبيه أن يقول للتائبين ويغريهم ترغيباً لهم في التوبة وفيه نوع من التهديد والتخويف فقال:

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

١٠٥ ـ ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿وقل اعملوا﴾ ما تشاؤون من الأعمال ﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ والمعنى: أيها الناس كافة أو خاصة اعملوا ما تشاؤون من الأعمال من خير أو شر في السر والعلن فمنها ما يراه المؤمنون ظاهراً فيحكموا عليه إن خيراً يمدحونه، وإن شراً يذمونه، ومنها ما يطلع الرسول ﷺ عليه عن طريق الوحي فينبئكم به ويخبركم به، كما حصل ذلك كثيراً منه ﷺ، ومنها ما لا يطلع عليه المؤمنون ولا يطلع عليه رسوله وخاصة بعد موته ﷺ فلا يخفى على الله، ﴿فسيرى الله عملكم﴾ الذي خفي على الرسول وعلى المؤمنين وينبئكم به ﴿وسَتُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة فَيُنبئكم بما كنتم تعملون﴾.

المخلّفون

١٠٦ ـ ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وآخرون﴾ عطف على آخرون قبله أي ومنهم قوم آخرون غير المعترفين بذنوبهم من المذكورين ﴿مُرْجَون﴾ أي مؤخرون وموقوف أمرهم ﴿لأمر الله﴾ أي إلى أن يظهر أمر الله وحكمه فيهم بما يشاء ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي أن هؤلاء منهم أناس إما معذبين لعدم توبتهم، وإما متوباً عليهم والمراد بهؤلاء ﴿المرجون﴾ كما في الصحيحين هلال بن أمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وكانوا قد تخلّفوا عن رسول الله لأمر ما مع من تخلف عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحظ وطيب الثمار، فكانت طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري بالمسجد، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة فنزلت توبة أولئك قبل توبة هؤلاء وأرجىء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت آيتا التوبة (١١٧ ـ ١١٨) ﴿والله عليم حكيم﴾.

القـــراءة

﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص: ﴿وآخرون مرجون﴾ بغير همز، وقرأ الباقون: بالهمز، وهما لغتان.

مسجد الضرار

ثم ذكر سبحانه جماعة أخرى من المنافقين بنوا مسجداً للتفريق بين المسلمين فقال:

١٠٧ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾.

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ ذكر المفسرون أن هؤلاء كانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج، بنوا مسجداً لأغراض خاصة وقد شايعهم بعض ضعفاء المؤمنين جاهلين مقاصدهم منه، ومعنى الضرار لأنهم بنوه بجوار مسجد قباء الذي بناه الرسول ﷺ، وكفرا لتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع المؤمنين في جامع قباء، وأما التفريق فلأنهم كانوا يصلون في مسجد واحد هو مسجد قباء فأرادوا بذلك تفريقهم واختلاف كلمتهم وإبطال ألفتهم حتى لا يجمعهم مكان واحد، وأما الإرصاد لمن حارب الله فهو الانتظار والترقب أن يجيء معهم كل من حارب الله ورسوله فيجد مكاناً مرصداً له وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم هؤلاء المنافقون ما بنوا هذا المسجد إلّا ليكون مرصداً لذلك لأن مهمة المسجد ليس للصلاة فيه بل إن له وظائف أخرى كثيرة، منها التجمع والتشاور في الأمر ﴿وليحلفن﴾ بالله كاذبين قائلين ﴿إن أردنا إلّا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾.

القـــراءة

﴿الذين﴾ قرأ نافع وابن عامر بغير واو، وقرأ الباقون ﴿والذين﴾.

ثم بين علة النهي فقال:

١٠٨ ـ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾.

﴿لا تقم فيه أبداً﴾ هذا نهي للرسول ﷺ وللمؤمنين بالتبع له عن الصلاة فيه مؤكد بلفظ الأبد الذي يستغرق الزمن المستقبل ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ هو مسجد قباء أسس على تقوى الله وطاعته الخالصة ﴿من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ لأنه بني قبل مسجد المدينة وهو المجاور لمسجد الضرار ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ والمعنى: فيه رجال يتقربون إلى الله بالاعتكاف والصلاة والذكر ليطهروا أنفسهم من درن الآثام، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات فيه، بالتطهير صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية ﴿والله يحبّ المطهرين﴾.

ثم بين أنه لا نسبة بين الفريقين وأن بينهما بوناً بعيداً فقال:

١٠٩ ـ ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف﴾ الجرف البئر التي لم تُطْوَ أي التي لم تقو بالصخر لتمنع انهيارها على بعضها بسبب ما يحدثه الماء فيها من الأسفل، الشفا الطرف ﴿هار﴾ أي متصدع مشرف على السقوط ﴿فانهار به﴾ سقط ﴿في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، والمعنى: يمثل الله العمل الصالح الذي يعمله الصالحون المتقون خالصاً لوجهه، فيتقبله ويرضى عنه بأنه خير، والعمل الفاسد الذي لا يراد منه وجه الله، ولا الخير للمؤمنين وإنما تفريق صفهم وبذر الشر

بينهم، كمثل ذلك المسجد الضرار المبني على غير تقوى الله فهو كالبئر أو البناء المتصدع الذي ينهار بكل ما يستند إليه بسبب فساد أساسه، ورداءة صنعه حتى كأنه يقود هذا الجامع أصحابه فيهوي بهم في النار.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر ﴿أفمن أسس﴾ بضم الألف وكسر السين ﴿بنيانه﴾ برفع النون، قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر ﴿على شفا جرف﴾ ساكنة الراء، وقرأ الباقون ﴿جرف﴾ بالرفع.

ثم ذكر أن بنيانهم ذلك سبب لازدياد ريبهم فقال:

١١٠ ـ ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ الريبة الشك، والمراد به شكهم في نبوة محمد ﷺ والمعنى: لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا سبباً للقلق والاضطراب والوجل في القلوب ﴿إلّا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ والمعنى: لا يزال بنيانهم ريبة في قلوبهم في كل وقت وكل حال لا يفترون عنه اللهم إلّا أن تقطع قلوبهم فيكفون وذلك بالموت.

القــــراءة

قرأ ابن عامر وحفص: ﴿إلّا أن تقطع﴾ بفتح التاء، وقرأ الباقون ﴿إلا أن تقطع﴾ بضم التاء على ما لم يسمّ فاعله.

آية المبايعة

لما تقدم ذكر المؤمنين والمنافقين، عقب سبحانه بالترغيب في الجهاد فقال:

١١١ ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وأبرزه الله في صورة عقد ثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال قلب بشر ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً﴾ لم يجعل الله المعقود عليه في البيع والشراء كونهم مقتولين فقط بل كونهم قاتلين أيضاً لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه سبحانه ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أي أن ذلك مسجل في هذه الكتب الثلاث، ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ أي لا أحد مثله تعالى في الوفاء بعهده ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ الجملة للتقرير، البيع متميز عن غيره فإنه بيع الفاني بالباقي، ويروى عن الحسن إذا قرأ الآية يقول: أنفس هو خلقها وأموال هو رزقها ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ لا فوز أعظم منه في الدنيا.

القــــراءة

﴿بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿فيقتلون﴾ بضم الياء ﴿ويقتلون﴾ بفتح الياء وقرأ الباقون ﴿فيقتلون﴾ بالفتح ﴿ويقتلون﴾ بضم الياء.

ثم ذكر أن حكم سائر المؤمنين كذلك فقال:

١١٢ - ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

﴿التائبون العابدون الحامدون﴾ الذين يحمدون الله على كل حال فالحمد بمعنى الوصف بالجميل مطلقاً وبمعنى الشكر في مقابلة النعمة، أي الحامدون لنعمائه ﴿السائحون﴾ في الأرض يجوبون الأرض لغرض شريف صحيح من علم أو عمل كالجهاد والبحث والدعوة. أو للنظر والاعتبار فيما خلق الله ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾(١) ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾(٢) ﴿الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾ لأحكامه بالعمل بها ﴿وبشر المؤمنين﴾ بالجنة أي هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجليلة، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وهذا أمر للنبي ﷺ أن بشّر المصدقين بالله المعترفين بنبوته بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة خاصة إذا جمعوا هذه الأوصاف.

لما تقدّم ذكر الكفار والمنافقين والمنع من موالاتهم، والصلاة عليهم، والقيام على قبرهم للدعاء لهم، نهى عن دعائهم بعد موتهم فقال:

١١٣ - ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

﴿ما كان﴾ ما يصح ولا ينبغي وما كان الأولى ﴿للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ وقد ورد في الصحيحين أن هذه الآية نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ إذ دعاه عندما حضره الموت إلى قول ﴿لا إله إلا الله﴾ فامتنع والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره ﴿ولو كانوا أولي قربى بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾.

لما نهى الله النبيّ والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين ذكر قصة إبراهيم وعذره في الاستغفار لأبيه:

١١٤ - ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٢.

﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ آزر بقوله ﴿واغفر لأبي﴾ أي بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه ﴿إلاّ عن موعدة﴾ أي لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه ناشئاً عن شيء إلاّ عن موعدة وعدها إياه بقوله ﴿لأستغفرن لك﴾ وقوله ﴿سأستغفر لك ربي﴾، وحاصل معنى الآية ما كان لكم الاستغفار بعد التبين واستغفار إبراهيم عليه السلام إنما كان عن موعدة قبل التبين وينبيء عن ذلك قوله تعالى: ﴿فلما تبين له أنه عدو الله﴾ أي مستمر على عداوته وعدم الإيمان بالله وذلك بأن أوحي إليه أنه مصر على الكفر ﴿تبرأ منه﴾ أي قطع الوصلة بينه وبينه، والمراد تنزه عن الاستغفار له ﴿إن إبراهيم لأوّاه﴾ أي لكثير التأوه، أي الخاشع المتضرع الدعاء، ﴿حليم﴾ صبور على الأذى صفوح.

لما حرّم الله جل وعلا على المؤمنين أن يستغفروا للمشركين، بيّن سبحانه أنّه لا يأخذهم بذلك إلاّ بعد أن يدلّهم على تحريمه، فقال:

١١٥ ـ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾ للإسلام أي وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته، ولا من سنته في خلقه، التي هي مظهر عدله وحكمته أن يصف قوماً بالضلال ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب بعد إذ هداهم إلى الإيمان وشرح صدورهم بالإسلام، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ من الأقوال والأفعال ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾.

١١٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

لما ذكر سبحانه أن له ملك السماوات والأرض، ولا ناصر لأحد دونه بيّن عقبه رحمته بالمؤمنين ورأفته بهم في قبول توبتهم فقال:

١١٧ ـ ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ يبين الله فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها، وإنما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى لهم بياناً قطعياً، وكان الفعل فيه خلاف الأولى، مثل قضية أسرى بدر والصلاة على المنافقين، والاستغفار لعمه أبي طالب، واستغفار الصحابة لأقربائهم. والتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين، وتوبته تعالى على عباده عطفه عليهم وقبولها منهم وفسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم﴾؟[1] والأنبياء

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

لا يجتهدون في مسائل الوحي ولا يجوز عليهم ذلك ولكنهم قد يفعلون خلاف الأولى، فينزل الوحي يصحح لهم ذلك وفي ذلك عظمتهم ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي وقت الشدة والضيق وكانت تلك حالهم في غزوة تبوك، يتعاقب العشرة على بعير واحد، وبلغت بهم الشدة أن يقتسم التمرة اثنان، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ بيان لتناهي حالهم وبلوغها الغاية القصوى وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلّف عن النبي ﷺ أو يميلوا عن الثبات على الإيمان، وربما كان المراد بهم الذين تخلفوا بالفعل بغير علة النفاق، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم وقال فيهم ﴿ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾.

القــــراءة

قرأ حفص وحمزة: ﴿من بعد ما كاد يزيغ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء.

قبول توبة الثلاثة الذي خلفوا

١١٨ ـ ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾ عن الخروج إلى تبوك معه ﷺ وهم المرجون لأمر الله في الآية (١٠٦) وهم كعب بن مالك من بني سلمة، وهلال بن أمية، من بني واقف، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ بما وسعت ﴿ وضاقت عليهم أنفسُهم﴾ من الهم والغم ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ واعتقدوا أن لا ملجأ لهم من الله يلجأون إليه إلا إليه تعالى بأن يتوبوا إليه ويستغفروه ويرجوا رحمته ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي بعد ذلك ورجع عليهم وأنزل قبول توبتهم ﴿ليتوبوا إنَّ الله هو التواب الرحيم﴾.

ثم خاطب الله المؤمنين الصادقين المقرين بنبوة نبيه ﷺ فقال:

١١٩ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وجوب الجهاد العام

لما بيّن الله سبحانه قصة الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى غزوة تبوك ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه، وإنه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفته بهم ورحمته عليهم، ذكر عقب ذلك على وجه التوبيخ لهم، والازدراء على ما كانوا فعلوه فقال:

١٢٠ ـ ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب﴾ أي ما كان ولا استقام أي لا يحل لهم والمقصود بالأعراب عدة قبائل حول المدينة لقربهم من رسول الله ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ إذا خرج غازياً في سبيل الله، كما فعل بعضهم في بعض الغزوات، ولا يصح كذلك في أمور الدين ومصالح الأمة ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها، ويرغبوا في إيثار راحتها عن بذلها، فيما يبذل نفسه الشريفة، وهذا حين كان المسلمون قليلين أما لما كثروا، أمرهم الله ألا ينفروا كافة بل يبقى في المدينة من يتفقه في الدين ليعلم الجند بعد رجوعهم ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله﴾ الظمأ هو العطش، والنصب التعب، والمخمصة الجوع ﴿ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو بسياراتهم أو حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم، يغيظ الكفار بأن يضيق صدورهم رؤية المسلمين منتصرين ﴿ولا ينالون من عدو نيلا﴾ أي لا يبلغون من العدو شيئاً مما أرادوا من جرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة، ﴿إلّا كتب لهم به عمل صالح إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

١٢١ ـ ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ بالسير فيه ﴿إلّا كتب لهم به عمل صالح ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ أي جزاءهم.

وجوب التفقه في الدين وتعليم الجيش فيه

لما تقدم الترغيب في الجهاد بأبلغ أسباب الترغيب، وتأنيب من تخلف عنه بأبلغ أسباب التأنيب، بين سبحانه في الآية التالية موضع الرخصة في تأخر من تأخر عنه لأجل التفقه في الدين فقال:

١٢٢ ـ ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي ما استقام لهم أن يخرجوا إلى الغزو جميعاً، والمراد نهيهم عن النفير جميعاً لما فيه من الإخلال بالأمن في البلاد والحاجة للتعليم ﴿فلولا نفر﴾ أي فهلا نفر ﴿من كل فرقة﴾ جماعة كثيرة ﴿منهم﴾ كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿طائفة﴾ أي جماعة قليلة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ أي الماكثون الذين لم يخرجوا، ومعناه أن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين ويتعلموا ما ينزل على الرسول من الآيات بحفظها وتعلم معناها وجمع آياتها من صدور الحفاظ وتكون مهمتهم بعد ذلك ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ من الجهاد والقتال ووعثاء السفر والبعد عن الأهل والديار ﴿لعلّهم يحذرون﴾ أي رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه وبذلك يكون جميع المسلمين لا فرق بين من كان في الجيش أو في عمل مدني آخر عالمين عارفين بدينهم قادرين على نشر دعوة نبيهم وإقامة حجته وتعميم هدايته، والآية تدل على وجوب تعميم

العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه، وأما ادعاء التعارض بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً - وإلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما﴾ ففي غير محله لأنها آية وردت لبيان وجوب التعلم والتفقه وليست في مقام النفير العام، والجهاد أنواع، أحياناً يكون فرض كفاية إذا قام به البعض لدحر العدو بعدد كاف سقط عن الباقين، وأحياناً يكون فرض عين على كل إنسان، إذا داهم العدو بلاد المسلمين وجب الجهاد على جميع الموجودين وهو النفير العام والتعبئة العامة فيؤخذ المجندون والاحتياط في ذلك سواء فبين هؤلاء الآيات خصوص وعموم.

١٢٣ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أي الذين يقربون منكم مكاناً فهم الأولى من غيرهم وإلا فإن الأمر بقتال جميع المشركين والكفار واجب بقوله تعالى: ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ شدة والمراد ما يشمل الجرأة والصبر على القتال والعنف في القتل والأسر ليرهبوكم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ في مراعاة أحكامه وسننه، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب من الاستعداد وترك التنازع والاختلاف. وفي عدم قتل النساء والصبيان والعجزة وعرض الإسلام على المقاتلين أولا.

ثم حكى بقية فضائح أعمال المنافقين فقال:

١٢٤ - ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم﴾ أي المنافقين ﴿من يقول﴾ على سبيل الاستهزاء لأصحابه ليثبتهم على النفاق، أو يقول ذلك لضعفاء الإيمان من المسلمين ليصدهم عن الإسلام والإيمان ﴿أيكم زادته هذه إيماناً﴾ ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ لتصديقهم بها ﴿وهم يستبشرون﴾ بنزولها لأنها سبب لزيادة كمالهم ورفع درجاتهم.

١٢٥ - ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي نفاق ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي نفاقاً مضموماً إلى نفاقهم، وكفراً مضموماً إلى كفرهم وشكاً على شكهم ﴿وماتوا وهم كافرون﴾.

ثم نبّه سبحانه على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر لما ينبغي أن ينظروا ويتدبروا فيه فقال:

١٢٦ ـ ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿أولا يرون أنهم يفْتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ ألا يرى هؤلاء المنافقون المستهزؤون المنكرون أنهم يختبرون بما يصيبهم من أفانين البليات من المرض والشدة مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدي علام الغيوب فيؤدي إلى الايمان به تعالى ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ ولا يعتبرون.

القـــراءة

﴿أولا يرون أنّهم يفتنون﴾ قرأ حمزة: ﴿أولا ترون﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿أولا يرون﴾ بالياء.

١٢٧ ـ ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾.

﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ ليتواطؤوا على الهرب كراهة سماعها قائلين إشارة ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين إذا قمتم من المجلس أو تغامزوا بالعيون إنكاراً وسخرية ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ عن الإيمان حسب انصرافهم عن ذلك المجلس، والمعنى: انصرفوا يتسللون لواذاً إلى مجامعهم الخاصة بهم، والتعبير بثم لبيان تراخي فعلهم عن وقت قولهم، إلى سنوح فرصة الغفلة، ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي بسبب أنهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها.

ثم توجه بالخطاب إلى الكفار والمنافقين فقال:

١٢٨ ـ ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي من جنسكم مثلكم ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ العنت المشقة ولقاء المكروه، والمعنى شديد على طبعه وشعوره عنتكم لأنّه منكم، ﴿حريص عليكم﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ قدم رؤوف لأنه الأبلغ والرأفة هي عبارة عن شدة الرحمة.

ثم خاطب نبيه ﷺ مقوياً لعزيمته وجده في دعوته فقال:

١٢٩ ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾.

﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾ أي يكفيك معرفتهم ويعينك عليهم ﴿لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو رب العرش العظيم﴾.

سُورَةُ يُونُسَ

سورة يونس سميت بها لورود قصة يونس عليه السلام بها.

لما ختم الله سورة براءة بذكر الرسول افتتح هذه السورة بذكره وما أنزل عليه من القرآن فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

إن من آيات الكتاب وهو القرآن، أنه يتألف من الحروف العربية مثل ألم وحم وألر وغيرها، ومع ذلك عجز الكفار الذين لم يؤمنوا به أن يأتوا بمثله، لكونه لا ريب فيه، ولكونه متضمناً للحكمة إذ لا يكون حكيماً إلّا بالحكمة ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلّا أولوا الألباب﴾[1].

القــــراءة

﴿الر﴾ قرأ نافع وابن كثير وحفص ﴿الر﴾ بفتح الراء، وقرأ الباقون بكسر الراء وهما لغتان.

٢ ـ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ الاستفهام للتعجب من عجب الكفار واستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم، كأن مشاركتهم إياه يمنع اختصاص الله إياه بالنبوة والوحي، والمراد بالناس: أول من دعاهم النبي ﷺ، وهم كفار مكة، وعبر عنهم بالناس لأن هذه الشبهة قد سبقتهم إليها أقوام الأنبياء السابقين، والإنذار: الإعلام بالتوحيد وبيان العاقبة، لمن لم يسمع الوحي المرسل به ﴿وبشر الذين آمنوا أنّ لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين﴾ التبشير يقابل الإنذار، وقدم صدق، أجراً حسناً أو منزلة رفيعة ومنه في التنزيل مقعد صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، والقدم: ها هنا السابقة والتقدم، وسميت قدما، لأن السبق بها، كما سميت النعمة يدا، لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحققها، وقولهم إن هذا لساحر، يعنون النبي ﷺ.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

القـــــراءة

﴿لساحر﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون ﴿لساحر﴾ وقرأ الباقون ﴿لسحر﴾ بكسر السين وبغير ألف ويعنون به القرآن، كقوله تعالى على لسان الكفار ﴿إنْ هذا إلاّ سحر يؤثر﴾.

لما أنكر عليهم تعجبهم من الأمور المذكورة أراد أن يقيم الدليل والبرهان عليها بإثبات المبدأ ويبين غايتها بإثبات المعاد فقال:

المظاهر الكونية تنادي بوحدانية الله.

٣ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿إنّ ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾ هذه الآية دليل على تفنيدهم في عجبهم من وحي القرآن، وبيان للربوبية التي يقتضي كمالها بثبوته وبطلان الشرك، والخطاب فيها للناس، الذين عجبوا بأسلوب الالتفات المنبه للذهن، والأيام الواردة في الآية ليست هي كالأيام العادية لنا كما يدعي أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بأن الله عز وجل اشتغل ستة أيام في صنع السماوات والأرض وتعب في اليوم السابع فاستراح فيه، والأيام هي أزمنة في كل يوم منها طور من أطوارها، فإنّ اليوم في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث حدث فيه، ويقول الله عز وجل في سورة الحج: ﴿وإنّ يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون﴾(١) ثم بعد خلق السماوات والأرض استوى على العرش استواء يليق بعظمته، لا يعلمه إلا الله، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، فالاستواء على العرش شأن من شؤونه لا نعلم كنهه، ولا صفته، فالاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب.

ثم شرع في إثبات المعاد فقال:

٤ ـ ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبـدؤا الخلق ثم يعيده﴾ ثم ذكر غاية الإعادة وحكمتها فقال: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾. المرجع: معناه المصير يوم القيامة، والإعادة: بعد الموت، والحميم: الماء الحار الشديد.

ثم زاد سبحانه في الاحتجاج بالتوحيد فقال:

---

(١) الآية: ٤٧.

من مظاهر آياته الكونية الحساب الزمني

٥ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

الشمس كوكب تنبعث منه حرارة وضوء كما هو شأن سائر الكواكب التي هي أجرام ملتهبة ومضيئة في آن واحد، والقمر: كوكب جسم بارد، مظلم يستمد نوره وحرارته من الشمس وقد هيأ الله له ويسر له منازل يتحرك في مدارها مرة كل شهر، ثمانية وعشرين، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً، أو ليلة إن كان تسعة وعشرين يوما، وهو توقيت دقيق ليعرف منه عدد الأيام والسنين، وإذا أدخلنا الشمس في عموم الآية بحمل السنين على الشمسية والقمرية، فالتفاوت بين عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة ودقيقة واحدة فالسنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات وتسع وأربعين دقيقة، والسنة القمرية ٣٥٤ يوماً وثمان ساعات وثمان وأربعين دقيقة. ثم أشار إلى سائر منافعها وخواصها بقوله: ﴿ما خلق الله ذلك إلّا بالحق﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير في رواية القواس ﴿جعل الشمس ضئاءا﴾ بهمزتين، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ﴿يفصل الأيات﴾ بالياء، إخبار عن الله، وقرأ الباقون ﴿نفصل﴾ بالنون.

٦ ـ ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾.

والمعنى: اختلافهما في حدوثهما وتعاقبهما في طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس، والنظام الدقيق لهما بحركتيهما اليومية، والسنوية وطبيعة كل منهما، ويقرر العلم الحديث أن طول كل من الليل والنهار يختلف باستمرار على مدار السنة، وإن هذا الاختلاف في التوقيت يرجع إلى دوران الأرض حول الشمس، وحول محورها المائل، على مدار السنة، بمقدار ١/٣ ٢٣ ساعة، مما يجعل الليل يطول أو يقصر بحسب تعامد الشمس على المكان أو ميلها عنه، وهذه حقائق كونية في حكم البديهيات لمن يدرس مبادىء الجغرافيا.

المؤمن والكافر

ثم إنه سبحانه أوعد الغافلين عن الأدلة المتقدمة المكذبين بالمعاد فقال:

٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾.

والمعنى: الذين لا يخافون البعث واختاروا ما في الحياة الدنيا مفضلينها على ما في الآخرة، وآثروا ذلك

وركنوا إليها، بسبب كفرهم بالآخرة وغفلتهم وعدم تفكرهم بما في الدنيا من الآيات المذكورة، التي تنادي بوحدانية الله الواحد القهار.

٨ ـ ﴿ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

والمعنى: الموصوفون بما ذكر من الصفات السابقة سوف يكون مسكنهم وقصرهم الذي لابراح لهم منه النار، لما اطمأنوا به من الحياة الدنيا ونعيمها الباطل، وبما كانوا يكسبون من الأعمال الحرام والمعاصي، والجمع بين صيغة الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار في الكفر والتكذيب.

٩ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

والمعنى: يهديهم ربهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة، وفيها تجري الأنهار تحت منازلها وأماكنهم التي يمرّون فيها، كأنها تحت أيديهم وهم يرونها في جنان النعيم في الآخرة.

١٠ ـ ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

والمعنى: تشير الآية إلى أنّ جميع متطلبات أهل الجنة مستجابة، وكل ما يشتهون حاصل لهم بالفعل ولذلك كان طلبهم ما يشتهونه في الجنة تسبيح الله، وكانت تحيتهم مع بعضهم كلمة السلام، ويختمون دعاءهم بحمد الله وشكره على ما أنعم عليهم النعم الكثيرة.

تأخير عذاب الاستئصال في الدنيا

ثم عاد الكلام إلى ذكر المائلين إلى الدنيا المطمئنين إليها الغافلين عن الآخرة فقال:

١١ ـ ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ هذه الآية تشير إلى سبب نزولها بالردّ على المشركين أو الكافرين الذين كانوا يتعجلون في نزول الشر بهم، استهزاء وهو العذاب والعقاب عليهم، وطبيعة الإنسان أنه دائماً يستعجل الخير لأنه يحبه، ولا يتعجل الشر إلا في حال الغضب والحماقة والعناد والتعجيز كهذه الحالة. والمعنى: ولو يعجل الله للناس إجابة الشر الذي يطلبونه، كاستعجالهم بالخير الذي يرغبونه لذاته، بدعاء الله تعالى أو بأخذهم بالأسباب، لقضي إليهم أجلهم، وانتهى أمرهم وهلكوا بعذاب الاستئصال، كما هلك الذين كذبوا الرسل من قبل، ولكن الله تعالى رحم العالم بالنبي محمد ﷺ، المرسل رحمة للعالمين إلى يوم القيامة، وأخر هذا النوع من العذاب إلى اليوم الذي يريده سبحانه.

﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وعدوان والمعنى: نؤخر عذاب منكري البعث ممن تقدم ذكرهم، فيما هم فيه، وعلى ما هم عليه من الكفر، يترددون فيه لا نعجل العذاب لهم في الدنيا باستئصالهم، حتى يأتي أمر الله تعالى في جماعتهم بنصر رسوله عليهم، قال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار(١)، وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين، تقديره: ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم المقتضية له، من ظلم وفساد في الأرض، وفسوق لأهلكهم، كما قال في آية أخرى، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم﴾(٢) ويدخل في المعنى هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس ودعاء بعضهم على بعض عند الغضب، لو يعجله الله لهم لأهلكهم أيضاً ﴿وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال﴾(٣).

القـــراءة

﴿ولو يعجل الله للناس . . . لقضي إليهم أجلهم﴾ قرأ ابن عامر ﴿لقضي إليهم﴾ بفتح القاف والضاد ﴿أجلهم﴾ نصب، وقرأ الباقون ﴿لقُضِي إليهم أجلهم﴾ على ما لم يسم فاعله.

طبائع الإنسان

١٢ - ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

إذا ابتلي الإنسان بما يسيطر عليه من مرض أو فقر، أو إشراف على هلكة في البحر أو الجو، لجأ إلى الله لكشفه، حالة كونه مضطجعا لجنبه أو قاعداً أو قائماً على قدميه، حائراً في أمره، والمسرف في الطغيان من بني الإنسان إذا كشف الله عنه الضر والابتلاء بعد الدعاء، يمضي ويستمر على ما كان عليه من قبل وينسى حالة الجهد والبلاء عند الرخاء، وكأن شيئاً لم يحصل له من قبل.

ثم أخبر سبحانه عما نزل بالأمم الماضية من المثلات، وحذر هذه الأمة عن مثل مصارعهم فقال:

١٣ - ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

﴿يخبر الله أن سنته مضت في الأمم السابقة أنه أهلك الكثير منهم بظلمهم بعد أن أرسل لهم الرسل بالآيات البينات فكفروا لأنه ما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا، لأنهم مرنوا على الكفر

(١) ج ١١ صفحة: ٣١٣.
(٢) سورة فاطر، الآية الأخيرة.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٤.

واطمأنوا به، وصارت لذاتهم ومصالحهم مقترنة بأعمالهم.

١٤ ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي استخلفناكم في الأرض من بعد إهلاك الأمم التي تسمعون أخبارهم وتشاهدون آثارهم، لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا.

الرد على ادعاء النسخ في القرآن بدون نص

١٥ ـ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم أخبر سبحانه عن مشركي قريش ذاكراً نوعاً آخر من شبهاتهم فقال:

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله﴾ والمعنى: قال منكرو البعث من الكفار للنبي ﷺ، مشيرين إلى القرآن المشتمل على تلك الآيات البينات، ائت بكتاب آخر ليس فيه ما نستبعد من البعث وتوابعه، أو ما نكرهه من ذم الآلهة وتحريم المنكرات، أو إذا لم تستطع ذلك فبدّله من عندك بحذف بعض الآيات واستبدالها بغيرها فكان الجواب من الله عز وجل لهم ﴿قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ والمعنى: إنّ الذي أتيت به من الآيات هو من عند الله لا من عندي فكيف أبدّله من عند نفسي، وفي هذه الآية ردّ على الذين يدعون نسخ آيات القرآن بمجرد نظرهم دون دليل من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ، وأما النسخ على طريقة السلف بتخصيص العام، وتقييد المطلق، أو بيان المجمل، أو بالصفة أو بالشرط أو بالاستثناء، فجائز لأنه ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾(١).

القـــراءة

﴿ما يكون لي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ليَ﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون بالسكون.

١٦ ـ ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي لبثت فيكم من قبل نزول القرآن أربعين سنة، وأنتم تحفظون تفاصيل أحوالي، أفلا تلاحظون ذلك، أفلا تعقلون اقتناع صدوره عن مثلي، ووجوب كونه من الله.

(١) أول سورة هود.

القـــراءة

﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ قرأ ابن كثير ﴿ولأدراكم به﴾ بغير مد، وقرأ الباقون ﴿ولا أدراكم﴾ أي ولا أدراكم الله به.

١٧ - ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

استفهام إنكاري معناه: النفي، أي لا أحد أظلم من ذلك، ولا يفوز المجرمون بمطلبهم الذي يتوسّلون إليه بالكذب والزور.

ثم أخبر سبحانه عن هؤلاء الكفار مقبحاً أصنامهم معارضاً لهم بنقيض مقصودهم فقال:

١٨ - ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ والمعنى: أن هذه المعبودات لا تضرّهم إن تركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن هم عبدوها، يعنون الأصنام بأنها تشفع لهم عند الله في الآخرة وتقربهم إلى الله زلفى، والمشركون لا ينكرون وجود الله، ولكنهم يشركون معه غيره لأن أساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلبونه من الله لا بد أن يكون بواسطة المقربين عنده، وكأن بينهم وبين الله حجابا، ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي أتخبرون الله أن له شريكاً يعبد من دونه.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي ﴿سبحانه وتعالى عما تشركون﴾ بالتاء، وقرأ الباقون بالياء.

الأمة الواحدة فطر الله الناس عليها

١٩ - ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

﴿وما كان الناس إلّا أمة واحدة فاختلفوا﴾ أي أنهم كانوا على دين واحد، والمراد بالناس الجنس البشري في جملته، فإنهم كانوا أمة واحدة على الفطرة، إذ كانوا يعيشون عيشة السذاجة الواحدة كأسرة واحدة، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر فقبائل، فشعوباً تختلف حاجاتها وتتعارض منافعها، فتتعادى وتتقاتل على التنازع فيها ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ أي لولا كلمة الحق الفاصلة التي سبقت من

الله في جعل جزاء الناس العام في الآخرة لعجّله لقومك في الدنيا بإهلاك المبطلين الباغين منهم، كما أهلك الذين من قبلهم، والمراد بالكلمة قوله تعالى في هذه السورة ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس المفضي إلى الشقاق والعدوان ولاسيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لإزالة الشقاق.

ثم ذكر نوعاً آخر من أغاليطهم فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾.

الآية مثل عصا موسى واليد وآيات أخر، أي قد قالوا ويقولون هلا أنزل عليه آية كونية، مثل آيات الأنبياء الذين يحدثنا عنهم، والآيات من عالم الغيب عند الله وبيده وحده، إن كان قدّر إنزال آية، فهو وحده يعرف وقتها وإنما أنا بشر.

طبع الانسان وخلقه

ثم أخبر سبحانه عن ذميم فعالهم فقال:

٢١ ـ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾.

﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في ءآياتنا قل الله أسرع مكراً﴾ الرحمة: العافية والسرور والخير، والضراء: الفقر والبلاء، ومكرهم بالآيات أي بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها، ومكرهم وجحودهم وردّهم لها، قل لهم والله أسرع منكم في الجزاء على المكر، أي قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يسعون في المكر، كما دلت عليه المفاجأة: إنّ الله تعالى أسرع منكم، إذ سبق في تدبيره لأمور العالم، وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها إن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة، وهو عالم لا يخفى عليه شيء ﴿إنّ رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يعني الحفظة من الملائكة الذين وكلّهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس وكتبها، لحساب عليها في الآخرة، وكتابة المكر عبارة عن كتابة متعلقة بالأعمال.

الانسان والشدائد

ثم ضرب لأجل ما وصفهم به مثالا حتى ينكشف المقصود تمام الانكشاف فقال:

٢٢ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ بما وهبكم من القدرة على السير من صحة وعافية وعقل مدبر، وما سخّر لكم من الإبل والدواب والفلك: السفن والطائرات والسيارات والقطارات والطيب من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة وقوله (بهم) فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، للمبالغة كأنّه يذكر لغيرهم حالهم، ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح والفرح بها، لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والأمن والانتعاش والطمأنينة من دوار البحر، والتمتع بمنظره الجميل في ذلك الهواء العليل.

﴿جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي واضطرب البحر وتموج سطحه، فتلاطم موجه من جميع الجوانب ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي اعتقدوا أنهم هالكون لا محالة بإحاطة الموج من كل جانب كما يحيط العدو بعدوه ويحاصره، أي إذا ما نزل بهم كل ذلك، وتقطعت بهم الأوصال للنجاة بجميع الأسباب، دعوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين، بأن لا يتوجهوا معه إلى ولي ولا شفيع ولا ندّ ولا شريك قائلين: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ أي نقسم لك يا ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك لا نكفر منها شيئاً، أي دعوة من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جبل عليها كل أحد.

سيقت نسخة من ترجمة القرآن العظيم باللغة الإنجليزية إلى يد ربان سفينة تمخر البحار بين الهند وإنكلترا، فرأى فيها ترجمة لهذه الآية فراعته بلاغتها ووصفها لطغيان البحر واصطخابه، وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف، فطفق يتأمل سائر الآيات في وصف البحر والسفن الكبرى فيه، ولم يكن لها نظير في عصر النبي محمد ﷺ، وكقوله تعالى في الآية السابقة وغيرها، أطال الفكر هذا الربان الانجليزي في هذه الآيات فتعمد أن يعرف من بعض المسلمين في الهند فسألهم أتعلمون أن نبيكم محمداً سافر في البحار؟ قالوا لا، فاعتقد أن ما في القرآن مما ذكر لم يكن إلّا بوحي من الله فأسلم عن علم وبصيرة، وظل يتعبد بما يفهمه من ترجمة القرآن، حتى أتيح له ترك عمله في البحار، فأقام في مصر وتعلم العربية وتسمى بعبد الله براون.

القـــراءة

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ قرأ ابن عامر ﴿هو الذي ينشركم﴾ بالنون والشين، وقرأ الباقون ﴿يسيركم﴾ من التسيير.

٢٣ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي إذا هم يفاجئون الناس في الأرض التي يهبطون إليها بالبغي عليهم، وهو الظلم والعدوان والإفساد يمعنون في ذلك ويصرون عليه، وأصل البغي طلب ما زاد

على القصد والاعتدال إلى الإفراط المفضي إلى الفساد والاختلال ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم﴾ هذا التفات عن حكاية المثل إلى مخاطبة البغاة أينما كانوا، وفي أي زمان وجدوا، إنما بغيكم في الحقيقة على أنفسكم، لأن عاقبة وباله عائدة عليكم، أو أن من تبغون عليهم من قومكم ومن أبناء جنسكم، وربما تعلم الناس منكم هذا الفعل، فبغوا على أهلكم وأولادكم فكانت عاقبته على أنفسكم بولدكم، وبالتالي فهي عاقبتكم وما الحياة الدنيا إلاّ وقت قصير زائل أي سوف ينقضي بسرعة ثم إنكم بعد هذا التمتع القليل ترجعون إلينا وحدنا ﴿بما كنتم تعملون﴾.

القــــراءة

﴿إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ قرأ حفص عن عاصم ﴿متاعَ الحياة الدنيا﴾ بالنصب، وقرأ الباقون ﴿متاعُ﴾ بالرفع.

المثل البليغ للحياة الدنيا

لما تقدم ما يوجب الترغيب في الآخرة والتزهيد في الدنيا عقّبه سبحانه بذكر صفة الدارين فقال:

٢٤ ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام﴾ أي فأنبتت الأرض أزواجاً شتى من النبات تشابكت بسببه، واختلط بعضها ببعض، في تجاورها وتقاربها على كثرتها واختلاف أنواعها ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ بيان لأزواج النبات وكونها شتى كافية للناس في أقواتهم، ومراعي أنعامهم وكل مرامي آمالهم، ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظنّ أهلها﴾ أي حتى إذا كانت الأرض في بهجتها وخضرة زرعها السندسية وألوان أزهارها الربيعية الزاهية واعتقد أهلها أنهم متمكّنون من التمتع بثمراتها ﴿أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾نزل بها أمرنا المقدر لإهلاكها بجائحة سماوية، من سموم أو حريق أو جفاف أو هواء بارد، ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم غافلون ﴿كأن لم تغن بالأمس كذلك﴾ أي كالأرض المحصودة التي قطعت واستؤصل زرعها أي هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء حتى كأنها لم تنبت ولم تمكث قائمة نضرة بالأمس، يقال غني في المكان إذا أقام به طويلاً، كأنه استغنى به عن غيره، قال تعالى في الأقوام الهالكين في أرضهم: ﴿كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾[1] والأمس الوقت الماضي ﴿نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾ أي كهذا المثل في جلائه وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا، وغرور الناس بما لديهم من مال ووسائل الاختراعات الحديثة والأسلحة الفتاكة، وأخطرها القنابل الذرية

(١) سورة هود، الآية: ٩٥.

التي قد تكون سبباً في فناء العالم، بتسليط بعضهم على بعض فيتحاربون بها، فينطبق عليها قول الله تعالى في الآية ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾.

ترغيب في الجنة وتنفير من النار

لما نفر المكلفين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق رغّبهم في الآخرة فقال:

٢٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿دار السلام﴾ هي الجنة، والصراط المستقيم هو دين الإسلام.

ثم قسّم سبحانه أهل دار السلام إلى قسمين وبيّن حال كل طائفة فقال:

٢٦ ـ ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام بالسير عليه، إلى غايته وهي دار السلام، أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى، أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم، وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ يرهق: يغشى، والقتر الدخان الساطع وكل غبرة فيها سواد.

والمعنى: لا يغشى وجوههم في الآخرة شيء مما يغشى وجوه الكفرة الفجرة من الكسوف والظلمة والذلة.

ثم بين حال الفريق الآخر فقال:

٢٧ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة﴾ جزاءً وفاقاً لا يزداد على ما يستحقون من العذاب، ﴿ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾ أي كأنما قدّ لوجوههم قطع من أديم الليل حالة كونه حالكاً مظلماً، ليس فيه بصيص من نور قمر طالع، ولا نجم ثاقب ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر، هم أصحاب النار، هذا الوصف لأهل الجنة، وأهل النار فيما سبق ذكره من الآيات، له نظير في القرآن قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة، أولئك هم الكفرة الفجرة﴾(١).

---

(١) آخر سورة عبس.

مشهد من مشاهد يوم القيامة

ولما تقدم ذكر الجزاء بيّن سبحانه وقت الجزاء شارحاً أحوال المشركين في القيامة فقال:

٢٨ ـ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ .

﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾ أي الزموا مكانكم، وفرقنا بينهم وبين من أشركوهم بالله، وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب، والتزييل في الآية يعني تمييز أهل مكة، واختلاط مؤمنهم بكافرهم قبل الفتح ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون﴾ أي ما كنتم تخصّونا في العبادة، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم، وتتخذون أسماءنا لمنافعكم ومصالحكم، والمراد أنهم يتبرؤون منهم.

٢٩ ـ ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ .

٣٠ ـ ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

﴿هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت﴾ أي في ذلك المكان وهو موقف الحساب، أو في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة، ومؤمنة وجاحدة، وشاكرة وكافرة، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل، وما كان لكسبها في صفتها من أثر من خير وشر، دون ما اتخذوا من دونه من الأولياء بالباطل ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وضاع وذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والأولياء.

الحي والميت

ثم قرر سبحانه أدلة التوحيد والبعث عليهم فقال:

٣١ ـ ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار﴾ أي من يتفضل عليكم ويهبكم ويرزقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات وما في باطنها من الخيرات، من يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم، من حواس السمع والأبصار، التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أمر العالم شيئاً، بل تكونون كالأنعام والحشرات والشجر وهم خير منكم ﴿ومن يخرج الحي من الميت﴾ النبات من الأرض ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ الثمر الناضج اليابس من الشجر الحي الأخضر، ومن يدبّر الأمر بما أودعه في كل منها من السنن وقدره

من النظام ﴿ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ يكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس، أن فاعل ذلك كله هو رب العالمين، وقد تكلّمنا عليها في الأنعام ١٨٤ وآل عمران (٢٨).

٣٢ ـ ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

أي فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال بعد العلم والإقرار، فالآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والألوهية كما كانوا يفعلون حيث كانوا يتخذون مع الله آلهة أخرى مع إقرارهم بربوبيته، على أن الإسلام إنما وحد بينهما في المفهوم الشرعي لا في المفهوم اللغوي.

٣٣ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والألوهية، وكون الحق ليس بعده لتاركه إلّا الباطل، والهدى ليس وراءه للناكب عنه إلّا الضلال، حقت كلمة ربك أي سننه أو وعيده على الذين فسقوا أي خرجوا من حضيرة الحق، وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق.

القــــراءة

﴿كذلك حقت كلمت ربك﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿كذلك حقت كلمات﴾ بالألف، وقرأ الباقون ﴿كلمة ربك﴾ على التوحيد.

٣٤ ـ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

﴿قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دونه من له هذا الشأن في الكون، ولما كان السؤال مما لا يجيبون عنه لقّن الله رسوله الجواب ﴿قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون﴾ فإن الرب القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته بالأولى، أي فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير للعلم بالحقائق والبحث عن المصير.

الاحتجاج بالهدى على اتباع الله جلّ وعلا

٣٥ ـ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ احتجاج آخر على ما ذكر جيء به إلزاماً بعد التزام، وإفحاماً إثر إفحام، ﴿قل الله يهدى للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدّي إلّا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾ استفهام آخر للإنكار والتعجب أي كيف تحكمون بالباطل الذي يأباه صريح العقل ويحكم ببطلانه، وتعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع.

القـــراءة

﴿أمن لا يهدي﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر، وورش عن نافع ﴿يَهَدّي﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. قال الزجاج: الأصل ﴿يهتدي﴾ فادغمت التاء في الدال، وقرأ حمزة والكسائي ﴿يهدي﴾ بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال، وقرأ قالون عن نافع: ﴿أمن لا يَهْدّي﴾ بفتح الياء ومدّ الهاء وتشديد الدّال.

ثم بيّن ما بنوا عليه أمر دينهم فقال:

٣٦ ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي ليس هو كاليقين ولا يقوم مقام الحق وظنّهم أنها آلهة لا يدفع عنهم من العذاب شيئاً.

إعجاز القرآن الكريم

ثم ردّ الله سبحانه على الكفار قولهم ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ وقولهم إن النبي ﷺ افترى هذا القرآن فقال:

٣٧ ـ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والمعنى: ما ينبغي لمثل هذا القرآن أن يفترى من دون الله؛ لأن فيه تصديق الكتب السماوية المتقدمة، وفيه بيان الكتاب الذي كتبه الله على أمة محمد ﷺ بالفرائض التي فرضها عليهم.

ثم أعاد بيان إعجازه مرة أخرى فقال مستفهماً على سبيل الإنكار:

٣٨ ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله﴾ قل تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة إن كان الأمر كما تقولون ﴿فأتوا بسورة مثله﴾ في البلاغة وحسن الارتباط ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أي وادعوا للمعارضة والمناظرة والمظاهرة من يعينكم من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في المهمات الملمات، والإتيان بمثل القرآن يوجب أن يتضمن ما تضمن القرآن من البلاغة والفصاحة والإخبار بالماضي، وما في النفوس بالحاضر، فقد أخبر القرآن في العديد من سوره عن أخبار الأنبياء وقومهم وقصصهم وأخبر ما في قلوب المنافقين ودسائسهم وكان القرآن ينزل فيكشف خططهم، وما يبيتون فأنى لهم أن يأتوا بمثل هذا وهم يعلمونه حق العلم.

٣٩ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ أي أنّهم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبّروا ما فيه، وأن تكذيبهم إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه أي أنّهم قد تسرعوا في التكذيب، ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية، فالتأويل نوع من التفسير ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ والمعنى: أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى، ومن جهة الإخبار بالغيب وهم فاجأوا تكذيبه قبل أن يتدبّروا نظمه، ويتفكروا في معناه، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلية.

ثم قسّم طوائف الأمم المكذبة فقال:

٤٠ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي منهم من يؤمن بالإسلام بعد أن يرى الآيات البينات وتدخل قلبه، ومنهم من يظل على الكفر حتى يلقى ربّه.

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ مبيناً اختصاص كل مكلف بأفعاله فقال:

٤١ - ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ أي إن أصرّوا على تكذيبك لا يؤمنون بعد إلزام الحجة، والمراد منه التبرؤ والتخلية بما يناسب الإصرار على التكذيب، والمعنى: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ تأكيد لما أفاده لام الاختصاص، من عدم تعدي جزاء العمل إلى غير عامله أي لا تؤخذون بعملي ولا أؤخذ بعملكم. قال الألوسي وابن الجوزي: الآية محكمة غير منسوخة بآية السيف كما أنّ مدلولها اختصاص كل بأفعاله وثمراتها من الثواب والعقاب، وآية السيف لم ترفع ذلك.

٤٢ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم﴾ أي يصيخون بأسماعهم مصغين إليك، إذا قرأت القرآن أو بيّنت ما فيه من أصول الإيمان والأحكام، ولكنّهم لا يسمعون إذ يستمعون، إذ يتدبّرون القول وظاهرهم ظاهر من يستمع، وهم لشدة عداوتهم بمنزلة الصم ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أي ولو كانوا مع ذلك جهالا، يريد أنهم شر من الصم؛ لأن الصم لهم عقول وقلوب وهؤلاء قد أصم الله قلوبهم لإصرارهم على الكفر.

٤٣ - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ومنهم من يوجّه أشعة بصره إليك عندما تقرأ القرآن متعجّباً، ولكنّه لا يبصر ما آتاك الله من نور الايمان وهبة الخشوع للديان، ومن فقد البصيرة العقلية والقلبية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين، وعدم النظر المعنوي بالعقل فهو محروم من هداية البصر، وهي البصيرة التي يمتاز بها الإنسان عن بصر الحيوان فكأنّه أعمى العينين، أي أنك غير قادر على هداية العمي بدلائل البصر الحسية، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائله العقلية.

ثم أكّد عدم قابليتهم في الفطرة مع إشارة إلى ما يلحقهم من الوعيد يوم القيامة فقال:

٤٤ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

القــــراءة

﴿ولكنّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ولكنِ﴾ بتخفيف النون وكسرها، ورفع الاسم بعدها.

ثم بين سبحانه حالهم يوم الجمع فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾.

﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلّا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾ أي بعد بعثهم يعرف بعضهم البعض الآخر كأنّهم لم يتفارقوا إلّا قليلا، وفي معرفة بعضهم بعضا، وعلم بعضهم بإضلال بعض يوجه التوبيخ لهم، وإثبات الحجة عليهم وإذا تعارفوا وبّخ بعضهم بعضاً، فيقول هذا لهذا، أنت أضللتني، وسبب دخولي النار، ﴿وما كانوا مهتدين﴾ يوم القيامة والمعنى خسروا ثواب الجنة إذ كذبوا بالبعث.

القــــراءة

قرأ حفص ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا﴾ بالياء إخبار عن الله، وقرأ الباقون بالنون ﴿نحشرهم﴾.

٤٦ ـ ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴾.

يظن الكفار أن الرسول إذا مات ماتت دعوته؛ لأنهم كانوا يكذبونه في توعّده لهم، وكانوا يستعجلون العذاب استهزاء به وتكذيبا، فيردّ الله عليهم بما يكبتهم، أو يبكتهم ويشدّ من عزيمة الرسول ﷺ، وقد رأى الرسول بعض الذي وعدهم الله ببدر وحنين وغيرهما، والمراد التأكيد فالموعود به من العقاب في الدنيا والآخرة.

ثم بين أنّه ما أهمل أمة من الأمم من رسول في وقت من الأوقات فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾.

هذه الآية تخبر ما عليه الأمم السابقة التي قضى الله حكمه فيهم بالعدل بعد أن بعث فيهم رسلا مبشرين ومنذرين.

لما أوعد سبحانه المكذبين بالعذاب، بيّن عقبه أنّهم إنما استعجلوا ذلك على سبيل التكذيب والرد فقال:

٤٨ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ .

يقول المشركون الذين أنذرهم النبي محمد ﷺ للنبي وأصحابه متى وعد الساعة إن كنتم صادقين فيما توعدون وتقولون.

ثم أمره أن يجيب بما يحسم مادة الشبهة فقال:

٤٩ ـ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلاّ ما شاء الله﴾ أي لا أملك دفع الضر الواقع عليّ ولا جلب النفع من الخير لنفسي من الدائرة التي تسيطر علي لأني لا أقدر على شيء منهما بوجه من الوجوه إلا بمشيئة الله وإرادته، واستدل بالآية بعض من يرى رأي السلف من أن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى، لا أنه ليس له قدرة أصلاً، كما يقول الجبرية، ولا أن له قدرة لكنها غير مؤثرة بنفسها، كما هو رأي الأشعرية، ولا أن له قدرة مؤثرة، وهو رأي المعتزلة ﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ الأجل هو وقت الهلاك.

ثم زيّف رأيهم في استعمال الآجال مرة أخرى فقال:

٥٠ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ عذابه الذي يستعجلون به، والبيات ما كان بليل ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ أي شيء يستعجلون من العذاب، وليس شيء منه يوجب الاستعجال.

٥١ ـ ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

أي هنالك تؤمنون فلا يقبل منكم الإيمان.

القـــراءة

﴿ءالآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ قرأ نافع ﴿الآن﴾ بفتح اللام وإسقاط الهمزة، وقرأ إسماعيل عن نافع ﴿الآن﴾ بإسكان اللام، وبه قرأ الباقون على أصل الكلمة.

٥٢ ـ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ .

وعذاب الخلد هو المؤلم على الدوام.

ثم حكى عنهم أنهم بعد هذه البينات استفهموا تارة أخرى عن العذاب فقال:

٥٣ ـ ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ .

يستخبرونك عن أحقية وقوع العذاب الموعود، أو البعث، فكان جواب النبي ﷺ، بأنه متحقق وأنهم غير فائتيه.

ثم زاد في تأكيد مضمون المقسم عليه بقوله:

٥٤ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به﴾ أي ولو اجتمع للنفس الظالمة لصاحبها بالكفر، أو لغيره بالعدوان أو أي شيء من أصناف الظلم ما في الدنيا من الخزائن والنفائس والأموال لجعلته فدية لها، ساعة وقوع العذاب واسترخصت كل غال وثمين، ولكن هيهات أن ينفع ذلك ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ الندامة الغم والأسف على ما فعلوا من الظلم، وذلك عند معاينتهم فظاعة الحال وشدة الأهوال، ما لم يمر لهم ببال.

ما لا يعقل في السماوات والأرض

٥٥ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال مفسر العراق الألوسي: أي إن له سبحانه لا لغيره ما وجد في هذه الأجرام العظيمة داخلاً في حقيقتها أو خارجاً عنها، متمكناً فيها، وكلمة ما تغليب غير العقلاء على العقلاء.

٥٦ ـ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

يحي ويميت في الدنيا وإليه المرجع في الآخرة.

القرآن شفاء لما في الصدور

لما تقدم ذكر القرآن وما فيه من الوعد والوعيد، عقّبه سبحانه بذكر جلالة موقع القرآن وعظم محله في باب الأدلّة فقال:

٥٧ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء﴾ كتاب جامع فيه ما لكم وما عليكم وهو القرآن ﴿لما في الصدور وهدى﴾ لإصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنية، مما علق بها من العقائد الفاسدة ﴿ورحمة للمؤمنين﴾. والمعنى المجمل أن القرآن واعظ بما فيه من الترهيب والترغيب، أو بما فيه من الزجر عن

المعاصي كيفما كانت، وشاف لما في الصدور من الأدواء المفضية إلى الهلاك، كالجهل والشك والشرك والنفاق والحقد، والضغن والحسد، وسوء النية، وخبث الطوية، وفساد السريرة وغيرها، ومرشد ببيان ما يليق وما لا يليق إلى ما فيه النجاة والفوز بالنعيم الدائم، وسبب الرحمة للمؤمنين الذين آمنوا به، وامتثلوا ما فيه من الأحكام، إن كون القرآن الكريم شفاء لما في الصدور فهو شفاء لما كمن فيها، من الأمراض المعنوية النفسية قال الله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾[1] وفي سورة الحجر ﴿ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾[2].

والملاحظ أن الآيات التي وردت بكون القرآن شفاء تقرن بالرحمة والهدى، مما يدل على أن مقصود الآية بالشفاء المعنوي النفسي، وليس البدني قال الله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ الإسراء، وفي سورة فصلت ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ وأخرج أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال: «إنّ الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور، ولم يجعله شفاء لأمراضكم».

ولما أرشد سبحانه إلى الطريق الموصل إلى السعادات الباقية ذكر أنها هي التي يجب أن يكمل الفرح بحصولها فقال:

٥٨ ـ ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

القـــراءة

﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ قرأ يعقوب في رواية رويس ﴿فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون﴾ بالتاء فيهما، وقرأ ابن عامر ﴿خير مما تجمعون﴾ بالتاء، وقرأ الباقون ﴿فليفرحوا﴾ و﴿يجمعون﴾ بالياء فيهما على أمر الغائب.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يخاطب كفار مكة فقال:

٥٩ ـ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ خطاب للمشركين كانوا يحرمون ما شاؤوا ويحلون ما شاؤوا وأنزل بمعنى خلق وقد مرّ بنا ما كانوا يفعلون في البحيرة والسائبة وغيرها (المائدة: ١٣٩) ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ في هذا الحكم ﴿أم على الله تفترون﴾.

٦٠ ـ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

---

(١) سورة الأنعام: الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إنّ الله لذو فضل على الناس﴾ أي شيء ظنهم به أيحسبون أنّه لا يعاقبهم لا ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم.

المثقال والذرة

لما بيّن فساد طريقة الكفار في عقائدهم وأحكامهم بيّن سبحانه أنّه عالم بكل ما كان بقلب كل واحد من الدواعي والصوارف والرياء والإخلاص وغير ذلك فقال:

٦١ ـ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلّا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ جمع في هذا ليدلّ على أنّهم داخلون في الفعلين الأولين أي رقباء مطلعين عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه فنحفظه عليكم لنجزيكم به، وأصل الإفاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة أو بكثرة كما في أفضتم من عرفات ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾ المثقال: أربع وعشرون قيراطاً، والقيراط تقريباً أربع حبات ونسبته للدرهم[1] ١٠/٧ والذرة عند المفسرين هي النملة الصغيرة، يضرب بها المثل في الصغر والخفة، ويطلق على الهباء وهو الغبار الذي لا يرى إلّا في ضوء الشمس، والذرة اليوم أصبحت معروفة علمياً بأنها أصغر شيء يتفجر ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ كان علماء المادة منذ زمن يقفون في أبحاثهم عند الذرة، ويقولون إنها الجوهر الفرد الذي تتركب منه المادة، ولا يقبل التجزئة لتناهيه في الصغر والدقة، ولكنّهم اكتشفوا قابلية الذرة للانقسام والتجزئة والتحطم وكلمة ﴿أصغر﴾ في الآية سر من أسرار القرآن الكريم كشف عنه العلم الحديث ﴿إلا في كتاب مبين﴾ اللوح المحفوظ.

القــــراءة

﴿وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض﴾ قرأ الكسائي ﴿وما يعزِب﴾ بكسر الزاي، وقرأ الباقون بالرفع، وهما لغتان، قرأ حمزة ﴿ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ﴾ بالرفع فيهما، وقرأ الباقون ﴿ولا أصغرَ ولا أكبرَ﴾ بالفتح.

أولياء الله الصالحون

لما تقدم ذكر المؤمن والكافر بين عقبه أن أولياءه لا خوف عليهم فقال:

٦٢ ـ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

---

(١) الدرهم = (٢/٩٧٥) غرام.

أولياء الله أضداد أعدائه المشركين به والكافرين بنعمته، وهم المؤمنون المتقون، وهم درجات، فأما في الآخرة فلا خوف يقع عليهم، يرهقون به مما يخاف الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، كما قال الله ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾(١) وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضعفاء الإيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع، كلقاء العدو مثلاً ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾(٢) ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا﴾(٣).

٦٣ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾.

بيان لحال هؤلاء الأولياء النفسية والعملية، أي هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله باليقين والاستمرار على التقوى.

ثم أخبر سبحانه عنهم بأن:

٦٤ ـ ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ البشرى الخبر السار الذي تنبسط منه النفس، ويتهلل له الوجه، ﴿البشرى في الحياة الدنيا﴾ فأهمها البشارة بالنصر وبحسن العاقبة، وأما في الآخرة فمن استقاموا ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾(٤) هذا عند البعث وقد يكون تثبيتاً في الدنيا، كما حصل للصحابة في غزوة بدر ﴿وما جعله إلّا بشرى ولتطمئن به قلوبكم﴾(٥) ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾(٦) ﴿لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

ثم سلى رسوله عن صنيع فريق المكذبين فقال:

٦٥ ـ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

﴿ولا يحزنك قولهم﴾ لك لست مرسلا وغيره من الأذى الكلامي، ثم استأنف قوله ﴿إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾ ثم زاد في التأكيد مع إشارة إلى فساد عقيدة المشركين فقال:

٦٦ ـ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٣) سورة الجن، الآية: ١٣.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ١٠.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

﴿ألا إنّ لله من في السماوات ومن في الأرض﴾ من يعقل ويعيش ﴿ومن في الأرض﴾ عبداً وملكاً وخلقا ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ حقيقة على زعمهم ﴿إن يتبعون إلّا الظن وإن هم إلّا يخرصون﴾ بحدس أي يحزرون ويقدرون أنهم شركاء فهو مجرد تخمين، أو يكذبون فيما نسبوه إلى الله من ذلك (آية ١١٦ الأنعام).

ثم ذكر طرفاً من آثار قدرته مع إشارة إلى بعض نعمه فقال:

٦٧ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ إن ربكم الذي يجب أن تعتقدوا ربوبيته هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه فيزول تعب النهار، وكلاله بالسكون في الليل ﴿والنهار مبصرا﴾ وجعل النهار مبصراً أي مضيئاً تبصرون فيه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾.

بعد أن نزه نفسه عن اتخاذ الولد برهن على ذلك بقوله:

٦٨ ـ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض﴾ وسبحانه تنزيها له عما قالوا ﴿الغني﴾ عن الزوجة والولد ﴿إن عندكم﴾ أي ما عندكم ﴿من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ.

٦٩ ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

بنسبة الولد إليه وغيره من أنواع الكذب ﴿لا يفلحون﴾ لا يسعدون في العاقبة.

٧٠ ـ ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿متاع في الدنيا﴾ مرفوع على أنه خبر كذلك مقدراً متاع في الدنيا، تنكيره يدل على أنه قصير، وقليل، وحقير، ويتلهّون به في حياة قصيرة ﴿ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ بآياتنا ونعمتنا والافتراء علينا، وتكذيب رسلنا.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقرأ عليهم أخبار نوح فقال:

٧١ ـ ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾

﴿واتل عليه نبأ نوح﴾ أي واقرأ أيها الرسول على هؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك فيما أوعدتهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذبين لرسله من قبلك ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري﴾ أي عظم وشقّ عليكم طول مكثي ﴿وتذكيري﴾ وعظي ﴿بآيات الله فعلى الله توكلت﴾ في نصرتي ودفع شرككم عني، ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي أحكموا أمركم واعزموا عليه، وأجمع القوم على الشيء اتفقوا عليه كلهم، لم يشذ أحد منهم، أي أجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدون من دون الله لا تتفرقوا فيه ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي خفياً في شيء من الحيرة أو اللبس الذي يقتضي التردد ﴿ثم اقضوا إلي﴾ ذلك الأمر بعد إجماعكم عليه واعتزامكم بأن تنفّذوه بالفعل، فالقضاء يطلق بمعنى أداء الشيء وتنفيذه وإتمامه ومنه ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾[1] ﴿ولا تنظرون﴾ أي لا تمهلوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه.

ثم بين أن كل ما أتى به فإن ذلك فارغ من الطمع الدنيوي والغرض الخسيس فقال:

٧٢ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر﴾ أي فإن أعرضتم عن الإيمان لم يكن دعائي إيّاكم طمعاً في أموالكم ﴿إن أجري إلاّ على الله﴾ أي ما أجري وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلاّ من الله، الذي أرسلني إليكم فهو يوفّيني إيّاه ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي المنقادين المذعنين بالفعل لما أدعوكم إليه.

٧٣ ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون المكذبين في الأرض كلها بعد من هلك ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي فانظر بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم.

ثم بيّن سبحانه قصة من بعثه بعد نوح فقال:

٧٤ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات﴾ أي بعثنا من بعد نوح رسلاً مثله، كهود إلى

(١) سورة القصص، الآية: ٢٩.

عاد، وصالح إلى ثمود، وشعيب إلى أهل مدين، ولوط وأصحاب المؤتفكة، وإنما أرسل النبي ﷺ إلى الناس كافة لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿فجاؤوهم بالبينات﴾ أي بان لهم أنهم رسل الله ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي فما كان من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل، فكان مثله في سبب كفره، وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء للآباء والأجداد ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾.

موسى وهارون

٧٥ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

الملأ أشراف القوم وأركان الدولة، وقومهم القبط بالتبع لهم، والآيات هي التسع المفصلة في سورتي الإسراء والأعراف[1]، فاستكبروا بإعراضهم عن الايمان تعالياً مع علمهم بالحق.

٧٦ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فلما جاءتهم الآيات التي هي الحق الدالة على الربوبية والألوهية لله وحده أقسموا إنما هو سحر بيّن ظاهر.

٧٧ ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾.

أي قال موسى متعجباً من قولهم، أي والحال المعروف عندكم أن السحرة لا يفوزون في أمور الجد العملية، من دعوة دين وتأسيس نظام.

٧٨ ـ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

أي أنت وأخوك وفيه استفهام تقرير، تجاه ما أورده موسى من استفهام الإنكار والتعجب، ومعناه أنقرّ ونعترف بأنك جئتنا لتصرفنا وتحوّلنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا، فما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان.

٧٩ ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

ذلك ما قاله ملأ فرعون لموسى وهارون بحضرة فرعون.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠١ والأعراف، الآية: ١٣٣.

القــــراءة

﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿بكل سحّار عليم﴾ وقرأ الباقون ﴿ساحر﴾ الألف قبل الحاء.

٨٠ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ .

بعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولاً أو يلقوا هم.

٨١ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أي الذي جئتم به من الحبال والعصي هو السحر، وهذا ردّ لقولهم للحق ﴿هذا سحر﴾ وعدم صلاح عمل المفسدين هو عدم نفعه.

القــــراءة

﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾ قرأ أبو عمرو ﴿ما جئتم به؟ آلسحر﴾ بالمد، جعل ﴿ما﴾ بمعنى أي، وقرأ الباقون ﴿ما جئتم به السحر﴾ و﴿ما﴾ على هذه القراءة في معنى ﴿الذي جئتم به السحر﴾.

٨٢ ـ ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ .

أي يظهره ويمكنه، وبكلماته بما سبق من وعده بذلك.

ثم بين سبحانه من آمن من قوم موسى عليه السلام فقال:

٨٣ ـ ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ .

الذرية في اللغة الأولاد، وقد تطلق على الكثرة من نسل الرجل أحفاده وأحفاد أحفاده، وملأ فرعون جاءت بالجمع، وفرعون واحد، لأن الملك إذا ذكر ذهب الوهم إليه وإلى من معه، والفتنة هنا تعني التعذيب أو القتل، وعلو فرعون تطاوله في مصر، كان عبداً فادّعى الربوبية.

٨٤ ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .

لما شكا بنو إسرائيل إلى موسى ما يهددهم به فرعون من ذبح أولادهم، واستحياء نسائهم، بجعلهم خدماً لقومه، قال لهم ذلك ﴿إن كنتم مسلمين﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان مستسلمين مذعنين بالفعل، وإنما يكون الإيمان يقيناً إذا صدقه العمل.

٨٥ ـ ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

أي ربنا لا تسلطهم علينا، ولا تفتنا بهم عن اتباع نبيك.

ولما قدّموا التضرع إلى الله في أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه سؤال عصمة أنفسهم فقالوا:

٨٦ ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي نجنا من سلطانهم وحكمهم.

٨٧ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

يقال تبوأ الدار اتخذها مبوءا أي مسكناً ثابتاً، وملجأ يعتصم به، والقبلة متقابلة في وجهة واحدة، فالقبلة في اللغة ما يقابل الإنسان، ويكون تلقاء وجهه، ومنه قبلة الصلاة، ويصح هنا الجمع بين العام والخاص بقرينة ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي فيها متوجهين إلى وجهة واحدة، ويكون المعنى: اجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها إلى القبلة بدلاً من المساجد التي هدمها فرعون.

ثم إن موسى عليه السلام لما بالغ في إظهار المعجزات القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والإنكار أخذ يدعو عليهم، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب الدعاء عليهم فلهذا قال:

٨٨ ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي أنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم دون دهمائهم من الصناع والزراع، والجند والخدم زينة من الحلي والحلل والآنية والأثاث والرياش، وأموالاً كثيرة، يتمتعون فيها، واللام في ﴿ليضلوا﴾ لام العاقبة، أي لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ ومعنى اطمس أزل عنهم الزينة والأحوال التي تطغيهم، واشدد على قلوبهم، أي اطبع عليها، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً، حتى يستحقوا تعجيل عقابك فتعاقبهم، لأنهم اختاروا الشر والعناد وأصروا عليه، وقد قال موسى ذلك في دعائه عليهم، بعد أن تبين له أنه لا أمل يرجى منهم وأنهم أصحاب النار.

القـــراءة

﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿ليضلوا﴾ بضم الياء، وقرأ الباقون ﴿ليضلوا﴾ بفتح الياء.

٨٩ ـ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في الآية دليل على أن هارون كان مشاركاً موسى الدعاء ومؤمناً على قوله، وأجيبت أي قبلت، وإذا قبلت نفذت، والاستقامة هنا على الدعوة إلى الحق، وعدم الالتفات إلى آراء ونصائح المرجفين أو الجهلاء الذين لا يعلمون سنتي في خلقي، وإنجاز وعدي لرسلي فلا تستعجلا الأمر قبل الوقت المكتوب ولا تستبطئا وقوعه.

القــــراءة

﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ قرأ ابن عامر ﴿ولا تتبعان﴾ بتخفيف النون، وقرأ الباقون بالتشديد.

غرق فرعون وجنوده

ثم بيّن سبحانه مآل آل فرعون وقومه فقال:

٩٠ ـ ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي لحقهم فأدركهم ظلماً وعدواناً عليهم ليفتك بهم، أو يعيدهم إلى مصر حيث يسومهم سوء العذاب، فخاض في البحر وراءهم، حتى إذا وصل إلى حد الغرق، ﴿قال آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ أي قال قبل أن يغرق وهو يدل على أنّ البحر لم يطبق عليه دفعه واحدة ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي وأنا فرد من جماعة المذعنين له المنقادين لأمره، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والعناد لرسله.

القــــراءة

﴿قال آمنت أنه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنوا إسرائيل﴾قرأ حمزة والكسائي ﴿قال آمنت إنه﴾ بكسر الألف، وقرا الباقون ﴿آمنت أنه﴾ بالفتح على تقدير ﴿آمنت بأنه﴾.

٩١ ـ ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

أي أتسلم الآن أو تدعي الإسلام وإذعان الطاعة والانقياد، حيث لا محل له ولا إمكان بما حال دونه من الهلاك.

٩٢ ـ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك ينظر إليك من كذب بهلاكك لتكون لمن خلفك آية لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به، والتعبير بالبدن يدل على أنه جسد بلا روح وذلك ليعتبر بنو إسرائيل الذين قيل أنهم شكوا في غرقه، ويعتبر القبط الذين عبدوه على أنه رب وإله أعلى، ولذلك قيل إن درعه كانت معروفة وإنها من الذهب، والعبرة

لمن بعده أعمّ: هي ما سيقت القصة لأجله من كونها شاهداً كالتي قبلها على صدق وعد الله لرسله ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ تعريض بهم وأكده هذا التأكيد لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التشبيه أي أنهم لشديدو الغفلة عنها، أورد الشيخ مصطفى المراغي في تفسيره أن اسم فرعون منفتاح بن رعمسيس، وأنّ جسده موجود في دار الآثار المصرية إلى اليوم(١) وقد كتبت بجانبه الآية المذكورة.

ثم بين سبحانه حال بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون فقال:

٩٣ ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوّأ صدق﴾ المبوأ مكان الإقامة الأمين وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم ﴿ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ لفظ العلم عام يشمل رسالة الإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام وما في القرآن من الآيات العظام، ويمكن أن يكون علم الدين عامة مطلق العلم، وقد اختلفوا فيه كثيراً كغيرهم ممن أوتوا الكتاب ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

تقرير صدق القرآن الكريم

ثم بيّن سبحانه صحة نبوة محمد ﷺ فقال:

٩٤ ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك﴾ قال ابن عباس لم يشك رسول ﷺ، والمراد سؤال من آمن منهم من علماء اليهود، كتميم الداري من علماء النصارى وكعبد الله بن سلام من علماء اليهود ﴿الحق من ربك﴾ بهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه، تجتث احتمال إرادة الشك ويزيدها تأكيداً قوله ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ أي من فريق الشاكين.

٩٥ ـ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

والمعنى: أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان.

ثم لما زجر كل فريق عما زجر، بين أن له عباداً قضي عليهم بالشقاء، وعباداً ختم لهم بالحسنى فلا يتغيرون عن حالهم البتة، أما الأولون فأشار إليهم بقوله:

(١) سبق تفسير ذلك في سورة الأعراف الآية: ١٠٣.

٩٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غير ذلك، وثبت عليهم العذاب من ربك وهي كلمة التكوين الدالة على سنته.

٩٧ ـ ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾.

﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من الآيات الكونية كآيات موسى التسع التي اقترحوها عليك أو الآيات المنزلة كالقرآن، بما جاء من آياته العلمية العقلية الدالة بإعجازها بما أرسلت به ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ بأعينهم ويذوقوه بوقوعه بهم حينئذ يؤمنون، ولكن إيمانهم هذا يكون اضطراراً لا اختياراً، وسيندمون حين لا ينفعهم الندم.

قصة يونس عليه السلام

لما ذكر سبحانه أن إيمان فرعون لم يقبل عند معاينة العذاب وصل ذلك بذكر إيمان قوم يونس قبل نزول العذاب فقال:

٩٨ ـ ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾ فهلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة وقت بقاء التكليف ﴿فنفعها إيمانها﴾ قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به ﴿إلّا قوم يونس﴾ كانوا يعبدون الأصنام بـ (نينوى) من أرض الموصل بالعراق، ودعاهم فأبوا، فأخبرهم أن العذاب مصبِّحهم عن قريب، وخرج نبيهم من بينهم مغاضبا، حيث ركب سفينة والتقمه الحوت لما رمي بالبحر، حيث جاء السهم عليه بالقرعة، ﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم﴾[1] أي آت بما يلام عليه من ذهابه إلى البحر وركوبه السفينة، بلا إذن من ربه ﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ الصافات[2] ﴿لما آمنوا﴾ قبل وقوع العذاب بهم بالفعل وكانوا قد علموا بقربه من خروج نبيهم وربما رأوا علاماته ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا لأن نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له، فلم تتم عليهم الحجة ولا حقت عليهم كلمة العذاب ﴿ومتعناهم إلى حين﴾ أي إلى حين آجالهم.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٠ ـ ١٤٢.
(٢) الآية: ١٤٣ ـ ١٤٤.

الإيمان عمل قلبي لا إكراه فيه

لما تقدّم أن إيمان الملجأ غير نافع بيّن سبحانه أنّ ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه فقال:

٩٩ ـ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا﴾ خطاب للنبي ﷺ وكان حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره الله تعالى أن ذلك باستطاعة الله، ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة لا استعداد لفطرتهم لغير الإيمان ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾[2]. ولكن اقتضت حكمته أن يخلق هذا الإنسان ويجعله خليفة في الأرض، منهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن، وهذه سنة الله في خلقه فوق مقدور البشر تصورها، لأن عقل الإنسان محدود، فلا يدرك حكمة الخالق في تصرفه في خلقه ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ الإيمان عمل قلبي لا ينفع الإكراه فيه، وليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من طاقة الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل ﴿إن عليك إلّا البلاغ وما أنت عليهم بجبار﴾ وهذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالإكراه، ثم نزل في البقرة ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي لا يجوز ولا يصح به، وسبب نزولها عزم بعض المسلمين على منع أولادهم ممن كانوا تهودوا من الجلاء مع بني النضير من الحجاز، فأمرهم النبي ﷺ بأن يخيروهم، وأجمع علماء المسلمين على أنّ إيمان المكره لا يصح، لكن الذين يفترون على المسلمين الكذب يرمونهم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الإسلام، وما حمل السلاح ورفع السيف في الإسلام إلّا للدفاع عن الدعوة الإسلامية، وصد كل من يقف حاجزاً أمامها، وتخيير الكفار بين الإسلام أو دفع الجزية في البلاد المفتوحة، أمر واضح لا ينكر في تاريخ المسلمين، والجزية تؤخذ من القادرين عليها بدل الدفاع عنهم وجلب الأمن لهم والمحافظة عليهم، ورأي الإسلام فيهم ﴿لهم مالنا وعليهم ما علينا﴾.

١٠٠ ـ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلّا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ النفس هي كل مكلّف عاقل بالغ بلغته الدعوة، والرجس هو العذاب الذي يجازى به المسيء.

عندما يقرأ الإنسان هذه الآية الكريمة، يفهم منها في أول وهلة نفي الإيمان عن مقدور الناس، في الوقت نفسه يحاسبهم الله على الكفر ويعاقبهم عليه لعدم تعقّلهم له.

نقول: قبل كل شيء يجب على المرء أن يؤمن إيماناً جازماً عن يقين بأنّ جميع ما في الكون من مخلوقات كلها ملك لله عز وجلّ، خلقها ورزقها ودبّرها وهداها إلى معاشها، إن شاء أحياها وإن شاء أماتها، ولا

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٨.

يستطيع مخلوق أن يخرج عن تدبير الله له، مهما أوتي من قوة وقدرة، بما في ذلك البشر وما هم إلّا شيء بسيط مما خلق، ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين﴾[١].

فلا يؤمن المؤمن إلّا أن يشاء الله، ولا يكفر الكافر إلّا أن يشاء الله، ولا يقتل الناس ويتدافعون في الأرض إلّا بمشيئة الله ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم﴾[٢] ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾[٣] ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾[٤].

وفي داخل هذه الدائرة الكبيرة والإرادة العظيمة يتمتّع الإنسان بقدرة وحرية اختيار لا يستطيع بها النفوذ عن تلك الدائرة التي تحيط به، وعلى ذلك يكون معنى الآية: ما يكون لأيّ شخص أن يؤمن بالله باختياره وإرادته وقدرته التي يتمتع بها إلّا وفق إرادة ومشيئة الله وتوفيقه وسننه، فالإنسان في الحياة كالسمكة في حوض كبير، وكذلك الكافر وإن كان كفره ومعصيته وفسقه بإرادته واختياره، إلّا أنّه غير خارج عن قدرة ومشيئة الله عزّ وجلّ ﴿ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم﴾[٥] والمنفي في الآية هو استطاعة الخروج عن هذا النظام، لا الاستطاعة الخاصة.

وما دام فعلهم باختيارهم وقدرتهم التي أقدرهم الله عليها، ولم يسألوا الله الهداية والتوفيق، وقد بلّغهم هدايته على لسان رسله وكتبه ودعاته، وأصرّوا وعاندوا وكفروا، وقد أصبحوا يتعامون عن الحق حتى صاروا لا يعقلون آيات الله بسبب تجاهلهم لها، ولمن تجاهل شيئاً وحاد عن الطريق لا يدرك حقيقته ولا يتمتع بفائدته فاستحقوا بذلك العذاب، والتعبير بالرجس فيه دلالة على أنه سبحانه قد أمرهم ودعاهم فلم يؤمنوا باختيارهم، فهو يعذّبهم بذنوبهم لأنّ الذنوب في الدنيا رجس من عمل الشيطان، وإمهال الله للكافر وتركه يتخبّط في غيّه وضلالته دون هدايته لهو نوع من أنواع العذاب ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾[٦].

ثم بيّن سبحانه ما يزيد في تنبيه القوم وإرشادهم فقال:

١٠١ ـ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾ خطاب للنبي ﷺ ولأهل مكة وغيرهم من الكفار لينظروا ويعتبروا بعقولهم ما خلق الله من شجر وحجر وجبال وتراب وشمس وقمر ونجوم تدل على وحدانية الله وتفرده في الخلق ﴿وما تغني الآيات والنذر﴾ التي سيقت لمن سبق كقوم نوح وبني إسرائيل وأقوام الأنبياء السابقين، والنذر هم الرسل لقومهم ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ أي إن القوم المصرين على العناد والكفر قد أهلكهم الله

(١) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣٧.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

بكفرهم رغم ما جاءهم من الآيات البينات وما دعاهم به المرسلون وأنذروهم به فاعتبروا بهم.

١٠٢ ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿فهل ينتظرون إلاّ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي مثل وقائع الله بمن سلف قبلهم والعرب تكني بالأيام عن الشرور والحروب وقد تقصد به أيام السرور والأفراح، إذا قام دليل عليها ﴿قل فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين﴾ لحكم الله بما ينزل من الآيات التي تفصل في الأمر.

١٠٣ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

المقصود بالمؤمنين هنا النبي محمد ﷺ وأصحابه، كما هي سنة الله في إبعاد العذاب عن الأنبياء السابقين والذين آمنوا معهم.

القــــراءة

﴿ننجي المؤمنين﴾ قرأ الكسائي وحفص ﴿كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾ خفيفة، وقرأ الباقون بالتشديد.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالبراءة عن كل معبود سواه فقال:

١٠٤ ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قل يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة وغيرهم من الكفار ﴿إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ وهي الأصنام وغيرها ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم﴾ ﴿قل يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة وغيرهم من الكفار ﴿إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ وهي الأصنام وغيرها ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يقدر أن يميتكم، قال ابن جرير معنى الآية: لا ينبغي لكم أن تشكوا وتنكروا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، وقال الذي يتوفاكم ولم يقل الذي خلقكم؛ لأن هذا يتضمن تهديدهم لأن ميعاد عذابهم الوفاة ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾.

١٠٥ ـ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا﴾ مائلا إليه مخلصاً في عملك، ثم أكد الأمر بالنهي عن ضده فقال ﴿ولا تكونن من المشركين﴾.

١٠٦ ـ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك﴾ لا ينفعك إن عبدته ودعوته ﴿ولا يضرّك﴾ إن تركت عبادته ﴿فإن فعلت﴾ ذلك ﴿فإنك إذاً من الظالمين﴾ الذين يضعون الشيء في غير موضعه.

القضاء والقدر

ثم صرح بأنه مبدىء الكائنات ومنتهى الحاجات لا غيره فقال:

١٠٧ - ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ بشدة وبلاء ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ دون ما يعبده المشركون من الأصنام لأن هذا من الدائرة التي تسيطر عليكم، ولا قبل لك ولا لغيرك بدفعها وهو الشر المقدر عليك، الخارج عن دائرة الاختيار ﴿وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾ وإن يصبك برخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يمنعك إياه فهو من الدائرة التي تسيطر عليك وأصابتك بخير من المقدر لك، ﴿يصيب به﴾ بقضائه وقدره ﴿من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ لمن تاب وأناب.

ثم ختم الله سبحانه السورة بالموعظة الحسنة تسلية للنبي ﷺ والوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين فقال عن اسمه:

١٠٨ - ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾ الإسلام جاءكم على جهل منكم بما سبقتكم الأمم به بما حرف في كتبهم، وبدل من دياناتهم، فأفسدوا أحوالهم ومجتمعاتهم بالباطل ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ أي ومن ضل عن هذا الحق فإنما وبال ضلاله ينقلب عليه، بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا، وما يصيبه من العذاب على كفره في الآخرة، ﴿بوكيل﴾ في منعكم من اعتقاد الباطل، لست عليكم بحفيظ من الهلاك كما يحفظ الوكيل المتاع من الهلاك.

ثم أمره باتباع الوحي والتنزيل، فإن وصل إليه بسبب الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فقال:

١٠٩ - ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر﴾ على ما يصيبك ومن تبعك من قومك من الأذى ﴿حتى يحكم الله﴾ بقضائه ﴿وهو خير الحاكمين﴾ وقد أنجز الله وعده ونصر عبده، وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين.

سورة هود

سورة هود سميت بهذا الاسم لورود قصة هود عليه السلام وقومه.

آيات القرآن محكمة

لما ختم الله سبحانه سورة يونس بذكر الوحي في قوله: ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ افتتح هذه السورة ببيان ذلك الوحي فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

﴿آلر كتاب أحكمت آياته﴾ أي هذا كتاب أحكمت آياته من حروف الهجاء مثل ﴿آلر﴾ وغيرها أي كتبت فما تنسخ كما نسخت الكتب والشرائع والآيات، ويروى ذلك عن ابن عباس واختاره ابن قتيبة كما في زاد المسير لابن الجوزي وغيره من العلماء ﴿ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ أى أن ذلك الكتاب المحكم آياته تحتاج إلى تفصيل، وذلك التفصيل هو بيان المجمل(١)، وتخصيص العام وتقييد المطلق، والاستثناء وغيره، والمحكم البين المعنى، وهو في مقابلة المتشابه الذي لا يعلمه إلّا العالمون(٢).

٢ ـ ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾.

﴿نذير﴾ من النار ﴿وبشير﴾ بالجنة، نذير من الشر وبشير بالخير، فبعبادة الله وحده أبشركم بالجنة، وبعبادة غيره والإشراك معه أنذركم.

٣ ـ ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾.

(١) المجمل: مثل قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، فقد بينت السنة العملية هذا الإجمال العام: دلالة اللفظ على استغراقه لجميع أفراده مثل قوله تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ ﴿وإن الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ وهي تشمل كل قاذف، ثم وردت آيات اللعان على قصر الجلد على القاذف لغير زوجته ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلّا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنّه لمن الصادقين﴾.
المطلق: يدل على فرد شائع أو أفراد شائعة لا على جميع الأفراد، فالمطلق مثل رجل وطائر، والمقيد مثل رجل مصري، وطائر أجنبي، فمثل قوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ قيدت بالسنة ﴿لا وصية لوارث﴾.

(٢) راجع أول سورة آل عمران، فقد مرّ تفسيره.

﴿وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى﴾ في حياتكم يتفضل عليكم بالرزق والسعة، ويعمركم، انقضاء العمر ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ويؤت كل ذي فضل أي من أعطى حسنة، أو عمل خيراً فضله أي جزاءه، وهو الجنة ﴿وإن تولّوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ أي فإن تعرضوا عما أمرتم به، فإنّ مصيركم عذاب يوم القيامة.

ثم ذكر عذاب ذلك اليوم بقوله:

٤ - ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ومنه الثواب والعقاب.

لما تقدّم ذكر القرآن بيّن سبحانه فعلهم عند سماعه فقال:

٥ - ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه﴾ كأنه جواب سؤال مقدر، وذلك أنه لما ألقى إليهم ما ألقى، من الترغيب والترهيب وقع في ذهن السامع أنهم بعد ما سمعوا مثل هذا المقال الذي تخرّ له صمّ الجبال، هل قابلوه بالإقبال، أم تمادوا فيما كانوا عليه من الإعراض والضلال، فقيل مصدراً بكلمة التنبيه ﴿ألا﴾ ﴿إنهم﴾ أي المشركين المخاطبين يثنون، ثنى الشيء إذا لواه وعطفه، وهو الإعراض عن الحق، لأن من أقبل على شيء واجهه بصدره، ومن أعرض عنه لوى عنه، والمراد استمرارهم على ما كانوا عليه من التولي والإعراض المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿فإن تولوا﴾. ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي يجعلونها أغشية ويلتحفون في فراشهم ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾. والمعنى: ألا يعلم هؤلاء الذين يعرضون عن سماع القرآن، وطلب الذكر من الرسول وتعلم الإسلام، ويحاولون الاستخفاء والتولي عن الحق، ألا يدركون ويعلمون أن الله مطلع عليهم في سرهم وعلانيتهم ولو كانوا تحت الأغطية والأغشية وليس هذا بل ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ وهذا من إعجاز القرآن.

أول الجزء الثاني عشر

لما قال سبحانه يعلم ما يسرّون وما يعلنون قال عقبه وكيف يخفى على الله سرّ هؤلاء وهو يرزقهم:

٦ - ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الدبيب الانتقال الخفيف البطيء، والدابة اسم عام يشمل كل نسمة حية تمشي على وجه الأرض زحفاً وعلى قوائم ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء﴾[1] وغلب لفظ الدابة على ما

(١) سورة النور، الآية: ٤٥.

يركب من الخيل والبغال والحمير، ومعنى الآية: ما من دابة من أنواع الدواب في الأرض إلا على الله رزقها على اختلاف أنواعها ﴿ويعلم مستقرها﴾ مسكنها حيث تعيش في الدنيا ﴿ومستودعها كل﴾ حيث تكون مودعة إلى حين بعد الموت ﴿في كتاب مبين﴾ ومن ذلك يتبين لك أن معنى الآية أن الله تعالى خلق لكل دابة رزقها الذي تعيش به، وأنه سخر لها وهداها إلى طلبه وتحصيله ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[1].

ثم أكّد دلائل قدرته بقوله:

٧ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾.

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ من أيام الله تعالى في الخلق والتكوين وما شاء من الأطوار بدلاً من أيامنا في هذه الدار قال الله تعالى: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[2] وقوله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء﴾[3] عرش الرحمن عز وجل من عالم الغيب الذي لا ندركه بحواسنا، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا، فأجدر بنا أن لا نعلم كنه استوائه عليه، وصدور تدبيره لأمر ذلك الملك العظيم، وحسبنا أن نستفيد العبرة فما أجهل الذين تصدوا لتأويل هذه الحقائق الغيبية، بأقيستهم وآرائهم البشرية، ولكن نقول: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب) وإذا ما ذهبنا إلى تفسير العرش بالسلطان والملك، على الكناية، كما هو قول كثير من المفسرين فيكون خلق السماوات والأرض لاحقاً لخلق الماء كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[4] فالماء إذاً هو أصل التكوين لجميع الأحياء والأشياء التي في الأرض والسماء، ومن المعلوم أن الفضاء الخارجي والطبقات السماوية بأغلفتها كثيرة ومتعددة، وما سماؤنا وأرضنا إلاّ جزء يسير منها ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي ليجعل ذلك اختباراً لكم فيظهر منكم من أحسن وأتقن في عمله واستعمل عقله لعلمه له وللناس ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي لئن قلت للناس فيما تبلغهم من وحي ربهم أنكم ستبعثون من بعد الموت ليجزيكم ربكم بعملكم بعد اختباركم، ليجيبنك الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله، قائلين هذا سحر بيّن ظاهر تسحر به العقول.

ثم بيّن أنّه متى تأخر عنهم العذاب الذي توعّدهم الرسول به أخذوا في الاستهزاء وقالوا ما الذي حبسه عنّا فقال:

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤٧.
(٣) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

٨ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

﴿ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمة﴾ أوقات ﴿معدودة﴾ في علمنا ومحدودة في نظام تقدير الله وسنته في خلقه ﴿ليقولن ما يحبسه﴾ أي شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقاً كما يقول هذا النذير؟ وإنما يقولون هذا ويستعجلون العذاب إنكاراً واستهزاءاً به ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي ألا أنه له يوم ما يأتيهم إذا جاء الوقت المعلوم الذي حدده الله في علمه وسنته، لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه حابس وسيحيط بهم من كل جانب.

ثم بين سبحانه حال الإنسان فيما قابل به نعمه من الكفر فقال:

٩ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ .

﴿ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة﴾ أي لئن أعطيناه نوعاً من أنواع النعمة رحمة منا فأذقناه لذتها كالصحة، والأمن والرزق والولد، وهو ما يعطيه الله للعبد من الخير في دائرة القضاء والقدر، بدون إرادته واختياره في الدائرة التي تسيطر عليه، في الخير ﴿ثم نزعناها منه﴾ أي إصابة الشر بسلب هذه النعم بإرادة الله، التي تسيطر على الإنسان بموت الولد أو ضيق الرزق أو موت الأعزاء، وفناء الأموال وهلاك المواشي والأنعام. ﴿إنه ليؤوس كفور﴾ أي إنه في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة قطوع للرجاء منكر لنعمة الله، جاحد لفضله عليه كافر بربه، الذي خلقه وربما كان الكفر هنا المراد منه الكفر بالنعمة والسخط على الله، وقد يكون الفقر كفرا، إلاّ من رحم ربك ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[1] وهم الصابرون الحامدون الشاكرون.

١٠ ـ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ .

﴿ولئن أذقناه نعمآء بعد ضرّآء مسّته﴾ أي لئن أعطى الله الإنسان نعمة وهي كشف الضراء السابقة عليها وإحلال ما هو ضدها كالشفاء من المرض، وزيادة العافية، والمخرج من العسر والفقر إلى سعة الرزق والغنى واليسر، والنجاة من الخوف والذل، إلى بحبوحة العز والفخر والمعنى: ولئن منحنا ذلك الإنسان البؤوس الكفور نعماء، أذقناه لذتها ونعمتها بعد ضراء مسته ﴿ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ أي ذهب ما كان يسوءني من المصائب والضراء، ولن تعود فما هي إلا سحابة صيف تقشعت، فلو نسيتها بالتمتع باللذات والشهوات، إنه في هذه الحالة لشديد الفرح والمرح، لدرجة حد البطر بالنعمة والمبالغة بالفخر والتعالي على الناس والاحتقار لمن دونه فيها فلا يقابلها بالشكر.

١١ ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

﴿إلا الذين صبروا﴾ على الضراء وما أصابهم، إيماناً منهم بالله واحتساباً للأجر ﴿وعملوا الصالحات﴾

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

عند كشف الضر عنهم وتبديل النعماء بها من شكر الله تعالى فيما يرضيه من عمل البر والخير ﴿أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ المغفرة من الله تمحو ما علق بهم من ذنب أو تقصير.

ثم أمر سبحانه رسوله بالثبات على الأمر وحثه على محاجة القوم بما يقطع العذر فقال:

١٢ ـ ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ فلا تبلغهم إياه لتهاونهم به مما يشق سماعه على المشركين ﴿وضائق به صدرك﴾ بتلاوته عليهم لأجل كراهة ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ يؤيده في دعوته كما طلبوا واقترحوا ذلك ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾[1] ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ هو الموكل على أمور العباد.

ثم بيّن أنّ حاله مقصور على النذارة لا يتخطاها إلى إنزال المقترحات، والذي أرسله هو القادر على ذلك حفيظ عليه وعلى كلّ شيء، ومن كمال قدرته إنزال القرآن المعجز وأشار إلى ذلك بقوله:

١٣ ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله﴾ تفيد نفس المعنى أو مثله بما يأتي به من الأخبار الغيبية، وكشف المؤامرات التي تحاك في نفوسكم ونفوس المنافقين، بما في ذلك من البلاغة والفصاحة ﴿مفتريات﴾ من عند أنفسكم، يا من تدعون أنه مفترى ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ من أصنامكم وطواغيتكم التي تعبدونها وتذعنون لها لتساعدكم على اختلاف أنواعها ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تدعون.

١٤ ـ ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي من دعوتموهم للمعاونة من دون الله ﴿فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلّا هو فهل أنتم مسلمون﴾ أي فهل أنتم بعد قيام هذه الحجة عليكم داخلون في الإسلام الذي أدعوكم إليه وبهذا القرآن مؤمنون؛ وبعقائده، وحقيقة أخباره، مذعنون. أي لم يبق لكم محيص عن الإسلام والانقياد، وقد دحضت شبهتكم وانقطعت معاذيركم.

ثم أوعد من كانت همته مقصورة على زينة الحياة الدنيا وكان مائلاً عن الدين جهلاً وعناداً فقال:

١٥ ـ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧ ـ ٨.

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي من جعل أكبر همه الدنيا وملذاتها وكل حظه من وجوده التمتع بالشهوات بالحياة الدنيا دون الآخرة حيث صرفه الطعام والشراب والوقاع وزينتها من اللباس والأثاث والرياش والأولاد والأموال منكراً لنعم الله جاحداً فضله لا يعمل خيراً ولا يلتفت إلى الإحسان والبر والخير، من كانوا كذلك ﴿نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ أى لا ينقصون فيها شيئاً من نتائج كسبهم لأجل كفرهم.

١٦ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ أي الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلّا دار العذاب ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وبطل ما صنعوه في الدنيا مما ظاهره البر والإحسان لأنه إنما كان لأغراض دنيوية لم يقصد به وجه الله ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ في الدنيا لأنه لا ثمرة له ولا أجر في الآخرة يرجوه وإنما الأعمال بمقاصدها قال الله: ﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[1].

السنة شاهد مبين للقرآن

ثم بيّن أنّ بين طالب الدنيا وحدها وبين طالب السعادات الباقية تفاوتاً بيناً، فقال:

١٧ - ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ هو النبي محمد والبينة هي القرآن وهو الحجة والبصيرة من ربه فيما يؤمن به ويدعو به. فالبينة هو ما يتبين به الحق من كل شيء كالبرهان في العقليات والنصوص في النقليات ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي ويتبع هذا البرهان، وأعاد الضمير عليها مذكراً باعتبار معناها شاهد منه، أي من النبي يشهد بصدقه وأنه من الله، وهو قول الرسول وتقريره وسنته، التي هي مفسرة للقرآن وتالية له. والضمير في ﴿منه﴾ يلزم بأن يكون الشاهد من النبي ﷺ لا من غيره، وأما الروايات الواردة في التفسير في كلمة الشاهد فليس فيها شيء صحيح ﴿ومن قبله﴾ أي القرآن ﴿وكتاب موسى﴾ شاهداً له أيضاً ﴿إماماً ورحمة﴾ يؤيده كشاهد آخر جاء قبله حالة كونه إماما متبعاً في الهدى والتشريع، ورحمة لمن آمن وعمل به من بني إسرائيل وشهادته له شهادة حال بالبشارة بنبوة محمد ورسالته ﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي الموصوفون بما ذكر من الجمع بين البينة التي هي الحجة والبرهان لمحمد، وشهادته له بالنسبة بأنه من عند الله، وشهادة التوراة بأنه حق من عند الله يؤمنون به إيمان معرفة وإذعان ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ الذين يتحزبون ويتجمعون للصد عن الدعوة سواء في

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

الماضي أو الحاضر أو المستقبل وذلك بدلالة المضارع على الاستمرار ﴿فالنار موعده فلا تك في مرية منه﴾ أي في شك منه والخطاب لكل عاقل ﴿إنه الحق من ربك﴾ أي إن القرآن والإسلام حق من الله ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ لا يؤمنون الإيمان الكامل لجهلهم بهذه الحقائق.

ولما أبطل بعض عادات الكفرة من شدة حرصهم على الدنيا، وذلك قوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا﴾ ومن إنكارهم نبوة محمد ﷺ وذلك قوله: ﴿أفمن كان على بينة﴾ أراد أن يبطل ما يعتقدون في أصنامهم أنها شفعاء تشفع لهم فقال:

١٨ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ولغيره بصده عن سبيل الله ممن افترى على الله كذباً في وحيه وأقواله وأحكامه، أو صفاته أو أفعاله، وقال شيئاً من غير دليل ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة، ﴿ويقول الأشهاد﴾ الذين يقومون بأمره للشهادة عليهم، من الملائكة الكرام الكاتبين والأنبياء المرسلين وهم جمع شاهد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ أي يشيرون إليهم بأشخاصهم فيفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة.

١٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿الذين يصدّون عن سبيل الله﴾ يصرفونهم عن دين الإسلام إلى الكفر والشرك ﴿ويبغونها عوجا﴾ أي يصفونها بالعوج والالتواء للتنفير عنها ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والحال أنّهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء وإنّما الذي عندهم رابطة دنيوية وجاءت كلمة هم بين المبتدأ والخبر للتأكيد.

٢٠ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ غيره أنصار ينصرونهم أو يمنعون عنهم عذابه ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ بسبب إضلالهم غيرهم ضعف للكفر وضعف للصد ﴿آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[1] ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أي ما كانوا يصغون آذانهم لسماع القرآن إصغاء لدعوة الحق ﴿ما كانوا يبصرون﴾ الحق والقرآن لفرط كراهيتهم له كأنهم لم يستطيعوا السمع والإبصار حقيقة.

القـــراءة

﴿يضاعف لهم العذاب﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿يضعّف﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون بالألف.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٨.

٢١ ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ لمصيرهم إلى النار بافترائهم على الله ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي غاب عنهم وتركهم ما كانوا يدعونه ويتخذونه من الشفعاء عند الله في الدنيا، والأولياء الذين زعموا أنّهم يقربونهم إليه زلفى.

٢٢ ـ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾.

جرم تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها أي حقاً أنّهم هم الأخسرون.

لما تقدم ذكر الكفار وما أعدّ الله لهم من العذاب، عقبه سبحانه بذكر المؤمنين فقال:

٢٣ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾ أي خشعوا له، واطمأنت نفوسهم بالإيمان ولانت قلوبهم إلى ذكره، وأصل الإخبات، قصد الخبت وهو المكان المطمئن المنخفض من الأرض ﴿أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون﴾.

ثم ضرب المثل للفريقين فقال:

٢٤ ـ ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿مثل الفريقين﴾ الكفار والمؤمنين ﴿كالأعمى والأصم﴾ هذا مثل الكافر ﴿والبصير والسميع﴾ هذا مثل المؤمن ﴿هل يستويان مثلاً﴾ أي هل يستوي الفريقان صفة وحالا ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أتجهلون أيها المخاطبون هذا المثل الحسي الجلي، فتعتبرون به، شبه فريق الكافرين أولاً بالأعمى، في عدم استعمال بصره فيما يفضل به بصره الحيوان الأعجم، من فهم آيات الله، ثم شبه بالأصم كذلك ليتأمل العاقل كل تشبيه وحده.

قصة نوح عليه السلام

لما تقدم، ذكر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، عقب ذلك سبحانه بذكر أخبار الأنبياء تأكيداً لذلك، وتخويفاً للقوم وتسلية للنبي ﷺ وبدأ بقصة نوح عليه السلام فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ افتتحت القصة بصيغة القسم لإنكار المخاطبين بها لبعثة الرسل، وللقسم في كلام العرب تأثير كبير في نفوسهم بتأكيد الكلام ﴿إنّي لكم نذير مبين﴾ الإنذار أو الإعلام بالشيء مع بيان عاقبة من خالفه.

القـــــراءة

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ﴿إنّي لكم نذير﴾ بفتح الألف وقرأ الباقون بالكسر.

٢٦ ـ ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾.

أي شديد الألم وهو يوم القيامة أو الطوفان.

ثم حكى أنّه طعن أشراف قومه في نبوته من ثلاث جهات فقال:

٢٧ ـ ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي فبادر الأشراف والزعماء الذين كفروا من قومه إلى الجواب، ليكون الدهماء تبعاً لهم كعادتهم، واقتران جوابهم هنا بالفاء دلالة على الرد السريع والمبادرة ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾. في الجنس لا ميزة لك علينا لكي نطيعك ونتبع دعوتك ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي أسافلنا ويعنون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر كالزراع والصناع والعمال وأراذل جمع الجمع، والجمع أرذل والمفرد رذل وجاء في الشعراء ﴿واتبعك الأرذلون﴾ وبادي الرأي أي لأول وهلة دعوتهم فيها، دون تأمل وتفكر ونظر. ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ تمتازون به كالقوة والكثرة والعلم والرأي يحملنا على اتباعكم وترك امتيازاتنا وأهلنا لنتساوى بكم ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي بل الأمر شر من ذلك وهو أننا نظنك ومن آمن معك كاذبين في دعوى الرسالة.

القـــــراءة

﴿وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾...

قرأ أبو عمرو: ﴿بادئ الرأي﴾ بالهمز، وقرأ الباقون: ﴿بادي﴾ بغير همز.

ثم حكى ما أجاب به نوح قومه، وهو أن حصول المساواة في صفة البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة، وذلك قوله:

٢٨ ـ ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾.

﴿قال يا قوم أرأيتم﴾ أخبروني ﴿إن كنت على بينة من ربي﴾ حذفت الياء من يا قومي من الرسم مراعاة للنطق استعطافا ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ وهي النبوة والوحي ﴿فعميت عليكم﴾ خفيت عنكم وحجبها جهلكم وغروركم فلم تستبينوا بها ما تدل عليه من التفرقة بيني وبينكم والتعبير بعميت مأخوذ من العمى المقتضي لأشد

أنواع الخفاء ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ أي أنلزمكم إياها بالجبر والإكراه والحال أنكم كارهون لها إنكاراً وجحوداً، واستكباراً، أي لا نفعل ذلك فإن الإسلام لا يصح إلاّ بإيمان الإذعان، وما على الرسول إلا البلاغ.

القــــراءة

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي . . .﴾. قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿فعميت عليكم﴾ بضم العين وتشديد الميم، أي: أخفيت قرأ أهل الحجاز والشام والبصرة وأبو بكر: ﴿فعميت﴾ بفتح العين وتخفيف الميم.

ثم أنكر نوح استثقالهم التكليف، والعاقل إنما يستثقل الأمر إذا ألزمته مؤونة ثقله، فقطع هذا العذر بقوله:

٢٩ - ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾.

﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله﴾ لا يسألهم على ما دعاهم إليه مالاً فيكون متهماً فيه عندهم لمكانة حب المال من أنفسهم، وما أجري وثوابي على تبليغ الرسالة إلا على الله الذي أرسلني ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ أي وليس هذا من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من قربي وجواري، لاحتقاركم لهم، ووصفكم لهم بالأراذل جهلاً منكم بناء على طلبكم، وقد مرّ بنا أن الكفار المشركين قد طلبوا من النبي ﷺ طرد طائفة من المؤمنين ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1] ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ يوم القيامة فيتولى حسابهم وجزاءهم ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾.

ثم أكد عدم طردهم بقوله:

٣٠ - ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ويا قوم من ينصرني من الله﴾ أي من يمنع عني عذاب الله ﴿إن طردتهم أفلا تذكرون﴾ تتعظون.

٣١ - ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنّي ملك﴾ هذه الثلاث نفاها نوح عن نفسه وهي التي كان يظن المشركون من قومه وممن بعدهم أن ثبوتها لازم لمن كان نبياً مرسلاً من الله وإلاّ كان كسائر البشر لا فضل له عليهم وبهذا كان نفيه متضمناً لردّ شبهة حجتهم ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ الذين تستصغرونهم وتحتقرونهم لفقرهم ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ كما تقولون أنتم ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ مما

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

آتاهم من الإيمان ﴿ إنّي إذاً لمن الظالمين﴾ أي إني إذا قلت ذلك فيهم لمن الظالمين لكوني قلت ما ليس بحق فيكون اعتداء بالباطل وتجاوزا.

ثم بين الله سبحانه جواب قوم نوح عما قاله لهم فقال:

٣٢ ـ ﴿ قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا﴾ أي قد خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت من ذلك حتى مللنا وسئمنا ولم يبق لنا شيء نجادل به ونحتج عليك به ﴿بما تعدنا﴾ من عذاب الله الدنيوي ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في قولك بأنّك رسول من الله وصادق في دعواك.

٣٣ ـ ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

إن هذا الذي تطلبونه ليس بيدي وليس من عندي وإنما هو حسب قدرة الله ومشيئته وحسب سنته في كونه، وما أنتم بفائتين له إن أقره لحكمة يعلمها فهو متى شاء واقع ليس له من دونه دافع.

٣٤ ـ ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والمعنى: أن نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتي له فيما أدعوكم إليه وإنما يتوقف نفعه على ما تختارونه من أفعال وما تعتقدون به من اعتقاد في الله، قد كتبه الله، وأراد لكم العذاب لعلمه المسبق بأنكم من أهل الشر لا من أهل الخير، ولستم بمعجزي الله ولا مانعي عقابه فيكم.

آية معترضة في الرد على كفار مكة

ثم أنكر الله سبحانه عليهم قولهم إنما ادعاء نوح أنه أوحي إليه مفترى فقال:

٣٥ ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾.

﴿أم يقولون﴾ أي كفار مكة ﴿افتراه﴾ أي القرآن ﴿قل إن افتريته فعليّ إجرامي﴾ أي إن كنت افتريته على الله فرضاً، فهو إجرام عظيم علي إثمه وعقابه من دونكم ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ ﴿وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾[1] وهذه الآية معترضة في قصة نوح حكاية لقول مشركي مكة في تكذيب هذه القصص.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤١.

عود الكلام على قصة نوح

٣٦ ـ ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن فلا تبتئس﴾ فلا تحزن ﴿بما كانوا يفعلون﴾ ثم عرفه وجه إهلاكهم، وألهمه وجه خلاص من آمن فقال:

٣٧ ـ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ .

﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ اصنع الفلك الذي سوف ننجيك به حالة كونك ملحوظاً ومرعياً بأعيننا من كل ناحية والتعبير بالأعين للمبالغة عن حفظ الله وعنايته بهم قال الله تعالى لموسى ﴿ولتصنع على عيني﴾(١) وقال للنبي محمد ﷺ ﴿واصبر لحكم ربك فإنّك بأعيننا﴾(٢).

وإذا العناية لاحظتك عيونها .... نم فالمخاوف كلهن أمان.

﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أي لا تراجعني في أمرهم بشيء من طلب الرحمة ودفع العذاب عنهم فقد حقت عليهم كلمة العذاب، وقضى عليهم القضاء بالإغراق.

ثم حكى الحال الماضية بقوله:

٣٨ ـ ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ .

﴿ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه﴾ جماعة من أشراف قومه ﴿سخروا منه﴾ استهزءوا به وضحكوا منه وتنادوا عليه لحسبانهم أنه مصاب بالجنون لأنه يصنع سفينة في أرض جافة صحراء بعيدة عن البحر ﴿قال إن تسخروا منّا﴾ اليوم لرؤيتكم منا ما لا تتصورون له فائدة ﴿فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ وغداً تعرفون عاقبة سخركم منا.

ثم هدّدهم بقوله:

٣٩ ـ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل﴾ أي يذله ويجلب له العار في الدنيا ﴿عليه عذاب مقيم﴾ بعد ذلك في الآخرة.

ثم أخبر سبحانه عن إهلاك قوم نوح فقال:

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤٨.

٤٠ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾.

﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ عذابنا ﴿وفار التنور﴾ اشتد غضب الله وظهر عقابه لهم والتنور هو الفرن الذي ينضج فيه الخبز، وهو معروف لدى العرب، والفور شدة الغليان ويقال ذلك في النار نفسها ﴿سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾(١) ولا يصح شيء من الروايات في التنور مما روي عن السلف ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ ذكر وأنثى من الأحياء والحيوان ﴿وأهلك﴾ أي زوجته وأولاده ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ أي بالهلاك من الكفار ومنهم ولده كنعان وزوجته، أما سام وحام ويافث فحملهم وزوجاتهم معه ﴿ومن آمن﴾ بدعوته من قومه ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ ولم يحدد عددهم بمقدار ولا خبر صحيح في ذلك.

القــــراءة

﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿من كل زوجين﴾ منونا، وقرأ الباقون: ﴿من كل زوجين﴾ تقدير الكلام على القراءة الأولية: قلنا احمل فيها زوجين اثنين من كل شيء، والمعنى على القراءة الثانية: فاحمل اثنين من كل زوج.

ثم قال سبحانه حكاية عن نوح وأهله:

٤١ ـ ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿وقال﴾ نوح لمن جمعهم ﴿اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها﴾ وهذه الجملة قالها نوح بشارة لهم بأمر الله وحفظه لهم أي بسم الله جريانها، وإرساؤها، فهو الذي يتولى ذلك بحوله وقوته وحفظه وعنايته ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ إن ربي واسع المغفرة حيث لم يهلكهم جميعاً.

القــــراءة

﴿بسم الله مجريها ومرساها﴾.

قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿باسم الله مَجراها﴾ بفتح الميم وكسر الراء؛ وقرأ الباقون: ﴿مُجراها ومُرساها﴾ بضم الميمين.

٤٢ ـ ﴿ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) سورة الملك، الآية: ٧.

﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ في الارتفاع والعظم وهو ما يحدث في ظاهر البحر عند اضطرابه من التموج بفعل الرياح، وقال الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية: وأصل الموج الاضطراب ومنه قوله: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾(١) قال وصف لي بعضهم سفره في المحيط الهندي في زمن رياح الصيف الموسمية: كنت أرى السفينة تهبط بنا في غور عميق، كواد سحيق، نرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها، فإذا بها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها في شاهق جبل تريد أن تنقض منه، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها، ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر﴾(٢) ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل﴾ منفرداً دون أهله الذين ركبوا في السفينة ودون الكفار ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ المقضي عليهم بالهلاك.

القـــراءة

قرأ عاصم: ﴿يا بنيَّ اركب﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون بالكسر.

ثم حكى إصرار ابنه على الكفر بأن قال:

٤٣ ـ ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾.

﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم﴾ لا شيء ينجي من عذاب الله بالطوفان هذا إلا من رحمه الله وركب في السفينة وكان من المؤمنين، فهذا الماء الخارج من الأرض لا يمكن الاحتماء عنه، لأنه سيغطي الجبال ومن عليها بخلاف المطر الذي ينزل من الأعلى إلى الأسفل، ثم ينحدر إلى البحار والوديان والأنهار وينساب في باطن الأرض ﴿وحال بينهما الموج﴾ وكان في أثناء الحديث أن بدأ الموج يرتفع والماء يطغى، ﴿فكان من المغرقين﴾ الهالكين.

ثم بين سبحانه الحال بعد انتهاء الطوفان فقال:

٤٤ ـ ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ الذي عليك وهو ما ينبع من الأرض ونزل من السماء وذلك بعد أن غرق ما على الأرض، ﴿ويا سماء أقلعي﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر ﴿وغيض الماء﴾ أي نقص يقال غاض الماء يغيض: إذا غاب في الأرض ونضب ﴿وقضي الأمر﴾ أي أنجز ما وعد تعالى نوحاً عليه السلام من الهلاك، فغرق من غرق ونجا من نجا، وقال ابن قتيبة: فرغ منه ﴿واستوت على الجودي﴾ استقرت على جبل بالموصل

(١) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٢.

﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ بعداً من رحمة الله للقوم الظالمين أنفسهم بكفرهم.

٤٥ ـ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي﴾ إنما قال نوح هذا لأن الله وعده بنجاة أهله ﴿وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ أعدل العادلين.

٤٦ ـ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

﴿قال يا نوح إنّه ليس من أهلك﴾ أي ليس من أهل دينك ﴿إنّه عمل غير صالح﴾ لا أرضى الذي عليه ابنك ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب ما ليس لك به علم ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ فالمراد النهي من وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه سبحانه باطن أمره وأنه باعتباره نبياً لا ينبغي له أن يسأل في حكمة الله وقضائه، والله أعلم من البشر وأدرى بأحوالهم، والظاهر أن نوحاً عليه السلام كان يظن أن ابنه داخل في عداد أهله، وأنه أقرب إلى المؤمنين من الكافرين، ولكنّ الله أعلمه ذلك.

القــــراءة

﴿إنه عمل غير صالح﴾ قرأ الكسائي ﴿إنّه عملَ غيرَ صالح﴾ بنصب اللام والراء، وقرأ الباقون ﴿إنّه عملٌ غيرُ صالح﴾ بفتح الميم وضم اللام والراء. قرأ ابن كثير ﴿فلا تسألنّ﴾ بفتح النون مع التشديد، قرأ أهل المدينة ﴿فلا تسألنّي﴾ بتشديد النون وإثبات الياء في الموصل وقرأ قالون عن نافع وابن عامر ﴿فلا تسألنّ﴾ مكسورة النون مشددة من غير ياء، وقرأ أبو عمرو ﴿فلا تسألني﴾ بتخفيف النون وسكون اللام مثبتة الياء في الوصل، وقرأ أهل الكوفة ﴿فلا تسألن﴾ خفيفة النون محذوفة الياء.

ولما لم يصبر إلى تبيّن الحال توجّه إليه العتاب على ترك الأولى فلذلك تنبه ورجع إلى الله قائلاً:

٤٧ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

﴿قال ربّ إنيّ أعوذ بك إن أسألك ما ليس لي به علم﴾ أي أعوذ بك أن أطلب منك من بعد مطلوباً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة، أو طلباً لا أعلم أنه صواب ﴿وإلاّ تغفر لي وترحمني﴾ ما صدر عني من السؤال المذكور وترحمني بقبول توبتي ﴿أكن من الخاسرين﴾ والخسارة هنا واضحة في أنه ذهب يطلب نجاة ابنه ظناً منه أنه من أهله الناجين، وعاد عليه ذلك الدعاء والطلب باللوم من الله.

٤٨ ـ ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منّا﴾ اهبط من الجبل إلى الأرض ويتضمن كذلك نزوله من السفينة، والسلام هنا معناه الأمن ﴿وبركات﴾ خيرات نامية من أنواع الأرزاق ﴿عليك وعلى أمم ممن معك﴾ من ذراري من معك ومن ولدك ثم ذكر الكفار فقال ﴿وأمم سنمتعهم﴾ في الدنيا ﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ في الآخرة.

الإشارة إلى إعجاز القرآن وأخذ العبرة من قصص الماضين

٤٩ ـ ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾ ما قصصنا عليك من قصة نوح وغيرها، والإشارة إليها بتلك إلى بُعد منزلتها، وأنباء الغيب بعض أخباره ﴿نوحيها إليك﴾ والمقصود من ذكر كونها موحاة جعل قومه ﷺ أن يصدِّقوا بنبوته، وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي هذا الإيحاء والإخبار بالقرآن ﴿فاصبر﴾ كما صبر نوح على أذى قومه ﴿إن العاقبة﴾ أي آخر الأمر ﴿للمتقين﴾ أي لك ومن آمن معك.

عاد وهود

ثم عطف سبحانه قصة هود على قصة نوح فقال:

٥٠ ـ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾.

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي واحداً منهم في النسب كقولك يا أخا العرب، عاد من ولد سام بن نوح كانت تسكن الأحقاف بين مسقط وحضرموت باليمن، وسبق الكلام على القصة في تفسير سورة الأعراف(١). ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده وكانوا مشركين يعبدون الأصنام ﴿ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون﴾ ما أنتم بجعلكم الألوهية لغيره إلا مفترون كاذبون في إشراككم مع الله الأوثان.

٥١ ـ ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلّا على الذي فطرني﴾ خاطب به كل رسول قومه إزاحة لما عسى أن يتوهموه، وتمحيصاً للنصيحة فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير، وإيراد اسم الموصول للتفخيم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أتغفلون عن ذلك فلا تعقلون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله تعالى، وتجهلون أو تتجاهلون كل شيء فلا تعقلون شيئاً أصلاً، فإن الأمر مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من العقلاء.

---

(١) الآية: ٦٥.

٥٢ ـ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ من الشرك ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة واخلصوا التوبة ﴿يرسل السمآء عليكم مدراراً﴾ كثيرة الدر متتابعة من غير إضرار، فمفعال للمبالغة كمقدام ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ القـوة عامة وأبرز ما فيها صحة البدن وعافية المجتمع، ورغبهم عليه السلام بكثرة المطر وزيادة القوة، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما دعوتكم إليه حالة كونكم مصرّين على ما أنتم عليه من الإجرام وارتكاب المعاصي، والبقاء على الشرك.

٥٣ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾.

﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة واضحة تدل على صحة دعواك، وإنما قالوا ذلك لفرط عنادهم وعدم استعمال عقولهم لتبين الحق ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي ما نترك عبادة أصنامنا بسبب قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي بمصدقين.

٥٤ ـ ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾.

﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ ما نقول في سبب مخالفتك إيّانا إلاّ أن يكون بعض آلهتنا أصابك بجنون لسبك إياها، قال ابن قتيبة: عراني كذا، واعتراني، إذا ألمّ بي، وأصله من اعتراه بمعنى قصد عراه أي محله وناحيته ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾ أي مما أنتم تجعلونه شريكاً وهو سبحانه لم يجعله شريكا، ولم ينزّل به سلطاناً، وما اسم موصول.

٥٥ ـ ﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾.

﴿من دونه فكيدُوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾ أي إن صح ما لوحتم به من كون آلهتكم يقدرون على إضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها، باشروا في كيدي واحتالوا ما بدا لكم أنتم وأوثانكم ثم لا تمهلون، قال الزجاج وهذا من أعظم آيات الرسل، أن يكون الرسول وحده، وأمته متعاونة عليه فيقول لهم: «كيدوني فلا يستطيع أحد منهم ضره» وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾[١] وقال النبي محمد ﷺ في المرسلات ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾[٢].

٥٦ ـ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

﴿إنّي توكّلت على الله ربي وربكم﴾ فيه تعليل ينفي ضرهم بطريق برهاني بقوله: ﴿ما من دابة إلاّ هو

(١) سورة يونس، الآية: ٧١.
(٢) الآية: ٣٩.

آخذ بناصيتها﴾ الناصية هي شعر مقدم الرأس فإذا أخذت بها من شخص ملكت سائر بدنه، وذلّ لك، والمعنى: إنّ كل ما يدبّ على وجه الأرض، في قبضته وملكه وسلطانه ومن باب أولى أن يكون البشر كذلك، والتعبير بالدابة للتحقير والإذلال ﴿إنّ ربي على صراط مستقيم﴾ ووجه المناسبة بينه وبين قوله ﴿إلاّ هو آخذ بناصيتها﴾ كما ذكر ابن الأنباري إنّه وإن كان قادراً عليهم فهو لا يظلم، ولا يريد إلاّ العدل.

٥٧ ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾.

﴿فإن تولّوا﴾ أي أعرضوا فقل لهم ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ أي إن تولّوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، فإن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلاّ التكذيب ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرّونه شيئاً﴾ فيه وعيد لهم بالهلاك ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ بمعنى رقيب أي لا يترك شيئاً يفلت من حسابه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

٥٨ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

﴿ولما جاء أمرنا﴾ أي نزل عذابنا والتعبير بالمجيء ما لا يخفى من التفخيم والتهويل ﴿ نجّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي بالإيمان الذي أنعمنا به عليهم ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي شديد وهو ما استحقه قوم هود من عذاب الدنيا والآخرة.

٥٩ ـ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ المقصود بعاد القبيلة، والجبار هو العظيم في نفسه المتكبر على العباد، والعنيد الطاغي وفسر بالمعجب بما عنده، ولايقبل الحق.

٦٠ ـ ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾.

﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾ أي وفي يوم القيامة لعنوا أيضاً ﴿ألا إنّ عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي كفروا بربهم، بعداً منصوب على معنى أبعدهم الله فبعدوا بعداً، والمعنى: أبعدهم من رحمته.

ثمود وصالح

ثم عطف سبحانه على ذلك قصة صالح عليه السلام فقال:

٦١ ـ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ ثمود القبيلة التي مرت في سابق تفسيرنا في سورة الأعراف آية (٧٣). ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي ابتدأ خلقكم منها، فإنها المادة الأولى وآدم الذي هو أصل البشر خلق منها ﴿واستعمركم فيها﴾ أي أعمركم فيها أي جعلكم ساكنيها مدة أعماركم ومنه العمرى، وأعمره الدار جعله يسكنها مدة عمره ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾ أي قريب الرحمة لقوله تعالى ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾(١) ومجيب لمن دعاه وسأله.

٦٢ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ فاضلاً خيِّراً نقدمك علينا جميعنا مشوراً نأمل منك أن تكون سيداً، لأنه كان ذا حسب وثروة، فلما أنذرهم، زعموا أن رجاءهم لخيره قد انقطع ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونآ إليه مُريب﴾ إنا وإننا من لغات قريش السبع التي نزل القرآن عليها، اجتمعت ثلاث نونات نونا ﴿إنَّ﴾ والنون المضمومة إلى الألف، فيقال إني وإنني ولعلّي ولعلّني، فأما المريب فهو التوقع للريبة والتهمة.

٦٣ ـ ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾.

﴿قال يا قوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾ نبوة ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ أي فمن يمنعني من عذابه إذا تساهلت في تبليغ الرسالة، والمنع من الشرك ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ لا تفيدونني إلا النقصان أي تجعلونني خاسراً.

٦٤ ـ ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾.

﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آيـة﴾ معجزة دالة على صدق دعوتي ومحلها من الإعراب حال، وتقدم الكلام عليها في سورة الأعراف: (٧٣) ﴿فَذَروهَا تأكل في أرض الله﴾ فليس عليكم مؤونتها ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ من عقر أو أي أذى ﴿فيأخذكم عذاب قريب﴾ عاجل لا يستأخر عن مسكم إياها إلا يسيراً وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم، وفي الأعراف قال ﴿أليم﴾.

٦٥ ـ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

﴿فعقروها﴾ أي فخالفوا ما أمروا به والعقر هو النحر، وإضافة الفعل لهم مع أن الفاعل واحد لرضاهم به ﴿فقال تمتعوا في داركم﴾ أي بلدكم، وتسمى البلاد الدار لأنها يدار فيها أي يتصرف ﴿ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾.

٦٦ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾.

﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ بالإيمان الذي أنعمنا به عليهم هذه جاءت بالفاء وفي قصة هود جاءت بالواو وهو الأصل آية (٥٨) في مثل هذا العطف، وإنما كانت الفاء هي المناسبة لما في هذه الآية، لأن ما قبلها جاء بالفاءات المتعاقبة، الواقعة في مواقعها من أمر الإنذار، فالوعيد على المخالفة، فالمخالفة فتحديد موعد العذاب بثلاثة أيام، فالإخبار بإنجازه ووقوعه، كما في سورة الشمس، ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها، فكذبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾[1] ﴿ومن خزي يومئذ﴾ وكما نجاهم من العذاب الأليم، والغليظ، كذلك ينجيهم من ذلّ وفضيحة يوم القيامة، أي من عذابه ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ أي القادر على كل شيء والغالب.

القـــــراءة

﴿من خزي يومئذ﴾ قرأ نافع والكسائي: ﴿من خزي يومَئذ﴾ بفتح الميم، وقرأ الباقون: ﴿من خزي يومِئذ﴾ بكسر الميم.

الصيحة

٦٧ ـ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ عبَّر الله عن تدميرهم تارة بالرجفة، وتارة بالطاغية، وتارة بالصيحة، وكلٌّ صحيح لأن الصاعقة تكون مصحوبة بصوت عظيم وقد تكون مصحوبة برجفة بزلزال شديد، وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرها حتى يصل إلى مكان آخر، والصاعقة عبارة عن استفراغ كهربائي يحصل بين كهربائيتين متخالفتين بالإيجاب والسلب، والله قادر على ذلك ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ هامدين موتى لا يتحركون سقط بعضهم على بعض يقال الناس جثم أي قعود.

٦٨ ـ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنّهم لم يقيموا ويسكنوا ويتنعموا فيها، ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ وفي سورة الأعراف آية (٧٣) تفصيل أكثر.

---

(١) الآية: ١٢ ـ ١٤.

القــــراءة

﴿ألا إن ثمودا كفروا ربهم﴾ قرأ حمزة وحفص ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم﴾ بغير تنوين، وكذلك في الفرقان والعنكبوت والنجم، وقرأ معهما أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين.

إبراهيم عليه السلام

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم ولوط فقال سبحانه:

٦٩ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ الرسل هم الملائكة، والبشرى بالولد من سارة، لقوله تعالى[١]: ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ وقوله تعالى[٢]: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ من هاجر ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي عليكم السلام ﴿فما لبث أن جاء﴾ ما أقام حتى جاء ﴿بعجل حنيذ﴾ مشوي سمين.

القــــراءة

﴿قال سلام﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿قال سلم﴾ بكسر السين، وفي الذاريات مثله، وقرأ الباقون ﴿قال سلام﴾ جعلوه من التسليم.

٧٠ ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ استنكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّا أرسلنا إلى قوم لوط﴾ أي أرسلنا بالعذاب إليهم وأضمر هنا لقيام الدليل عليه في سورة أخرى، ولوط ابن أخيه، وأول من آمن به، وكان مكانه قريبا من مكانه.

٧١ ـ ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ سارة كانت قائمة تسمع كلامهم ﴿فبشّرناها بإسحاق﴾ والمعنى: إن زوجة إبراهيم سارة كانت قائمة على الخدمة تسمع الكلام، ومن جملته البشرى بالولد فضحكت تعجباً لكونها كبيرة في السن، قال الله في سورة الذاريات، ﴿وقالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾[٣] ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾.

(١) سورة هود، الآية: ٧١.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠١.
(٣) الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

القــــراءة

قرأ حمزة وابن عامر وحفص ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ بالنصب وقرأ الباقون بالرفع.

٧٢ ـ ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾.

﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ منصوب على الحال ﴿إنّ هذا لشيء عجيب﴾.

٧٣ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾.

﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي من قضائه وقدره ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد﴾ إنّه من دعاء الملائكة لهم ومن تلك البركات وجود أكثر الأنبياء والأسباط من إبراهيم وسارة، والحميد بمعنى: المحمود، فأما المجيد: بمعنى الماجد وهو الشريف الواسع الكرم وأصل المجد والسعة.

٧٤ ـ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ الخوف والفزع ﴿وجاءته البشرى﴾ بالولد، أخذ ﴿يجادلنا﴾ مخاطباً الملائكة ﴿في قوم لوط﴾.

٧٥ ـ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾.

﴿إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾ أوّاه كثير التأوه من الذنوب، والتأسف على الناس، ومنيب راجع إلى الله تعالى، والمقصود من وصفه بهذه الصفات المنبئة عن الشفقة ورقة القلب، بيان ما حمله على ما صدر عنه من المجادلة، وحمل الحلم على عدم العجلة.

لوط وقومه

٧٦ ـ ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ الجدال ﴿إنّه قد جاء أمر ربك﴾ عذابه بهلاكهم ﴿وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ لأن الله قد قضى به.

ثم أخبر سبحانه عن إتيان الملائكة لوطاً بعد خروجهم من عند إبراهيم عليه السلام، وما جرى بينهم وبين قوم لوط فقال:

٧٧ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾.

﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم﴾ ساءه مجيء الرسل، لأنه لم يعرفهم لأول الأمر وأشفق عليهم من قومه، ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي طاقة وجهداً وفي الصحاح يقال: ضقت في الأمر ذرعاً إذا لم تطقه، ولم تقو

عليه، وأصل الذرع بسط اليد ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ شديد وأصله من العصب بمعنى الشدة.

٧٨ ـ ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾.

﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ أي يستحثون إليه كأنّه يحث بعضهم بعضا، ثم بيّن أن إسراعهم إنما كان لأجل العمل الخبيث فقال: ﴿ومن قبل كانوا﴾ أي وقبل مجيئهم وعلمهم بضيوف لوط ﴿يعملون السيئات﴾ والمعنى: أن قوم لوط وخاصة الذين هرعوا إليه رغم أنهم كانوا على حال من فعل المنكر، أسرعوا مهرعين إلى ابتغاء ضيوف لوط، زيادة في الإمعان بالفعل الشنيع، وطلباً للذة تلو اللذة لمجرد سماعهم الخبر ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي﴾ فتزوجوهن بالحلال ﴿هن أطهر لكم فاتقوا الله﴾ والمعنى: تزوجوا البنات بالحلال واعقدوا عليهن بتقوى الله، وفيها دعوة إلى الإيمان بالله تعالى؛ لأن تقوى الله والطهارة والحلال لا يكون إلا لمؤمن، وضرب لهم مثلاً بعرضه للقادمين إليه أن يزوجهم بناته إن اتقوا الله، ومن تقوى الله البعد بلوط عن الفضيحة فقال: ﴿ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾ ذو عقل راجح يهتدي إلى الحق ويرعوي عن الباطل فيعرفكم المنكر.

٧٩ ـ ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾.

﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ قالوا معرضين عما نصحهم به من الأمر بالتقوى والنهي عن الإخزاء، والحق هنا هو الحاجة ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ وهو أن حاجتنا التي نطلبها منك ليس تزوج البنات، وإنما قضاء الشهوة بما عندك من الولدان الحسان.

٨٠ ـ ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾.

﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ أي جماعة أقوى بهم عليكم ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ أي أنضم إلى عشيرة تدافع عني. ثم بيّن نزول العذاب ووجه خلاص لوط وأهله فقال:

٨١ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾.

﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك﴾ أي ملائكته ﴿لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد﴾ لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم ﴿إلا امرأتك﴾ لا تسر بها ﴿إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾.

القــراءة

﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ قرأ نافع وابن كثير ﴿فاسر بأهلك﴾ بوصل الألف

في كل القرآن، وقرأ الباقون ﴿فأسر﴾ بقطع الألف، وهما لغتان لهجتان نزل بهما القرآن. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾ بالرفع، وقرأ الباقون ﴿امرأتك﴾ بالنصب.

٨٢ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ عذابنا بإهلاكهم ﴿جعلنا عاليها سافلها﴾ الكناية تعود إلى المؤتفكات، وهي قرى قوم لوط كانت خمس قرى أعظمها سدوم. وميعة وصعرة وعصرة ودوما ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ السجيل الطين المتحجر لقوله تعالى[1] ﴿حجارة من طين﴾ وهو الشديد من الحجارة ﴿منضود﴾ أي نضّد، وضع بعضه على بعض معدّاً لعذابهم.

٨٣ ـ ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾.

﴿مسومة عند ربك﴾ عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض عند ربك في خزائنه ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ فيه وعيد والمراد به قوم لوط، والمعنى لم تكن الحجارة لتخطئهم.

مدين وشعيب

ثم عطف سبحانه قصة شعيب على ما تقدّمها من قصص الأنبياء عليهم السلام فقال:

٨٤ ـ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾.

﴿وإلى مدين﴾ أي أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وجعل اسما بالغلبة للقبيلة، وكثيراً ما تسمى القبيلة باسم أبيهم كمضر وتميم، وجائز أن يراد بمدين المدينة التي بناها مدين فسميت به، فيقال إلى أهل مدين ﴿أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أمر بالتوحيد على وجه أكيد ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ أي لا تطففوا، وكانوا يطففون مع كفرهم وكانوا تجاراً ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾[2] أي ينقصون ﴿إني أراكم بخير﴾ أي بنعمة وسعة في الرزق يجب أن تترفع أنفسكم عن دناءة بخس حقوق الناس، وأكل أموالهم بالباطل ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي عذاب يوم محيط ما يقع فيه من العذاب بكم.

٨٥ ـ ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ أتموا ذلك بالعدل وتكرار النداء بلقب قومي يؤذن

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٣٣.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٢ ـ ٣.

بالاستعطاف، وهذا أمر بالواجب بعد النهي عن ضده لتأكيده ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ هذا أعم مما سبقه فإن البخس يشمل النقص والعيب في كل شيء، يقال بخسه حقه وبخسه ماله وبخسه علمه وفضله، والأشياء جمع شيء وهو أعم الألفاظ وجمعه يشمل ما للأفراد وما للجماعات والأقوام، من مكيل وموزون ومعدود، ومن حقوق مادية ومعنوية، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ وهذا نهي آخر يشمل غير ما تقدم كقطع الطرق، وتهديد الأمن والخروج على السلطان وقطع الشجر وقتل الحيوان ومنع النسل.

٨٦ ـ ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾.

﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن والزكاة والصدقات خير من البخس ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ﴾ حتى أراقب أعمال كل واحد منكم فليس ذلك من شأني، إنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آلُ جهداً.

٨٧ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾.

﴿قالوا يا شعيب أصلَوٰتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء به وبعبادته، أطلقوا الصلاة وأرادوا دينه ودعوته، لأنها أظهر ما فيه، لأنه عليه السلام كان كثير الصلاة، وبتعبيرهم هذا فيه تجاهل لله الذي أرسل شعيبا، وأمره بالصلاة ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ من تنمية واستغلال وتصرف في الكسب السريع، من الناس بما نستطيع من حذق واحتيال، وقولك هذا فيه حجر على حريتنا، وتحكم فينا ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ الحليم العاقل الكامل في أناته وترويه، والرشيد الراسخ في هدايته، قالوا ذلك استهزاء به.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿أصلاتك﴾ بغير واو، وقرأ الباقون: ﴿أصلواتك﴾ على الجمع.

ثم أشار عليه السلام إلى ما أتاه الله من العلم والهداية، والنبوة والكرامة، والرزق الحلال الحاصل من غير بخس ولا تطفيف فقال:

٨٨ ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾.

﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني﴾ قال شعيب عليه السلام لقومه: أخبروني عن شأني وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربي فيما دعوتكم إليه ﴿منه رزقاً حسناً﴾ في كثرته وفي صفته بالحلال بدون تطفيف ولا بخس ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم ارتكبه، وأنيب أرجع.

ثم أوعدهم بقوله:

٨٩ ـ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾.

﴿ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي﴾ أي لا تكسبنكم عداوتكم إياي وخلافكم لي أن تعذَّبوا وذلك ﴿أن يُصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ لأنه كان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها، ومراده إن لم تعتبروا بمن قبلكم لقدم عهد أو بعد مكان، فاعتبروا بهؤلاء.

٩٠ ـ ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾.

﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربيّ رحيم ودود﴾ أي كثير الود والمحبة لعباده، والمودة فينا الميل، ومنه سبحانه، ما وراء ذلك، مما يليق بجلال ذاته جلّ جلاله.

ولما بالغ في التقرير والبيان قال:

٩١ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾.

﴿قالوا ياشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ إنما قالوا ذلك استهانة به عليه السلام، كما يقول الرجل لمن لايعبأ به: لا أدري ما تقول، وكأنهم قالوا إنَّ فهمنا لما تقول فهم سطحي لاتعمق فيه لأن الفقه في اللغة أخص من عموم الفهم والعلم، لأنه الفهم الدقيق العميق المؤثر في النفس الباعث على العمل. والمعنى: ما نفقه كثيراً مما ترمي وراء ظواهر أقوالك من بواطنها، وخاصة أن أقوالك وردت على أهم شيء لدينا وهو بطلان عبادة آلهتنا، وتقيد التصرف في أعز مالنا، وعلى أمور غيبية تنزل بنا ﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾ لا قدرة ولا قوة خارقة نراها تميزك بل إنك متواضع لا تبدو قويا ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ لولا عشيرتك، لقتلناك بالرجم بالحجارة وهو من سيىء القتلات، وكان رهطه من أهل ملتهم، فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم، ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ ما أنت بمكرم محترم رفيع المكانة عندنا حتى نمتنع من رجمك، وإنما نكف عنك للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا.

٩٢ ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾.

﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ أي تراعون رهطي فيّ، ولا تراعون الله في ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ شيئاً منبوذاً وراء الظهر منسيا، والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر، قد جعل فلان هذا الأمر بظهر، ﴿إن

ربّي بما تعملون محيط﴾ عالم بكل أعمالكم يحصيها عليكم ويجزيكم بها، وفيه تهديد عظيم لأولئك الكفرة والفجرة بعدم الإفلات من عذاب الله، وإنذار يقربه.

ثم زاد في الوعيد والتهديد بقوله:

٩٣ ـ ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ وهذا أمر تهديد ووعيد بعد الإنذار، ممن وثق بربه على انفراده في شخصه، وضعف من معه على كثرة من خاصمه، وتهديدهم له بقوتهم، والمعنى: اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم ﴿إني عامل﴾ على مكانتي التي أعطانيها ربي ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ هذا تصريح بالوعيد بعد التلميح له بالأمر بالعمل المستطاع للتعجيز ﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ انتظروا العذاب إني منتظر النصرة والرحمة.

٩٤ ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا برحمة منا﴾ أي بالإيمان بالله ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ أي صيحة العذاب التي أخذت ثمود ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ ميتين باركين على ركبهم منكبين على وجوههم.

الصاعقة والصيحة والرجفة

وردت في القرآن الكريم لعذاب ثمود ومدين أسماء لثلاثة أنواع من العذاب، كما وردت في السبعين المختارين من قوم موسى حين قالوا ﴿أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة﴾[1] والرجفة، وهما أخف مما أصاب مدين وثمود، فأول العذاب هو الصاعقة، التي قد تكون ذات صوت شديد، هو الصيحة التي هي أثر من آثار الصاعقة، ثم الرجفة التي هي زلزال شديد قد تنشق به الأرض فتبتلع من عليها أو تحطم من فيها، وقد يكون خفيفاً حسب إرادة الله وقدرته وربما تكون الرجفة نتيجة لأثر الصاعقة، وليس هذا مجال بحثنا فله علماء متخصصون.

٩٥ ـ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.

﴿كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ أي كأنّهم لم يقيموا فيها وقتا ولم ينعموا فيها مكاناً.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

موسى عليه السلام

ثم عطف سبحانه قصة موسى عليه السلام على ما تقدم من قصص الأنبياء فقال:

٩٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته.

٩٧ ـ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾.

﴿إلى فرعون وملإيه﴾ أشراف القوم وزعمائهم لإنصاتهم وإنصافهم لفرعون لأنّهم أهل الحل والعقد والمشورة ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ من الكفر والظلم ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ ذي رشد وهدى، بل ضلال وفساد.

٩٨ ـ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾.

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ أوردهم أدخلهم على النار ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي بئس الورد الذي يردونه النار، لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد، وفي النار تقطع الأكباد، والورد بمعنى النصيب من الماء والمورود المدخول.

٩٩ ـ ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾.

﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ الرفد العطية والمرفود المعطي.

العبرة العامة في إهلاك الأمم الظالمة

١٠٠ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾.

﴿ذلك من أنباء القرى﴾ الأمم أي أخبارها ﴿نقصه عليك﴾ في القرآن ﴿منها قائم وحصيد﴾ أي من تلك القرى مالها بقايا وآثار ماثلة كقرى قوم صالح، ومنها ما عفت ودرست آثارها كالزرع المحصود، الذي لم يبق منه بقية في الأرض كقرى قوم لوط.

١٠١ ـ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾.

﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بالكفر والعصيان والفساد فاستحقوا العقاب بعد الإنذار ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾ فما نفعتهم ولا دفعت عنهم الهلاك ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ هلاك وتخسير وتدمير، وتبت يده، أي خسرت وهلكت وتباً له في الدعاء بالهلاك

ومعنى زيادتهم أنهم باتكالهم عليهم واعتقادهم الفاسد ازدادوا كفراً وإصراراً.

١٠٢ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾.

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي ومثل ذلك الأخذ بالعذاب وعلى نحوٍ منه أخذ ربك لأهل القرى في حال تلبّسها بالظلم متى ما أراد لهم ذلك ﴿إنّ أخذه أليم شديد﴾.

يوم القيامة

١٠٣ ـ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾.

﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك﴾ أي يوم القيامة ﴿يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ يشهده جميع الخلائق.

ثم أخبر سبحانه عن اليوم المشهود وهو يوم القيامة فقال:

١٠٤ ـ ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾.

﴿وما نؤخره﴾ أي ذلك اليوم الملحوظ بعنوان الجمع والشهود ﴿إلّا لأجل معدود﴾ لا يعلم عدده إلّا الله. ثم ذكر بعض أهوال ذلك اليوم فقال:

١٠٥ ـ ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

﴿يوم يأت﴾ ذلك اليوم ﴿لا تكلم نفس إلّا بإذنه فمنهم شقي﴾ أي الكفار ﴿وسعيد﴾ المسلمون الذين كتبت لهم السعادة.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿يوم يأتي﴾ بالياء في الوصل، وقرأ الباقون بحذف الياء ﴿يوم يأتِ﴾.

١٠٦ ـ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾.

﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق﴾ الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه، والشهيق طول الزفير وهو رد النفس، ويراد من اللفظ الدلالة على كربهم وغمهم، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصرت فيه روحه.

١٠٧ ـ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.

﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض﴾ المقصود به التأبيد جرياً على أسلوب العرب كقولهم لا

أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار أو ما غنت الحمامة أي ما دام ذلك ﴿إلّا ما شاء ربك إن ربك﴾ أي أن هذا الخلود هو المعد لهم في الآخرة، المناسب لصفتهم إلّا ما شاء الله من تغير في هذا النظام في طور آخر فهو إنما وضع بمشيئته وهذا النظام لا علم لنا به إلّا ما تقيده هذه الآية وغيرها ﴿فعال لما يريد﴾ فيه دفع توهم دوام الخلود أمراً واجباً عليه، وفعال ما يريده سبحانه لا يتعاصى عليه شيء.

١٠٨ ـ ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾.

أي أن المؤمنين يمكثون في الجنة مدة تأبيد بقاء السماوات والأرض إلى أن يشاء الله فيغير ذلك النظام ويصنع ما يشاء من نظام غيره هو أعلم به، و﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي دائماً غير مقطوع، من جذه يجذه فهو كقوله تعالى[1]: ﴿ولهم أجر غير ممنون﴾ وكل من الجزائين منه تعالى مقيد بأنّه بمشيئته، ولكنه ذيل هذا بأنه هبة منه وإحسان دائم غير مقطوع، وقد تكرر وعد الله للمؤمنين المحسنين بأنه يجزيهم بالحسنى وبأحسن مما عملوا، وبأنه يزيدهم من فضله وبأنه يضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر من ذلك إلى سبعمائة ضعف، ولم يعد بزيادة جزاء الكافرين على ما يستحقون بل كرر الوعد بأنه يجزيهم بما عملوا وبأن السيئة بمثلها وهم لا يظلمون وبأنه لا يظلم أحداً.

القـــراءة

﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وأما الذين سُعدوا﴾ بضم السين على ما لم يسمّ فاعله، وقرأ أهل الحجاز والبصرة والشام وأبو بكر: ﴿وأما الذين سَعدوا﴾ بفتح السين.

تأخير العذاب عن أمة محمد إلى يوم القيامة

لما بيّن نبأ الأمم وإهلاكهم بكفرهم أخبر عقب ذلك عن بطلان ما كانوا عليه، وإنّه يوفيهم جزاء أعمالهم فقال:

١٠٩ ـ ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾.

﴿فلا تك في مرية﴾ في شك ﴿مما يعبد هؤلاء﴾ أي قومك من الأصنام ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ فهـم مقلدون لآبائهم، وإنّا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم وافياً تاماً.

ثم أورد نظيراً لإنكارهم نبوّة محمد ﷺ فقال:

(١) سورة فصلت، الآية: ٨.

١١٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

﴿ولقد آتينا موسى الكتب﴾ التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ فمن مصدق به ومن مكذب، كما فعل قومك بالقرآن، وهذه تعزية للنبي ﷺ ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ وهي كلمة القضاء بتأخير العذاب عن أمة محمد كالذي أصاب الأمم السابقة ﴿لقضي بينهم﴾ أى لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بإنزال العذاب ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ في القرآن.

قال ابن الجوزي في تفسير زاد المسير عند تفسير الآية ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ قال ابن عباس: يريد إني أخرت أمتك إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لعجلت عقاب من كذبك. وقال ابن قتيبة: لولا نظرة لهم إلى يوم القيامة لقضي بينهم في الدنيا. وقال ابن جرير الطبري: سبقت من ربك إنه لا يعجل على خلقه بالعذاب. لقضي بين المصدق منهم والمكذب بإهلاك المكذب وإنجاء المصدق.

١١١ ـ ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ ﴿وإن كلا﴾ يشير إلى جميع من قص قصته في هذه السورة وغيرهم من البشر، والتقدير والله ليوفينهم، ودخلت ﴿ما﴾ للفصل بين لام التوكيد والقسم.

القـــراءة

﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ﴿وإنّ كلاً لما﴾ بتشديد ﴿إن﴾ وتخفيف ﴿لما﴾ وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ﴿كلاً لمّا﴾ بالتشديد فيها، وقرأ أبو بكر ﴿وإن كلا﴾ خفيفة ﴿لمّا﴾ مشددة، وقرأ قالون عن نافع: ﴿إن﴾ بتخفيف ﴿كلاّ﴾ مشددة ﴿لما﴾ مخففة.

١١٢ ـ ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾ أي إذا كان أمر أولئك الأمم كما قصصنا عليك أيها الرسول فاستقم مثل ما أمرتك في هذا الكتاب ملتزما الصراط المستقيم، وليستقم معك من تاب من الشرك وآمن بك واتبعك ﴿ولا تطغوا﴾ في الدين بتجاوز حدوده غلوا، فالأمر بالاستقامة نهي عن الإفراط والتفريط ومنه المغالاة ﴿إنّه بما تعملون بصير﴾ النافذ علمه بكل أعمالكم فيحكم فيها بما يراه.

ثم نهى الله سبحانه عن المداهنة في الدين والميل إلى الظالمين فقال:

١١٣ ـ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار﴾ أي ولا تستندوا إلى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وظلموكم

فتجعلونهم ركناً لكم تعتمدون عليهم فتقرونهم على ظلمهم، وتوالونهم في سياستكم الحربية وأعمالكم المالية، فإنّ الظالمين لكم بعضهم أولياء بعض ولكن ملة واحدة، ﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ وفي لسان العرب: وأن الركون فيها، من مال إلى الشيء واطمأن إليه، والاطمئنان أقوى من السكون، وفسره في المصباح المنير بالاعتماد على الشيء، وهو أقوى من الاطمئنان قال في اللسان وركن الشيء إلى جانبه الأقوى والركن الناحية القوية، وما تقوى به من ملك وجند وغيره، ومنه قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾(١).

ثم خص من أنواع الاستقامة إقامة الصلاة تنبيها على شرفها فقال:

١١٤ ـ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾.

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل﴾ طرفا النهار هنا البكرة والأصيل، أو الغدو والعشي، روي عن ابن عباس أن صلاة طرفي النهار المغرب والفجر، وزلف الليل العتمة، أي العشاء، وفي سورة طه، ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلّك ترضى﴾(٢). ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

ثم أمر بالصبر على التكاليف المذكورة أمراً ونهياً، ونص على أن الإتيان بها إحسان وأن جزاءه سيحصل لا محالة فقال:

١١٥ ـ ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ثم عاد إلى أحوال الأمم الخالية، وبين أن السبب في حلول عذاب الاستئصال بهم أمران: الأول أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد، وذلك قوله: ﴿فلولا كان من القرون﴾ والسبب الثاني في نزول العذاب قوله: ﴿واتبع الذين ظلموا﴾ فقال:

١١٦ ـ ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾.

﴿فلولا كان من القرون من قبلكم﴾ فهلا كان من الأقوام المقترنة في زمان واحد من قبلكم ﴿أولوا بقية﴾ أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل أو ذوو فضل ﴿ينهون عن الفساد في الأرض﴾ الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهم، والفساد يعم الكفر والمعاصي ﴿إلا قليلا ممن أنجينا منهم﴾ أي ولكن قليلاً منهم أنجيناهم

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.
(٢) الآية: ١٣٠.

لكونهم كانوا ينهون، وهو استثناء منقطع ﴿واتبع الذين ظلموا﴾ وهم الأكثرون ﴿ما أترفوا فيه﴾ فبطروا يقال أترفته أي أبطرته وأفسدته، والبطر الطغيان ﴿وكانوا مجرمين﴾ أي متلبسين بالإجرام الذي وَلَّده الترف.

ثم بين أنه ما ينبغي له سبحانه أن يهلك القرى بظلم فقال:

١١٧ ـ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾.

﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم﴾ بغير جرم ﴿وأهلها مصلحون﴾ أي وما شأن ربك وما هي سنته في الاجتماع البشري أن يهلك الأمم بظلم منه لها في حال كون أهلها مصلحين في الأرض، مجتنبين للفساد والظلم، والإصلاح هنا تجنب كل الأعمال التي نهى عنها الأنبياء أقوامهم ممن عوقبوا.

ثم أخبر سبحانه عن كمال قدرته فقال:

١١٨ ـ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾.

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ أيها الحريص على إيمان البشر الآسف على إعراض أكثرهم تحسرا، لو شاء ربك لجعل الناس جميعاً على دين واحد منذ خلقهم بالفطرة والغريزة، لا رأي لهم ولا اختيار ولكانوا كالحيوان، والحشرات، أو كالملائكة مفطورين على اعتقاد واحد، ولكنّه خلقهم أفضل من الملائكة وأعلم منهم وأفضل من الحيوان بالعقل والتمييز ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ ولكن جعل خلقهم أطواراً وأشتاتا متفاوتا فتستمر حياتهم متنافسين، كل مستقل في تفكيره وإرادته واختياره عن الآخر فله كسبه وعليه فعله، ولأجل استمرار حياتهم اختلفت عقولهم ومداركهم وفهمهم للحياة فعامل السن وعامل البيئة وعامل الوراثة، وعامل الجنس، وعامل الحضارة والبداوة والجهالة والثقافة، فكل ذلك له دخل في تفكير الإنسان وتفاوت في عقول البشر، لذلك جاءت النظرة مختلفة للكون والإنسان، والحياة، فمن جاءه موعظة من ربه فاهتدى واختار الخير فكان من أهل الحق، ومن ضلّ واختار الشر والظلم كان من أهل الباطل ودخل في عداد الكافرين.

١١٩ ـ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿إلّا من رحم ربك﴾ ممن اختار الخير وترك الشر ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ولذلك خلقت الجنة والنار، والثواب والعقاب، ﴿وتمت كلمة ربك﴾ قضى سبحانه بالمعاقبة ﴿لأملأن جهنّم من الجنة والناس أجمعين﴾ أي قضى سبحانه في كلمته التي قالها في غير المهتدين من عالم الجن والإنس، وكلمة ﴿من﴾ تدل على التبعيض ﴿وأجمعين﴾ تدل على جمع الإنس والجن من غير المهتدين.

ثم ذكر طرفاً من فوائد القصص المذكور في السورة فقال:

١٢٠ ـ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وكلا﴾ أي وكل نوع من أنباء الرسل ﴿نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي تقوية وعبرة لك ولقومك ﴿وجاءك في هذه الحق وموعظة﴾ أي في هذه السورة ﴿وذكرى للمؤمنين﴾ يتعظون إذا سمعوا هذه السورة وما نزل بغيرهم.

ثم أمر بالتهديد لمن لم يؤثر فيهم هذه البيانات من أهل مكة وغيرهم فقال:

١٢١ ـ ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ﴾.

﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ أي فبشّر به المؤمنين الذين يتعظون ويتذكرون، وقل للكافرين: اعملوا على ما في تمكنكم واستطاعتكم، من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعي، وهذا الأمر للتهديد والوعيد، ﴿إنا عاملون﴾ على مكانتنا من الثبات وتنفيذ أمر الله وطاعته.

١٢٢ ـ ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

ما يعدكم الشيطان، إنّا منتظرون ما يعدنا الرحمٰن.

١٢٣ ـ ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده﴾ على ما غاب عن العباد فيهما والمعنى: إنّ كل الأمور ترجع إليه في المعاد ﴿وتوكّل عليه وما ربّك بغافل عما تعملون﴾.

القــــراءة



﴿وإليه يرجع الأمر﴾ ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ قرأ نافع وحفص: ﴿وإليه يرجع الأمر﴾ بضم الياء على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ الباقون: ﴿يرجع﴾ على سبيل المبني للمعلوم. قرأ نافع وابن عامر وحفص: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بالتاء على الخطاب. وقرأ الباقون: بالياء.

سورة يوسف

سورة يوسف سميت بهذا الاسم لأنّها تتحدّث عن قصة يوسف عليه السلام وإخوته: والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل عليهم السلام، ومن تلك القصص قصة يوسف عليه السلام وإخوته وإنّها من أحسن القصص فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾.

﴿آلر تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه في حقيقته وإعجازه.

٢ ـ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ أي بين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل وأقوامهم، ويعلمكم العلم والحكمة. وما دام القرآن قد نزل بلغة العرب ليعقلوه ويفهموه وجب عليهم دراسته وتعليمه للناس الآخرين الذين لا يستطيعون تفهمه أو تعقله بلغتهم.

هل في القرآن لفظ غير عربي؟

في القرآن كلمات غير عربية في الأصل مثل ﴿سجيل﴾ ﴿والمشكاة﴾ ﴿واليم﴾ ﴿والطور﴾ ﴿وأباريق﴾ ﴿واستبرق﴾ وغير ذلك ثم لفظت بها العرب بألسنتها فعربتها فصارت عربية بتعريبها إياها فهي عربية في هذه الحالة، أعجمية الأصل، ولكون البشر من أصل واحد لا تخلو لغة بعضهم من كلمات بعض.

٣ ـ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، والمعنى نحن نبين لك أحسن البيان، قال العلماء: وإنما سميت قصة يوسف أحسن القصص، لأنها جمعت ذكر الأنبياء، والصالحين، والملائكة، والشياطين، والأنعام وسير الملوك، والمماليك، والتجار، والعلماء والرجال والنساء وحيلهن، وذكر التوحيد والعِظة وتعبير الرؤيا والسياسة، والمعاشرة، وتدبير المعاش والصبر على الأذى، والحلم، والعز والحكم، إلى غير ذلك من

العجائب ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ هذا بيان من الله للناس بأن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ وأنه قبل الإيحاء إليه لم يكن ليعلم شيئاً لكونه أمياً لا علم له بمثل هذه القصص، والتعبير بالغفلة ليزيد السامع قناعة ببعد استطاعة النبي محمد ﷺ أن يخترع هذا القرآن.

ابتداء قصة يوسف

ثم ابتدأ الله سبحانه بقصة يوسف عليه السلام فقال:

٤ ـ ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾.

﴿إذ قال يوسف لأبيه﴾ يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم ﴿يا أبت﴾ أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما، وكسرت لأنها عوض عن الياء ﴿إني رأيت﴾ أي في المنام ﴿أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾ الكواكب إخوته، والقمر أبوه والشمس الأم، وكرر ﴿رأيتهم﴾ للتأكيد وفيه دلالة وإشارة إلى صدق الرؤيا، والسجود والتطامُن والانحناء، الذي سببه، الانقياد والخضوع، أو المبالغة في التعظيم، وأصله قولهم سجد البعير، إذا خفض رأسه لراكبه عند ركوبه، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما، واستعمله القرآن بمعنى الانقياد أي كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره منقادة. ولا يكون السجود عبادة إلاّ بالقصد والنية من الساجد للتقرّب، ويوسف أراد أن يخبر والده أنّه رآها ساجدة سجود اختيار صادر عن إرادة كسجود العقلاء، فأعاد فعل رأيت.

القـــراءة

﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت﴾ قرأ ابن عامر: ﴿يا أبتَ﴾ بفتح التاء في جميع القرآن، وقرأ الباقون بكسر التاء على الإضافة إلى نفسه. الأصل: ﴿يا أبي﴾ فحذفت الياء لأن ياء الإضافة تحذف في النداء كما يحذف التنوين وتبقى الكسرة تدل على الياء. وقف ابن كثير وابن عامر: ﴿يا أبَهْ﴾ على الهاء، ووقف الباقون بالتاء.

٥ ـ ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك، وإنما قال ذلك لما عرف من رؤياه أن سيبلغه الله تعالى مبلغاً جليلاً ويصطفيه للنبوة. ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾.

٦ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي يختارك ويصطفيك من بين إخوتك ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ تعبير الرؤيا ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بالعلم والحكمة والنبوة وإعلاء الكلمة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم أبوه وإخوته وذريتهم ﴿كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾ إبراهيم وإسحاق عطف بيان لأبويك ـ والتعبير

عنهما بالأب مؤكداً أنّهما أبو جده وأبو أبيه للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام ونعم الله على إبراهيم كثيرة، وعلى إسحاق بالنبوة والانتساب لإبراهيم حيث جاء على كبر، وما ذهب إليه البعض من أن إسحق هو الذبيح خطأ، والتحقيق كما تدل عليه سورة الصافات، الآية ﴿رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ إلى قوله ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾[1] ﴿إن ربك عليم حكيم﴾ فجاء ذكر بشرى إسحاق بعد ذكر قصة الذبح.

٧ ـ ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ أي في خبر قصتهم عبر لمن سأل عنهم، فكل حال من أحوالهم آية، وكلمة السائلين تدل على أن السورة نزلت جواباً لسؤال النبي عن القصة.

القــــراءة

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾. قرأ ابن كثير: ﴿آية للسائلين﴾ أي عبرة، وقرأ الباقون: ﴿آيات للسائلين﴾ على الجمع.

٨ ـ ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أي قال بعض إخوة يوسف لبعضهم ذلك، وأخوه هو بنيامين شقيقه، فيوسف أجملهم وبنيامين أصغرهم، ماتت أمه وهي في النفاس ويامين معنى الوجع ﴿ونحن عصبة﴾ وهم الجماعة الذين أمرهم واحد، وهم ما زاد على العشرة. ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ لفي خطأ من رأيه، وذهاب عن طريق التعديل اللائق من تنزيل كل منا منزلته.

القــــراءة

﴿إنّ أبانا لفي ضلال مبين﴾ قرأ ابن كثير ونافع والكسائي: ﴿مبين﴾ بضم التنوين، لأنّ تحريكه يلزم لالتقاء الساكنين، فحركّوه بالضم يتبعوا الضمة الضمة، وقرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة: بكسر التنوين.

ومن جملة أقوالهم أنهم قالوا لما تشاوروا في أمره:

٩ ـ ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ هذا قولهم بينهم، والمقصود بالأرض كما يدل عليه التنكير أرضاً بعيدة عن أبيه لتأكله السباع ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي يفرغ لكم من الشغل بيوسف ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ يصلح حالكم عند أبيكم، كما يحتمل المعنى صالحين تائبين إلى الله من هذه الجريمة، مصلحين

(١) الآيات: ١٠٠ ـ ١١٢.

لأعمالكم بما يكفر إثمها، وعدم التصدي لمثلها، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله، وفي ذلك نكتة عجيبة، وهو أنهم عزموا على التوبة قبل الذنب.

١٠ ـ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾.

﴿قال قائل منهم﴾ أبهمه القرآن، حيث لا كبير فائدة بتعينه، وإنما العبرة في وصفه بأنه منهم ليدل على أن رأيهم مختلف في كيفية التنفيذ وإبعاد يوسف ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب﴾ البئر غير المطوية، أي غير المبنية من داخلها بالحجارة ليمنع انهيار الرمل من أسفلها، والغيابة ما يغيب عن البصر ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ المسافرين الذين يسيرون في الأرض ﴿إن كنتم فاعلين﴾ المقصود من نيتكم في إبعاده، إذ أن القتل غير مقصود لذاته، فلما عزموا على الكيد بيوسف ذهبوا إلى أبيهم.

القــــراءة

﴿وألقوه في غيابة الجب﴾ قرأ نافع: ﴿في غيابات الجب﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿غيابة﴾.

ثم بيّن سبحانه أنّهم عند اتفاق آرائهم فيما تآمروا فيه من أمر يوسف كيف سألوا أباهم فقال:

١١ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾.

﴿قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف﴾ أي أيّ شيء عرض، أو ما المانع في خوفك على يوسف منا وذلك بعد أن شعروا منه ذلك بعد الرؤيا ويبدو أنهم علموا بها ﴿وإنا له لناصحون﴾ أي حريصون على المحافظة عليه.

١٢ ـ ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

﴿أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾ وفي ذلك دليل إباحة اللعب وأنواع الرياضة المباحة وخاصة إذا كانت في البرية، تنفتح النفس لشهية الأكل، وينشط الجسم للحركة، واستطرد بعض المفسرين في بحث جواز اللعب واللهو على الأنبياء، والحقيقة أن إخوة يوسف ليسوا أنبياء، وهذا التوهم جاء من ذكر بعض الآيات كلمة ﴿الأسباط﴾ وهي لا تعني أولاده من زوجاته وإنما المراد منها ذريته وفيهم أنبياء. كما يقول الله: ﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾[1].

القــــراءة

﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿نرتع ونلعب﴾ بالنون، قرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿يرتع ويلعب﴾ بالياء، قرأ نافع وابن كثير: ﴿يرتعِ﴾ بكسر العين. وقرأ الباقون: «يرتعْ» بجزم العين أي يأكل.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

ثم أخبر سبحانه أنهم لما أظهروا النصح والشفقة على يوسف همّ يعقوب عليه السلام أن يبعثه معهم وحثّهم على حفظه فقال:

١٣ ـ ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾.

﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ أي يحزنني ذهابكم به لأنه كان يخشى عليه منهم ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ عنه بلعبكم، وذكر الذئب يدل على أن اللعب كان بالصحراء.

القــراءة

قرأ أبو عمرو والكسائي وورش عن نافع: ﴿الذيب﴾ بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز وهو الأصل.

١٤ ـ ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾.

﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾ لام قسم والعصبة الجماعة القوية والحال إنا جماعة متعاونون لا يمكن للذئب أن يختطف واحداً منا، فإن فعل ذلك فهذا معناه هلاكنا وخسران لنا ودليل عجزنا وضعفنا، وهم بهذا التعبير ﴿لخاسرون﴾ يؤثرون على أبيهم غاية التأثير في الإقناع بأن يوسف عزيز عليهم، وإنّ في فقده خسارة لهم ودليل هلاكهم وضعفهم وربما تناولهم الذئب بعده الواحد تلو الآخر فهم لا يفرطون.

١٥ ـ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿فلما ذهبوا به﴾ في الكلام اختصار واضح تقديره: فأرسله معهم فلما ذهبوا به ﴿وأجمعوا أمرهم أن يجعلوه في غيابة الجب﴾ أي عزموا بدون تردد ﴿وأوحينا إليه﴾ بالإلهام ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ أنك يوسف الذي ألقوه في البئر.

يوسف في البئر

١٦ ـ ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾.

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾ وقت العتمة ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار بالكذب.

١٧ ـ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾ والمعنى يسابق بعضنا بعضا في الجري والرمي والصيد، وهو تفسير معنى

نلعب، وأما نرتع فبالأكل. ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ كما توقعت من قبل ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدّق قولنا، لأنك قد حذرتنا من قبل ﴿ولو كنا صادقين﴾ أي إنك سوف تتهمنا على أي حال لمحبتك الزائدة ليوسف، ولو كنا عندك من أهل الصدق.

١٨ ـ ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ أي أنهم وضعوا على قميصه دماً مكذوباً هو دم حيوان وقدموه لأبيهم، دليلاً على صدقهم ليشهد لهم، وكلمة ﴿على قميصه﴾ تصور كيف أنه مكذوب ووضع متكلفاً لا يتفق مع افتراس الذئب لمن يلبس قميصاً، إذ لا بد أن يتمزق ويتلطخ القميص بطريقة خاصة لا يمكن أن تصطنع، مما جعل يعقوب ينكر قولهم ﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمراً غير الذي تقولون، وإن الذئب لم يأكله ﴿فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾ على احتمال ما تصفون من الكذب وما ارتكبتم من جرم في حق أبيكم وأخيكم.

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد إلقائه في الجبّ فقال:

١٩ ـ ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وجاءت سيارة﴾ قوم يسيرون وهي صيغة مبالغة مثل كشافة وجوالة ﴿فأرسلوا واردهم﴾ الذي يرد الماء ليستقي للقوم ﴿فأدلى دلوه﴾ أي أنزلها في البئر لتمتلىء ماء ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ أي أبشروا أو هذه بشرى، ولما أدلى الساقي دلوه في البئر تعلق بها يوسف، فنظر إليه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان، فقال لأصحابه: البشرى واستخرجوه من الجب، فقالوا اكتموه عن الآخرين لئلا يسألوكم ﴿وأسروه بضاعة﴾ أي أخفوه عن الناس لئلا يدعيه أحد من أهل الماء، لكي يكون بضاعة يبيعونه من جملة بضاعتهم ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي بما يعمله هؤلاء السيارة، من ادعائه بضاعة وكتمه عن أهل البلد الذي وجد فيه لكي لا يعرفه أحد فيأخذه منهم.

القـــــراءة

﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يا بشرى﴾ بترك الإضافة، وقرأ الباقون: ﴿يا بشراي﴾ بإثبات ياء الإضافة.

٢٠ ـ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ شرى من الأضداد، تقول شريت الشيء بمعنى بعته، وشريته

بمعنى اشتريته، والمعنى هنا أنهم باعوه بثمن قليل، والتعبير بالبخس والدراهم المعدودة، لاستنكار فعلهم بارتكاب الحرام ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي وكان هؤلاء الذين باعوه بالدراهم المعدودة القليلة يبغون الخلاص منه، لئلا يظهر من يطالبهم به لأنه رجل حر، وليس بعبد يباع.

يوسف وامرأة العزيز

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف بعد أن بيع فقال:

٢١ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وقال الذي اشتراه من مصر﴾ مصر أيام يوسف هي مدينة (صوعن) عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلائل الهكسوس الثلاث، وهي بحرية مصر الحالية، وملك مصر هو الوليد بن الريان العماليقي الهكسوسي والذي اشتراه هو فوطيفار وكان رئيس الشرطة أمين فرعون وخازنه ولم يبين القرآن اسم الذي اشتراه في مصر من السيارة ولا منصبه ولا اسم امرأته؛ لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ، وعبر وتهذيب، وكل ما هنالك أن القرآن ذكر ما وصفته به النسوة بالعزيز، وهو اللقب الذي لقب به يوسف فيما بعد وهو أكبر وزراء الملك ﴿لامرأته أكرمي مثواه﴾ واسمها زليخا ومثواه مقامه عندنا ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ ولم يكن للعزيز أولاد ﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً يستقر فيه، والمراد المكانة والمنزلة في النفوس مما جعل العزيز يوصي امرأته خاصة من بين سائر الخدم بإكرام إقامته، مما يخرجه عن كونه مشترى بثمن بخس حيث دام عشر سنين وكيلا للعزيز يدبر أموره في بيته ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ تعبير الرؤيا أي تفسير الأحلام، ولايمنع أن يدخل فيها تعلمه، كذلك كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الأنبياء، مما يقتضيه التمكين في الأرض للحكم بين الناس، لأن التعلم والعلم يحتاج إلى استقرار وراحة بال، وهذا ما يشير إليه العطف بالواو، أي والمعنى: مكنا ليوسف في الأرض واختصصناه بذلك لكي نعلمه من تأويل الأحاديث ﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي أن الأمر بيد الله يدبره كيف يشاء لا كما يتراءى لأكثر الناس ممن يجهلون إحاطة الله وقدرته وتسييره لخلقه، وهذه قصة يوسف مع إخوته فيما مر، ظاهر بدايتها إبعاد يوسف عن حب أبيه، فأحبه الناس في مصر، ووضعوه في البئر ليباع عبداً بدراهم معدودة فمكن الله له في الأرض يكرم مثواه، وما يلقي من آيات ودلائل في باقي القصة يفسر هذه الآية. ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وأما جعل تعلق الضمير في قوله ﴿أمره﴾ بيوسف فبعيد بقوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لأن أمر الله عام في هذا الموضوع.

ثم إنّه سبحانه بيّن وقت استكمال أمره فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ولما بلغ أشدّه﴾ أي انتهاء قوته وشبابه باستكمال نموه البدني والعقلي ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ لا نريد أن نحدد سناً معينة لهذه المرحلة إذ لا دليل صحيح عليها، ولكن يمكننا الجمع بين ما ها هنا وقوله سبحانه ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ بأن الله سبحانه وتعالى أبان مرحلة التمكين وهي الاستعداد لكي يعلمه تأويل الأحاديث بأنها في حدود الثمانية عشرة سنة، وهذا يوافق بعض الروايات التي ذهبت إلى أن سنه يوم ألقي في الجب سبع عشرة سنة، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة أخرى من العمر وهي مرحلة الوحي بالعلم والحكمة، وهي مرحلة النبوة والرسالة والدعوة، وهي وقت بلوغ الإنسان أشدّه الجسمي والعقلي، ولا تكون إلا في سن بين الثلاثين والأربعين، كما قال الله سبحانه ﴿حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة﴾[1] وعلى ذلك يكون ظهور فقه يوسف ورسالته ودعوته وتعبير الرؤيا للناس في هذه المرحلة وهو تفسير قوله تعالى: ﴿آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ المحسنون هنا معناها المتيقنون لما كلفوا به من خير وعبادة وعمل ونية، ومثل هذا التعبير كثيراً ما يطلق على الأنبياء.

مراودة زليخا ليوسف

ثم أخبر سبحانه عن امرأة العزيز وما همّت به فقال:

٢٣ ـ ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ أي إن زوجة العزيز التي أوصاها زوجها بإكرام مثواه أي طلبت منه المواقعة ﴿وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك﴾ أي هلم أقبل ﴿قال معاذ الله﴾ أي أعوذ بالله أن أفعل هذا ﴿إنه ربي﴾ أي العزيز، أي المتولي العناية بي في بيته ويؤكده قوله: ﴿أحسن مثواي﴾ أي أحسن طول مقامي فكيف أخونه ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ كلام مستأنف لتقرير حقيقة ما علمه ربه وذلك أن الزنى من أنواع الظلم الذي لا يفوز صاحبه في الدنيا والآخرة مهما حصل له ما حصل.

القـــراءة

﴿وقالت هيت لك﴾ قرأ أهل العراق[2]: بفتح الهاء والتاء، وقرأ أهل المدينة والشام: ﴿هِيْتَ﴾ بكسر الهاء وبفتح التاء وهي لغة، وقرأ ابن كثير: ﴿هيتُ﴾ بفتح الهاء وضم التاء، وقرأ هشام ﴿هئت﴾ بالهمز من الهيئة.

٢٤ ـ ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾.

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) كلمة أهل العراق تعني عاصم والكسائي وحمزة وأبا عمرو وخلف بن هشام.

﴿ولقد همت به﴾ الهم بالشيء في كلام العرب حديث المرء بمواقعته ما لم يواقع، وهذا الهمّ من زليخا يعتبر قصداً جازما، إذ تأكد بقد التي هي هنا للتحقيق، ولام القسم، وهذا سابق على فعلها تغليق الأبواب ودعوتها الصريحة ليوسف ﴿وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾. والمعنى: لولا أن يوسف كان قد رأى برهان ربه وهو النبوة والرسالة بقول الله من قبل ﴿وآتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين﴾ لحصل منه الهمّ أي لهمّ بها ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي ولما كان الحال أن يوسف لديه البرهان من قبل قد رآه بما علمناه من الحكم والعلم، فلم يحصل منه الهمّ بفعل شيء من السوء والفحشاء، لأن الله سبحانه قد تولاه فأبعد عنه ذلك لأنه من عباده المخلصين، وهو تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق، والمخلصون هم أخلصهم لله تعالى، ومن اختارهم لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها، وربما يكون لفظ المخلصين مراد به الأنبياء من ذرية إبراهيم حيث قال الله فيهم ﴿إنّا أخلصناهم بخالصة﴾[1] قال الآلوسي في روح المعاني[2]:

«وفي البحر[3] إنه لم يقع منه عليه السلام هم بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول قارفت الذنب لولا أن عصمك الله تعالى، ولا تقول إن جواب ﴿لولا﴾ متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريح أدوات الشرط العاملة، مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى الجواز الكوفيون، ومن أعلام البصرين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد بل تقول إن جواب ﴿لولا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت كذا فيقدرونه، إن فعلت فأنت ظالم ولا يدل قولهم: أنت ظالم على ثبوت الظلم بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك ههنا التقدير ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ لهمّ بها فكان يوجد الهمّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهمّ».

أقول: وأما ما نقل عن السلف من حصول الهمّ منه، فإنه لم يصح منها شيء، فكلها أقوال يكذب بعضها بعضاً دست على الصحابة من الإسرائيليات التي تحط من كرامة الأنبياء وتدني قدرهم.

القــــراءة

﴿إنّه من عبادنا المخلصين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام في جميع القرآن، وقرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿المخلَصين﴾ بفتح اللام.

٢٥ ـ ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿واستبقا الباب﴾ تبادرا إلى الباب المغلق يريد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه، فيوسف يريد أن يفتح

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٤٦.
(٢) ج ١٢ ص ٢١٣.
(٣) أي البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي.

الباب ليخرج، وهي تريد إمساك الباب لئلا يخرج، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه فجذبته ﴿وقدت قميصه من دبر﴾ القدّ خاص بقطع الشيء أو شقه طولا ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ أي وجدا زوجها عند الباب وكان النساء في مصر يلقبن الزوج السيد واستمر هذا إلى الآن، ولم يقل الله سيدهما لنفي الرق عنه ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم﴾ أي موجع وكان هذا منها مكراً وخداعاً لزوجها، لإيهام زوجها أن يوسف هو المعتدي، ولكنّها لم تصرح بما هو السوء، وفيه تهديد وإنذار ليوسف ليخضع لها ويفعل ما تطلب منه.

٢٦ ـ ﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ فيه رد على اتهامها وتطمين للعزيز أنه لم يفعل معها شيئاً ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ وأنه عند تعارض الاتهام مع الدفاع لا بد من دليل يرجح أحد القولين ويظهر القول الصادق ولم يصف القرآن هذا الشاهد إلا أنه من أهلها، وهل كان صغيراً في المهد أو كبيراً أو حكيماً ولم يصح شيء عن النبي ﷺ في تعيين ذلك وكلها تخمينات، وحديث الصحيحين حصر ذلك في ثلاثة ليس منهم شاهد يوسف(١) ﴿إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ إن كان القميص قد انشق من الأمام.

٢٧ ـ ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

٢٨ ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾.

﴿فلما رأى قميصه قدّ من دبر﴾ أي شق من الخلف ﴿قال إنه من كيدكن إنَّ كيدكن عظيم﴾ أي إنَّ هذا العمل والتنصل منه بالاتهام، ناشىء من احتيالكن أيتها النسوة ومكركن وهذا تكذيب لها وتصديق ليوسف على ألطف وجه، وهو في ذلك لا يريد أن يجرحها بل إنه استدل عليها بالسنة العامة للنساء من أمثالها، وكونه عظيماً لا قبل للرجال به.

٢٩ ـ ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

أي يا يوسف أعرض عن هذا الأمر فلا تذكره لأحد، واكتمه، ثم قال لزوجته توبي من ذنبك فإنك أثمت، وكنت بذلك من جنس المجرمين المرتكبي الخطايا.

٣٠ ـ ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

---

(١) راجع اللؤلؤ والمرجان ص ٦٩٤ وهم ابن ماشطة بنت فرعون، وصاحب جريج الراعي وعيسى بن مريم.

قال المفسرون ثم شاع ذلك الحديث في مصر حتى تحدث بذلك النساء، وكان ذلك منهن طعنا فيها وتحقيقا لبراءة يوسف.

٣١ ـ ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ قولهن، وإنّما سمي هذا القول مكرا، لأنها كانت أطلعتهن على أمرها واستكتمتهن، فمكرن وأفشين سرها ﴿أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ أي دعتهن إلى الطعام في دارها، ومكرت بهن كما مكرن بها، بأن أعدت وهيأت لهن ما يتكئن عليه إذا جلسن من الكراسي والآرائك، وهو المعتاد في مثل هذه المنازل، وأعطت كل واحدة منهن سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم أو فاكهة ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ أي أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة داخل حجرة الطعام التي كن فيها محجوباً عنهن، ولو كان في مكان خارج عنهن لقالت ادخل عليهن ﴿فلما رأينه أكبرنه﴾ أي أعظمنه ودهشن لذلك الحسن الرائع والجمال البارع ﴿وقطعن أيديهن﴾ بدلا من تقطيع الطعام ذهولا عما لديهن، ولم يشعرن بالألم لشغل قلبهن بيوسف ﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا ملك كريم﴾ والقطع للأيدي قد يكون جرحَها.

القــــراءة

﴿وقلن حاش لله﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿وقلن حاشا لله﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿حاشى لله﴾.

ولما أظهرت عذرها عند النسوة صرّحت بحقيقة الحال فقالت:

٣٢ ـ ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّٰغِرِينَ ﴾.

﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ حينئذ قالت لهن فذلك يوسف الذي قلتن فيَّ ما قلتن، ثم إنها عاودت إصرارها على المراودة بالجهر أمامهن مجتمعات فقالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي امتنع واستمسك بعصمته ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ تقسم بآكد الأيمان ﴿ ليسجننَّ﴾ بالنون الثقيلة ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾ من الأذلاء المهانين، وفي هذا التهديد، والإصرار على مراودة يوسف ما يدل على ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير، على علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، مما يجعل يوسف أن يتحقق من تنفيذ إرادتها، وعدم غيرة زوجها عليها، كما هو شأن المترفين.

٣٣ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ ﴾.

﴿قال رب السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه﴾ أي قال مناجيا الله سبحانه إن الحبس في السجن أحب إلى نفسي، وآثر عندي على ما يدعونني إليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، قال ذلك عندما علم أنهم لا يميلون إلى سجنه بما في اللفظ من زيادة مبنى تدل على زيادة المعنى حيث التوكيد والقسم والنون الثقيلة ﴿وإلاّ تصرف عني كيدهن﴾ فتعصمني وتبعدهن عني ﴿أصب إليهن﴾ أميل إلى موافقتهن على أهوائهن ومنه: ريح الصبا ﴿وأكن من الجاهلين﴾ من صنف السفهاء.

٣٤ ـ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

﴿فاستجاب له ربه، فصرف عنه كيدهن﴾ أي أبعدهن وأبعده عنهن فلم يصب إليهن؛ لأنه من عباد الله المخلصين ﴿إنه هو السميع العليم﴾ المجيب لمن أخلص له الدعاء.

يوسف في السجن

٣٥ ـ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾.

﴿ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات﴾ ثم ظهر لهم من الأمر ما لم يكن ظاهراً من قبل، ﴿وثم﴾ تفيد التراخي بالزمن والانتقال مما كانوا فيه من طور إلى طور جديد بعد التشاور في الأمر ﴿لهم﴾ الضمير فيه يرجع إلى العزيز وأهل امرأته، والمراد بالآيات الدلائل كما يقول المفسرون على ما في الآلوسي وابن جرير وابن كثير وغيرهم، إن المراد بالآيات الصارفة لهم عن ذلك البداء، وهي الشواهد الدالة على براءته وطهارته من قد القميص، وقطع النساء أيديهن، ويروى عن ابن عباس عما أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة: أن الآيات قدّ القميص وأثرها في جسده، وأثر السكين قال الآلوسي ومن هنا قيل يجوز أن يكون هناك آيات غير ما ذكر، ترك ذكرها، كما ترك ذكر كثير من معجزات الأنبياء عليهم السلام.

أقول: قد تكون الآيات في يوسف نفسه، مما بدا لهم من علمه وفقهه وتصرفاته وكلامه ودعوته لهم إلى توحيد الله وعبادته، وقد أشار الله سبحانه في أول السورة بقوله ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ ﴿ليسجننه حتى حين﴾ لمدة معينة أي سجن مؤقت.

ثم أخبر سبحانه عن حال يوسف عليه السلام في الحبس فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ أي مملوكان من فتيان ملك مصر، أحدهما خازن الطعام، والآخر ساقيه ﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾ أي قال الساقي إني أرى في المنام أعصر خمراً من العنب ﴿وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين﴾ كلمة عامة.

أراد أن يبيّن علو مرتبته في العلم وأنه ليس من المعبّرين الذين يعبّرون من ظن وتخمين، فقال:

٣٧ ـ ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ أي في المنام وهو ما يتفق مع التأويل ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾ في اليقظة ﴿ذلكما مما علّمني ربي، إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

٣٨ ـ ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ أي إننا معصومون عن الشرك ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ أي المؤمنين بأن جعلنا أنبياء وعلى الناس أن بعثنا إليهم رسلاً ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ نعم الله عليهم فيوحّدونه.

٣٩ ـ ﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾.

على الداعية أن يبدأ أولاً بالعقيدة لأنها هي العقدة الكبرى إذا انحلت، انحلت باقي العقد.

٤٠ ـ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ من حجة أو دليل أو برهان بعبادتها ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ المستقيم يشير إلى التوحيد ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

تفسير الأحلام

ثم شرع في إجابة مقترحهما وهو تأويل رؤياهما فقال:

٤١ ـ ﴿ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه﴾ سيده وهو الملك ﴿خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ هذا تأويل رؤياكما، فقالا ما رأينا شيئاً فقال: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي فرغ منه وسيقع لكما صدقتما أو كذبتما.

٤٢ ـ ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

﴿وقال للذي ظنّ أنّه ناج منهما﴾ يعني الساقي ﴿اذكرني عند ربك﴾ أي عند صاحبك، وهو الملك وقل له إنّ في السجن غلاماً حبس ظلما، واسم الملك الوليد بن الريان ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف لربه، ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ والبضع بما بين السبع والتسع.

ثم أخبر سبحانه عن سبب نجاة يوسف من السجن وهو أنه لما قرب الفرج رأى الملك رؤيا هالته وأشكل تعبيرها على قومه حتى عبرها يوسف فقال سبحانه:

٤٣ - ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

﴿وقال الملك إنّي أرى﴾ في المنام ﴿سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾فدعا أشراف قومه فقصها عليهم فقال ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إنْ كنتم للرؤيا تعبرون﴾ تفسرون.

٤٤ - ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾.

﴿قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ واحدها ضغث وهي ما لا تأويل له في الرؤيا المختلطة، وقال ابن قتيبة ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخلاط مثل أضغاث النبات والضغث في اللغة الحزمة والباقة من الشيء ومعنى قولهم، إننا لسنا بتأويل الأحلام التي هذا وصفها بعالمين.

٤٥ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾.

﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة﴾ أي قال الذي تخلص من السجينين وهو ساقي الملك وربما تبين لهم براءته فأخرجوه، وتأكد لهم تهمة الثاني صاحب مخزن الطعام أو الخباز فأعدموه ﴿وادُّكر﴾ أي تذكر شأن يوسف وما وصاه به وأصل ادُّكر: ادتكـر، ولكن التاء أبدلت منها الدال، وأدغمت الدال في الدال وبعد أمة أي بعد حين وهي المدة التي لبثها يوسف في السجن بعد ذلك ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾ أي أنا أدلكم على من يفسر هذه الرؤيا فاسمحوا لي أن أقابل يوسف وأقص عليه الرؤيا في السجن.

فأرسلوه إلى يوسف، فأتاه فقال:

٤٦ - ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿يوسف﴾ أي يا يوسف ﴿أيها الصديق﴾ أي الكثير الصدق وخاطبه بذلك بما ثبت لديه من صدقه وما سمع عنه ﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلّي أرجع إلى الناس﴾ يعني الملك وأصحابه والعلماء الذين جمعهم الملك لتعبير رؤياه ﴿لعلّهم يعلمون﴾ الحق فيتبعونه سواء من تعبير الرؤيا بما يعود على الناس أو من خلاص يوسف من هذا السجن الذي وضع فيه ظلماً وبهتاناً،

فهي كلمة واحدة جامعة لمعان عديدة، وذكر ابن الأنباري في تكرير لعلّ فالأولى: بمعنى ﴿عسى﴾ أن أرجع إلى الناس بشيء أخبرهم به، والثانية، بمعنى كي أي كي يعلموا فأعيدت لاختلاف المعنيين.

٤٧ ـ ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾.

أي زراعة متوالية على عادتكم. والمعنى: تزرعون دائبين فناب ﴿دأب﴾ عن ﴿دائبين﴾ والدأب الملازمة للشيء والعادة.

القـــراءة

﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا...﴾.

قرأ حفص: ﴿سبع سنين دأبا﴾ بفتح الهمزة وقرأ الباقون: ساكنة الهمزة وهما لغتان.

٤٨ ـ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾.

وتحصنون أى تحرزون[1] وتدخرون.

٤٩ ـ ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس﴾ وأشار إلى السنين، وهي مؤنثة بذلك لأن السبع مؤنثة، ولا علامة للتأنيث في لفظها فأشبهت المذكر كقوله ﴿السماء منفطر به﴾ ويغاث الناس يصيبهم الغيث والخصب، ويعصرون العنب والزيوت والثمرات من سعة الرزق، ويعصرون يحتلبون الألبان كذلك لكثرة الخير.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿وفيه تعصرون﴾ بالتاء، وقرأ الباقون: ﴿يعصرون﴾ بالياء.

إعادة التحقيق في إظهار براءة يوسف

ثم أخبر سبحانه عن إخراج يوسف من السجن فقال:

٥٠ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وقال الملك ائتوني به﴾ أي لما رجع الساقي إلى الملك وأخبره بتأويل رؤياه، وقع في نفسه صحة ما قال، فقال ائتوني به فجاءه الرسول ﴿فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك﴾ يعني الملك وأبى أن يخرج حتى تبين براءته مما قرف به ﴿فسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي فسأل الملك أن يتعرف ما شأن تلك

---

(١) من الحرز والصون.

النسوة وحالهن ليعلم صحة براءتي، وإنما أشفق أن يراه الملك في عين مشكوك في أمره أو متهم بفاحشة وأحب أن يراه بعد استقرار أمره وظهور براءته عنده ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ حكى ابن جرير الطبري أنه أراد به سيده العزيز، والمعنى أنه يعلم براءتي. وفي عدم ذكر امرأة العزيز بالتخصيص مع أنها التي تولت كبر الإثم وخلطها مع باقي النسوة فيه أدب وترفع من يوسف عليه السلام.

٥١ ـ ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

﴿قال ما خطبكن﴾ أي أن الرسول رجع إلى الملك برسالة يوسف فدعا الملك النسوة وفيهن امرأة العزيز وفتح ملف التحقيق ثانية ووجّه إليهن السؤال قال ما خطبكن أي: ما شأنكن وقصتكن ﴿إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾.

السؤال: موجه للجميع والمراودة حصلت من واحدة، ولكن الباقيات حاولن إعانتها بالإقناع والكلام وربما حصلت منهن مراودة له، واللفظ صريح بذلك رغم أن الظاهرة في ذلك هي امرأة العزيز.

الجواب: ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ يبدو أن هؤلاء من النسوة من القريبات من قصر العزيز بدليل مراقبتهن لسلوك يوسف، وما حصل مع امرأة العزيز، وكانت شهادتهن بحضور امرأة العزيز فيها مواجهة وحصاراً لعدم الإنكار، عند ذلك تكلّمت امرأة العزيز ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي برز وتبين، أو بمعنى وضح وانكشف ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ اعتراف منها بالجناية وإن المراودة حصلت من طرف واحد هو جانبها ﴿وإنّه لمن الصادقين﴾.

٥٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾.

﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ أي ليعلم العزيز أنّي لم أخنه في غيبته وأهتك حرمته ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ أى لا ينفذه بل يبطله ويفضحه ويزهقه وهذه الآية من كلام يوسف عليه السلام.

ولما كان قول يوسف عليه السلام: ﴿ذلك ليعلم﴾ جارياً مجرى تزكية النفس على الإطلاق، أو في هذه الواقعة وقد قال تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾. أتبع ذلك كالشهادة له بقوله:

٥٣ ـ ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ هذا كلام العزيز تكلمت النسوة أولاً فشهدن ببراءة يوسف فاضطرت امرأة العزيز أن تعترف فاعترفت بعدهن مباشرة، ثم جاء دور يوسف في الكلام، ووجّه كلامه إلى العزيز بأنه لم يخنه حيث أمر بإكرام مثواه، والآن جاء دور العزيز في الكلام، ويبدو أنه يرد على كلام يوسف له ويبدي أسفه يلوم نفسه على ما فعل بيوسف حيث سجنه وهو بريء ﴿إلاّ ما رحم ربي إنّ ربي غفور رحيم﴾ وفي ذلك إظهار للتوبة وطلب المغفرة من الذنب الذي اقترفه بسجن يوسف، ولا يمكن أن يكون ذلك من كلام امرأة العزيز.

والذين ذهبوا من المفسرين إلى القول بأن يوسف لما قال ﴿ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ غمزه جبريل فقال ولا حين هممت؟ فقال ﴿وما أبرّىء نفسي﴾ ونسبوا بقية الكلام إليه، قد أخطأوا في حق نبي من أنبياء الله ومن عباده المخلصين وتجنوا على كلام الله بمثل ما رووا من الروايات المدسوسة للنيل من كرامة الأنبياء والصالحين، نسأل الله لهم المغفرة، فهذه الآية ليست من كلام يوسف بل هي من كلام العزيز.

الفصل الثالث من قصة يوسف في حكم مصر

٥٤ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾ قال الملك بعد أن استمع إلى الشهود النساء والعزيز والمتهمة والمجني عليه، وبعد انتهاء التحقيق، والحكم ببراءة يوسف قال أحضروه من السجن وقد وفينا له ما اشترطه لمجيئه، أجعله خالصاً لنفسي لا يشاركني أحد في الترؤس عليه ﴿فلما كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أي قد مكنتك في ملكي وائتمنتك فيه، والأمين الحافظ.

قال الشيخ رشيد رضا: والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان بينهما، وكذلك كان يوسف يكلم العزيز وامرأته. وذلك أن لغة يوسف كانت فيما يظهر لغة جده إبراهيم وأولاده وأحفاده، وهي لغة حكام وطنه الكلدانين، وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمضرية والعبرانية والسريانية والفينيقية وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب أيضاً وهم الذين يسمونهم الرعاة (الهكسوس) وملك مصر هذا يسمى الوليد بن الريان إلى آخر ما ذكر في تفسير سورة يوسف الآية: (٤٢).

٥٥ ـ ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

أي ولني على خزائن الطعام والغلات لتنفيذ ما أوّلته من رؤياك بنفسي لننقذ البلاد من المجاعة فإني شديد الحفظ راسخ العلم والحساب.

٥٦ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء﴾ حراً طليقاً وحاكماً عزيزاً بعد أن كان في البئر ثم في السجن ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أي نختص بنعمتنا من النبوة والنجاة من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين يعني المؤمنين.

القـــراءة

﴿يتبوّأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ قرأ ابن كثير: ﴿حيث نشاء﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿حيث يشاء﴾ أي يوسف.

٥٧ ـ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾.

﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي ما نعطي يوسف في الاخرة، خير مما أعطيناه في الدنيا، وكذلك غيره من المؤمنين، ممن سلك طريقه في الصبر.

لقاء يوسف وإخوته في مصر

ثم أخبر سبحانه أنه لما تمكّن يوسف بمصر وأصاب الناس ما أصابهم من القحط وقصدوا مصر نزل بآل يعقوب ما نزل بالناس، فجمع يعقوب بنيه وقال لهم بلغني أنه يباع الطعام بمصر وأن صاحبه رجل صالح فاذهبوا إليه فإنّه سيحسن إليكم إن شاء الله، فتجهزوا وساروا حتى وردوا مصر فدخلوا على يوسف فقال:

٥٨ ـ ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

﴿وجاء إخوة يوسف﴾ لما فوّض الملك إلى يوسف أمر مصر تلطّف بالناس، ولم يزل يدعوهم للإيمان بالله، فآمنوا به وأحبوه، فلما أصاب الناس القحط، نزل بأرض كنعان فأرسل يعقوب أبناءه للتزود وذاع أمر يوسف في الآفاق وانتشر عدله ورحمته ورأفته ﴿فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾ يجهلون أنه أخوهم يوسف.

ولما طلب منهم إحضار أخيهم جمع لهم بين الترغيب والترهيب، فقال:

٥٩ ـ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

﴿ولما جهّزهم بجهازهم﴾ جعل لكل رجل منهم بعيرا ﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ أى أتمه ولا أبخسه ﴿وأنا خير المنزلين﴾ يعني المضيفين وذلك أنه أحسن ضيافتهم ثم توعّدهم فقال:

٦٠ ـ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾.

في المرة القادمة.

٦١ ـ ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴾.

﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي نطلبه منه والمراودة الاجتهاد في الطلب ﴿وإنا لفاعلون﴾ ذلك.

٦٢ ـ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ وهي الأموال أو الدراهم التي اشتروا بها الطعام والرحل: كل شيء يعد للرحيل، ويسمى البعير راحلة بما عليه من شيء ﴿لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ والمعنى: إن يوسف وضع بضاعة إخوته أو دراهمهم التي جلبوها معهم لشراء الطعام دون علمهم في الأماكن الخفية التي يحملها الجمال مع البضاعة الجديدة وهي الزاد من مصر وذلك لكي يعرفوها عند رجوعهم إلى

أبيهم وتكون شاهداً لهم عنده، أو ليظنوا أن العمال نسوا تلك البضاعة فيضطروا للرجوع لردها ولذلك قال ﴿لعلّهم يرجعون﴾.

القـــراءة

﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿وقال لفتيانه﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿لفتيته﴾ جمع فتى في العدد القليل.

٦٣ ـ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ أي حكم علينا بمنع الكيل وهو التزود للمرة المقبلة إن لم نأته بأخينا ﴿فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون﴾.

القـــراءة

﴿منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿أخانا يكتل﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿نكتل﴾ بالنون.

٦٤ ـ ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿قال هل آمنكم عليه إلاّ كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي لا آمنكم إلا كأمني على يوسف، يريد أنه لم ينفعه ذلك الأمن إذ خانوه ﴿فالله﴾ وحده ﴿خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾.

القـــراءة

﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿فالله خير حافظ﴾ بالألف، وقرأ الباقون: ﴿فالله خير حفظاً﴾.

٦٥ ـ ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾.

﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾ أي فتحوا أوعية الطعام، وجدوا التي حملوها ثمناً للطعام ﴿ردت﴾ ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ أي لا نجور ولا نزيد في الكلام الذي حدثناك به عن ذلك الملك ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ بعينها شاهد لما نقول عنه ﴿ونمير أهلنا﴾ أي نجلب لهم الطعام يقال مار أهله

بميرهم ميراً، وهو مائر أهله إذا حمل إليهم أقواتهم من غير بلده، ﴿ونحفظ أخانا﴾ أخانا بنيامين الذي ترسله معنا ﴿ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾ يعنون بذلك نصيب أخيهم لأن يوسف لا يعطي الواحد أكثر من حمل بعير، ويسير، يسهل سرعة أمرنا ويعجّل الملك لنا الكيل.

٦٦ ـ ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

﴿قال لن أرسله معكم حتى تُؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم﴾ أي حتى تعطوني عهداً موثقاً بالقسم بالله، ولتأتنني به جواب القسم، أي لترجعن به إليّ إلاّ في حال واحدة وهي أن تغلبوا على أمركم بما يحيط بكم فتهلكوا دونه ﴿فلماءاتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾.

٦٧ ـ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

﴿وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد﴾ في مصر وكان لها عدة أبواب ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء﴾ أي لن أدفع عنكم شيئاً قضاه الله فإنه إنْ شاء أهلككم متفرقين، أو مجتمعين ﴿إنْ الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾.

٦٨ ـ ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ من الأبواب المتفرقة سواء في دخولهم مصر أو القصر ﴿ما كان يغني عنهم من الله من شيء﴾ ولا أن يحول دون رجوعهم (بنيامين) وقد أخذ عليهم المواثيق بأن يأتوه إلاّ إذا أحيط بهم فلم يبقَ منهم أحد ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ وهذا استثناء منقطع. المعنى: أن يعقوب كان يعلم أن الحذر لا يدفع القدر ولكن كان هناك حاجة تعتلج في نفسه، قضت الحكمة ألا يكشف بها لأحد منهم، وهي وراء ما يخطر بالبال من أسباب الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة به وتلك الحاجة التي قضاها قد نفذت من حيث لا يفطنون لها بدليل قوله تعالى: ﴿وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ حيث فضله الله بما آتاه على كثير ممن خلق بالنبوة والحكمة واتصاله بالوحي.

وصية يعقوب في قول الله تعالى ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾

ذهب المفسرون فيها مذاهب عدة منها خوفه إصابتهم بالعين وكانوا أولي جمال وقوة، ورأي آخر أنه خاف أن يغتالوا لِمَا ظهر في أرض مصر من التهمة، ورأي ثالث ينسب إلى إبراهيم النخعي أنه أحب أن يلقوا يوسف

في خلوة. وذلك لكيلا يشعر الناس بدخولهم جملة فينكشف أمرهم بأنّهم إخوة يوسف وهذا هو أقوى الآراء الذي يتوافق مع ما يمكن أن يكون حاجة في نفس يعقوب.

ثم أخبر سبحانه عن دخولهم عليه فقال:

٦٩ ـ ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه﴾ بنيامين وكان شقيقه، يقال آويت فلانا إليّ إذا ضممته إليك وأويت إلى بني فلان، إذا لجأت إليهم، وكان ذلك بعد أن خلا به عنهم ﴿قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أي لا تيأس ولا تحزن.

٧٠ ـ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾.

﴿فلما جهّزهم بجهازهم﴾ أوفى لهم الكيل وحمّل لـ (بنيامين) بعيراً باسمه كما حمّل لهم ﴿جعل السّقاية في رحل أخيه﴾ وهي الصواع والسّقاية وصف كما يقال كوز وإناء، جعل يوسف ذلك الصاع مكيالاً لئلا يكال بغيره ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾، ولما ارتحل إخوة يوسف وأمعنوا، أرسل الطلب في إثرهم فأدركوا وحبسوا، وأذّن مؤذن أعلم معلم يقال آذنته بالشيء فهو مؤذن به أي أعلمته يعني: أنه إعلام بعد إعلام ولا يقال عير إلّا لأصحاب الإبل، قال ابن قتيبة العير: القوم على الإبل.

٧١ ـ ﴿ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾.

أي قال إخوة يوسف للمنادين لما أقبلوا عليهم.

٧٢ ـ ﴿ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾.

﴿قالوا نفقد صواع الملك﴾ الصواع هو الصاع الرسمي للملك الذي عليه شارته وربما كان كأساً من معدن ثمين بدليل وصفه بالسقاية ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي وقد كلفنا لمن يجده أن نعطيه حمل بعير ﴿وأنا به زعيم﴾ أي كفيل لمن ردّه بالحمل، يقوله المنادي (المؤذن).

٧٣ ـ ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴾.

﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض﴾ تالله بمعنى والله إلّا إنّ التاء لا يقسم فيها إلّا بالله عز وجل. ولا يجوز: تالرحمن ولا تربي. ولم تقل العرب تالرحمن، كما قالوا تالله، لأن الأقسام كثرت بالله، ولم يكن بالرحمن وقولهم هذا يعنون يوسف ما جئنا لنفسد في الأرض أي لنظلم أحداً ﴿وما كنا سارقين﴾ ولا يرد عليه القول بأنه كيف جاز ليوسف أن يسرّق من لم يسْرق، نجيب عنه بأن حادثة يوسف هذه تشبّه بحادثتي العبد

الصالح الذي خرق السفينة وقتل الغلام، بما آتاه الله رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علما، إذ وفوق كل ذي علم عليم، كما في سورة الكهف.

٧٤ ـ ﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾.

﴿قالوا﴾ أي فتيان يوسف ﴿فما جزاؤه﴾ أي السارق ﴿إن كنتم كاذبين﴾ في قولكم.

٧٥ ـ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿قالوا﴾ إخوة يوسف ﴿جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ أي جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبداً لصاحبه، تقرير للحكم وتأكيد له في شرع يعقوب، وهو أن يسترق سنة وكان يوسف يعلم ذلك الحكم عندما دبر المسألة ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ وهذا زيادة في تأكيد قولهم لثقتهم ببراءة أنفسهم من التهمة.

ثم قال لهم المؤذن ومن معه لا بد من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف فقال:

٧٦ ـ ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾.

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ يفتشها ﴿قبل وعاء أخيه ثم استخرجها﴾ أي السقاية ﴿من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف﴾ أي كذلك كما جرت الأمور صنعنا ليوسف والكيد الحيلة قاله ابن قتيبة ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله﴾ أي أنه ما كان من شأنه ولا مما تبيحه له أمانته لملك مصر أن يخالف دينه أي شرعه الذي يدين الله تعالى به في أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرجوع معهم، وهو ملتزم له بتفويضه الحكم في بلاده به، فأخذه بغير جرم يبيحه له ظلم واستبداد، وللسرقة عقاب دون أخذ السارق واسترقاقه، لكن شاء الله أنْ ينطق إخوة يوسف بالحكم عليه من أنفسهم فكأنّه حكم عليه بشرعهم لا بشرع ملك مصر ﴿نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم﴾ أوسع إحاطة وأرفع درجة منه في العلم.

القـــراءة

قرأ أهل الكوفة: «نرفع درجات من نشاء» بالتنوين، وقرأ الباقون: «درجات» بغير تنوين.

٧٧ ـ ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

ثم أخبر سبحانه عن إخوة يوسف أنهم: ﴿قالوا إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون بذلك يوسف ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) وكل ما قيل من سرقة يوسف عليه السلام عندما كان صغيراً، روايات

إسرائيلية سخيفة كان زنادقة اليهود يضحكون بها على المسلمين وهذه الروايات التي تشير إلى سرقته صنماً أو مكحلة أو طعاماً أو غيرها لا يوثق بها، ولا يدل شيء منها على سرقة حقيقية، والسرقة لا تليق بالأنبياء. ﴿قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تفترون.

٧٨ ـ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ بدأوا بالاستعطاف بعد أن تذكروا وصية أبيهم لهم، سيما وإنّه سكت عنهم الغضب نوعا ما، ورأوا أنفسهم أنهم في موقف حرج، لا بد لهم من الحكمة والتدبير، والعمل على الخروج منه بلباقة فخاطبوا العزيز بنغمة المتوسل المستعطف، ﴿فخذ أحدنا مكانه إنّا نراك من المحسنين﴾ إلينا فأتم إحسانك أو من عادتك الإحسان، فاجر على عادتك.

ألقاب يوسف

لقب يوسف في هذه القصة بلقب غلام ﴿هذا غلام﴾ ولقب بلقب ﴿مخلص﴾ ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ ومنها لقب ﴿فتى﴾ ولقب ﴿بالصديق﴾ ومنها لقب ﴿العزيز﴾.

٧٩ ـ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾.

﴿قال: معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون﴾ في حكمنا.

٨٠ ـ ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا﴾ الضمير في ﴿منه﴾ يرجع إلى يوسف فالمعنى: يئسوا من يوسف أنْ يخلي سبيل أخيهم، وخلصوا نجياً أي: اعتزلوا الناس ليس معهم غيرهم يتناجون ويتناظرون ويتشاورون، يقال قوم نجي، والجمع أنجية، أي انفردوا متناجين فيما يعملون ﴿قال كبيرهم﴾ في السن وهو راوبين ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ في حفظ أخيكم وردّه إليه ﴿ومن قبل ما فرّطتم في يوسف﴾ ما في موقع رفع كأنه قال ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾ أي لن أخرج من أرض مصر حتى يبعث إليّ أبي أن آتيه ﴿أو يحكم الله لي﴾ برد أخي أو يقضي في أمري بالموت ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي أفضلهم وأعدلهم.

ثم أخبر سبحانه أنّه قال لهم كبيرهم في السن:

٨١ ـ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾.

﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ ابنك سرق وما شهدنا إلاّ بما علمنا﴾ عليه بالسرقة لأنا رأينا المسروق في رحله، ﴿وما كنّا للغيب حافظين﴾ لم نعلم الغيب حين أعطيناك الموثق لنأتينك به أنه يسرق فيؤخذ.

٨٢ ـ ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾.

﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي أهل القرية، وقد تطلق القرية على المدينة والمراد مصر ﴿والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾ أي واسأل أهل العير أى القافلة التي كانت، تصحبهم من الكنعانين.

٨٣ ـ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ذلك فرد عليهم وقصده بالأمر قولهم من وجد في رحله فهو جزاؤه أي أن فتواهم هي التي أعطت ذلك الرجل الحق في الحكم ﴿فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ يوسف وبنيامين والأخ الأكبر في مصر ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾.

لما سمع يعقوب عليه السلام ما سمع من حال ابنه ضاق قلبه حزناً.

٨٤ ـ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف﴾ أي أعرض عنهم وانفرد بحزنه وهيج عليه ذكر يوسف قال ابن قتيبة: الأسف أشد الحسرة ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أي انقلبت إلى حال البياض وذهب بصره والكظيم بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره.

٨٥ ـ ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴾.

﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا﴾ قال ابن الأنباري: معناه والله، وجواب القسم ﴿لا﴾ المضمرة التي تأويلها: تالله لا تفتأ، وقال أبو عبيدة: الحرض الذي أذابه الحزن أو الحب، أو أصبح هرما ﴿أو تكون من الهالكين﴾ الموتى.

٨٦ ـ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ البث أشد الحزن سمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

ثم دعا بنيه على سبيل التلطف فقال:

٨٧ ـ ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾ والمعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله ﴿إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾.

ولما قال يعقوب لبنيه اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه خرجوا إلى مصر:

٨٨ ـ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

﴿فلما دخلوا عليه﴾ أي دخلوا على يوسف، وأصل الكلام فخرجوا إلى مصر فدخلوا على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ يعنون الفقر والحاجة ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ متاعاً رثاً كالحبل أو إقطاً أو نعالاً أو صوفاً والمزجاة القليلة، يقال فلان يزجي العيش، أي يدفع بالقليل ويكتفي به، ﴿فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين﴾.

٨٩ ـ ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

لما سمع تذللهم وضراعتهم قال لهم بلهجة المعاتب، هل علمتم أي هل تتذكرون وتعرفون قبح ما كنتم فعلتم منذ ثلاث وعشرين سنة بيوسف وأخيه، لما كنتم من أهل الجهالة والسفه، أو جاهلين سوء مغبة عملكم.

٩٠ ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قالوا آئنك لأنت يوسف﴾ قالوا ذلك بعد أن تعرفوا عليه من علامات ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنّه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ فمنّ الله علينا بالدنيا.

القـــراءة

﴿قالوا أئنك لأنت يوسف . . . . .﴾. قرأ ابن كثير وورش عن نافع: ﴿قالوا إنّك لأنت يوسف﴾ بكسر الألف على الخبر، وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿قالوا آنك﴾ بالاستفهام بهمزة مطولة. وقرأ القاضي عن قالون: ﴿أنّك﴾ بهمزة واحدة من غير مد، وقرأ أهل الشام والكوفة: ﴿أءنّك﴾ بهمزتين على الأصل. قرأ ابن كثير: ﴿إنّه من يتقي ويصبر﴾ بإثبات الياء، وقرأ الباقون: ﴿إنّه من يتق﴾ بغير ياء، مجزوماً بالشرط.

٩١ ـ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾.

وآثرك اختارك وفضلك بالنبوة والملك، وخاطئين مذنبين.

٩٢ ـ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ قد ثرب فلان على فلان: إذا عدد عليه ذنوبه وقال ابن قتيبة: لا تعيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتم، وأصل التثريب الإفساد جعلهم في حل، وسأل الله المغفرة لهم ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ لما عرفهم نفسه سألهم عن أبيه، فقالوا ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه، وقال:

٩٣ ـ ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ وعلم ذلك بالوحي ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾.

٩٤ ـ ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾.

﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت القافلة من مصر متوجهة إلى كنعان بفلسطين وكان الذي حمل القميص يهوذا ﴿قال أبوهم﴾ يعقوب ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أي أشم رائحته ﴿لولا أن تفندون﴾ تسفهون وتجهلون وتقولون ذهب عقلك، ولا نكلف أن نعرف كيف وجد يعقوب تلك الرائحة لأن هذه المدارك الوجدانية كثيرة يظهر منها في كل زمن ما يعجز العلماء الباحثون عن معرفة سببه فضلاً عن كنهه.

٩٥ ـ ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾.

﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ هذا قول بني بنيه لأن أولاده بمصر أو من كان حاضراً مجلسه، أي إنّك في خطأك الذي طال أمده في تصورك حياة يوسف، حتى جعلك ذلك الوهم تجد رائحة يوسف فالضلال يطلق على الخطأ في الطريق الحسي والمعنوي، ومنه الخطأ في الرأي والاعتقاد والحب والبغض.

٩٦ ـ ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ ابنه يهوذا ﴿ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾ الارتداد رجوع الشيء إلى حال قد كان عليها، رجع إليه بصره بعد العمى ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

٩٧ ـ ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾.

﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين﴾ اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف ولكن يوسف بادر بالاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه، حيث قال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[1].

---

(١) الآية: ٩٢ من السورة نفسها.

٩٨ ـ ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ وعد بالمستقبل ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾.

ولا يصح شيء مما روى في دعاء يعقوب لهم.

يوسف يلتقي بأبيه وأهله في مصر

٩٩ ـ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أبوه وأمه فإن كانت أمه قد ماتت من قبل ما نقل في بعض الروايات فيكون إطلاق لفظ أبويه على أبيه يعقوب وزوجته خالة يوسف من باب أنها أصبحت بمنزلة أمه وآوى ضمّ ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ أي استوطنوها، دخلوا مصر نحو السبعين من ذكر وأنثى، وخرجوا مع موسى وهم نحو ستمائة ألف. وفي الآية إشارة إلى أن يوسف استقبلهم في الطريق احتفاء بهم، فقال لهم ذلك في مكان الاستقبال، وسكنوا أرض جاسان وهي الأرض المعروفة الآن بالشرقية الممتدة من جوار أبو زعبل إلى البحر الأحمر.

١٠٠ ـ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أصعد أبويه على السرير الذي كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك، فالعرش كرسي تدبير الملك ﴿وخروا له سجدا﴾ أبواه وإخوته سجدوا له على جهة التحية لا على جهة العبادة، وكان ذلك عندهم هو تحية الملوك والعظماء في عصرهم، والسجود لا يكون عبادة إلّا بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي إن هذا السجود منكما ومن إخوتي الأحد عشر هو تصديق ما رأيت في المنام من قبل في قوله ﴿ يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾[1] ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ واقعا ﴿وقد أحسن بي إذْ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونتها. ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ أي أفسد وهيج ﴿إنَّ ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾.

---

(١) أول نفس السورة.

دعاء يوسف بحسن الخاتمة

١٠١ ـ ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿ربّ قد آتيتني من الملك﴾ أقصى ما ينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه فجعلتني متصرفاً في ملك مصر العظيم ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ تعبير الرؤيا وكلمة الأحاديث أوسع من تفسير الأحلام قد تشمل أموراً أخرى من العلم ﴿فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً﴾ توفني إذا توفيتني مسلماً وهو طلب أن يموت على الإسلام ﴿وألحقني بالصالحين﴾ بدرجاتهم ومكانتهم.

١٠٢ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾.

﴿ذلك من أنباء الغيب﴾ تلك القصة من أخبار الغيب، الغيب الذي لم تشاهده يا محمد أنت ولا قومك، ﴿نوحيه إليك﴾ ونعرفكه لتثبت به فؤادك ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ أي أنك لم تكن يا محمد حاضراً ولا مشاهداً حين أجمع إخوة يوسف أمرهم على المكر بأخيهم على أن يلقوه في البئر، ولكن أعلمناك ذلك بالوحي.

لما تقدّم ذكر الآيات والمعجزات التي لو تفكروا فيها عرفوا الحق من جهتها، فلم يتفكّروا، بين عقبها أنّ التقصير من جهتهم حيث رضوا بالجهل، وليس من جهته سبحانه، لأنّه نصب الأدلة والبينات، ولا من جهتك لأنك دعوتهم فقال:

١٠٣ ـ ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ موقنين ولكن قد يكون أكثرهم مسلمين كما هو حال المسلمين اليوم، فلا تجهد نفسك وتحرص بما يجعلك تحزن فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾[1] فالمسألة مسألة عناد ومكابرة للحق.

١٠٤ ـ ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي ما تطلب منهم على تبليغهم القرآن والذكر من أجر فما هو إلّا تذكير وعظة من الله للعالمين لمصالحهم كافّة.

١٠٥ ـ ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١٩ ـ ١٢٠.

﴿وكأين من آية في السماوات والأرض﴾ كونية ﴿يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ أي وكم من آية، أي علامة ودلالة يتجاوزونها غير متفكرين ولا معتبرين. والمعنى: إذا كان تلك الآيات القرآنية والقصص التي تقصها عليهم من أنباء الغيب وقد استمعوا إليها، فلم تقنعهم للإيمان بالله وتوحيده، فلا تحرص وتجهد نفسك على هداهم فكم من آية كونية فيها دلالة واضحة على وحدانية الله، يمرون عليها ويتجاوزونها يومياً غير مكترثين ولا معتبرين، بل يعرضون عنها ويتولون وكأنهم لا يرونها.

١٠٦ ـ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾.

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله﴾ إيمان توحيد ﴿إلّا وهم مشركون﴾ إن هذه الآية فيها عموم فيدخل فيها مشركو العرب الذين يعترفون بوجود الله، ولكنهم يشركون معه غيره، فيقولون ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى، ويدخل فيها اليهود الذين يؤمنون بوجود الله، ويقولون عزيراً ابن الله ويدخل فيها كذلك النصارى الذين يؤمنون بوجود الله ويقولون ثلاثة، والذين قالوا منهم المسيح ابن الله. ويدخل كذلك في عموم الآية المنافقون الذين يؤمنون بالله في الظاهر ويشركون معه غيره من شياطينهم وزعمائهم في الباطن، وفي هؤلاء القوم يدخل كثير من ضعاف الإيمان أتباع الملاحدة والشيوعيين، من الذين سرعان ما يتنكر الواحد منهم لدينه وعقيدته عندما يكون بين قوم لا يؤمنون بالله، لكنه يتذكر ربه عندما يصاب بمكروه أو يمس بألم أو مرض وينزل به الموت والهلاك، فالشرك على ذلك أنواع منه الأصغر ومنه الأكبر ولذلك عبر الله تعالى بأكثرهم:

١٠٧ ـ ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

﴿أفأمنوا أنْ تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ ما يغمرهم من العذاب فجأة ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبيّن للمشركين ما يدعو إليه فقال:

١٠٨ ـ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ قل لهم هذه الدعوة التي أدعو بها والطريقة التي أنا عليها، سبيلي أي سنتي، ومنهاجي، والسبيل تذكر وتؤنث والبصيرة اليقين ﴿وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ تنزيها له عما أشركوا.

١٠٩ ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

﴿وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالا نوحي إليهم﴾ مثلك لا ملائكة ولا نساء ﴿من أهل القرى﴾ أي أهل المدن لا من أهل البادية ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ دعوة للبحث عن

الآثار وقراءة التاريخ بالمشاهدة والمعاينة والدلائل المقنعة مما ترك الأولون، ألم يسيروا فينقّبوا ويبحثوا ويدرسوا ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ فتستعملوا عقولكم لتعرفوا.

القــــراءة

﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم ......﴾ قرأ حفص عن عاصم: ﴿نوحي إليهم﴾ بالنون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: ﴿يوحى﴾ بالياء وفتح الحاء، قرأ نافع وابن عامر وعاصم: ﴿أفلا تعقلون﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حال الرسل مع أممهم تسلية للنبي ﷺ:

١١٠ - ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ الذين أرسلناهم قبلك، من تصديق قومهم ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ الظن هنا بمعنى اليقين والمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم. وعلى هذه القراءة يكون المعنى: ظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من النصر.

لأن الرسل لا يظنون ذلك ﴿جاءهم نصرنا فنجي من نشاء، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾.

القــــراءة

حتى إذا استيأس الرسل .... قرأ ابن كثير في رواية البزي: ﴿فلما استأيسوا منه﴾ حتى إذا استايس بغير همز، وقرأ الباقون بالهمز قرأ أهل الكوفة: ﴿وظنّوا أنّهم قد كذبوا﴾ بالتخفيف، وقرأ أهل الحجاز[1] والبصرة والشام: ﴿كذّبوا﴾ بالتشديد، قرأ عاصم وابن عامر: ﴿فنجي من نشاء﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسمّ فاعله، وقرأ الباقون: ﴿فننجّي من نشاء﴾ بنونين.

١١١ - ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لقد كان في قصصهم﴾ أي الأنبياء عليهم السلام وأممهم، بما فيهم قصة يوسف وإخوته ﴿عبرة لأولي الألباب﴾ عظة لذوي العقول السليمة وذلك من وجهين.

الأول: ما جرى ليوسف من إعزاز وتمليكه بعد استعباده، فإن من فعل ذلك به، قادر على إعزاز محمد ﷺ وتعلية كلمته.

والثاني: إنّ من تفكر، علم أن محمداً ﷺ مع كونه أميا، لم يأت بهذه القصة على موافقة ما في التوراة من قبل نفسه، فاستدل بذلك على صحة نبوته.

---

(١) كلمة أهل الحجاز تعنى نافعاً وابن كثير وأبا جعفر.

﴿ما كان حديثاً يفترىٰ ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ من الكتب السماوية التي سبقته، وكأنها أمامه موضوعة عن اليمين والشمال، ﴿وتفصيل كل شيء﴾ من أحكام الدين ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ يصدقون بما جاء به محمد ﷺ أو تفصيل كل شيء من نبأ قصة يوسف وإخوته.

وبانتهاء هذه السورة نكون قد فقدنا كتاباً من أهم المراجع في تفسير القرآن الذي طالما أسعفنا في استجلاء كثير من المعاني للآيات، عندما تختلف فيها الآراء ذلك هو تفسير المنار للشيخ العالم الفاضل محمد رشيد رضا، حيث وافته المنية بحادث بمصر قبل أن يكمل التفسير الذي يضم كذلك آراء للشيخ محمد عبده، ويقع هذا التفسير في اثني عشر مجلداً، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه خيراً.

سُورَةُ الرَّعْدِ

سورة الرعد سميت بها لورود ذكر الرعد في السورة.

لما ختم الله سبحانه سورة يوسف بذكر قصص الأنبياء افتتح هذه السورة بأن جميع ذلك آيات الكتاب وأنّ الذي أنزله هو الحق فقال:

١ ـ ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿الٓمٓر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾ المعنى: أيها المرسل من قبلنا، مما مضى تلك سور من القرآن فيها آيات وعبر من أنباء الرسل عليهم السلام، ﴿والذي أنزل إليك من ربك﴾ في هذه السورة الحق، ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ من أهل مكة وغيرهم لأول وهلة، وذلك بسبب أن أكثر الناس لا يعلمون، وواجب الذين يعلمون أن يعلّموا الناس، حتى لا يكون لهم عذر ولا تقوم على العلماء حجة بعد البيان.

ثم أخذ في تفصيل الحق، فبدأ بالدلالة على صحة المبدأ والمعاد فقال:

٢ ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾.

﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها﴾ والمعنى: رفع السماوات بلا دعامة تمسكها مثل الخيمة، كما تشاهدون من هذا الأمر العظيم، يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه، ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواء يليق بجلاله، ومذهب السلف الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ ذللهما لمنفعة الناس، وكل ما في هذا الكون من أجرام مثل الشمس والقمر والأرض يجري، لزمن ووقت معلوم بعضه يعرفه الناس وبعضه علمه عند الله، وهذا الجريان من تدبير الكون ﴿يدبّر الأمر يفصل الآيات﴾ في القرآن والآفاق، آيات قرآنية وآيات كونية، ﴿لعلّكم بلقاء ربكم توقنون﴾ بأن الله قادر على إفناء حياتكم.

ولما ذكر الدلائل السماوية أتبعها الدلائل الأرضية فقال:

(١) سورة النازعات، الآية: ٣٠.

٣ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۡهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿وهو الذي مدّ الأرض﴾ بسطها للسكنى عليها بالرغم أنها كروية الشكل كما تدل على ذلك الآيات مثل قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ﴿وجعل فيها رواسي﴾ جبالاً ثوابت ﴿وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا صنفين، ذكراً وأنثى، ﴿يغشي الليل النهار﴾ يغطّيه ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يعملون فكرهم.

القــــراءة

﴿يغشي الليل النهار﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يغشّي﴾ بالتشديد، وقرأ الباقون ﴿يغشي﴾ بالتخفيف.

وأنه سبحانه عاد مرة أخرى إلى الدليل السماوي ثم إلى الدليل الأرضي فقال:

٤ ـ ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِى ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴾.

﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي متلاصقة، والمقصود الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض واختلافها من حيث الحرارة والبرودة، والعلو والهبوط والسهولة والوعورة ﴿وجنات﴾ أي بساتين كثيرة ﴿من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ الصنوان النخل المجتمع وأصله واحد وغير صنوان، المتفرق ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾.

القــــراءة

﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ...﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ﴿وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان﴾ بالرفع، وقرأ الباقون بالجر كلها. قرأ عاصم وابن عامر ﴿يسقى بماء واحد﴾ وقرأ الباقون ﴿تسقى﴾ بالتاء، قرأ حمزة والكسائي ﴿ويفضل بعضها﴾ بالياء، وقرأ الباقون ﴿ونفضل بعضها﴾ بالنون.

ثم عاد سبحانه إلى ذكر المعاد فقال:

٥ ـ ﴿ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿وإن تعجب﴾ يا محمد ﴿فعجب قولهم﴾ بعد مشاهدة الآيات الدالة على عظيم قدرة الله ﴿أءذا كنا ترابا أءنا لفي خلق جديد﴾ أي نبعث ونعاد، ثم حكم عليهم بأمور ثلاثة ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ المراد وصفهم بذلك في الدنيا فهو تشبيه وتمثيل لحالهم في امتناعهم عن الإيمان، وعدم

الالتفات إلى الحق بحال طائفة في أعناقهم أغلال وقيود لا يمكنهم الالتفات معها، كأنه قيل: أولئك مقيدون بقيود الضلالة لا يرجى خلاصهم كما ذكر ذلك الآلوسي في روح المعاني ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

القــــراءة

﴿وإن تعجب فعجب قولهم . . .﴾ قرأ ابن عامر ﴿وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا﴾ على الخبر ﴿أئنا﴾ بهمزتين على الاستفهام، وقرأ نافع والكسائي، بالاستفهام في الأولى، والثاني على الخبر، غير أن الكسائي قرأ بهمزتين، ونافع بالمد وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿أئذا﴾ ﴿أئنا﴾ بالاستفهام في الكلمتين.

ثم إنّه ﷺ كان يهدّدهم تارة بعذاب الآخرة وكانوا ينكرون البعث كذلك كما تقدّم، ويخوّفهم تارة أخرى بعذاب الدنيا فيستعجلونه به، زعماً منهم أنّه كلام لا أصل له، وإلى هذا أشير بقوله:

٦ ـ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

﴿ويستعجلونك بالسيئة﴾ بالعقوبة التي هددوا بها على الإصرار على الكفر استهزاء وتكذيباً ﴿قبل الحسنة﴾ العافية والسلامة منها، أو إنهم استعجلوا بالشر قبل الخير فقالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾[1] ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ جمع مثلة، وهي العقوبة الفاضحة، قال أبو عبيدة المثلات: الأمثال التي ضربها الله عز وجل لهم ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ وهذه الآية ظاهرة في جواز مغفرة الكبائر والصغائر من المذنبين مع كونهم ظالمين، ويرى المعتزلة أن معناها اللغوي وهو الستر بالإمهال، وتأخير العقاب إلى الآخرة، كأنه قيل: إنه تعالى لا يعجل للناس العقوبة، وإن كانوا ظالمين، بل يستر عليهم بتأخيرها، وهو المناسب لاستعجالهم العذاب.

إن الكفار طعنوا في نبوته ﷺ بسبب الطعن في الحشر والنشور، ثم طعنوا في نبوته بسبب استبطاء نزول العذاب، ثم طعنوا في نبوته بسبب عدم الاعتداد بمعجزاته، فقال:

٧ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾.

﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ لولا بمعنى هلا، والآية التي طلبوها مثل عصا موسى وناقة صالح ولم يقنعوا بما رأوا فقال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ أي مخوف من عذاب الله، وليس لك من الآيات شيء، والهادي هو النبي، أي هادٍ لهم من عند الله، بالطريقة والآيات التي يضعها الله بين

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

يديه، وكلمة ﴿لكل قوم﴾ فيها إشارة إلى أقوام الأنبياء من قبل، مثل قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم وفي كلمة هاد من العموم ما يدخل فيها كل مصلح.

عالم الغيب

ثم أكّد المعاني المذكورة في الآيات السابقة بقوله:

٨ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾.

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ في بطنها وبين أحشائها، من حلال جاء أو من حرام، من حين العلوق إلى زمن الولادة ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ أي ما تنقصه بالسقط الناقص، وما تزداد بالولد التام، وقيل ما تغيض بالوضع لأقل من تسعة أشهر، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ثم بيّن كمال علمه ونفاذ أمره بقوله: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ بقدر الحاجة ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[1].

ثم بين أنه يعلم ما غاب عن الحس وما حضر له فقال:

٩ ـ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾.

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ أي يعلم الغائب عن الحس والشهادة الحاضر له، بالنسبة للمخلوقين.

القــــراءة

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾، قرأ ابن كثير: ﴿المتعالي﴾ بإثبات الياء في الوصل والوقف، وقرأ الباقون: ﴿المتعال﴾ بغير ياء. ثم زاد في التأكيد فقال:

١٠ ـ ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾.

﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾ والمعنى: سواء منكم من تكلم في الخفاء والسر، والكتمان، ومن جهر وأعلن وأظهر قوله، كذلك من هو مستتر متوار في ظلمة الليل، أو ظاهر متصرف في حوائجه بالنهار، يقال سربت الإبل تسرب: إذا مضت في الأرض ظاهرة، ومعنى الكلام إنّ الظاهر والخفي عنده سواء.

ثم ذكر ما يجري في الظاهر مجرى السبب لاستواء علمه بحال المستتر والمعلن، فقال:

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

١١ - ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾.

﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه﴾ ملائكة تعتقب في حفظه ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ من للسببية أي يحفظونه من المضار بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك، قال اللغويون والباء تقوم مقام ﴿من﴾ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض ﴿إنَّ الله لا يغيّر ما بقوم﴾ من النعمة والعافية فلا يسلبهم نعمة أنعمها عليهم ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ ما اتصفت به ذواتهم من الأحوال، فيعملوا بمعاصيه، فيجلبوا على أنفسهم الشر بترك الخير ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً﴾ بلاءً أو عذاباً أو شراً ﴿فلا مردَّ له ومالهم من دونه من وال﴾ أي من ولي ينصرهم ويرفع عنهم العذاب والبلاء والشر.

البرق والرعد

لما خوّف عباده بإنزال ما لا مردّ له أتبعه دلائل تشبه اللطف من بعض الوجوه، والقهر من بعضها فقال:

١٢ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾.

﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السحاب الثقال﴾ بالماء ويريكم البرق خوفاً من الصاعقة وطمعاً في المطر، أو خوفاً لأهل السفر بالجو والبحر، وطمعاً لأهل البر والزراعة، وقيل خوفاً للمسافر في الصحراء وتتئذ بالجمال من أذى المطر، وطمعاً للمقيم في نفعه، ونصباً على أنهما مفعولاً له.

ولما بيّن دلائل كمال العلم في قوله: ﴿والله يعلم﴾ وبيّن دلائل كمال القدرة في هذه الآية فقال:

١٣ - ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾.

﴿ويسبح الرعد بحمده﴾ بالطريقة التي أرادها ولا نعلمها ﴿والملائكة من خيفته﴾ أي ويسبح الملائكة من هيبة الله تعالى وإجلاله ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ وهي نار نازلة من السحاب مع صوت شديد وهي تحصل من احتكاك أجزاء السحاب ﴿وهم يجادلون في الله﴾ يكذبون بعظمة الله ﴿وهو شديد المحال﴾ شديد الأخذ والانتقام.

ثم أثنى على نفسه بالحقيّة وشهد على الأصنام بالبطلان فقال:

١٤ - ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾.

﴿له دعوة الحق﴾ كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي الأصنام والمعبودين ﴿لايستجيبون لهم بشيء﴾ أي لا يجيبونهم ﴿إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين

إلا في ضلال﴾ والمعنى: إنَّ الله تعالى يشبِّه حال هؤلاء مع آلهتهم وأصنامهم كحال العطشان الذي يرى الماء فيبسط كفيه إليه يناديه دون أن يحصل منه على شيء، وقالوا فيه أنه العطشان يمدّ يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه.

قدرة الله فوق كلّ شيء

ثم زاد في الثناء فقال:

١٥ ـ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴾.

﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ ولله ينقاد ويخضع متى أراد، كل من يعقل في السموات والأرض من الملائكة والثقلين وغيرهم مما نعلمه وما لا نعلمه، إن معنى الآية لا يمكن أن يفهم بمعزل عن سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها، والممعن النظر في مجموع الآيات، يرى أنَّ الله قد ساق ذلك للدلالة على قدرته ووحدانيته، وفي مجال التنديد بالأصنام والأوثان التي تعبد ويسجد لها من دون الله، وأنَّ أولئك المعبودين لا يستجيبون لهم بشيء، فأخبر سبحانه في هذه الآية بأن السجود والانقياد والخضوع يجب أن يكون لله وحده، وأنه قادر على أن يجعل كل من في السماوات والأرض يسجد له، بإرادة طواعية أو بغير إرادة مكرها، وقادر على أن يجعل كل من يسكن السماوات والأرض يسجد له فرضا ونفلا، وقادر سبحانه أن يجعل لهذا السجود ظلالا، وهو جمع ظل في وقت لا ظل فيه وهو وقت أول النهار بالغدوة، وآخر النهار حيث تغيب الشمس، وفي ذلك دليل على أن الآية لا تحكي عن السجود العادي، ولا ما قيل أنه سجود بالسيف أو سجود ظل الكافر أو سجود الكاره، ثم تأتي الآية التي بعدها لتؤكد الدعوة إلى توحيد الله، وقدرته سبحانه.

ثم أخبر عن التسخير بسؤال التقرير رداً على عبدة الأصنام فقال:

١٦ ـ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله﴾ أي قل لهم فإذا سكتوا فقل لهم ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا﴾ إنما جاء السؤال والجواب من جهة، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا كان كأنهم أجابوا، ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء﴾ ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ المؤمن والكافر ﴿أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ الشرك والإيمان ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾، قال ابن الأنباري: أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء؟ وهذا استفهام إنكار، والمعنى: ليس الأمر على هذا بل إذا فكروا علموا أن الله هو المنفرد

بالخلق، وغيره لا يخلق شيئاً ﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ قال الزجاج: قل ذلك، وبينه بما أخبرت به من الدلالة في هذه السورة مما يدل على أنه خالق كل شيء.

القــــراءة

﴿أم هل تستوي الظلمات والنور﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: ﴿أم هل يستوي الظلمات﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿أم هل تستوي الظلمات﴾ بالتاء.

ثم ضرب مثلاً آخر للحق وذويه والباطل ومنتحليه، فقال:

١٧ ـ ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾.

﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ أي بقدر ما تحمل، فإن صغر الوادي قلّ الماء، وإن هو اتسع كثر ﴿فاحتمل السيل زبداً رابيا﴾، فاحتمل الماء المنزل من السماء بسبب السيل زبداً هو الغثاء الذي يطرحه الوادي إذا جاش ماؤه، واضطربت أمواجه، ورابياً منتفخاً من الربا وهو الزيادة، فيعلو من فوق الماء، فهو مثلٌ ضربه الله عز وجل ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية﴾ زينة ﴿أومتاع زبد مثله﴾ وهو مثل آخر أيضاً ﴿كذلك؛ يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد﴾ من السيل وما أوقد عليه من الجواهر الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ﴿فيذهب جفاء﴾ باطلاً مرمياً به ﴿وأما ما ينفع الناس﴾ من الماء والجواهر ﴿فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾.

القــــراءة

﴿ومما يوقدون عليه في النار...﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿ومما يوقدون عليه﴾ بالياء، وقرأ الباقون: بالتاء.

ثم ذكر أحوال السعداء وتبعات الأشقياء فقال:

١٨ ـ ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾ يعني المؤمنين، والحسنى: الحياة والرزق الحلال في الدنيا والجنّة في الآخرة، وقال أبو عبيدة كل خير من الجنة فما دونها، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي الكفار ﴿لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً، ومثلَه معه لافتدوا به﴾ أي لجعلوه فداء أنفسهم للخلاص من العذاب يوم القيامة، ولا يقبل

منهم ﴿أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ والمهاد الفراش.

ثم أنكر بعد هذه البيانات أن يسوّى بين الناقد البصير، والجاهل الضرير فقال:

١٩ ـ ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ أعمى القلب لا يدركه ولا يقدر قدره، حائر في ظلمات الجهل وغياهب الضلال، لا يتذكر بما ضرب من الأمثال، والمراد كمن لا يعلم ذلك إلا أنه أريد تقبيح حاله فعبر عنه بالأعمى، والهمزة للإنكار ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ إنما يتعظ ذوو العقول.

أولوا الألباب وجزاؤهم

ثم وصفهم بقوله:

٢٠ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾.

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ وهو الإيمان والتقوى بعمل ما فرضه عليهم واجتناب ما نهاهم عنه ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ بالعهد، وذلك بترك الإيمان أو الفرائض والمواثيق التي بين بعضهم كالعقود والمعاهدات وغيرها.

٢١ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ الظاهر العموم في كل ما أمر الله به في كتابه، من صلة الأرحام، والخيرات وصلة الأخوة الإسلامية والإنسانية، ﴿ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ في الآخرة وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به.

٢٢ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

﴿والذين صبروا﴾ على ما أمروا به ﴿ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية، ويدرؤون﴾ أي يدفعون ﴿بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون بالعمل الصالح، ويدخل فيه المعروف وكل عمل خير يدفعون به الشر والمنكر، كما يدخل في ذلك دفع الظلم بالعفو، وبالحلم السفه، وبالتوبة الذنب، ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ أي دار الآخرة ويكون مآلهم الجنة.

٢٣ ـ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾.

﴿جنات عدن يدخلونها﴾ العدن الإقامة والاستقرار، يقال عدن بمكان كذا إذا استقر، ومنه المعدن

لمستقر الجواهر ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ للتحية وقضاء الحاجة.

٢٤ ـ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾.

﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ هذا سلام الملائكة الذين يدخلون على المؤمنين في الجنة، والمعنى: السلامة عليكم، فالسلام جمع سلامة. ﴿فنعم عقبى الدار﴾ الجنة بدار الآخرة.

الأشقياء وأوصافهم

ثم أتبع أحوال السعداء أحوال الأشقياء فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾.

﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ هؤلاء هم كفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكل من عرف الله وأرسل له رسول، وكل من آمن ثم كفر من المرتدين والمنافقين ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بأنواع المعاصي والفسوق والظلم بما يغضب الله وينافي ما عاهدوا الله عليه وما علموه من الحق والإيمان ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ أي النار في الدار الآخرة، وهو مسكنهم فيها.

إنّه لما بيّن سوء حال الناقضين بعهد الله، كان لقائل أن يقول فما بالهم قد فتح الله عليهم أبواب الرزق في الدنيا فأجاب بقوله:

٢٦ ـ ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾.

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ويقدر﴾ يضيق وهو أعلم بمراده وحكمته ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ أي الكفار بما نالهم منها وزينتها ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع﴾ أي بالقياس إليها إلا كالشيء الذي يتمتع به ثم يفنى.

ثم حكى نوعاً آخر من قبائح الكفرة فقال:

٢٧ ـ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾.

﴿ويقول الذين كفروا لولا﴾ هلا ﴿أنزل عليه آية من ربه﴾ هذا طلب المشركين والكفار من النبي محمد ﷺ أن ينزل عليهم كآيات الأنبياء الكونية، كالعصا التي ألقاها موسى فصارت حية، ومثل ما كان يخرج يده من جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، ومثل الناقة التي لقوم صالح ﴿قل إنّ الله يضل من يشاء ويهدي إليه من

أناب﴾ أي إن الله يعاقب من اختار الشر وانقاد له بعد ما جاءته البينات والآيات، سواء أكانت تلك الآيات كونية أم قرآنية، ويثيب من يختار الخير وفعل الصالحات واتباع الأوامر واجتناب النواهي، وفضل الحسنة على السيئة بعد أن رأى الآيات البينات وآمن بها، والله سبحانه هو المدبر لكونه البصير بخلقه، يرسل من أنواع الآيات لمن يشاء من خلقه، ثم إنه جل شأنه رؤوف رحيم بعباده، فيعجل العذاب لمن شاء ويؤخره عمن يشاء إلى يوم القيامة كما هو الشأن مع أمة محمد.

٢٨ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾.

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي الذين صار أمرهم إلى الإيمان وتطمئن قلوبهم أي تستقر وتسكن بذكر الله أي بكلامه المعجز ومنه قوله تعالى ﴿هذا ذكر مبارك﴾[1] ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[2] وسبب اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أن لا آية أعظم منه، ومن ذلك لا يقترحون الآيات التي يقترحها غيرهم من المشككين، والتعبير بالمضارع لإفادة دوام الاطمئنان، وتجدده حسب تجدد المنزّل من الذكر ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ لله وحده دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس.

ثم أشار إلى أن الاطمئنان ثمرة غرس شجرة الإيمان، والعمل الصالح في أرض القلب فقال:

٢٩ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾.

فرح وقرة عين لهم وغبطة لهم وفسّره بعض العلماء، خير كثير لهم، وحسن المآب هو المرجع والمنقلب.

لما ذكر سبحانه النعمة على من تقدّم بالثواب وحسن المآب عقّبه بذكر النعمة على من أرسل إليه النبي ﷺ فقال:

٣٠ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴾.

﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم﴾ أي مثل ذلك الإرسال العظيم الشأن أرسلناك في أمة مضت من قبلها أمم كثيرة، قد أرسل إليهم رسل عليهم ﴿لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾ أي القرآن العظيم الشأن ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كل شيء رحمته فلم يشكروا له سبحانه ﴿قل هو ربي لا إله إلاّ هو﴾ وفي ذلك رد على المشركين بأن الرحمن صفة لله واسم من أسمائه تعالى وإن تعددت الأسماء والصفات فالرب واحد ﴿عليه توكّلت وإليه متاب﴾.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

رد على المشركين وبيان قدرة الله على كل شيء

٣١ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

﴿ولو أن قرآنا سيّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى بل لله الأمر جميعاً﴾. والمعنى: أن الكفار ما زالوا يطلبون من الرسول عليه السلام آيات كونية، فيقولون هلا سيرت هذه الجبال التي بين أيدينا بالقرآن الذي تتلوه علينا، وتقص فيه علينا أن جبل الطور رفع فوق بني إسرائيل وأنه تحرك من مكانه، أو كالتي تعدنا بها أنها تسير من مكانها يوم القيامة، أو هلا قطّعت بالقرآن الأرض فصارت ينابيع وأنهاراً كالتي تصفها لنا في القرآن، أو هلا كلمت به الموتى أمامنا، كما تذكر في القرآن من تكلم الموتى كما في قصة البقرة، وإحياء عيسى للموتى وجعلهم يتكلّمون، فكأنهم يقولون لا نعلم ذلك حدث إلّا عن طريق القرآن، الذي تحدثنا به فافعل مثل ذلك.

فرد الله عليهم بهذه الآية قائلاً قل لهم: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ اليوم وغداً وهو وحده القادر الذي فعل كل ذلك وغيره، قادر أن يفعل بكم وقادر أن يسير الجبال ويقطِّع الأرض ويجعل الموتى تتكلم، وكل ذلك حادث يوم القيامة.

﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي أفلم يعلم وإنما وقع اليأس مكان العلم، لأن في علمك الشيء وتيقنك به يأسك من غيره، وييأس بمعنى يعلم لغة هوازن وحي من النخع.

﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ وفي هذه الآية رد للمؤمنين الذين حاك في نفوسهم وتمنوا نزول الآيات التي طلبها الكفار ليكثر عدد المسلمين وفي ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الكفار لما سألوا الآيات ودّ المؤمنون أن يظهرها الله تعالى ليجتمعوا على الإيمان ثم أوعد الكافرين بقوله: ﴿لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ النازلة الشديدة تنزل بأمر عظيم، وهي السرايا والطلائع التي كان ينفذها رسول ﷺ ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾ أو تحل أنت يا محمد للتخويف ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ يمكن أن يكون مؤقتاً كفتح مكة للمؤمنين، ويجوز أن يكون يوم القيامة ﴿إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾.

ثم زاد في الوعد، فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾.

﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا﴾ أي تركتهم ملاءة أي من الزمان ومنه الملوان، في أمن ودعة، كما يملي للبهيمة في المرعى، وفي ذلك في المعنى استهزاء ووعيد للكفار. والمعنى: أنّ ذلك ليس مختصاً بك، بل أمر قد فعل برسل جليلة كثيرة من قبلك ﴿ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ أي عقابي إياهم، والمراد التعجب مما حلّ بهم.

ثم أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج والتوبيخ والتعجب من عقولهم، فقال:

٣٣ ـ ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾.

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ والمعنى: أفمن هو رقيب ومهيمن أي مجاز كل نفس كائنة ما كانت بما فعلت من خير أو شر، فيثيبها إذا أحسنت، ويأخذها بما جنت، كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام قال الفراء: فترك جوابه، لأن المعنى معلوم، وقد بينه بعد ذلك بقوله: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ كأنه قيل: كشركائهم ﴿قل سموهم﴾ أي: بما يستحقونه من الصفات وإضافة الأفعال إليهم إن كانوا شركاء لله كما يسمى الله بالخالق، الرزاق والمحيي، والمميت، ولو سموهم بشيء من هذا لكذبوا. ﴿أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض﴾ هذا استفهام منقطع مما قبله، والمعنى: فإن سموهم بصفات الله، فقل لهم: أتنبئونه، أي أتخبرونه بشريك له في الأرض، وهو لا يعلم لنفسه شريكا، ولو كان لعلمه؟ ﴿أم بظاهر من القول﴾ أم بظن لا أصل له ولا حقيقة. ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ زين لهم الشيطان الكفر، ومكرهم هو تمويههم الأباطيل، فتكلفوا إيقاعها في الخيال من غير حقيقة، ثم بعد ذلك ظنوها شيئاً لتماديهم في الضلال ﴿وصدّوا عن السبيل﴾ أي سبيل الحق وفاعل الصد مكرهم أو الشيطان بإغوائه لهم، ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ أي ومن يخلق فيه الضلال لاختياره الشر، أو من يسلط الله عليه الشر في الدائرة التي تسيطر عليه، ولا يحاسب عنها فلا أحد يستطيع أن يرفع عنه ذلك الضلال والشر والبلاء غير الله فربما كان ذلك عقوبة له إذا كان بالصّد أو الختم ونحوه.

القـــراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿وصدّوا عن السبيل﴾ بضم الصاد على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ الباقون: ﴿وصدّوا عن السبيل﴾ بفتح الصاد.

ثم عاد إلى التهديد بما سيلقونه في الدنيا من هوان وقتل وإسار حيث أن هؤلاء الكفار زين لهم مكرهم وصدوا عن سبيل الله بكل ما يملكون من حيل وطرق ويوم القيامة سيكون عذابهم أشد وأنكى فقال جل وعلا:

٣٤ ـ ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ أي بالقتل والسبي والأسر والهوان لا بنزول المصائب وتوالي الكوارث والنوازل والإصابة بمختلف الأمراض. ﴿ولعذاب الآخرة أشق﴾ أي أغلظ وأبلغ وأفظع في الشدة لدوامه كما قال رب العزة لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴿وما لهم من الله من واق﴾ أي ليس لهم من الله دافع يدفع عنهم عذابه.

لما تقدم ذكر ما أعده سبحانه وتعالى للكافرين عقبه بذكر ما أعده لعباده المؤمنين فقال:

٣٥ ـ ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾.

﴿ومثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي شبهها وصفتها وصورتها قال ابن قتيبة: المثل في أصل اللغة الشبه ثم قد يكون صورة الشيء وصفته وقيل إنه لفظة مثل مقحمة والتقدير: الجنة التي وعد المتقون ﴿تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم﴾ بمعنى أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا وظلها لا يزول ولا تنسخه الشمس ونعيمها متجدد لا يبيد ﴿وظلها﴾ لا يتغير بحيث يكون مرة شمساً وأخرى ظلاً ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ أي تلك الجنة جزاء المتقين والطريق إليها التقوى أما عاقبة أمر الكفار فالنار مثواهم خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض.

ثم لما تقدم ذكر الوعد والوعيد أخبر سبحانه عن المتقين والكافرين فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾.

﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي يريد أصحاب النبي ﷺ الذين آمنوا به وصدقوه وحين أعطوا القرآن فرحوا بإنزاله ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعوا وإليه مئاب﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس حيث أنكروا بعض معانيه وما يخالف أحكامهم ثم قال قل يا محمد إنما أمرت أن أوجه عبادتي إلى الله ولا أشرك في عبادته أحداً لأنني إلى الإقرار بتوحيده وصفاته وتوجيه العبادة إليه أدعو وإليه مرجعي ومصيري حيث لا يملك الضر والنفع إلا هو.

لما بين الله أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن ومن الأحزاب من ينكر بعضه عقبه بامتنانه على العرب المؤمنين الذين بعث فيهم رسولا منهم يؤيده القرآن الكريم بلسان عربي منهم فقال:

٣٧ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾.

أي كما أنزلنا الكتب إلى من تقدم من الأنبياء بلسانهم أنزلنا إليك حكمة عربية جاريه على مذاهب العرب في كلامهم يعني القرآن الكريم الذي بين الحلال والحرام ولئن اتبعت أنت وأمتك رغبات الكفار بعدما آتيناك من الدلالات والمعجزات التي تزول معها الشبهات ولئن فعلت ذلك ما لك ناصر يعينك ويحميك من عذاب الله ويقيك منه. لما عير الرسول بكثرة تزويج النساء نزلت هذه الآية:

٣٨ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾.

﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ أي نساءً وأولاداً بنين وبنات ﴿وما

كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن اللّه لكل أجل كتاب﴾ أي لم يكن لرسول يرسله الله أن يجيء بآية ودلالة إلا بعد أن يأذن الله في ذلك حيث لا تكون آية إلا بأجل قد قضاه الله.

ولما كان الرسول لا يأتي بالآيات من عند نفسه، وإن لكل رزق وكل نفس أجل يقضي به الله بما شاء فمن انقطع رزقه وحان وقت هلاكه يقضي في خلقه بالمحو، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه فيتركه على ما هو عليه لذلك قال:

٣٩ - ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت﴾ عام في الرزق، والأجل، والسعادة، والشقاوة، قال ابن الجوزي وهذا مذهب عمر، وابن مسعود، وأبي وائل، والضحاك، وابن جريج، وقال الحسن يمحو من جاء أجله، ويثبت من لم يجيء أجله، وكل هذه المعاني تدخل تحت قوله تعالى ما يشاء.

وقال سعيد بن جبير: يمحو من ذنوب عباده ما يشاء فيغفرها، ويثبت مكانها ما يشاء فلا يغفرها ﴿وعنده أم الكتاب﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما يكون ويحدث.

القـــراءة

﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿ويثبت﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون: ﴿يثبت﴾ بالتشديد.

ولما بيّن كيفية انطباق الحوادث على أوقاتها قال:

٤٠ - ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾.

﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب وأنت حي ﴿أو نتوفينك﴾ قبل أن نريك ذلك فليس عليك إلا أن تبلغ ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

ثم ذكر أنّ آثار حصول تلك المواعيد وأماراتها قد ظهرت وقربت، وأن تباشير الظفر قد طلعت ولاحت فقال:

٤١ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي أو لم يَرَ كفار مكة وغيرهم بالمشاهدة والواقع أنا نأتي أرض مكة ينقص ما حولها، أي يقهر أهلها بيد المسلمين أو بما يحل عليهم من الخوف والجوع ونقص الثمرات، حتى صاروا يلجؤون إلى المدن، ومنها مكة، وهذا ما هو حاصل اليوم حيث بدأ البدو يزحفون من الصحراء إلى المدن فاكتظت العواصم والمراكز بالسكان ونقصت الأطراف، وقد بسطنا القول في تفسير الآية

في كتابنا «تفسير شكل القرآن» ﴿والله يحكم لا معقّب لحكمه﴾ قال ابن قتيبة لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص إلاّ حسب إرادته ﴿وهو سريع الحساب﴾.

ثم سلّى نبيه ﷺ بقوله:

٤٢ - ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ أي قبل المشركين من الأمم السالفة ﴿فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس﴾ من خير وشر، ولا يقع ضرر أو نفع إلاّ بأذنه ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي لمن الجنة آخر الأمر.

القــــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿وسيعلم الكافر﴾ على التوحيد، وقرأ الباقون: ﴿وسيعلم الكفّار﴾ على الجمع.

ثم ذكر حاصل شبههم مع الجواب القاطع فقال:

٤٣ - ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم سميت بها لورود ذكر إبراهيم عليه السلام.

لما ختم الله سورة الرعد بإثبات الرسالة، وإنزال الكتاب افتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة والكتاب فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.

﴿آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ والمعنى: أيها الرسول هذا كتاب أنزلناه إليك لتهدي الناس به من الكفر والضلال، إلى الإيمان والإسلام والنور والهدى، وهذه الهداية يلتزم بها إذن الله وأمره ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ وهو بيان لمعنى النور.

ثم أثنى على نفسه تحقيقاً لحقيقة صراطه، وبياناً لتنزهه عن العبث فقال:

٢ ـ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾.

﴿الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ من حيوان ونبات ومعادن، ثم ختم الآية بوعيد من لا يعترف بربوبيته، ولا يقر بوحدانيته فقال: ﴿ويل للكافرين من عذاب شديد﴾ في الآخرة، الويل توعد بالهلاك.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر ﴿الله الذي له﴾ بالرفع على الاستئناف، وقرأ الباقون ﴿الله الذي له﴾ بالخفض.

٣ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴾.

﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي يؤثرونها فتكون أكبر همّهم ومبلغ غايتهم ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ الدعوة الإسلامية والجهاد في إعلاء كلمة الله ﴿ ويبغونها عوجا﴾ أي ويبغون لها ويطلبون لها عوجاً أي زيفاً واعوجاجا، ؛أي يقولون لمن يريدون صدّه وتعويقه عن الدعوة، هي سبيل ناكبة وزائغة غير

مستقيمة ﴿أولئك في ضلال بعيد﴾ أي بعد الحق، والمراد أنهم قد ضلّوا عن الحق وقعدوا عنه بمراحل.

ثم لما منّ على المكلّفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول، ذكر أنّ من كمال تلك النعمة أن يكون ذلك الكتاب بلسان المرسل إليهم، فقال:

٤ - ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه﴾ أي بلغتهم ﴿ليبين لهم فيضلّ الله من يشاء﴾ أي فيعاقب من يختار طريق الشر والكفر ويعصي الرسل، فإضلال الله لبعض الناس وختمه على قلوب البعض منهم، سببه اختيارهم للشر المعاقب عليه، وسَبْق علم الله باختيارهم لا يعفيهم من المحاسبة، ولا يجوز أن يتوهم أبداً بأن الله سبحانه يضلّ الناس أو يختم على حواسهم من غير سبب، أو يعاقبهم بسبب إضلاله لهم، فهم سبب ذلك كله ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[١]، ﴿ويهدي من يشاء﴾ ويثيب من يختار الخير والإيمان ويوفقه له ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ وكل آية في آخرها العزيز الحكيم يفهم منها غالباً العقاب للمسيء والثواب للمحسن مثل قوله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله، والله عزيز حكيم﴾[٢].

قصة موسى

لما بيّن أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أراد أن يبيّن أن الغرض من إرسال جميع الأنبياء لم يكن إلّا ذلك، وذكر لذلك مثالاً، وخصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم سوى أمة محمد ﷺ، ولكثرة معجزاته الباهرة، فقال:

٥ - ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ إلى فرعون وملائه وإلى بني إسرائيل ﴿بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكّرهم بأيام الله﴾ أي نعم الله ﴿إنّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ لأنعمه والصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر. وإنما خصّه بالآيات لانتفاعه بها.

ولما أمر الله موسى بالتذكير حكى عنه أنّه ذكّرهم فقال:

٦ - ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾ المراد جنس العذاب السيىء أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك ﴿ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يبقونهن في الحياة مع الذل، ولذلك عدّ من جملة البلاء ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾.

لما تقدم ذكر النعمة أتبعه سبحانه بذكر ما يلزم عليها من الشكر فقال:

٧ ـ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾.

﴿وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ داخل في مقول موسى عليه السلام لا كلام مبتدأ، أي اذكروا نعمة الله تعالى عليكم واذكروا حين تأذّن ربكم، أي آذن إيذاناً بليغاً وأعلم إعلاماً لا يبقى معه شبهة، ولئن شكرتم نعمي لأزيدنّكم من طاعتي وفضلي وخيري.

٨ ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾.

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾ لم تضروا الله سبحانه، وإنما يتضرر من يكفر ﴿فإن الله لغني حميد﴾ عن شكركم وشكرهم وهو حميد مستوجب للحمد بذاته.

٩ ـ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾.

﴿ألم يأتكم﴾ استفهام تقرير ﴿نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ قال ابن الأنباري أي: لا يحصي عددهم إلاّ هو، ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم﴾ وهذا مثل ضربه الله لهم، ومعناه أنّهم كفوا عما أمروا بقبوله من الحق، ولم يؤمنوا به، يقال رد فلان يده إلى فمه، أي أمسك فلم يجب، قاله أبو عبيدة.

والمقصود من الآية أنّهم ألجموا أفواههم عن أن تنطق بالحق، وتصدق الرسل رغم علمهم بالحق ووضوح البينات والآيات لهم، ومثل ذلك كثير في القرآن ومنه قوله تعالى في سورة نوح ﴿وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا﴾ ﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنّا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾ أي على زعمكم أنكم أرسلتم، لا أنهم أقروا بإرسالهم، قال الألوسي: في روح المعاني «ويحتمل أن يكون استعارة تمثيلية بأن يراد برد أيدي القوم إلى أفواه الرسل عليهم

السلام، عدم قبول كلامهم واستماعه مشبهاً بوضع اليد على فم المتكلم لإسكاته».

١٠ - ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿قالت رسلهم أفي الله شك﴾ هذا استفهام إنكار، والمعنى لا شك في الله أي في توحيده ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي مبدعهما وما فيهما من المصنوعات ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي بعضها وهو ما عدا المظالم وحقوق العباد، قال الزمخشري في الكافرين ﴿من ذنوبكم﴾ وفي المؤمنين ﴿ذنوبكم﴾ وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوى في الميعاد بين الفريقين كقوله تعالى في خطاب المؤمنين ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ إلى قوله ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾ وقوله تعالى في خطاب الكافرين ﴿اتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم﴾ ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم﴾، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي إلى الموت، والمعنى: لا يعاجلكم بالعذاب ﴿قالوا إن أنتم إلاّ بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ الحجة.

ثم حكى سبحانه جواب الرسل للكفار فقال:

١١ - ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ فاعترفوا لهم بذلك ﴿ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾ بالنبوة والرسالة ﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ أي ليس ذلك من قبل أنفسنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾.

١٢ - ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

﴿وما لنا ألاّ نتوكّل على الله وقد هدانا سبلنا﴾ أي أرشد كلاً منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين، ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾.

العاقبة للمتقين

١٣ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

يعني الكافرين بالرسل.

١٤ ـ ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ أي بعد هلاكهم ﴿ذلك﴾ الإسكان ﴿لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي خاف موقفي الذي يقف به العباد بين يديّ للحساب يوم القيامة، فالمقام اسم مكان وإضافته إلى ضميره تعالى لكونه بين يديه سبحانه.

ثم يبين الله تعالى أن الرسل دعوه مستنصرين به على أعدائهم فيقول:

١٥ ـ ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

﴿واستفتحوا﴾ أي استنصروا الله تعالى على أعدائهم كقوله تعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾[1] ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ خسر وهلك كل متكبر عن عبادة الله وطاعته، ولا يقال جبار للإنسان إلا على صفة الذم، كقولهم هذا ملك جبار.

١٦ ـ ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾.

﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ والمراد من قدامه وبين يديه، ومعنى كونها قدامه أنه مرصد لها، واقف على شفيرها، أي أنها آتية إليه وهو آت إليها فتكون من قدام. قال الشاعر:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا نحني عليها الأصابع

والصديد هو القيح والدم، أي يسقى ماء كأنه صديد.

١٧ ـ ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾.

﴿يتجرّعه ولا يكاد يسيغه﴾ التجرع تناول المشروب جرعة جرعة، وذلك لشدة كراهته له، وإنما يكره على شربه، ولا يقدر على ابتلاعه، تقول ساغ لي الشيء وأسغته. ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ الكلام على المجاز، والمعنى: يأتيه همّ الموت وكربه وأسبابه من الشدائد، وأنواع العذاب ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ يستقبل كل وقت عذاباً أشد وأشق مما كان قبله، ﴿ورائه﴾ نفس المعنى في الآية السابقة.

لما ذكر في الآيات المتقدمة أنواع عذاب الكفار أراد أن يبيّن غاية حسرتهم ونهاية خيبتهم، فقال:

١٨ ـ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾.

﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ والمعنى: مثل أعمال الذين

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٩.

كفروا ومثله قوله تعالى في الزمر: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾[1] أي ترى وجوههم.

حوار بين أهل النار الضعفاء والمستكبرين

ثم كان لسائل أن يسأل: كيف يليق بحكمته إضاعة أفعال المكلفين فقال:

١٩ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق﴾ ألم تعلم ثم بيّن كمال قدرته واستغنائه عن الظلم والقبائح، وعن عمل كل عامل فقال: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم، وأطوع.

القـــراءة

﴿ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿ألم تر أن الله خالق السماوات والأرض﴾ وقرأ الباقون: ﴿خلق السماوات والأرض﴾ نصباً.

٢٠ ـ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

أي ممتنع متعذّر.

٢١ ـ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

﴿وبرزوا لله جميعاً﴾ يوم القيامة وقت الحساب ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً﴾ في الدنيا فيما دعوتمونا إليه ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي دافعون عنا، وهذا استفهام أريد به التوبيخ، والتقريع، وهو من الغناء بمعنى الفائدة، وضمّن معنى الدفع، ثم قال القادة والزعماء، المتبوعون ﴿قالوا لو هدانا الله لهديناكم﴾ أي لو وفقنا الله إليه، لهديناكم ولكن ضللنا فضللناكم، أي اخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا، ويحتمل قولهم هذا بأن المراد لو هدانا الله تعالى إلى طريق الخلاص من العقاب والوصول إلى النعيم والثواب لهديناكم إلى ذلك، أي لو خلصنا لخلصناكم أيضاً، لا مطمع فيه لنا ولكم ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص﴾ هذا كلام القادة المتبوعين للضعفاء طلبوا منهم ما تقدم ـ وكأنه يفهم من الآية ـ أن المتبوعين القادة قد جزعوا من الموقف وإن طلب منهم الدفع فما هو إلّا على سبيل الاستنكار لا

---

(١) الآية: ٦٠.

لتحقيق شيء ودفع العذاب، فكان رد الذين استكبروا للضعفاء أن الأمر سيان بالنسبة لنا ولكم جميعا حيث لا ينفع الجزع والشكوى، كما لا ينفع التذرع بالصبر فالأمر داهم والحساب قادم، والنار هي المثوى ولا محاد ولا مفر منها.

لما ذكر مناظرة شياطين الإنس أتبعها مناظرة شيطان الجن، فقال:

٢٢ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر﴾ فرغ منه، وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الوعد ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أكرهكم به من حجة أو قوة ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ باختياركم ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾ أي ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، كما أنكم عاجزون عن إغاثتي، قال اللغويون: يقال استصرخني فلان فأصرخته، أي استغاثني فأغثته، ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ أي إني كفرت اليوم بإشراككم إيّاي في الدنيا مع الله ﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ يعني الظالمين لأنفسهم بالشرك وغيره ما لم يتوبوا منه، ويؤدوا الحقوق لأصحابها.

القــــراءة

﴿وما أنتم بمصرخيَّ﴾ قرأ حمزة: ﴿وما أنتم بمصرخيِّ﴾ بكسر الياء، وقرأ الباقون بفتح الياء، ثم شرع في أحوال السعداء فقال:

٢٣ ـ ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾.

مثل الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة

ثم لما بين أحوال السعداء وكان قد ذكر أحوال أضدادهم، أراد أن يذكر لكل من الفريقين مثلاً فقال:

٢٤ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾ هي النخلة ﴿أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ أي

جذورها ثابتة في الأرض لا تؤثر فيها الرياح والأمطار ولا الحر ولا البرد، وفرعها أعلاها عال في السماء أي نحوها، والكلمة الطيبة هي دعوة الإسلام، والكلمة الحسنة، وقيل المؤمن الصالح.

ثم ذكر الصفة الرابعة فقال:

٢٥ - ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ أي تعطي ثمرها كل وقت أقته الله تعالى لإثمارها بإرادته جلّ شأنه، وقد يفهم من الحين أي أن الناس يأكلون من ثمر النخلة في عدة أزمان، فيطعمون الأخضر لدوابّهم، ويأكلون الأصفر بعد ذلك لهم ولدوابهم، ثم يأكلون الرطب الذي نصفه بسر ونصفه تمر لهم، ويرمون نواته للبهائم، ثم يأكلون بعد ذلك منها الثمر الخالص لهم ولدوابهم فهذه عدّة أزمان ويصح أن يطلق عليها كل حين، ومن النخل ما يبكر بالثمرة ومنها ما يتأخر، ولكلٍ حين، قال ابن جرير الطبري: الطلع في الشتاء من أكلها، والبلح والبسر والرطب والتمر في الصيف، وجاء في لسان العرب الحين الدهر: وقيل وقت من الدهر مبهم يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت، والحين المدة، ومنه قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾.

والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة الطيبة، قال ابن الجوزي في تفسير زاد المسير فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة فمن أوجه:

١ - أنها شديدة الثبوت، فشبه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها.

٢ - أنها شديدة الارتفاع، فشبه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها.

٣ - أن ثمرتها تأتي في كل حين، فشبه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها.

٤ - أنها أشبه الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها إلاّ هي، إذا قطع رأسها يبست، ولأنها لا تحمل حتى تلقح.

﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون﴾ لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنه تصوير المعاني العقلية بصور المحسوسات، وبه يرتفع التنازع بين الحس والخيال.

٢٦ - ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾.

﴿مثل كلمة خبيثة﴾ كلمة الكفر أو الدعاء إليه، أو كلّ كلمة سيئة تجلب شرا ﴿كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي استؤصلت وقطعت لعدم فائدتها ولتحاشي ضررها على الأشجار المثمرة، ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة، أنّه لا يصعد للكافر عمل صالح ولا قول طيب، وليس لقوله أصل.

ولما شبّه حال الفريقين بما شبّهَ بيّن مآل حالهما فقال:

٢٧ ـ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ القول الثابت هو شهادة أن لا إله إلاّ الله وقيل الآخرة بالقبر ﴿ويضلّ الله الظالمين﴾ الذين اختارو الشرك والكفر وظلموا أنفسهم وغيرهم بإرادتهم، وإضلال الله لهم إمهاله لهم حتى يأتي يوم قضائه فيهم ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ من المغفرة أو العذاب وإنزال الخير والشر على من يريد.

ثم عجب من ظالمي مكة بقوله:

٢٨ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾.

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ عامة في جميع المشركين وتبديلهم نعمة الله كفراً، إنّ الله أنعم عليهم برسوله، وأسكنهم حرمه فكفروا بالله وبرسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به ﴿وأحلّوا قومهم دار البوار﴾ أي الهلاك ثم فسر ذلك الله في الآية التالية.

٢٩ ـ ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾.

أي بئس المقر هي.

٣٠ ـ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ نظراء في العبادة مشاركين له ﴿ليضلّوا عن سبيله﴾ اللام لام العاقبة، وسبيله دين الله ﴿قل تمتّعوا﴾ أي في حياتكم الدنيا ﴿فإنّ مصيركم إلى النار﴾ وهذا وعيد لهم.

القــــراءة

﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلّوا عن سبيله﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿ليضلّوا عن سبيله﴾ بفتح الياء.

وقرأ الباقون: ﴿ليضلّوا﴾ بضم الياء، لما أمر الكافرين بالتمتع بنعيم الدنيا تهديداً لهم، أمر نبيّه ﷺ بحث المؤمنين على خلاف ذلك وهو الإقبال على ما ينفعهم في الآخرة فقال:

٣١ ـ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾.

والخلال الصداقة.

القـــراءة

﴿وقل لعبادي﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿وقل لعبادي﴾ بالسكون.

نعمة الله لا تحصى

لما ختم أحوال المعاد عاد إلى المبدأ فقال:

٣٢ - ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾.

٣٣ - ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لتنتفعوا بهما، وتستضيئوا بضوئهما دائبين دائمين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران، ومعنى الدؤوب: مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه ﴿وسخر لكم الليل والنهار﴾.

ولما فصّل طرفاً من النعم أجمل الباقية منها بقوله:

٣٤ - ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾.

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي آتاكم من كل شيء سألتموه شيئاً فأضمر الشيء وفسر ﴿ ما سألتموه﴾ كما في الآلوسي بما من شأنه أن يسأل لاحتياج الناس إليه سواء سئل بالفعل أم لم يسأل، وجعلوا الاحتياج إلى الشيء سؤالا له بلسان الحال وهو من باب التمثيل، ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ الظلوم ها هنا: الشاكر لغير من أنعم عليه، والكفّار: الجحود لنعم الله تعالى جاء في روح المعاني للآلوسي «شديد الكفران والجحود، وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفّار في النعمة يجمع ويمنع، و«أل» في الإنسان للجنس». وهي دليل الكثرة من الناس وليس للاستغراق في الكل.

دعاء إبراهيم عليه السلام

٣٥ - ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾.

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾ البلد الآمن هو مكة وقد أجاب الله دعاءه فجعله محرماً، لا يجوز فيه سفك الدماء للإنسان ولايظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يعضد شجره.

٣٦ ـ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ أي تسببن له في الضلال، فإسناد الإضلال إليهن مجازي، لأنهن جماد لا يعقل منهن ذلك، والمضلّ في الحقيقة هو من اختار الضلال والشر من الناس بالدائرة التي يسيطر عليها الإنسان ﴿فمن تبعني﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام ﴿فإنه مني﴾ أي متصل بي لا ينفك عني ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ قادر على أن تغفر له وترحمه، قال النووي في شرح مسلم إن مغفرة الشرك كانت في الشرائع القديمة جائزة في أممهم، وإنما امتنعت في شرعنا.

ثم أراد أن يعطّف الله بدعائه على قلوب الناس كلهم أو جلّهم على إسماعيل ومن ولد منه بمكة، وأن يرزقهم من الثمرات، فمهد لذلك مقدمة فقال:

٣٧ ـ ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿ربنا إنّي أسكنت من ذريتي﴾ «من» للتبعيض خرج إبراهيم عليه السلام من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر حتى قدم مكة وبها ناس يقال لهم العماليق خارجا من مكة، فأنزلهما في مكان من الحجر ﴿بواد غير ذي زرع﴾ يعني مكة ولم يكن فيها حرث ولا ماء ﴿عند بيتك المحرم﴾ إنما سمي محرما، لأنه يحرم استحلال حرماته ﴿ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ أي قلوب جماعة من الناس ﴿وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾. وفيه دلالة على أن هذا الدعاء كان بعد بناء إبراهيم عليه السلام للبيت.

ثم أثنى على الله سبحانه تمهيداً لدعوة أخرى، وتعريضاً ببقية الحاجات فقال:

٣٨ ـ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ قال ذلك لما أنزل إسماعيل وأمه هاجر الحرم، وأراد فراقهما، وما يخفى من الوجد بالمفارقة.

٣٩ ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

ثم ختم الأدعية بقوله:

٤٠ ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾ «من» للتبعيض أي ومن ذريتي مقيم الصلاة وإنما خصّ عليه السلام هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الوحي، أن بعضا منهم لا يكون مقيم الصلاة بأن يكون كافراً، أو مؤمناً لا يقيم الصلاة فيواظب عليها ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾. المذكور.

---

(١) إسماعيل رزق به إبراهيم وهو ابن ست وثمانين سنة على ما في الآية: ١٦ من الإصحاح: ١٦ تكوين وإسحاق ولد لإبراهيم وهو ابن مائة سنة. قصص الأنبياء ص ٧٧.

٤١ ـ ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾.

قال ابن الأنباري: استغفر لأبويه وهما حيّان طمعاً في أن يُهديا إلى الإسلام.

تأخير العذاب عن أمة محمد

ثم عاد إلى بيان الجزاء والمعاد، لأن دعاء إبراهيم ﷺ قد انجرّ إلى ذكر الحساب فقال:

٤٢ ـ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾.

﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ من أمة محمد ﴿إنّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم.

٤٣ ـ ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾.

﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ الإهطاع: النظر من غير أن يطرف الناظر فلا يرفع رأسه، ومقنعي رؤوسهم: أي ناكسي رؤوسهم، والأفئدة مساكن القلوب، وكونها هواء أي خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة.

٤٤ ـ ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾.

﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ بيوم القيامة والحساب ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ أن حلفتم في الدنيا أنكم لا تبعثون، ولا تنقلون من الدنيا إلى الآخرة ﴿ما لكم من زوال﴾ الآن ولا تأخير.

ثم زادهم توبيخاً بقوله:

٤٥ ـ ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾.

﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي نزلتم في أماكنهم وقراهم ومدنهم كالحجر ومدين والأحقاف، الذين عذب أهلها بالاستئصال في الدنيا، لأنّهم من غير أمة محمد ﴿ وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ يعني كيف عذبناهم في الدنيا فكان ينبغي لكم أن تنزجروا عن المخالفة اعتباراً بمساكنهم ومشاهدة آثارهم بعد ما علمتم فِعْلنا بهم، ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ التي في القرآن، من القصص والعبر والأمثلة الشاهدة.

ثم حكى مكر أولئك الظلمة فقال:

٤٦ ـ ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾.

﴿وقد مكروا مكرهم﴾ أي الظالمون المتقدم ذكرهم، ومكرهم هو فعلهم، والتعبير بالمكر عن فعلهم بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم ﴿ وعند الله مكرهم﴾ أي لا يفوته فعلهم فيجازيهم عليه، لأنه محيط بهم وبفعلهم ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ أي مهما بلغ فعلهم من الشدة، والمتانة والهول حتى ولو كان ذلك الفعل بالغاً ما بلغ، والتعبير بتزول منه الجبال لبيان أن الله سبحانه يحيط به ومتسلط عليه ولو كان من عظمه قد أثقل الجبال فزالت من مكانها.

القــــراءة

قرأ الكسائي: ﴿وإن كان مكرهم لتزول﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية.

ثم إنّه سبحانه أكّد كونه مجازياً لأهل المكر على مكرهم بقوله:

٤٧ ـ ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

﴿فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله﴾ بعذاب الكفار والظالمين يوم القيامة ﴿إنّ الله عزيز ذو انتقام﴾.

٤٨ ـ ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾.

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ ظاهر الكلام أن السماوات والأرض التي نراها ونألفها سوف يأتي عليها يوم تتغير بغيرها وأما هذا التغيير والتبديل فهو في علم الغيب، وأما ما جاء في ذلك من الروايات المروية فلا شيء يصح ولا رأي تطمئن له النفس، فبعضهم يقول نار وبعضهم يقول تصير فضة، وبعضهم بالغ فقال تصير خبزة. وهذه آراء متساقطة لا يعوّل عليها ﴿وبرزوا﴾ أي الكفار الظالمون ﴿لله الواحد القهار﴾ ليوم الحساب والجزاء.

٤٩ ـ ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾.

﴿وترى المجرمين يومئذ﴾ يعني الكفار ﴿مقرنين بالأصفاد﴾ يقال قرنت الشيء بالشيء إذا وصلته به أي مربوطين، والأصفاد الأغلال.

القطــران

٥٠ ـ ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾.

﴿سرابيلهم﴾ قمصانهم ﴿من قطران﴾ هو ما يجلب من شجر الأبهل فيطبخ وتدهن به الإبل الجربى،

فيذهب الجرب بما فيه من الحدة الشديدة، وقد تصل حرارته إلى الجوف، وهو أسود نتن يسرع فيه اشتعال النار، حتى قيل إنّه أسرع الأشياء اشتعالا، وفي ذلك تحذير ووعيد بما يعرفون حقيقته، ويطلق القطران كذلك على النحاس المذاب. ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ أي تعلوها.

٥١ ـ ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

ثـم أشار إلى القرآن، أو إلى ما في السورة، أو إلى ما مرّ من قوله: ﴿ولا تحسبنّ الله غافلاً﴾ إلى ها هنا فقال:

٥٢ ـ ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به﴾ أي بالإنذار الوارد بالقرآن ﴿وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب﴾ أي ليتعظ أولو القلوب البصيرة.

سورة الحجر

سورة الحجر سميت بها لأنها تتحدث عن قوم ثمود، كانت منازلهم الحجر، بين المدينة والشام.

لما ختم الله سبحانه سورة إبراهيم عليه السلام بذكر القرآن، وأنه بلاغ وكفاية لأهل الإسلام افتتح هذه السورة بذكر القرآن وأنه مبين للأحكام فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

الواضح وهو القرآن.

٢ ـ ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾.

والمعنى: يتمنى الكفار يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، لو كانوا مسلمين في الدنيا مثل الذين فازوا بالجنة، وهذه الآية نزلت للوعيد، وهي مثل قول العرب ربما يندم فلان.

القـــراءة

﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ قرأ نافع وعاصم ﴿ربما يودّ الذين كفروا﴾ بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد.

٣ ـ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ أي دع الكفار يأخذوا حظهم في الدنيا، ﴿ويلههم الأمل﴾ ويشغلهم ما يؤملون في الدنيا عن أخذ حظهم من الإيمان والطاعة ﴿فسوف يعلمون﴾ يوم القيامة وبال ما صنعوا وهذا وعيد وتهديد.

نقول إن القرآن مليء بالآيات الدالة على معنى هذه الآية، الذي ينص على تأخير العذاب عن أمة محمد إلى يوم القيامة، والخطاب ليس للنبي ﷺ وحده، وإنما القرآن نزل ليخاطب جميع الناس على مختلف الأجيال وتعاقب السنين، فليس في كل عصر ولا في كل وقت ومكان يمكن للمسلمين استعمال السيف، بل إن في بعض الأماكن لا يستطيع المسلمون الكلام بشيء من الأمر مع الكفار وفي بعض الأماكن المسلمون مستضعفون فليس لهم إلّا تطبيق هذه الآية يذروا الكفار حتى يقضي الله بأمره ويبدل الحال.

ثم ذكر ما هو نهاية في الزجر والتحذير فقال:

٤ ـ ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴾.

﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي ما عذبنا من قرية من الأمم السابقة ﴿إلاّ ولها كتاب معلوم﴾ أي أجل مؤقت لا يتقدم ولا يتأخر.

٥ ـ ﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾.

ولما بالغ في تهديد الكفار شرع في تعديد بعض شبههم ومطاعنهم في النبي ﷺ فقال:

٦ ـ ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴾.

﴿الذكر﴾ هو القرآن، وقال الكفار ذلك استهزاء، وقال الله في سورة القلم ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾.

٧ ـ ﴿ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.

لو هنا معناها لولا، أو هلاّ لغتان، وإنما سألوا الملائكة ليشهدوا له بصدقه، وأنّ الله أرسله، فأجابهم الله في الآية التالية.

٨ ـ ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾.

﴿ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحق﴾ أي بالأمر الذي يطلبه الله منهم، إما بنزول العذاب أو بالوحي على الأنبياء والمرسلين، أو قبض الأرواح ﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ عند نزول الملائكة.

القــــراءة

﴿ما ننزّل الملائكة إلا بالحق﴾، قرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿ماتنزّل﴾ بضم التاء مفتوحة الزاي، ﴿الملائكة﴾ رفع على ما لم يسمّ فاعله، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿ما ننزّل﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿تنزّل﴾ بالتاء مفتوحة، ﴿الملائكة﴾ رفع.

ثم أنكر على الكفار استهزاءهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذكر﴾ فقال على سبيل التوكيد:

٩ ـ ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

﴿إنا نحن نزّلنا الذكر﴾ القرآن ﴿وإنا له لحافظون﴾ من الضياع والزيادة والنقص.

ثم ذكر أنّ عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء كذلك، فقال:

١٠ ـ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

يعني رسلاً، والشيع الفرق.

١١ ـ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

كل رسول كان مبتلى في قومه كما ابتليت.

١٢ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

والمعنى: وكما وضعنا الخير والشر في الأمم السالفة وشيع الأولين الغابرة فاختاروا الشر وتركوا الخير والاستهزاء من طرف المشركين والكافرين والمنافقين بالقرآن والرسول ﷺ كذلك فقد سلكنا أي أدخلنا الاستهزاء في قلوب هؤلاء المجرمين حيث اختاروه لأنهم مجرمون كافرون.

١٣ ـ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿لا يؤمنون به﴾ بالنبي والقرآن ﴿وقد خلت سنة الأولين﴾ أي مضت سنة الله فيهم من تعذيبهم، بتكذيبهم أنبياءهم وهؤلاء مثلهم.

ثم حكى إصرارهم على الجهل والتكذيب بقوله:

١٤ ـ ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾.

﴿ولو فتحنا عليهم باباً﴾ أي الكفار ﴿من السماء فظلّوا فيه يعرجون﴾ يصعدون.

١٥ ـ ﴿ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾.

﴿لقالوا إنما سكّرت أبصارنا﴾ أي سدت وحارت لما وقع فيها من فساد النظر ما يقع في الرجل السكران ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير: ﴿لقالوا إنما سُكِرَتْ﴾ وقرأ الباقون: ﴿سكّرت﴾ بالتشديد.

البـــروج

ولما أجاب عن شبه منكري النبوة بما أجاب وكان القول بالنبوة مفرّعاً على القول بالصانع، أتبعه دلائل ذلك فقال:

١٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾.

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي كواكب سيارة مختلفة الأبعاد والخواص ﴿وزينّاها للناظرين﴾ أي

السماء بما فيها من الكواكب السيارة، والمراد بالناظرين المبصرون والمعتبرون.

١٧ - ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾.

﴿حفظناها﴾ أن يصل إليها شيطان، أو يعلم من أمرها شيئاً إلّا ما شاء الله.

١٨ - ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي اختطف ما سمعه من كلام الملائكة أو من الخلائق التي تعيش في السماء حيث الفضاء والعالم الخارجي غير الأرض، قال ابن قتيبة الشهاب المبين كوكب مضيء، وقيل مبين بمعنى ظاهر يراه أهل الأرض، وإنما يسترق الشيطان ما يكون من أخبار الأرض، فأما وحي الله عزّ وجلّ، فقد صانه عنهم.

لما تقدم ذكر السماء وما فيها من الأدلة والنعم أتبعه بذكر الأرض فقال:

١٩ - ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾.

﴿والأرض مددناها﴾[1] أي بسطناها للسير عليها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ وهي الجبال الثوابت. ﴿وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون﴾ الموزون المعلوم، والمعتدل المناسب.

٢٠ - ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾.

﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جمع معيشة والمعنى جعلنا لكم فيها أرزاقاً تعيشون بها. ﴿ومن لستم له برازقين﴾ من العيال والممالك والخدم والدواب، والأنعام، والوحوش فإن قيل كيف قلتم: إنَّ ﴿من﴾ ها هنا للوحوش والدواب وإنما تكون لمن يعقل فالجواب: إنّه لما وصفت الوحوش وغيرها بالمعاش الذي الغالب عليه أن يوصف به الناس، فيقال للآدمي معاش، ولا يقال للفرس معاش، جرت مجرى الناس كما قال الله: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ وهم الكواكب والشمس والقمر، وإذا اجتمع الناس وغيرهم غلبت الناس على غيرهم لفضيلة العقل والتمييز.

ثمّ بيّن غاية قدرته ونهاية حكمته فقال:

٢١ - ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

﴿وإن من شيء﴾ من الأشياء ﴿إلّا عندنا خزائنه﴾ أي في حكمنا وتدبيرنا له ﴿وما ننزّله إلّا بقدر معلوم﴾ لا يزيد ولا ينقص ويدخل في ذلك المطر وغيره.

٢٢ - ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾.

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ جمع لاقح بمعنى حامل أي ذات لقاح وحمل ﴿فأنزلنا من السماء ماء

---

(١) الأرض كروية بعظمها ممدودة بالنسبة للبشر الذين يعيشون عليها.

فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾.

يقول محمد إسماعيل إبراهيم في كتابه: «القرآن وإعجازه العلمي»: (تبين لنا الآية إعجازاً علمياً غاية في الدقة والإحكام فهي تدل على أن الرياح في أثناء هبوبها تحمل في طياتها حبوب اللقاح التي تأخذها من زهرة لتلقي بها في مبيض زهرة أخرى، فيكون على أثر ذلك التلقيح بين النباتات، كما أن الرياح علاوة على ذلك تحدث تلاقحاً بين السحب المكهربة بالسلب والإيجاب فينتج عن ذلك البرق والرعد والمطر، والمطر عندما يسقط على الأرض يخصبها ويحيي مواتها، وهذا هو التلقيح بأوسع معانيه في الطبيعة)[1].

القــــراءة

قرأ حمزة: ﴿وأرسلنا الريح لواقح﴾ بغير ألف، وقرأ الباقون: ﴿الرياح﴾ على الجمع.

٢٣ ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾.

الباقي بعد فناء الخلق.

٢٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾.

يقال استقدم الرجل بمعنى تقدم واستأخر بمعنى تأخر والمعنى: المفهوم من سياق الآيات، أن معنى المستقدمين من مات منكم والمستأخرين الأحياء والآية التي قبلها تدل على ذلك، كما أن الآية التالية تأكيد لهذا المعنى.

ثم نبّه على أنّ الحشر والنشر أمر واجب، ولا يقدر على ذلك أحد إلاّ هو فقال:

٢٥ ـ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿وإنّ ربّك هو يحشرهم﴾ أي يحشر المستقدمين بالموت قبلا، ويحشر كذلك الباقين إذ لا خلاص للكل من الحشر ﴿إنه حكيم عليم﴾ عليم بأحوال وأعمال وأقوال الجميع.

قصة آدم وعلاقته بالملائكة والجن

لما ذكر سبحانه الإحياء والإماتة والنشأة الثانية عقبه ببيان النشأة الأولى فقال:

٢٦ ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال﴾ أي خلقنا الإنسان الأول من طين يابس يسمع له صلصلة إذا نقر ﴿من حمأ مسنون﴾ جمع حمأة، وهو الطين الأسود، والمسنون المتغير الرائحة.

---

(١) ص ١٣٣.

خلق الجانّ قبل آدم

٢٧ ـ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾.

وفي تفسير هذه الآية عدة أمور. ﴿الجان﴾: هو أبو الجن كما روي عن بعض السلف، ويؤيده قوله تعالى خلقناه بالإفراد. ﴿من قبل﴾: قال الآلوسي أي من قبل خلق الإنسان، أقول: وهذا تأييد لما اخترناه من أن هناك خلقاً قبل آدم عصوا وأفسدوا وسفكوا الدماء، فجاء آدم وذريته خليفة بعدهم، ﴿نار السموم﴾: من نار الريح الحارة وهي نار لا دخان لها وسميت سموماً لأنها بلطفها تنفذ في مسام البدن، ومنه السم القاتل، والمراد من النار المفرطة الحرارة.

٢٨ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.

المعنى: أي إني خالق آدم في الأرض.

روح الله في آدم

ثم إنّه لما استدل بحدوث الإنسان الأول على كونه قادراً مختاراً، ذكر بعده واقعته، فقال:

٢٩ ـ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

هذه الروح هي التي يحيا بها الإنسان وهي سرّ الحياة، ولا نعلم ماهيتها، وإنما أضافها الله إليه تشريفاً لآدم، وهذه منّة كبرى، وإنما سمّي إجراء الروح فيه نفخاً لأنّها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه، فبعثه متحرّكاً بعد أن صوّره طيناً جامداً ﴿فقعوا له ساجدين﴾ هذا أمر من الله.

٣٠ ـ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

ثم استثنى إبليس من الملائكة ثم استأنف على تقدير سؤال سائل فقال:

توكيد بعد توكيد مما يدلّ على أنّ الملائكة لم يتخلّف منهم أحد.

٣١ ـ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

﴿استثناء منقطع من غير الجنس؛ لأنّه من الجن وكان وجوده حين الأمر بين الملائكة وفيه دلالة على أنّ إبليس يملك اختياراً خاصاً، بخلاف الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ثم ذكر سبحانه خطاب تقريع وتأنيف لا تعظيم وتشريف فقال:

٣٢ ـ ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

وحيث ثبت بالقرآن بآيات أخرى أمر إبليس بالسجود[1] بوضوح دلّ على أنّه مأمور هنا بالسجود لآدم بصفة خاصة مع الملائكة.

---

(١) قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾. الآية: ١٢. =

٣٣ ـ ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.

اللام في ﴿لأسجد﴾ لتأكيد النفي أي لا يصحّ منّي، وينافي حالي أن أسجد لبشر، وحال شبهة اللعين أنّه روحاني لطيف، وآدم جسماني كثيف، فعارض النص بالقياس فلا جرم أنْ أجيب بقوله:

٣٤ ـ ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾.

أي من المكانة التي أنت فيها إلى مكانة تليق بك وبموقفك ومعنى ﴿رجيم﴾ أي ملعون مطرود لأن من يطرد يرجم بالحجارة.

٣٥ ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

و﴿يوم الدين﴾ أي يوم الجزاء ضرب حدّاً للعنة جرياً على عادة العرب في التأبيد.

ولما خصص آدم بالإضافة إلى نفسه في سورة ص حيث قال ﴿لما خلقت بيدي﴾. خصص إبليس باللعنة أيضاً بالإضافة فقال: ﴿وإن عليك لعنتي﴾ عندها قال:

٣٦ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

أي أخّرني وأمهلني ولا تمتني إلى يوم يبعث آدم وذريته كأنّه طلب أن يؤخّر عذابه إلى يوم القيامة ولا يعذّب في الدنيا.

إبليس وأتباعه

٣٧ ـ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾.

٣٨ ـ ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾. المعلوم بموت الخلائق فيه.

٣٩ ـ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿قال رب بما أغويتني﴾ الباء للقسم، وجواب القسم لأزينن والمعنى: أقسم بإغوائك إياي بسبب أمرك لي بالسجود لآدم عليه السلام الذي أفضى إلى غيي.

قال الزمخشري في الكشاف[٢] وما الأمر بالسجود إلّا حسن وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر

= وقال في سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾. الآية: ٦١.
وقال في سورة صٓ: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين﴾. لآية: ٧٥.

(١) الآية: ٧٥.

(٢) ج ٢ ص ٣٩١.

الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك، والله تعالى بريء من غيه ومن إرادته والرضا به، ﴿لأزيننّ لهم في الأرض﴾ أي لأصوّرن لهم القبيح حسناً والشر خيراً، والباطل حقاً حتى يقعوا فيه ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أجعل غايتهم الضلال مثلما كانت عاقبة أمري بسببهم، والتعبير بأجمعين للتغليب بالأكثرية الساحقة أنها تطيع إبليس كل بحسبه، ويدخل في ذلك الثقلان من الجن والإنس.

٤٠ ـ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

﴿إلّا عبادك منهم المخلصين﴾ المخلصون الذين أخلصوا دينهم لله، عن كل شائبة تناقض الإخلاص كالأنبياء والصالحين. وفي هذه الآية رد على من زعم أن يوسف عليه السلام همّ بالفحشاء بامرأة العزيز لما همت به ومنعه برهان ربه، فعباد الله المخلصون ليس لإبليس عليهم سلطان كما في هذه الآية. ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾[1] بمعنى أنَّ السلطة عليهم تضعف مقابل إيمانهم بالله. ولما ذكر إبليس من الاستثناء بما ذكر قال الله سبحانه:

٤١ ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾.

أي هذا قول الله سبحانه أي أن هذا الذي قضيته حق.

٤٢ ـ ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾.

بيّن به أنّه لا يقدر على إغواء المخلصين أي ولكن من اتبعك من الغواة فلك تسلّط عليهم بالإغواء، لا بسبب الجبر والقسر، بل من جهة الوسوسة والتزيين كما تقدّم. والاستثناء في الآية منقطع.

٤٣ ـ ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

٤٤ ـ ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾.

وما ذكره بعض المفسرين من صفة الأبواب، وكيفيتها لا يستند إلى دليل صحيح، بل إدراك أو أسماء لجهنّم، نترك تفاصيل ذلك إلى الله سبحانه ﴿جزء مقسوم﴾ أي قدر معلوم متميز عن غيره، والمعنى أنَّ لكل باب فريقاً مفروضاً يدخله.

المتقون وجزاؤهم

لما ذكر سبحانه عباده المخلصين بذكر حالهم في الآخرة قال:

٤٥ ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

٤٦ ـ ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾.

مقتضى السلام الأمن فلا خوف ولا مرض ولا نصب، ولا جوع ولا عري، ولا عذاب ولا نار ولا موت.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

٤٧ ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾.

﴿الغلّ﴾. هو الحقد والعداوة، وكأنّهم إخوة من أم وأب من فرط المحبة والودّ لبعضهم ﴿على سرر متقابلين﴾ ينظر بعضهم إلى وجوه بعض حيث ما التفت رأى وجهاً يحبّه ويقابله، والسرر هي المجالس الرفيعة المهيئة للسرور.

٤٨ ـ ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

﴿النصب﴾ هو الإعياء والتعب والمعنى: أن من يدخل الجنّة لا يخرج منها، والمراد استمرار النفي وذلك لأن تمام النعمة بالخلود المقيّد بنظام الله ومشيئته.

٤٩ ـ ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

٥٠ ـ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾.

إنّه سبحانه عطف، ﴿ونبئهم﴾ على ﴿نبيء عبادي﴾ ليكون سماع هذه القصص مرغّباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأولياء ومحذّراً من المعصية المستتبعة لدركات الأشقياء.

طرف من قصة إبراهيم

٥١ ـ ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾.

وهم الملائكة والقصة مشروحة في سورة هود الآية: (٦٩) أتوه في صورة البشر.

٥٢ ـ ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه، وقوله هذا كان بعد أن قرّب إليهم العجل المشوي فلم يأكلوا منه، وكانت العادة أن الضيف إذا لم يأكل مما يقدم له ظنوا أنه لم يجيء بخير، وكونهم دخلوا عليه في وقت لا يطرق في مثله.

٥٣ ـ ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾.

هو إسحاق عليه السلام وقد جعل هنا البشارة لإبراهيم، وفي هود لامرأته و﴿عليم﴾ ذي علم كثير إشارة إلى أنه يكون نبياً.

٥٤ ـ ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

أي فبأيّ أعجوبة تبشرون أو بأيّ شيء تبشرون، فإن البشارة بما لا يقع عادة بشارة بغير شيء وهذا استفهام تعجب.

القـــراءة

قرأ نافع: ﴿تبشرون﴾ بكسر النون، ووافقه ابن كثير في كسرها ولكنّه شدّدها، وقرأ الباقون بفتحها.

٥٥ ـ ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾.

أي باليقين الذي لا خلف فيه ﴿فلا تكن من القانطين﴾ أي الآيسين.

٥٦ ـ ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾.

القنـوط بمعنى اليأس، ولم يكن إبراهيم قانطاً ولكنّه استبعد وجود الولد.

القـــراءة

﴿يقنط﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي: بكسر النون ﴿يقنِط﴾.

٥٧ ـ ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

٥٨ ـ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾.

٥٩ ـ ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

﴿آل لوط﴾ هم أتباعه، وهو استثناء ليس من الأول منقطعاً لأنّ آل لوط ليسوا من المجرمين.

القـــراءة

﴿إنا لمنجّوهم أجمعين﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿لمنجوهم﴾ خفيفة.

٦٠ ـ ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾.

استثناء من الاستثناء أي أرسلنا إليهم لنهلكهم إلا آل لوط، إلا امرأته كقول المقرّ: لفلان عليّ عشرة إلّا ثلاثة إلّا واحداً.

لوط والملائكة

ثم إنّ الملائكة لما بشّروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنّهم مرسلون إلى قوم مجرمين، ذهبوا بعد ذلك إلى لوط.

٦١ ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾.

الملائكة.

٦٢ ـ ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾.

﴿قال﴾ لوط عليه السلام ﴿إنّكم قوم منكرون﴾ يعني لا أعرفكم.

٦٣ ـ ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

أي العذاب، كانوا يشكّون في نزوله بهم.

٦٤ ـ ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾.

أي بالأمر المحقق، المتيقّن الذي لا مجال للامتراء والشك فيه. ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به.

٦٥ ـ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾.

﴿فأسر بأهلك بقطع[1]من الليل﴾ أي أتباعك ﴿واتبع أدبارهم﴾ أي سر خلفهم، لكي لا يتأخر منهم أحد ثم زاد في البيان فقال: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ فتروا ما ينزل بالكفار من العذاب ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ بالوحي إلى إحدى الأماكن التي لم ينزل بها العذاب من تلك القرى الظالمة.

ثم أخبر عن حالهم مجملاً فقال:

٦٦ ـ ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

﴿وقضينا إليه﴾ أي أوحينا إلى لوط ﴿ذلك الأمر أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي أوحينا إلى لوط الأمر بهلاك قومه، والدابر الآخر، والمراد استئصالهم في الصباح.

ثم حكى ما أبدى قوم لوط من الفعال بعد نزول الملائكة فقال:

٦٧ ـ ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

﴿وجاء أهل المدينة﴾ قوم لوط واسمها سدوم ﴿يستبشرون﴾ بأضياف لوط، طمعاً في الفاحشة.

٦٨ ـ ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾.

بقصدكم السيىء.

٦٩ ـ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾.

بالتعرّض لهم فتهينوني وتذلوني أمامهم بالتعرّض لمن أجرتهم.

٧٠ ـ ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾.

---

(١) بقطع: بقية من الليل.

أي عن ضيافة أو إجارة العالمين لأنّهم كانوا يتعرّضون للغرباء، وكان لوط ينهاهم عن ذلك وينكر عليهم بقدر وسعه، وكانوا قد نهوه عن تعاطيه مثل ذلك، فكأنّهم قالوا ما ذكرت من الخزي والفضيحة إنما جاء بسبب تدخلك بإجارة وضيافة الغرباء، والإحالة بيننا وبينهم.

٧١ ـ ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾.

يعني نساء القوم أو بناته حقيقة تتزوّجونهنّ أطهر لكم ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلّ الله دون محرّم.

القــــراءة

﴿بناتي﴾ حرّك نافع وأبو جعفر ياء ﴿بناتيَ﴾.

ثم قالت الملائكة للوط عليه السلام:

٧٢ ـ ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾.

﴿لعمرك﴾ قسم من الله تعالى بعمر نبينا محمد ﷺ ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ أي يترددون في ضلالتهم أو غفلتهم كشارب الخمر.

٧٣ ـ ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾.

أي داخلين في الشروق وبعد بزوغ الشمس كان ابتداء العذاب من أول الصبح لقوله: ﴿مصبحين﴾ وغلبته كانت عند طلوع الشمس، وأما الصيحة فقد مرّ تفسيرها في سورة هود الآية: (٦٧).

٧٤ ـ ﴿ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴾.

﴿من سجيل﴾ طين طبخ بالنار.

٧٥ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾.

أي للمتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقائق الأشياء من سماتها من الوسم أصله التثبت والتفكر.

٧٦ ـ ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴾.

يعني مدينة قوم لوط بطريق متبين للباحث عنها وهي بطريق القوافل للشام وحيث أنّ ما جرى لقوم لوط واحدة من تلك الآيات السابقة فلذلك قال:

٧٧ ـ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

أصحاب الأيكة

ثم أجمل قصة قوم شعيب فقال:

٧٨ ـ ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾.

هم قوم شعيب والأيكة في الأصل الشجرة الملتفة واحده الأيك، والمراد بها غيضة أي بقعة كثيفة الأشجار، كانوا يسكنون الغيضة وعامة شجرها الدوم، فبعث الله إليهم شعيباً فكذّبوه فأهلكوا ﴿وإن﴾ مخففة من الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة ﴿لظالمين﴾.

٧٩ ـ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

﴿فانتقمنا منهم﴾ بالعذاب والهلاك ﴿وإنهما﴾ أي الأيكة ومدينة قوم لوط ﴿لبإمام مبين﴾ أي بطريق ظاهر وقيل للطريق إمام لأن المسافر يأتم به حتى يسير إلى الموضع الذي يريده.

ثم ختم القصص بقصة ثمود فقال:

٨٠ ـ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

ثمود كانت منازلهم بالحجر، بين المدينة والشام، وهو اسم الوادي الذي به مدينتهم، والمراد بالمرسلين صالح وحده، لأنّه من كذّب نبياً فقد كذّب الكل فلم يؤمنوا بمن سبقه.

٨١ ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾.

والمراد بالآيات: الناقة كان فيها آيات خروجها من الصخرة، ودنو نتاجها عند خروجها، وعظم خلقها فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى كان يكفيهم جميعاً، فلم يتفكروا فيها، ولم يستدلوا بها.

٨٢ ـ ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾.

كما في الأعراف (٧٤) ونحتهم البيوت لعدة أسباب وأهمها الأمن من أن تقع عليهم من الأمطار والسيول لأنهم كانوا في واد، وهذا ما يدل على حضارتهم، وتفننهم في البناء أي أنهم أهل حجر ومدر.

٨٣ ـ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾.

أي أخذهم الهلاك بالعذاب بالصيحة التي هي أثر من آثار الصاعقة وقت الصبح مثل قوم لوط وقت طلوع الشمس مشرقين.

٨٤ ـ ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

من الأموال والأنعام والنعمة والخير وما وصلوا إليه من فن بل خروا جاثمين.

ولما فرغ من القصص قال مبتدءاً في تسلية النبي ﷺ، وتصبيره على أذيات قومه بعد قص أحوال الأمم السابقة ومعاملاتهم مع أنبيائهم:

٨٥ ـ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾.

﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية﴾ أي يوم القيامة، وفي الآية رد على الكفار الذين يزعمون أن نسبة خلق السماوات والأرض إلى الله باطل وأنّ خلق الناس لعبادة الله عبثٌ وأنه لا بعث بعد الخلق كما قال عزّ وجلّ في سورة ص : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾[١] وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾[٢] وبعد أن أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، أمره بالصفح الجميل من المشركين في أذاهم له فقال: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ وهو ما ليس فيه عتاب، والصفح أبلغ من العفو قال الآلوسي: وحاصل ذلك أمره بمخالفتهم بخلق رضي وعلم وتأنٍّ لأن ينذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى قبل القتال ثم يقاتلهم.

٨٦ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

تقرير للمعاد وأنّه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنّه الخلّاق الذي لا يعجزه خلق شيء.

السبع المثاني

بعد أن حثّه على الصفح والتجاوز عمن آذاه، ذكر النعم العظام التي خصّه بها فقال:

٨٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾.

قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان «السبع المثاني هي الفاتحة»، وذلك أنّها سبع آيات جمع مثناة من التثنية لأنّها تثنّى في كل صلاة.

ولما عرّف رسوله نعمه الدينية ورغّبه فيها نفره من اللذات العاجلة الزائلة لأن كل نعمة وإن عظمت فإنّها بالنسبة إلى نعمة القرآن ضئيلة حقيرة فقال:

٨٨ ـ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي لا تطمح بنظرك طموح راغب إلى متاع الدنيا وزينتها، بأصنافها المختلفة مثل الكفرة وغيرهم والنهي لأمته وإن كان الخطاب له عليه الصلاة والسلام وأيد بما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه،

(١) الآية: ٢٧.
(٢) الآية: ١١٥.

والحاصل أن الآية فيها نهي عن الحسد وتمنّي مال الغير ﴿ولا تحزن عليهم﴾ إن لم يؤمنوا وقد أعطوا من مال الدنيا، فإنه سيكون شراً لهم في الآخرة إن لم يحسنوا عمله ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ ألِن لهم جانبك. وترفق بهم كما هو مبسوط شرحه في تفسير الآية: ١٣١ من سورة طه الآتية إن شاء الله.

ولما بعثه على الرفق بأهل الإيمان أمره بالإنذار لكل المكلفين فقال:

٨٩ ـ ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

أي المنذر الكاشف نزول عذاب الله تعالى ونقمه المخوفة بمن لم يؤمن.

٩٠ ـ ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾.

٩١ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾.

﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، جزأوا كتبهم.

﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ هم الكفار من غير أهل الكتاب، مأخوذ من الإعضاء، والتعضية تجزئة الذبيحة أعضاء. والمعنى: إن الكفار من المشركين وغيرهم من المنافقين، موقفهم من النبي ﷺ وأتباعه ونظرتهم للقرآن تشبه حالهم حال أهل الكتاب، الذين جزأوا التوراة والانجيل وحرّفوها فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، حيث أن هؤلاء جزّأوا القرآن إلى عدة سور تقاسموها فيما بينهم للاستهزاء بالمسلمين، فقال بعضهم إنه سحر، وزعم بعضهم أنه كهانة، وزعم بعضهم أنه أساطير الأولين، منهم الأسود بن عبد يغوث والوليد بن المغيرة، وعدي بن قيس السهمي، والعاص بن وائل.

ثم أقسم على سبيل الوعيد فقال:

٩٢ ـ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

٩٣ ـ ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ هذا سؤال توبيخ، أي يحاسبون عما عملوا يوم القيامة، ﴿عما كانوا يعملون﴾ من خير أو شر ويجازون به.

ثم شجع نبيه قائلاً:

٩٤ ـ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ من الدعوة الإسلامية أي اجهر بها ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم، وباستهزائهم وإنما أخر قتالهم إلى أن تتمكن من مقاتلتهم ويكثر أتباعك.

ثم أكّد النهي عن الاكتراث بهم وقوى قلب نبيّه فقال:

٩٥ ـ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾.

والمعنى: فاصدع بأمري وقد كفيتك المستهزئين ولا تبال بهم فلن ينالوك بسوء حيث كفاك الله شرّهم.

٩٦ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر﴾ أي المشركون بالله أعرض عنهم مؤقتاً ﴿فسوف يعلمون﴾ غداً مصيرهم بأيديكم ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

ثم زاد في تسلية نبيه فقال:

٩٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

أي من المطاعن والتكذيب والاستهزاء لكن صبرك وإعراضك سوف يكون مؤقتاً إلى حين يمكنك الله.

ثم أمره بكشف ما نابه بأربعة أشياء فقال:

٩٨ ـ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

أي المصلين.

٩٩ ـ ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾.

اليقين هو الموت وسمّي يقيناً لأنه موقن به وفيه أمر بالإقامة على العبادة والاستمرار عليها.



سورة النحل سمّيت بها لأنّها تتكلّم عن النحل، وتسمّى سورة النعم أيضاً لأنّها تتحدّث عن النعم التي منّ الله بها على الإنسان.

لما ختم الله سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار كان افتتاح هذه السورة بوعيدهم أيضاً فقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

﴿أتى أمر الله﴾ بمعنى يأتي، كما يقال أتاك الخير فأبشر، أي سيأتيك وشاهده ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾ في الأعراف أي وسوف ينادي أصحاب الجنة، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه. والمراد بأمر الله قضاؤه في كل شيء فيشمل الأحكام والفرائض، أو العذاب والهلاك وهو أنواع مختلفة ﴿فلا تستعجلوه﴾ أي لا تطلبوه قبل حينه ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وهذا يدلّ على أن الذين يستعجلون الطلب هم الكفار وذلك بأن يقال حينئذ: لما كان استعمالهم ذلك من نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله تعالى ما لا يليق به سبحانه من العجز والاحتياج إلى الغير واعتقادهم أن أحداً يحجزه عن إمضاء وعيده وإنجاز وعده.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿سبحانه وتعالى عما تشركون﴾ بالتاء.

ثم إنّ المشركين كأنّهم قالوا سلمنا أنّه تعالى يقضي على طائفة باللطف وعلى الآخرين بالقهر، ولكن كيف صرت واقفاً على أسرار الله تعالى في ملكه وملكوته دوننا، ومن أين حصل لك هذا الفضل علينا؟ فأزال الله سبحانه شبهتهم بقوله:

٢ ـ ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾.

﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ يرسل الملائكة بالوحي بالشأن الذي يريده على من يختار ويصطفي من الناس أنبياء ورسلا ﴿أن أنذروا﴾ أهل الكفر والمعاصي ﴿أنه لا إله إلاّ أنا فاتقون﴾ أي مروهم بتوحيدي، وخوّفوهم من عذابي.

القــــراءة

قرأ أبو بكر في رواية الكسائي: ﴿تنزل﴾ بالتاء مضمومة وفتح الزاي، وقرأ روح بن عبد المؤمن[1]: ﴿تنزل الملائكة﴾ بفتح التاء.

بعد أن بيّن سبحانه إنزال الملائكة بالوحي على من يختاره من عباده أتبعه دلائل التوحيد مبتدئاً من الأشرف وهو السماويات إلى الأدون وهو الأرضيات فقال:

٣ ـ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. أي تقدس بذاته وأفعاله.

ثم إنّ أشرف الأجسام بعد الفلكيات بدن الإنسان، فلهذا عقب المذكور بقوله:

٤ ـ ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾.

﴿خلق الإنسان من نطفة﴾ أصلها الماء الذي يخرج من الذكر، أي أوجده من ماء سيّال ﴿فإذا هو﴾ بعد الخلق والنطق. ﴿خصيمٌ مبين﴾ مجادل ظاهر الخصومة وينكر البعث، أفلا يستدلّ بأوله على آخره، وأنّ من قدر على إيجاده أولاً، يقدر على إعادته ثانياً؟ وفيه تنبيه على إنعام الله حين نقله من حال ضعف النطفة إلى القوة التي مكّنته للخصام.

الأنعام من الحيوان

ثم أردف تكوين الإنسان بتكوين الحيوانات التي ينتفع بها الإنسان في ضرورياته من الأكل والركوب وجرّ الأثقال، وفي غير الضروريات من الأغراض الصحيحة كالتزيين والجمال فقال:

٥ ـ ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ الإبل، والبقر، والغنم، خلقها الله للانتفاع بها ومن منافعها ﴿فيها دفء﴾ ما استدفىء به من أوبارها وأصوافها وأشعارها، تتخذ ثياباً، ومساكن وغير ذلك ﴿ومنافع﴾ سوى الدفء من الجلود والألبان والأدهان، والنسل، والركوب، والعمل عليها في الحقول ﴿ومنها تأكلون﴾ من لحومها.

٦ ـ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾.

﴿ولكم فيها جمال﴾ أي زينة ﴿حين تريحون﴾ حين تردونها إلى أماكنها بالعشيّ من المرعى إلى مراحها أو في البيوت ﴿وحين تسرحون﴾ ترسلونها بالغداة إلى مراعيها، وقد قدم في الآية الرواح من المرعى في العشيّ وهو مؤخر في المساء، فالجواب أنها في حال الرجوع من الرعي تكون أجمل وأحسن مظهراً ومنظراً لأنّها تكون قد رعت وشربت وامتلأت ضروعها. وامتدت أسنمتها. فتكون زينة للناظر إليها.

---

(١) هو روح بن عبد المؤمن، أبو الحسن البصري مولى هذيل، نحوي مقرىء جليل ثقة ضابط مشهور، عرض على يعقوب الحضرمي، وروى الحروف عن جماعة عن أبي عمرو بن العلاء، مات سنة: ٢٣٤ هـ.

٧ ـ ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾.

﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس﴾ عام في كل مسافر وما يحمله على البعير، والسفر من بلد إلى بلد على الجمال والأقدام لا شك أن فيه مشقة، والشق هو الجهد بالنفس ﴿إنّ ربكم لرؤوف رحيم﴾.

حكم أكل لحوم الخيل

٨ ـ ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾ أي خلقها الله لذلك لكم ويجوز أكل لحم الخيل للأحاديث الصحيحة فيها ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ من الحيوانات، وغيرها من عجائب الدنيا في السماوات والأرض التي لم يألفها العرب في زمانهم، وهذا من إعجاز القرآن وصدقه، حيث خلق الله ما لا يعلمه الناس في ذلك الزمان.

ولقد قال أحد المفسرين المحدثين: «لقد جدّدت وسائل للحمل والركوب لم يكن يعلمها أهل الزمان، والقرآن يهيّىء لها القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجر، ويخلق ما لا تعلمون» حتى لا يقول الناس: إنما استخدم آباؤنا الخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها، ولهذا هيّأ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخّض عنه العلم ويتمخض عنه المستقبل».

ولما ذكر بعض دلائل التوحيد بيّن أنّه إنّما ذكرها إزاحة للعذر، وإزالة للشبهة ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة فقال:

٩ ـ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ استقامة الطريق: والمعنى وعلى الله تبيين الطريق المستقيم الموصل للمسافر إلى بلده، سواء في البر والبحر والجو ﴿ومنها جائر﴾ قال ابن قتيبة: ومن الطرق جائر لا يهتدون فيه والجائر العادل عن القصد، وكما ينطبق على الطرق المادية والأهواء في البحار والمطبات الهوائية في الجو، كذلك يكون معنوياً، فيتناول أهل البدع والأهواء لخروجهم عن الطريق السوي المستقيم إلى الطرق والمذاهب الجائرة ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي لو شاء هدايتكم إلى ما ذكر من التوحيد، هداية مستلزمة للاهتداء إليه لفعل، ولكن لم يشأ، لأن مشيئته تابعة للحكمة، لأن الذي يدور عليه فلك التكليف هو الاختيار، الذي عليه ترتيب الأعمال التي يرتبط الجزاء بها.

نعم الله علينا في الفواكه والكون

ولما استدل على وجود الصانع الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بغرائب أحوال النبات فقال:

١٠ ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾.

ترعون دوابكم، سامت الإبل فهي سائمة: إذا رعت، وإنما أخذ ذلك من السومة، وهي العلامة، لتركها في الأرض علامات رعيها.

وحين ذكر مرعى الحيوان أتبعه ذكر غذاء الإنسان فقال:

١١ ـ ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ينبت لكم به الزرع﴾ مختلف النبات مما يأكل الناس كالحبوب والأشجار، ويدخل فيه الكلأ مرعى الحيوان وتقديم الزرع على ما عداه قيل: لأنه أصل الأغذية، وعمود المعاش وقوت أكثر العالم ﴿والزيتون﴾ وفيه شرف من حيث أنه إدام من وجه، وفاكهة من وجه، وقد ذكر الأطباء له منافع جمة وأكثر ما ينبت في المواضع التي زاد عرضها على الميل، واشتد بردها وكانت جبلية، ذات تربة بيضاء أو حمراء، ونجده بكثرة في شمال أفريقيا، ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وفي الأندلس، وفلسطين وبلاد الشام ولبنان، وشجره يدوم كثيراً فالواحدة قد تدوم نحو ألفي سنة. قال الله تعالى: ﴿وصبغ للآكلين﴾ ﴿والنخيل﴾ ثم قدم الله النخيل على الأعناب، لظهور دوامها بالنسبة إليها، فإن الواحدة منها كثيراً ما تتجاوز مائة سنة، ويكثر النخيل في بلاد العرب، والعراق وإيران حول شط العرب، وبعض المناطق في شمال أفريقيا والبلاد الحارة كبعض المناطق في أمريكا، وهي شجرة طيبة ذكرنا طرفا عنها في سورة إبراهيم الآية: (٢٤) وفي الحديث: «ما جاع بيت وفيه تمر» ﴿والأعناب ومن كل الثمرات إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون﴾.

١٢ ـ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾.

القـــــراءة

قرأ ابن عامر: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات﴾ بالرفع فيهما، وقرأ الباقون جميع ذلك بالنصب نسقاً على ما قبله.

١٣ ـ ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

﴿وما ذرأ لكم في الأرض﴾ أي خلق من حيوان ونبات ومعادن ﴿مختلفاً ألوانه﴾ أصنافه قال الراغب: الألوان يعبر بها عن الأجناس والأنواع، يقال فلان أتى بألوان من الحديث والطعام، وذلك لما كان اختلافها غالباً، يكون باختلاف اللون ﴿إنّ في ذلك لآية لقوم يذّكرون﴾.

ثم عدّد سبحانه نوعاً آخر من أنواع نعمه فقال:

١٤ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ يعني السمك ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾. يعني: الدر واللؤلؤ، والمرجان والإسفنج ﴿وترى الفلك﴾ السفن ﴿مواخر فيه﴾ يقال مخرت السفينة مخراً، إذا شقت طريقها في الماء في جريانها. ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتحصلوا على منافع أخرى قد تظهر لكم، كما وجد في قاع البحار آبار نفط وكما يستخرج منه المادة الأولية للإسمنت والإسفنج ﴿ولعلّكم تشكرون﴾.

١٥ ـ ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ جبالاً ثوابت ﴿أن تميد بكم﴾ أي لئلا تميد، يقال: ماد الرجل يميد ميداً إذا أدير به، وقال ابن قتيبة: الميد الحركة والميل يقال: فلان يميد في مشيته أي يتكفأ ﴿وأنهاراً وسبلاً﴾ السبيل الطريق ﴿لعلّكم تهتدون﴾.

١٦ ـ ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

العلامات معالم يستدل بها المسافر من نحو جبل، وتراب، أي أنها معالم الطريق التي يهتدى بها بالنهار، وبالنجوم التي لها خصائص يعرفونها يهتدون في البر والبحر، والمراد بالنجم الجنس.

ثم لما عدّد الآيات الدالّة على الصانع ووحدانيته واتصافه بجميع صفات الكمال أراد أن يوبّخ أهل الشرك والعناد فقال:

١٧ ـ ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

تبكيت للكفرة وإبطال لإشراكهم.

ثم لما فرغ من تعديد الآيات التي هي بالنسبة إلى المكلّفين نعم فقال:

١٨ ـ ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

لا تطيقوا الإتيان على جميعها بالعدّ لكثرتها وقد مرّت بنا في سورة إبراهيم آية: (٣٤) ﴿إن الله لغفور رحيم﴾ بكم إذ لم يقطعها عنكم بتقصيركم في شكر نعمه.

كانوا مع اشتغالهم بعبادة غير الله يسرّون ضروباً من الكفر والمكايد في حق الرسول ﷺ فأوعدهم بقوله:

١٩ ـ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾.

وفيه أيضاً تعريض وتوبيخ بسبب أنّ الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية، والأصنام التي عبدوها جمادات لا شعور لها أصلاً فكيف يحسن عبادتها.

ثم زاد في التوبيخ فقال:

٢٠ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

﴿والذين يدعون من دون الله﴾ شروع في تحقيق أن آلهتهم بمعزل عن استحقاق العبادة، ذكرت في الآية مع ظهورها للتنبيه على كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يعرفون ذلك إلاّ بالتصريح ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ أي الأصنام.

القـــراءة

قرأ عاصم: ﴿والذين يدعون من دون الله﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿والذين تدعون من دون الله﴾.

٢١ ـ ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

﴿أموات غير أحياء﴾ أي الأصنام والمعبودات من دون الله ﴿وما يشعرون أيّان يبعثون﴾ أي الأصنام لأنّهم أموات لا أحياء، ويلزم من نفي شعورهم بوقت بعثهم نفي شعورهم بوقت بعث عبدتهم والكلام خارج مخرج الوعيد.

لما زيّف طريقة عبدة الأصنام صرّح بما هو الحق في نفس الأمر فقال:

٢٢ ـ ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

﴿إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالّة عليها ﴿وهم مستكبرون﴾ عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالّة عليها.

المستكبرون

٢٣ ـ ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

﴿لا جرم﴾ معناها حقاً إنّ الله يعلم سرّهم وعلنهم فيجازيهم بسرّهم وعلنهم لأنّه يعلمه، لما بالغ في تقرير دلائل التوحيد أراد أن يذكر شبهات منكري النبوة مع أجوبتها فقال:

٢٤ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي لأولئك المستكبرين في الأرض بغير الحق ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ جمع أسطار جمع سطر فهو جمع الجمع أو جمع أسطورة، ومقصودهم من ذلك أنه لا تحقيق فيه، ﴿وقيل﴾ القائل لهم بعض المسلمين ليعلموا ما عندهم.

٢٥ ـ ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ أي آثامهم الخاصة بهم ﴿ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم﴾ أي وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم، والمراد بالبعض حصة التسبب، فالمضل والضالّ شريكان هذا يضله، وهذا يطاوعه، فيتحاملان الوزر ﴿ألا ساء ما يزرون﴾ بئس ما حملوا على ظهورهم.

ثم حكى حال أضرابهم من المتقدّمين فقال:

٢٦ ـ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ من الناس وهو يشمل النمرود وغيره ومعنى المكر هاهنا: التدبير الفاسد ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي من الأساس ﴿فخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ قال ابن قتيبة هذا مثل، والمعنى: أهلكهم الله، كما هلك من هدم مسكنه من سفله، فخر عليه. ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ به قبل إتيانه أي داهمهم.

٢٧ ـ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

﴿ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يذلّهم ﴿ويقول أين شركائي﴾ على زعمكم؟ هلّا دفعوا عنكم ﴿الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي تخاصمون وتنازعون الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم في شأنهم. ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أوتوا علماً وكانوا يدعونهم في الدنيا إلى التوحيد فيجادلونهم، ويتكبرون عليهم ﴿إنّ الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾.

القـــراءة

قرأ نافع: ﴿تشاقونِ فيهم﴾ بكسر النون، وقرأ الباقون: ﴿تشاقونَ﴾ بفتح النون.

٢٨ ـ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ بالاستمرار على الكفر والشرك والظلم ﴿فألقوا السَّلم﴾ أي الاستسلام قال ابن قتيبة: انقادوا واستسلموا، وهذا عند الموت يتبرؤون من الشرك وهو قولهم ﴿ما كنّا نعمل من سوء بلى إنّ الله عليم بما كنتم تعملون﴾ من الشرك، والتكذيب، ثم يقال لهم: ادخلوا أبواب جهنّم . . .

القـــــراءة

قرأ حمزة: ﴿الذين يتوفّاهم الملائكة﴾ بالياء.

٢٩ ـ ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .

﴿فادخلوا أبواب جهنّم﴾ خطاب لكل صنف منهم أن يدخل باباً من أبواب جهَنّم ﴿خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ عن قبول التوحيد.

دار المتقين وجزاؤهم

ثم أتبع أوصاف الأشقياء أحوال السعداء فقال:

٣٠ ـ ﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أي المؤمنين. ﴿ماذا أنزل ربّكم قالوا خيراً﴾ أي أنزل خيراً، ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ أي الذين جاؤوا بالإحسان في هذه الدنيا لهم في الآخرة ﴿حسنة﴾ هي الثواب العظيم ﴿ولدار الآخرة خير﴾ ثم بيّن الخيرية بقوله: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

ثم قال:

٣١ ـ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

٣٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿الذين تتوفّاهم الملائكة طيبين﴾ طاهرين من دنس الشرك، زاكية أقوالهم وأفعالهم ﴿يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ هذا القول هو في الدار الآخرة، تقوله لهم الملائكة تبشرهم به بثباتهم على التقوى والطاعة.

ثم قال مجيباً على شبهة أخرى:

٣٣ ـ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

﴿هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ عذابه ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ في الأمم السالفة الذين عصوا أنبياءهم وكفروا بربهم، وهذا تهديد للمشركين، والمراد من إتيان الملائكة للشهادة بصدق النبي ﷺ: والمعنى: أي ما ينتظرون في تصديقك إلا أن تنزل الملائكة تشهد بنبوتك فهو كقوله تعالى[1]: ﴿لولا أنزل عليه ملك﴾ والملائكة لا تأتي لهذا وإنما تأتي لقبض أرواحهم فليعلموا ذلك، وهنا محل التهديد، ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾.

القــــراءة

﴿هل ينظرون إلاّ أن تأتيهم الملائكة﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿إلاّ أن يأتيهم الملائكة﴾ بالياء.

٣٤ ـ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾ أي جزاؤها على ما عملوا من الشرك ﴿وحاق بهم﴾ أحاط بهم، وأصل معنى الحيق مطلق الإحاطة، ثم خص في الاستعمال بإحاطة الشر، فلا يقال أحاطت به النعمة بل حاقت به النقمة ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾.

بعض حججهم الواهية

الشبهة الثالثة لمنكري النبوة، أنهم تشبثوا بمسألة الجبر فقالوا:

٣٥ ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ من الأصنام وغيرها ﴿نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ هكذا نجد الكفار المشركين يعترفون بالله، ويقولون ذلك على سبيل الاستهزاء بالمسلمين لا على سبيل الاعتقاد، والذي حرموه هو أشياء منها الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والحرث[2] وهذا الصنف منهم عندما سمعوا قول الله عز وجل ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله﴾[3] وغرضهم من ذلك تكذيب الرسول عليه السلام والطعن في الرسالة رأساً، وقولهم هذا قد سبقهم إليه الأولون من الكافرين بالأنبياء والرسل الذين أهلكهم الله ﴿ فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين﴾ أي أن وظيفة الرسل تبليغ ما أمر به للناس ولا دخل لهم بمشيئة الله، فالله سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه، وعلى الناس

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨.
(٢) راجع تفسير ذلك في سورة المائدة، الآية: ١٣٨.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

أن يطيعوا ما يبلغهم الرسل ولا دخل لهم بتدبير الكون ولا اعتراض لهم بما يأمر الله وينهى عنه وإلاّ شاركوا الله في خلقه فصاروا خالقين وهم مخلوقون ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾[1].

الحثّ على السير في الأرض للعبرة

ثم إنّه أكّد معنى التبليغ.

٣٦ - ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا﴾ من الأمم السابقة ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ والطاغوت هو كل ما يدعو إلى الضلال، كالشيطان من الإنس والجن، والمراد اجتناب ما يدعو إليه ﴿فمنهم من هدى الله﴾ أي اختار الحق والخير فيسّرهم الله إليه ﴿ومنهم من حقّت عليه الضلالة﴾ لاختيارهم الشر والظلم والكفر ﴿فسيروا في الأرض﴾ أيها الناس سائحين ومنقبين وباحثين أو مسافرين ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ من قبلكم كيف كان مصيرهم لكفرهم وعنادهم واختيارهم الشر كقوم عاد وثمود.

ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم فقال:

٣٧ - ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿إن تحرص على هداهم فإنّ الله لا يهدي من يضلّ﴾ أي من يختار الشر والكفر ويعاند مصرّاً على اختياره، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذاب عنهم.

القـــراءة

﴿إن تحرص على هداهم فإنّ الله لا يهدي من يضلّ﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي: ﴿فإن الله لايهدي﴾ بفتح الياء وكسر الدال. وقرأ الباقون: ﴿فإنّ الله لا يهدي﴾بضم الياء وفتح الدال على ما لم يسمّ فاعله.

ثم حكى سبحانه عن المشركين نوعاً آخر من كفرهم فقال:

٣٨ - ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي جاهدين في حلفهم ﴿لا يبعثُ الله من يموت﴾ وهو مبني على أن

(١) سورة النحل، الآية: ١٧.

الميت يعدم، ويفنى، وأنه يستحيل إعادة المعدوم، ﴿بلى وعداً عليه حقاً﴾ بلى يبعثهم وعداً عليه حقاً ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ثم ذكر حقيقة البعث فقال:

٣٩ ـ ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾.

﴿ليبيّن لهم الذي يختلفون فيه﴾ جميع ما خالفوه مما جاء به الرسل المبعوثون فيهم ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ في كل ما يقولونه، ومنه قولهم لا يبعث الله من يموت.

ثم برهن على إمكان البعث بقوله:

٤٠ ـ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[1].

القــــراءة

قرأ ابن عامر والكسائي: ﴿أن نقول له كن فيكون﴾ بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع.

المهاجرون وجزاؤهم في الدنيا

لما حكى الله سبحانه عن الكفار ما حكى من إنكار البعث والجزاء لم يبعد منهم ـ والحالة هذه ـ إيذاء المسلمين وإنزال الضرر والهوان بهم وحينئذ يلزمهم أن يهجروا تلك الديار فذكر ثواب المهاجرين قائلاً:

٤١ ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ نزلت في بعض الصحابة من المهاجرين ﴿لنبوئنّهم في الدنيا حسنة﴾ لنرزقنّهم في الدنيا الرزق الحسن والبلد الحسن بدل ما فقدوا من المال والولد والدار ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ في الجنة ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي الكفار الذين عذّبوهم وآذوهم وظلوا على كفرهم وشركهم. وروى ابن جرير الطبري فيما نقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه، قال خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أفضل، ثم يتلو هذه الآية ثم إن الله أثنى عليهم ومدحهم بالصبر فقال:

٤٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

---

(١) مثل هذه الآية مرّت في سورة البقرة.

﴿الذين صبروا﴾ على ما نالهم من الظلم ولم يرجعوا عن دينهم ﴿وعلى ربّهم يتوكّلون﴾ إن قريشاً كانوا يقولون الله أعلى وأجلّ من أن يكون رسوله بشراً فأجاب سبحانه بقوله:

٤٣ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ لما أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلاّ بعث إلينا ملكاً، والمعنى: أن الرسل كانوا مثلك آدميين، إلاّ أنهم يوحى إليهم ﴿فسألوا﴾، يا معشر المشركين ﴿أهل الذكر﴾ العلماء بالتوراة والإنجيل والقرآن ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾ أن الله تعالى بعث رسولاً من البشر إلى السابقين.

القـــراءة

قرأ حفص: ﴿إلاّ رجالاً نوحي﴾ بالنون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: ﴿يوحى﴾ بضم الياء على ما لم يسمّ فاعله.

البيّنات والزبر

٤٤ ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿بالبينات والزبر﴾ أي بالمعجزات والكتب، الأولى للدلالة على الصدق، والثانية لبيان الشرائع والتكاليف ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي القرآن، وهو من التذكير بمعنى الوعظ والإيقاظ من الغفلة ﴿لتبين للناس ما نزّل إليهم﴾ فيه من الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والخير والشر، وتهديهم به من الظلمات إلى النور ﴿ولعلّهم يتفكرون﴾ في ذلك فيعتبرون.

ثم لما ذكر شبهات المنكرين مع أجوبتها شرع في التهديد والإنذار والوعيد فقال:

٤٥ ـ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿أفأمن الذين مكروا السيئات﴾ المشركون من أهل مكة الذين مكروا برسول الله وراموا صدّ أصحابه عن الإيمان، ولا يمنع أن يدخل في اللفظ كل من مكر السيئات، وسمى ذلك مكراً، لأنّ المكر في اللغة السعي بالفساد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: لا ينبغي أن يأمنوا العقوبة ﴿أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾.

٤٦ ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أو يأخذهم في تقلّبهم﴾ في أسفارهم أو في ليلهم ونهارهم وجميع ما يتقلّبون فيه. ﴿فما هم بمعجزين﴾.

لغة أزد شنوءة في التخوف

٤٧ ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي على مخافة وحذر من الهلاك والعذاب، وفسّر بالتنقص وهي لغة أزد شنوءة التخوف التنقص والمعنى: أخذهم شيئاً فشيئاً، أموالهم وثمارهم وأنفسهم حتى ينهيهم ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ إذْ لم يعجل بالعقوبة وأمهل للتوبة.

ولما خوّف الماكرين بما خوّف، أتبعه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوي والسفلي وسكانهما فقال:

٤٨ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ خلقه الله من عالم الأجسام المقابل لعالم الأرواح، والأمر الذي لم يخلق من شيء بل وجد بأمر ﴿كن﴾ كما قال سبحانه ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[1] الهمزة في أولم للإنكار، والشيء أراد من شيء ما له ظل من جبل أو شجر أو جسم قائم ﴿يتفيؤا ظلاله﴾ يدور ويرجع من جانب إلى جانب، والفيء: الرجوع، ومنه قيل للظل بالعشي: فيء، لأنه فاء عن المغرب إلى المشرق والمشهور أن الفيء لا يكون إلا بعد الزوال ومن هنا قال الأزهري: إن تفيء الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار. والمعنى: أو لم يروا الأشياء التي ترجع وتنقل ظلالها ﴿عن اليمين والشمائل﴾ ﴿سجّداً لله﴾ خاضعين له بما يراد منهم مسخرين له سبحانه خالق كل شيء ﴿وهم داخرون﴾ أي مجبولون على الطاعة، وإنما ذكر من ليس من الإنس، لأنّه لما وصفهم بالطاعة أشبهوا الإنس في الفعل كالسجود والتسبيح.

القــــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿أو لم تروا إلى ما خلق الله﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء. قرأ أبو عمرو: ﴿تتفيأ ظلاله﴾ بالتاء.

٤٩ ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ أي نسمة تدب عليها أي تخضع له بما يراد منها، والساجدون على ضربين، من يعقل، فسجوده عبادة، ومن لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه، والخضوع الذي يدل على أنه مخلوق ﴿والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي وكذلك الملائكة يخضعون لله خضوع عبادة منقادين لا اختيار لهم فيما يؤمرون به.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

٥٠ ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾.

أي الملائكة هذه صفتهم.

الدعوة إلى التوحيد

ولما بيّن أنّ كل ما سواه في عالمي الأرواح والأجسام فإنّه منقاد خاضع لجلاله وكبريائه أتبعه النهي عن الشرك قائلاً:

٥١ ـ ﴿۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ في العبادة، كررت العبارة لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك. ثم نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلُّم على طريقة الالتفات قائلاً: ﴿فإيّاي فارهبون﴾ وقد مرّ مثله في أول البقرة.

ثم لما قرّر وحدته وأنّه يجب أن يخصّ بالرهبة منه والرغبة إليه ذكر أنّ الكل ملكه فقال:

٥٢ ـ ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وله ما في السموات والأرض وله الدين واصبا﴾ واصباً أي دائماً وهو حال من الدين والعامل فيه معنى الظرف الزماني والمعنى في الآيتين: خصُّوه بالوحدانية واعملوا بشريعته على الدوام، وقال ابن قتيبة: معنى الكلام أنه ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلكة غير الله عز وجل، فإن الطاعة تدوم له ﴿أفغير الله تتقون﴾.

ثمّ منّ عليهم بقوله:

٥٣ ـ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾.

﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسّكم الضرّ﴾ الفقر والمرض والضعف ﴿فإليه تجأرون﴾ ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدعاء، ولا تدعون غيره.

٥٤ ـ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي المنافقون والكفار.

٥٥ ـ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي جعلوا نعمنا سبباً إلى الكفر ﴿فتمتّعوا فسوف تعلمون﴾ عاقبة أمركم.

ثم حكى نوعاً آخر من قبائح أعمال بني آدم فقال:

٥٦ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ يعني الأوثان ثم أوعدهم الله بقوله: ﴿تالله لتسألنّ عما كنتم تفترون﴾ الجميع يوم القيامة لا يسأل عما عمل على العموم، ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾[1] لكن هنا وفي الآية: (٩٢) في الحجر سؤال خاص هو للتوبيخ.

٥٧ ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾.

بعض المشركين زعموا أنّ الملائكة بنات الله، قال الإمام فخر الدين الرازي: «أظنّ أنّ ذلك لأنّ الملائكة يستترون عن العيون كالنساء» (سبحانه) تنزيه لذاته عن نسبة الولد إليه. ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعني البنين، ويتمنون الذكور.

ثم ذكر غاية كراهتهم للإناث التي جعلوها لله تعالى فقال:

٥٨ ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

﴿وإذا بشّر أحدهم بالأنثى﴾ أي أخبر بأنه قد ولد له بنت ﴿ظل وجهه مسوداً﴾ متغيراً تغير مغتم، يقال لكل من لقي مكروها: قد اسود وجهه غما وحزنا ﴿وهو كظيم﴾ أي يكظم شدة وجده فلا يظهره، وقد فسّرناه في سورة يوسف بحزن يعقوب[1]، ويقرر البحث العلمي أن الوجه مرآة النفس وذلك لأن شكل الوجه يتوقف على الحالة التي تكون عليها العضلات التي تتحرك داخل الدهن تحت الجلد، وتتوقف حركتها على حالة أفكارنا وانفعالاتنا، فالغيظ المكظوم يظهر على الوجه فيحقن ويظهر محمراً أولاً وإذا اشتد كظم الغيظ وطال أمد احتقان الوجه يبدو مسوداً وهو ما يشاهد فعلا.

٥٩ ـ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به﴾ وهذا كان صنيع المشركين إذا ضرب امرأته المخاض توارى واختفى إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً سُرّ به، ، وإن كانت أنثى، لم يظهر أياما، يدبّر كيف يصنع في أمرها وهو يقول ﴿أيمسكه على هون﴾ أي المولود الذي بُشر به ﴿أم يدسه في التراب﴾ يخفيه وكانوا يدفنون البنت وهي حية ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ إذْ جعلوا لله البنات، اللاتي محلهن منهم هذا، وجعلوا لأنفسهم البنين.

٦٠ ـ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٩.

﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي صفة السوء من احتياجهم إلى الولد وكراهتهم للإناث خوف الفقر والعار ﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾[1] أي الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد.

تأخير العذاب عن أمة محمد

لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وفظيع قولهم بيّن غاية كرمه وسعة رحمته حيث أنّه لا يعاجلهم بالعقوبة فقال:

٦١ - ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾ أي بشركهم ومعاصيهم، كلّما وجد شيء منهم أخذوا به كما فعل في الأقوام السابقة ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ يعني الأرض من المكلفين ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ بالموت أو قيام الساعة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وهذا خاصّ بأمة محمد ﷺ والمقصود به عذاب الاستئصال الجماعي.

ثم عاد إلى حكاية كلمتهم الحمقاء فقال:

٦٢ - ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾.

﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ من نسب البنات إليه ﴿وتصف ألسنتهم الكذب أنَّ لهم الحسنى﴾ أي تقول الكذب، من أنّ لهم الجزاء الأحسن من الجنة والولد، والخير وكل ما يدخل تحت لفظ الحسنى ﴿لا جرم أنّ لهم النار﴾ أي حقاً أنّ لهم مكان ما زعموه من الحسنى النار ﴿وأنهم مُفْرَطُون﴾ أي معجلون إلى النار، قال الزجاج: معنى ﴿الفرط﴾ في اللغة: المتقدم، فمعنى ﴿مفرطون﴾ مقدمون إلى النار.

القــــراءة

قرأ نافع: ﴿وأنّهم مفرطون﴾ بكسر الراء.

من مظاهر قدرته ونعمه علينا

ثم بيّن سبحانه أنّ مثل صنيع قريش قد صدر عن سائر الأمم الكافرة فقال:

٦٣ - ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

---

(١) ختم الآية في الموضوع.

﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ الخبيثة حتى عصوا وكذّبوا، ﴿فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ قال بعض المفسرين يوم القيامة، وقال الآلوسي: «أي يوم زين الشيطان أعمالهم فيه، وهو وإن كان ماضيا، واليوم المعروف معروف في زمان الحال كالآن، لكن صور بصورة الحال ليستحضر السامع تلك الصورة العجيبة ويتعجب منها، وسمى مثل ذلك حكاية الحال الماضية، وهو استعارة من الحضور الخارجي، للحضور الذهني، أو يفسر اليوم بمعنى مدة الدنيا لأنها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة وهي شاملة للماضي والآتي وما بينهما أي فهو وليهم في الدنيا.

ثم ذكر سبحانه أنّه ما هلك من هلك إلّا بعد إقامة الحجة وإزاحة العلة فقال:

٦٤ ـ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه﴾ والمعنى: والخطاب للنبي أنزلنا عليك القرآن لتكشف لأهل الكتاب مااختلفوا فيه في كتابهم، مما حرّفوه وكذبوا فيه، واختلفوا مع المسلمين ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ فعليهم اتباعه ليكون لهم ذلك.

ولما امتد الكلام في وعيد الكفار دعا إلى تقرير الإلهيات فقال:

٦٥ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي بعد يبسها ﴿إنّ في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ يعتبرون ثم استدل بعجائب أحوال الحيوانات قائلاً:

٦٦ ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾.

﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه﴾ النعم والأنعام هي الغنم والإبل والبقر وهي جمعان تذكر وتؤنث، وهو فاش في القرآن كقوله للشمس (هذا ربي) ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾، الفرث هو الأشياء المأكولة المنهضمة بعض الانهضام في الكرش، فإذا خرجت من الكرش سميت فرثاً. والمعنى أن اللبن كان طعاماً فخلص من ذلك الطعام دم وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم لبنا خالصاً لا يشوبه شيء، من الفرث والدم، من طعم أو ريح أو لون، ﴿سائغاً للشاربين﴾ أي سهل المرور في حلقهم لا يغص به، فلا تعافه النفس وإن كان قد خرج من بين فرث ودم، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: إذا استقر العلف في الكرش طحنه، فصار أسفله فرثا، وأعلاه دما، وأوسطه لبنا، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش، فسبحان الله الذي يجعل غذاء الحيوان من حشائش وحبوب تتحول إلى لبن هو خير غذاء للإنسان والحيوان لأنه غني بكل ما يحتاج إليه الجسم من عناصر ضرورية لحياته وصحته.

القــــراءة

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نَسقيكم﴾ بفتح النون.

٦٧ - ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ خمراً ﴿ورزقا حسنا﴾ كل ما هو حلال كالخل والنبيذ الذي لم يصر خمراً بعد، والتمر والزبيب وغير ذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾، ومعنى الآية اعتبروا أيها العقلاء الذين آمنتم بالله وبرسوله كيف أنكم كنتم في الماضي تتخذون من ثمرات النخيل من التمر والعنب والكروم ما تعصرونه فيصير خمراً مسكراً يذهب بعقولكم، واليوم بعد أن عقلتم وآمنتم وعرفتم الضار من النافع انقلب ذلك المسكر إلى الرزق الحسن، وإن في ذلك لعبرة وعظة وليس في الآية نسخ، ولا يفهم منها إباحة للخمر أبداً، إذ لا يمكن الجمع بين شيئين مباحين بالعطف بالواو مع وصف الرزق بالحسن، مما يقتضي قطعاً أن يكون السكر غير حسن، وغير الحسن قبيح خبيث فهو محرم، قال أبو حيان على ما نقل الألوسي في قوله لقوم يعقلون.

ولما كان مفتتح الكلام ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة﴾ ناسب الختم بقوله سبحانه ﴿يعقلون﴾ لأنه لا يعتبر إلا ذوو العقول، قال الألوسي، وأنا أقول: «إذا كان في الآية إشارة إلى الحط من أمر السكر ففي الختم المذكور تقوية لذلك، وله في النفوس موقع» أقول والآية خبر عن الماضي جاء بصيغة الحاضر للعظة والعبرة.

ومن أعجب أحوال الحيوان حال النحل المناسب عسلها للبن في موافقة اللذة وفي الخروج من البطن فلذلك أفردها بالذكر عقيب ذلك قائلاً:

٦٨ - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ أي ألهمها ﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يَعْرِشُون﴾ كل عرش من كرم أو نبات أو سقف فهو عرش، ومعروش والمراد مما يبنون لهم من الأماكن التي تلقى فيها العسل، ولولا التسخير ما كانت تأوي إليها.

القــــراءة

قرأ ابن عامر وأبو بكر: ﴿يعرُشون﴾ بضم الراء.

٦٩ - ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُللا﴾ اسلكي السبل الطرق التي ذللت لك بلا توعر

﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه﴾ أبيض وأحمر وأصفر وأسود، وإن كان خروج العسل من النحل عن طريق الفم لكن محل صنعه في البطن. ﴿فيه شفاء للناس﴾ خرج مخرج الغالب بدلالة التنكير بكلمة شفاء أي فيه لغالب الأدواء وغالب الناس وليس كل الناس ولا كل الأمراض ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ في قدرة الله وعجائب خلقه، لهذه الحقيقة العلمية التي أثبت الطب وأكّد وجودها وفائدتها.

نهاية الإنسان وعجائب قدرة الله

لما ذكر بعض عجائب أحوال الحيوان أتبعه عجيب خلق الإنسان فقال:

٧٠ ـ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

﴿والله خلقكم ثم يتوفّاكم﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر﴾ أخسه وأحقره، وهو وقت الهرم الذي تنقص فيه القوى، وتفسد فيه الحواس، ويكون حال الشخص فيه كحاله وقت الطفولة، من ضعف العقل والقوة كقوله تعالى: ﴿ومن نعمّره ننكّسه في الخلق﴾[1] ﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إنّ الله عليم قدير﴾ والعلم بمعنى المعرفة، يصيبه الخرف، فيصير كأنه لم يكسب علما قبل ذلك ولم يتعلم ولم يحفظ، وهذا لا ينطبق على كل الناس لأن الله سبحانه قال: ﴿ومنكم﴾ وليس كل الناس.

لما بيّن خلق الإنسان وتقلّبه في أطوار مراتب العمر أراد أن يذكّره طرفاً من سائر أحواله لعلّه يتذكّر فقال:

٧١ ـ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

﴿والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق﴾ أي جعلكم متفاوتين فيه حسب قدراتكم ﴿فما الذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم﴾ ومع ذلك لا يرد هؤلاء الأغنياء الطغاة عبدة الأصنام شيئاً من أموالهم مما ملكته أيمانهم على الفقراء والمحتاجين ﴿فهم فيه سواء﴾ وهذا مثل ضربه الله سبحانه لحال أولئك المشركين الذين جعلوا الأصنام شركاء لله. ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ أي بفضله ورزقه ولا يزكّوها ولا ينفقوها في سبيل الله.

القـــراءة

قرأ أبو بكر: ﴿أفبنعمة الله تجحدون﴾ بالتاء.

---

(١) سورة يسٓ، الآية: ٣٦.

الحالة الأخرى من أحوال الإنسان.

٧٢ ـ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ أي من جنس بني آدم ونوعكم وهو مجاز في ذلك ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ في اللغة أحفد إحفاداً، وهو سرعة الخدمة، كما في دعاء القنوت ﴿إليك نسعى ونحفد﴾ والمراد منها في الآية أولاد الأولاد ﴿ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ والمعنى أفبعد كل هذا الرزق العظيم، وهذه الزينة من المال والولد تجحدون نعمة الله وتشركون به وتعصونه وتشركون معه غيره. والاستفهام إنكاري.

ولما عدّد بعض الآيات الدالّة على الإقرار بالتوحيد أنكر صنيع أهل الشرك عليهم قائلاً:

٧٣ ـ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ .

﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً﴾ أي الأصنام ﴿من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ أي لا يقدرون على إنزال المطر من السماء أو إنبات شيء من الكلأ أو الشجر في الأرض.

٧٤ ـ ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي: لا تشبهوه بخلقه لأنه لا يشبهه شيء من خلقه. ﴿إنَّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي أنه تعالى يعلم كنه ما تفعلون، فلا يغيب عنه شيء ولا يفوته، بل أنتم بعلمكم المحدود وجهلكم المركب لا تعلمون أن الله يعلم كل شيء وليس له شريك.

مثل الأصنام والأوثان

ثم علّمهم كيف تضرب الأمثال فقال:

٧٥ ـ ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾ هذا مثل لجنس الشخص المقيد الحرية الذي لا ملك له ولا تصرف عنده ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسنا﴾ أي وشخص آخر مطلق الحرية أنعم الله عليه بالأموال والسعادة والخير ﴿فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون﴾ أي هل يستوي هؤلاء الناس الذين يعيشون ذلك التفاضل والتفاوت في العيش بالحياة، ممن اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين، وعبر بلفظ الجمع ﴿يستوون﴾ ولم يقل يستويان لأن المراد الجنس، وقال ابن الأنباري لفظ ﴿من﴾ لفظ توحيد، ومعناها معنى الجمع، ولم يقل المثل لفردين معينين كما زعم بعض المفسرين تبعاً لبعض الروايات التي لم يصح منها شيء

كما ذكر ذلك أبو حيان في البحر ﴿الحمد لله﴾ هو المستحق للحمد والشكر والثناء بالجميل لأنه المنعم، ولا نعمة للأصنام ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

ثم ضرب مثلاً ثانياً لنفسه ولما يفيض على عبادة من النعم الدينية والدنيوية وللأصنام التي هي أموات لا تضرّ ولا تنفع بل يصل منها إلى من يعبدها أعظم المضار فقال:

٧٦ ـ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

﴿وضرب الله مثلاً﴾ أي مثلاً آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ الأبكم الأخرس الذي لا يسمع ولا ينطق، ولا يفهم ﴿لا يقدر على شيء﴾ كالمثل السابق المسلوب الحرية، وزيادة على ذلك ﴿وهو كل على مولاه﴾ ثقيل على ولي أمره ﴿أينما يوجّهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل﴾ ومن هو قادر على النطق ناطق بالحق ذو رأي رشيد، يكفي الناس في مهماتهم، وينفعهم بالفصل في الخصومات فيما بينهم ﴿وهو على صراط مستقيم﴾ لا يتوجه إلى مطلب إلاّ ويبلغه بأقرب مسعى.

ثم مدح نفسه بقوله:

٧٧ ـ ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾ فيشمل الساعة وغيرها من الأمور الخفية ﴿وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب إنّ الله على كلّ شيء قدير﴾ قدير أن يجعلها كذلك.

ثم زاد في التأكيد بذكر حالة أخرى للإنسان دالّة على غاية قدرته ونهاية رأفته فقال:

٧٨ ـ ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ بالولادة ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي أن الإنسان في بطن أمه وإن كان الله سبحانه قد خلق له السمع والأبصار، لكنّه لا يرى ولا يسمع فيها، لأنه يعيش في ظلمة، ولذلك قدم الخروج على جعل السمع والأبصار والأفئدة، حيث بدأت مهامها الفعلية بعد الخروج وقدّم حاسة السمع على البصر في أكثر من عشرين موضعاً من القرآن[1] وذلك لأن

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧، ١٣٧، ١٨١، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٤، ٢٥٦، الأنعام: ٢٤٦، يونس: ٣١ هود: ٢٠. النحل: ١٠٨ والإسراء: ١٧ والمؤمنون: ٧٣، السجدة: ٩، الملك: ٤٣ الأحقاف: ٢٦، ٤٦ فصلت: ٢٢-٣٠.

حاسة السمع تسبق حاسة البصر في أداء عملها فهي تبدأ مبكرة في الأسابيع الأولى بعد ولادة الطفل، أما البصر فيبدأ عمله في الشهر الثالث، ولا يتم تركيز الأبصار إلاّ بعد الشهر السادس.

ومما جاء في الآية كذلك أن الله ذكر الفؤاد بعد السمع والبصر وذلك لمعنى علمي ذكره العلم، وهو أن اكتساب العلم يحصل بعد الانتقال من مرحلة الإدراك الحسي بالسمع والبصر إلى مرحلة الإدراك العقلي، وهذه هي طريقة تعلم المعارف والخبرات وكلها تجيء بحسب الترتيب الذي جاءت به الآية، وهو الإدراك الحسي أولاً ثم الإدراك العقلي ثانياً.

القــــراءة

قرأ حمزة: ﴿إمهاتكم﴾ بكسر الألف والميم، وقرأ الكسائي بكسر الألف وفتح الميم، وقرأ الباقون بضم الألف وفتح الميم، وكذلك في النور والزمر والنجم.

ثم ذكر دليلاً آخر على كمال قدرته فقال:

٧٩ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء﴾ في الهواء المتباعد من الأرض ﴿ما يمسكهن إلاّ الله﴾ عن الوقوع بعد التعب والطيران المتواصل من قارة إلى قارة بمختلف الأجواء بالليل أو بالنهار، كيف تهتدي إلى أوكارها وتحط في أماكنها بالظلام، ولا تضلّ طريقها أبداً وهي تطير جماعات وتأتي في المواسم والأوقات التي تناسبها ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

القــــراءة

قرأ ابن عامر وحمزة: ﴿ألم تروا إلى الطير﴾ بالتاء على الخطاب.

من نعم الله علينا

٨٠ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا﴾ راحة تسكنون فيها وتطمئنون بها ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا﴾ وهي القباب والخيم المتخذة من الجلود ﴿تستخفونها﴾ أي يخف عليكم حملها ﴿يوم ظعنكم﴾ سفركم ﴿ويوم إقامتكم، ومن أصوافها﴾ أي الغنم ﴿وأوبارها﴾ الإبل ﴿وأشعارها﴾ أي المعز ﴿أثاثا﴾ متاعا لبيوتكم كبسط وأكسية ﴿ومتاعا إلى حين﴾ مدة تبلى فيه.

القــــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿يوم ظعنكم﴾ بفتح العين، وقرأ عاصم ، وابن عامر وحمزة والكسائي بتسكين العين، وهما لغتان كالشَّعَرْ والشَّعْر والنَّهر والنَّهْر.

ثم إنّ المسافر قد لا يكون له خيام وأبنية يستظلّ بها لفقر أو لعارض آخر فيحتاج إلى أن يستظلّ بشجر أو جدار أو غمام ونحوها فلذلك قال:

٨١ ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾.

﴿والله جعل لكم مما خلق ظِلالا﴾ جمع ظل ما يقيكم حر الشمس تستظلون بها من أمثال الغمام والشجر والجبال، والبيوت وكل ما له سقف ﴿وجعل لكم من الجبال أكنانا﴾ مواضع تستكنون فيها كالغيران والمغارات والكهوف ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر﴾ جمع سربال وهو كل ما يلبس كالقمصان من القطن والكتان، والصوف وغيرها ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يعني الدروع التي تتقون بها شدة الطقس والضرب في الحرب ﴿كذلك يُتم نعمته عليكم لعلكم تُسلِمون﴾ أي مثلما أنعم الله عليكم بهذه النعم والأشياء يتم نعمته عليكم في الدنيا، والخطاب للمشركين.

٨٢ ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿فإن تولّوا﴾ أعرضوا عن الإيمان ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ أي فلا يضرّك لأن وظيفتك هي البلاغ الموضح الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه، قال ابن عطية: تقدير المعنى إن أعرضوا فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، فإنما عليك البلاغ لا خلق الإيمان.

ثم ذمّهم بأنّهم:

٨٣ ـ ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ بأفعالهم حيث لم يفردوا منعمها بالعبادة فكأنّهم لم يعبدوه سبحانه أصلا، وذلك كفران منزل منزلة الإنكار ﴿وأكثرهم الكافرون﴾.

مشهد من مشاهد يوم القيامة

لما بيّن من حال القوم أنّهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها وأنّ أكثرهم كافرون أتبعه وعيد يوم القيامة فقال:

٨٤ ـ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً﴾ يوم القيامة يشهد لهم بالإيمان والطاعة، وعليهم بالكفر والعصيان،

والمراد نبي تلك الأمة ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار. ﴿ولا هم يُسْتَعْتبون﴾ أي لا يطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به، ليزيلوا عتب ربهم وغضبه بالتوبة والعمل الصالح، إذ الآخرة دار جزاء لا دار تكليف.

٨٥ ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

أي لا يمهلون هذه هي سنة الله في الأمم السابقة وقد يراد بالعذاب الموت فليس فيه انتظار حتى يعمل المرء صالحاً ويتدارك ما فاته.

٨٦ ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾ الذين يزعمونهم شركاء لله سبحانه، ويعبدونهم معه والمراد كل من اتخذوه شريكاً له من صنم ووثن، وشيطان وبشر ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك﴾ أي نعبدهم ونطيعهم، ولعلّهم يقولون ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم، وإحالة الذنب على الشركاء ظناً منهم أن ذلك ينجيهم من عذاب الله تعالى أو ينقص من عذابهم شيئاً ﴿فألقوا إليهم القول﴾ أي أجابوهم وقالوا لهم ﴿إنكم لكاذبون﴾.

٨٧ ـ ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

﴿وألقوا إلى الله يومئذ السلم﴾ الاستسلام والانقياد لحكمه تعالى العزيز الغالب، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ضاع وبطل كل ما كانوا يدعونه كذباً وعناداً بأن لله شركاء ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك يوم القيامة.

٨٨ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾.

﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾ بمنع من يريد الإسلام وسعوا في تعويق الدعوة الإسلامية ﴿زدناهم عذابا فوق العذاب﴾ نكّر العذاب الأول لأنه نوع خاص لقوم بأعيانهم، وعرّف العذاب الثاني لأنه العذاب الذي يعذب به أكثر أهل النار، وقيل إنما زيدوا هذا العذاب على ما يستحقونه من عذابهم، بصدهم ذلك ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكفرهم وبسبب استمرارهم على الإفساد، وهو الصدّ عن السبيل.

ثم أعاد حكاية بعث الشهداء.

٨٩ ـ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ في الدنيا والمراد نبي لهم كعيسى وموسى وإبراهيم وشعيب ونوح ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي أمتك الذين لا نبي لهم ولا رسول بعدك، فهو رسول العالمين جميعا ﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾. ﴿ونزّلنا عليك الكتاب﴾ القرآن ﴿تبياناً لكل شيء﴾ لكل شيء من أمور الدين، مما يدخل في العقائد والعبادات والمعاملات، والعبر والمواعظ، ﴿وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ بالجنة.

آية العدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر

٩٠ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ في الأعمال والعبادة وفيما روى البخاري من قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وكلمة العدل والإحسان عامة في كل شيء، وهي تشمل التفضل والصدقة والمعاملة، والعفو عمن أساء إليك، وكل ما فيه من مكارم الأخلاق، من العفو والصفح والإعراض عن الجاهلين التي نزل بها العديد من الآيات التي تحض عليها. ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر وهذا داخل في العدل والإحسان العام، وصرح به اهتماما بشأنه، ﴿وينهى عن الفحشاء﴾ المعاصي بما فيها الزنا ﴿والمنكر والبغي﴾ المنكر كل ما ينكر على متعاطيه وما وعد عليه بالعذاب، مما يشتمل على المعاصي والرذائل والبغي: الاستعلاء والاستيلاء على الناس بالظلم والتجبر عليهم، وهو من آثار القوة الوهمية.

﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾ أي ينبهكم بما يأمر وينهى سبحانه أحسن تنبيه، لكي لا تغفلوا فتزلّوا.

الوفاء بالمعاهدات والعقود

ثم خصّ من جملة المأمورات الوفاء بالعهد فقال:

٩٠ ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾.

﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ من المواثيق كالمعاهدات العامة والمواثيق الخاصة، في الجهاد أو النذور والعقود والبيوع وغيرها، قال المفسرون العهد الذي يجب الوفاء به هو الذي يحسن فعله، فإذا عاهد الشخص عليه وجب الوفاء به، والوعد من العهد ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ بعد توثيقها ﴿وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ بالوفاء حيث حلفتم به ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾.

مثل ناقضة الغزل

٩٢ ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للذين ينقضون أيمانهم ومواثيقهم وعقودهم بعد الاتفاق عليها وصدورها، فمثل حالهم في ذلك كحال المرأة المضروب بها المثل، وقال مقاتل هي امرأة من قريش تسمى (ريطة) كانت إذا غزلت، نقضته، وكانت معروفة عندهم فعرفها الناس بوصفها، ولم يكن لها نظير في فعلها ذلك، كانت متناهية في الحمق، تغزل القطن والصوف فتحكمه، ثم تأمر جاريتها بتقطيعه، فضربها الله مثلاً لناقضي العهد ﴿تتخذون أيمانكم﴾ أي حلفكم وعهودكم وعقودكم بينكم ﴿دخلاً بينكم﴾ استفهام إنكاري أي أتتخذون، والدخل في الأصل ما يدخل الشيء ولم يكن منه ثم كنى به عن الفساد والعداوة المستبطنة، وفسر بالغدر والخيانة، والمعنى: لا تكونوا مشبهين امرأة هذا شأنها متخذين أيمانكم وسيلة للغدر والفساد بينكم ﴿أن تكون أمة﴾ أي جماعة ﴿هي أربى من أمة﴾ أي أزيد عدداً وأوفر مالا وأقوى عتاداً من جماعة أخرى، والمعنى: لا تغدروا بقوم بسبب كثرتكم وقلتهم بل حافظوا على أحلافكم ومعاهداتكم وعقودكم معهم، وهذا من محاسن الإسلام والأخلاق الفاضلة فيه، التي يعلمها للناس مما امتاز به المسلمون الأولون، حتى في حروبهم وعلاقاتهم العسكرية والاجتماعية والسياسية ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر بذلك، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله عليه الصلاة والسلام أم تغترون بكثرة العدو وشوكته، وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾.

ثم بيّن أنّه سبحانه قادر على أن يجمع المؤمنين والكافرين على الوفاء وسائر أبواب الإيمان بحكم الألوهية فقال:

٩٣ ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما لو شاء أن يجعلهم كلّهم مسلمين لفعل.

لما نهاهم عن نقض مطلق الأيمان أراد أن ينهاهم عن نقض أيمان مخصوصة فقال:

٩٤ ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم﴾ أي ينهاكم الله عن اتخاذ الأيمان الكاذبة التي يقصد من ورائها الغدر والخديعة ﴿فتزلّ قدم بعد ثبوتها﴾ قال أبو عبيدة هذا مثل يقال لكل مبتلىً بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زلت به قدمه وناقض العهد يزل في دينه، كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾ أي وتذوقوا العقوبة بنقض العهد والصدّ عن الإسلام.

ثم نهاهم عن الميل إلى ما كانت تعدهم قريش من عرض الدنيا إن رجعوا عن الإسلام فقال:

٩٥ ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ والمعنى لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها ولو بالحلف عرضاً يسيراً من الدنيا، إن ما عند الله من الثواب على الوفاء هو خير لكم من العاجل ﴿إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ خيراً.

ثم ذكر دليلاً قاطعاً على أنّ ما عند الله خير فقال:

٩٦ ـ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر: ﴿ولنجزين﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿وليجزينّ﴾.

من أدب القرآن وتوجيهه

ثم عمم الوعد على أيّ عمل صالح كان فقال:

٩٧ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الاستعاذة قبل قراءة القرآن

ثم ذكر الاستعاذة التي هي من جملة الأعمال الصالحة وبها تخلص الأعمال من الوساوس فقال:

٩٨ ـ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي إذا أردت القراءة فاستعذ ومثله ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ والاستعـاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها، وصفتها أن يقول أعوذ بالله

السميع العليم من الشيطان الرجيم سرّاً.

٩٩ ـ ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾ أي تسلط واستيلاء ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾. والمراد نفي التسلط بعد الاستعاذة، فهم لا يطيعون أوامره، ولا يقبلون وساوسه وفي الكشاف أن هذه الجملة جارية مجرى البيان للاستعاذة المأمور بها وأنه لا يكفي فيها مجرد القول الفارغ عن اللجوء إلى الله تعالى، واللجوء إنما هو الإيمان أولا، والتوكل ثانيا.

١٠٠ ـ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿إنّما سلطانه﴾ الشيطان ﴿على الذين يتولّونه﴾ يطيعونه ويحبّونه ويجعلونه والياً عليهم ﴿والذين هم به﴾ أي بسبب الشيطان وإغوائه أيّاهم ﴿مشركون﴾ بالله.

ترتيب آيات المصحف

هذا شروع في حكاية شبهات منكري نبوة محمد ﷺ.

١٠١ ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وإذا بدّلنا آية﴾ في المصحف ﴿مكان آية﴾ أخرى حسب الترتيب الذي نزل به القرآن جملة واحدة لا بحسب الوقائع ﴿والله أعلم بما ينزل قالوا﴾ أي الكفار ﴿إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ وقد أخطأ من ظن أن هذه الآية تشير إلى وجود النسخ في القرآن، فسياق الآية ومعناها وألفاظها لم تشر إلى ذلك إطلاقاً بل إنّ معنى بدّلنا آية مكان آية ليس فيه معنى طرح آية وأخذ آية جديدة عنها، والتبديل معناه الترتيب، كما يرد على أصحاب هذا الرأي، إن هذه الآية مكية وآيات الأحكام التي ادعي فيها النسخ مدنية فهي سابقة في النزول قبل تشريع الأحكام.

١٠٢ ـ ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿قل نزّله روح القدس﴾ أي القرآن نزّله أي جبريل ﴿من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي يثبتهم على الإيمان، لما فيه من الحجج القاطعة والأدلة الساطعة، أو على الإيمان بأنه كلامه تعالى، فيزدادون يقينا وهذه الآية تؤكد معنى الآية السابقة.

ثم حكى شبهة أخرى عنهم كانوا يقولون إنّ محمداً يستفيد القصص والأخبار من إنسان آخر ويتعلّمها منه ثم أجاب عن شبهتهم فقال مستأنفاً:

١٠٣ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر﴾ أي آدمي وما هو من عند الله ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ أي أن الشخص الذي يقولون إنه يعلم النبي ﷺ التوراة أعجمي، أي غير عربي وقيل يسمى بلعام الرومي وكان النبي يعلّمه الإسلام، والإلحاد: الميل عن القصد، ومنه لحد القبر ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ ذو بيان وفصاحة.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿لسان الذي يَلحدون﴾ بفتح الياء والحاء. وقرأ الحسن: ﴿اللسان الذي يلحدون﴾ بتعريف ﴿اللسان﴾ بأل.

ولما ذكر جوابهم وبّخهم وهدّدهم بقوله:

١٠٤ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿إنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ سواءاً كانت كونية أم قرآنية ﴿لا يهديهم الله﴾ أي إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾ وذلك لاختيارهم الشر.

ثم لما بيّن أنّهم ليسوا محل اللطف، وكان قد بنى الأمر في جوابهم على تسليم ما ادعى الخصم من أنّه يتعلّم من ذلك البشر، أراد أن يبيّن أنّ الذي قالوا غير صحيح ولا صادق في نفس الأمر فقال:

١٠٥ ـ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

المرتدون عن الإسلام

ثم إنّه سبحانه من كمال عنايته أراد أن يفرّق بين الكفر اللساني وحده وبين اللساني المنضم إليه القلبي فقال:

١٠٦ ـ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ فله عذاب أليم ﴿إلّا من أكره﴾ على التلفظ بالكفر وكان قلبه مطمئناً بالإيمان، عامراً باليقين، فليس عليه شيء من العذاب ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾ فاطمأن إليه ودخل في غماره راضية نفسه مطمئناً قلبه ﴿فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾.

١٠٧ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ذلك بأنّهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي ذلك الارتداد بسبب أنّهم آثروا الحياة الدنيا وقدّموها على الآخرة، فكانت أكبر همهم وغاية مطلبهم ﴿وأن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

١٠٨ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ كناية عن عدم قبولها للهدى والحق لاختيارهم الشر على الخير والكفر على الإيمان، كما عبر الله في الآية السابقة ﴿ذلك بأنّهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ فكأنّها قد ختم عليها وأفسدت وأغلقت فلا تسمع ولا تبصر ولا تدرك ﴿وأولئك هم الغافلون﴾ عن تدبر العواقب والنظر في المصالح.

١٠٩ - ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

أي حقاً أنّهم ضيّعوا رؤوس أموالهم وهي أعمارهم وصرفوها فيما لا يفضي إلّا إلى العذاب المخلّد.

ولما ذكر حال من أكره أتبعه حال من هاجر من بعد ما فتن فقال:

١١٠ - ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ثم إنّ ربّك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا﴾ أي عذّبوا على الارتداد، وتلفّظوا بالكفر ﴿ثم جاهدوا وصبروا إنّ ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.

القـــــراءة

قرأ ابن عامر: ﴿من بعد ما فَتَنوا﴾ بفتح الفاء والتاء.

١١١ - ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ لا يهمّها غيرها من عزيز أو صديق أو قريب. ﴿وتوفى كل نفس﴾ جزاء ﴿ما عملت وهم لا يظلمون﴾.

عاقبة الكفر بالنعمة

ثم أوعد الكفار بآفات الدنيا أيضاً فقال:

١١٢ ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ أي أهل قرية من القرى الماضية، ولا دليل أنها مكة كما في الجلالين وغيره ﴿كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً﴾ واسعاً ﴿من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ من السيئات والكفر بنعمة الله.

ولما ذكر المثل ذكر الممثل فقال:

١١٣ ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

﴿ولقد جاءهم رسول منهم﴾ أي من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب شكر النعمة، وأنذرهم بسوء العاقبة ﴿فكذبوه فأخذهم العذاب﴾ المستأصل ﴿وهم ظالمون﴾ وهذه الآية متصلة بالآية السابقة وليست في أمة محمد ﷺ كما ذكر في تفسير الجلالين.

المطعومات

١١٤ ـ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وهو خطاب لأمة محمد ﷺ.

١١٥ ـ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به﴾ تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم، إنّما حرّم أكل هذه الأشياء دون ما تزعمون من البحيرة والسائبة والحامي وغيرها، والآية تفيد الحصر بهذه الأربعة وغيرها من المحرمات داخلة فيها[١]، خاصة وأن الآيات تكررت في البقرة[٢] والمائدة[٣] و﴿فمن اضطر﴾ أي دعته ضرورة الجوع إلى تناول شيء من ذلك لسد جوعته ﴿غير باغ﴾ غير متلذذ في أكله ﴿ولا

(١) كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وما ذبح على النصب لثبوتها بأدلة أخرى.

(٢) الآية: ١٧٢.

(٣) الآية: ٣.

عاد﴾ متعد قدر الضرورة وسد الرمق ﴿فإنّ الله غفور رحيم﴾ أي لا يؤاخذه سبحانه بذلك.

ثم زيّف طريقة الكفار في الزيادة على هذه المحرمات كالبحيرة والسائبة وفي النقصان عنها كتحليل الميتة والدم فقال:

١١٦ - ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾.

١١٧ - ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿متاع قليل﴾ أي منفعتهم التي قصدوها بذلك الافتراء منفعة قليلة منقطعة عن قريب ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

ثم خصّ محرمات اليهود بالذكر فقال:

١١٨ - ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿وعلى الذين هادوا﴾ خاصة باليهود الأولين دون غيرهم ﴿حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي قبل نزول هذه الآية وذلك في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾[١] ﴿وما ظلمناهم﴾ بذلك التحريم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا عليه بذلك حسبما نعى عليهم كما في قوله تعالى: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾[٢] وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم. ولكل شرعة منهاج.

١١٩ - ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ثم إن ربّك للذين عملوا السوء﴾ هو ما يسيء صاحبه من كفر أو معصية ويدخل فيه الافتراء على الله ﴿بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي التوبة ﴿لغفور رحيم﴾.

ولما بالغ في إبطال مذاهب المشركين وفي الجواب عن شبههم ومطاعنهم وكان إبراهيم عليه السلام، رئيس الموحّدين وقدوة أكابر النبيين ذكره تعالى في آخر هذه السورة قائلاً:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٦ وذو الظفر: كل ما لم تفرق أصابعه كالإبل والنعام.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٠.

١٢٠ ـ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إنَّ إبراهيم كان أمة﴾ إماماً قدوة لخصال الخير قال مجاهد: سمي عليه السلام أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة ما، وذكر في القاموس إنَّ من معاني الأمة من هو على الحق مخالف لسائر الأديان. قال الآلوسي والظاهر أنه مجاز يجعله كأنه جميع ذلك العصر في مقابلة الكفرة. ﴿قانتا لله﴾ مطيعا له سبحانه قائماً بأمره تعالى ﴿حنيفا﴾ مائلا عن كل دين باطل إلى الدين الحق، غير زائل عنه ﴿ولم يكُ من المشركين﴾.

١٢١ ـ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿شاكراً لأنعمه﴾ جمع نعمة ﴿اجتباه﴾ أي اختاره واصطفاه ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ بيّن له الطريق الصحيح.

١٢٢ ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١٢٣ ـ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ التوحيد ونفي الشرك المفهوم من قوله: ﴿وما كان من المشركين﴾.

كأنَّ لسائل أن يسأل لم اختار اليهود السبت مع أنَّ إبراهيم كان اختار الجمعة فأجاب الله سبحانه بقوله:

١٢٤ ـ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿إنما جعل السبت﴾ بمعنى إنما جعل فرض تعظيمه، والتخلي للعبادة وترك الصيد فيه ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ على نبيهم حيث أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة، فأبوا أن يقبلوا ذلك فجعل عليهم يوم السبت وشدّد فيه الأمر الذي جاء عيسى عليه السلام بالجمعة، فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق كما قال اليهود كذلك في السبت ومعنى اختلفوا فيه: أي خالفوا جميعهم نبيهم فهو اختلاف بينهم وبين نبيهم ثم أوعد اليهود بقوله: ﴿وإنَّ ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.

ولما أمر محمداً باتباع إبراهيم ﷺ بين وجه المتابعة فقال:

١٢٥ ـ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿ادع إلى سبيل ربك﴾ الإسلام الذي عبر عنه أحياناً بالصراط المستقيم ﴿بالحكمة﴾ المقالة المحكمة وهي الحجة القطعية، والكلام الصواب الواقع من النفس أجمل موقع ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي الخطابات

المقنعة، والعبر النافعة ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق للمناظرة والمجادلة من الرفق واللين، واختيار الوجه الأيسر، ولما حثّ على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الهداية والرشد ليس إلى النبي ﷺ وإنما ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله﴾ الذي أمرك بدعوة الخلق إليه ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ إليه.

ثم إن الدعوة تتضمن تكليف المدعوين بالرجوع عن الدين المألوف والفطام منه شديد، وربما تنجر المقاولة إلى المقاتلة، فحينئذ أمر الداعي وأتباعه برعاية العدل والإنصاف في حال القتال قائلاً:

١٢٦ ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وإن عاقبتم﴾ أي أردتم المعاقبة ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ أي مثل ما فعل بكم، على نحو كما تدين تدان، ثم انتقل من التعريض إلى بعض التصريح قائلاً: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾.

ثم صرح كل التصريح فقال:

١٢٧ ـ ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

﴿واصبر وما صبرك إلّا بالله﴾ أي اجعل صبرك مستعيناً بالله والاتكال عليه، ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي الكفار وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك ﴿ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾.

القـــراءة

قرأ ابن كثير ﴿ولا تك في ضيق﴾ بكسر الضاد.

ثم ختم السورة بآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات فقال:

١٢٨ ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

تعليل لما سبق من الأمر والنهي، والمراد بالمعية الولاية الدائمة التي لا يحول حول صاحبها شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر.

سورة الإسراء

سورة الإسراء سميت بها لأنها تتكلّم عن حادثة الإسراء وتسمى سورة بني إسرائيل لأنها تتحدث عن بني إسرائيل وتاريخهم.

لما عزم على نبيه في خواتيم النحل جوامع مكارم الأخلاق، حكى طرفاً مما خصّه به من المعجزات فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

﴿سبحان﴾ تنزيه لله عن كل سوء ﴿الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ سير عبده يقال أسريت وسريت إذا سرت ليلاً وفي تنكيره تقليل مدة الإسراء لأن التنكير فيه معنى البعضية، أي في بعض الليل وعبده محمد ﷺ ﴿من المسجد الحرام﴾ من نفس المسجد ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ فهو بيت المقدس وقيل له الأقصى لبعد المسافة بين المسجدين ﴿الذي باركنا حوله﴾ بركات الدين والدنيا ولأنه متعبد الأنبياء، ومهبط الملائكة ولم يكن وراءه حينئذ مسجد ﴿لنريه من آياتنا﴾ ما رأى من العجائب التي أخبر بها الناس ﴿إنّه هو السميع البصير﴾ السميع لمقالة الكفار، البصير بها.

هل الإسراء بالروح أو بالجسد

هناك من العلماء من يرى أن الإسراء كان بالروح، فقد حكى محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة أنه قال كان ذلك رؤيا، وأنه ما فقد جسد رسول الله ﷺ، وحكي هذا القول عن عائشة، ولكن الرأي الذي عليه جمهور الأمة، والذي واجهت به قريش النبي ﷺ أنه بالجسد والروح معاً.

ولما حكى طرفاً من إكرام محمد ﷺ ذكر شيئاً من إكرام موسى فقال:

٢ ـ ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾.

﴿وآتينا موسى الكتاب﴾ الكتاب هو التوراة ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ أي دلّلناهم به على الهدى ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلا﴾.

والمعنى: هديناهم لئلا تتخذوا من دوني شريكاً أو رباً، قال ابن الأنباري: وإنما قيل للرب وكيل لكفايته وقيامه بشأن عباده، من أجل أن الوكيل عند الناس قد علم أنه يقوم بشؤون أصحابه، وتفقد أمورهم فكان الرب وكيلا من هذه الجهة، لا على معنى ارتفاع منزلة الموكل ولا انحطاط أمر الوكيل.

القـــراءة

قرأ أبو عمرو: ﴿ألاّ يتخذوا﴾ بالياء، المعنى: جعلناه هدى لبني إسرائيل لئلا يتخذوا من دوني وكيلاً.

٣ ـ ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

تقديره يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة تشبّهوا بأبيكم نوح ﴿إنّه كان عبداً شكوراً﴾ أي كان كثير الحمد لله في كل أموره، ووجه الإنعام على الخلق بهذا القول أنّهم كانوا في صلب من أنجى الله في سفينة نوح.

فساد بني إسرائيل وعقاب الله لهم

ثم ذكر أن كثيراً من بني إسرائيل ما اهتدوا بهدى التوراة فقال:

٤ ـ ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ أي أعلمناهم في التوراة بما سوف يحصل لهم في المستقبل ﴿لتفسدن في الأرض﴾ هي أرض الشام التي تضم سورية والأردن وفلسطين ولبنان، والإفساد يكون بالمعاصي وارتكاب المنكرات وسفك الدماء، وقتل الأنبياء وتحريف الكتب المنزلة، ﴿مرتين﴾ أي خلال حقبتين من الزمن، والعدد لا مفهوم له هنا، فبنو إسرائيل حدث منهم العديد من مرات الإفساد، وكانوا ينالون العقاب الصارم على يد من سلّطه الله عليهم، وتاريخهم مليء بذلك، وما زالوا يفسدون في الأرض الشيء الكثير، ولذلك نرى أن تفسير المرتين هو حقبتان من الزمن بينهما فاصل، الأولى قبل الإسلام، والثانية بعد الإسلام، [الأولى] تبدأ من وفاة النبي سليمان حيث انقسموا إلى مملكتين وارتكبوا المعاصي والمنكرات وحرفوا التوراة وعادوا لعبادة العجل وقتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل عيسى، وأشار القرآن إلى أفعالهم في هذه الفترة فقال: ﴿ولتعلُنّ علواً كبيرا﴾.

٥ ـ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أولى مرتي الإفساد وحان وقت العقاب الموعود ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ هم الذين سلطوا على بني إسرائيل من الآشوريين، والكلدانيين والسلوقيين والمقدونيين ﴿فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا﴾ أي طلبوا أهلها للتنكيل بهم ولا غرابة في أن يكون عقاب بني إسرائيل على يد

أعدائهم من الكفار، فقد اقتضت حكمة الله ذلك حيث يقول: ﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[1] حيث كانت نهاية مملكة إسرائيل على يد سرجون ملك آشور، الذي أجلى سكانها إلى الفرات وكانت نهاية مملكة يهوذا على يد بختنصر الذي دمَّر أورشليم، وساق أهلها إلى بابل حيث مكثوا زهاء خمسين سنة، ولم تقم لهم قائمة إلاّ بعد أن تغلب قورش ملك الفرس على بابل فأعادهم وبنى هيكلهم لكنهم عادوا للفساد بأشدّ من ذي قبل وقتلوا الأنبياء كما أسلفنا، فسلّط الله عليهم الرومان حيث أنهوهم عن آخرهم سنة (٧٠) بعد الميلاد فتفرقوا في بلاد العالم لا دولة لهم.

٦ ـ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

الكرة هي الرجعة وذلك بعد أن سطعت شمس الإسلام بنور الله ودالت دولتا الفرس والروم، وعاش بنو إسرائيل في أرض الله بالأمن والرزق والمال والولد وبعد أن حاولوا الإفساد وارتكاب المؤامرات عدة مرات سلّط الله عليهم نبيه محمداً ﷺ وصحابته فنالوا من العقاب على يد المسلمين ما سجّله التاريخ في السيرة حتى انتهوا من جزيرة العرب.

بنو إسرائيل يعاودون الفساد في الأرض

وبعد أن شعر اليهود ضعف المسلمين وتفرقهم بعد سقوط الخلافة الإسلامية وتسلّط الاستعمار الغربي عليهم واغتنموا تسامح الإسلام فسعوا بمساعدة الدول الغربية لإعادة بناء دولتهم وتجميع فلولهم من شتى أنحاء العالم في فلسطين، وعملوا جاهدين في محاولة فاشلة إن شاء الله لإقامة دولة لهم سنة ١٩٤٧ على الفساد والقتل والدمار.

ولما حكى عنهم أنّهم حين عصوا سلّط عليهم أعداءهم مهّد قاعدة كلية في الإحسان والإساءة قائلاً:

٧ ـ ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ أي إن أحسنتم المعاملة والعيش بسلام فمرجعه لكم، لأن الله لا يريد منكم شيئاً وفيه تهديد ﴿وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي حان وعد عقابكم المقدر في المرة الثانية وهو ما أفسده بنو إسرائيل في هذه الحقبة من الزمن في عهد النبي ﷺ ثم في بلاد العالم كما حصل منهم في ألمانيا حيث كانوا يشترون الأطعمة ويحرقونها، فسلّط الله عليهم هتلر وقتل منهم خلقاً كثيراً وعذّبهم أشد العذاب ثم يأتي دور المسلمين وهو ما يشير إليه قول الله سبحانه ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ أي المسلمون يسوؤن وجوهكم أي يحزنوكم بما يفعلون بكم، وخصت المساءة بالوجوه، والمراد أصحاب الوجوه لما يبدو عليها من أثر الحزن والكآبة ﴿وليدخلوا المسجد﴾ الأقصى ﴿كما دخلوه أول مرة﴾ أي ليدخله المسلمون اليوم كما دخله أسلافهم من

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

الصحابة أول مرة أيام الفتح الإسلامي في زمن عمر بن الخطاب، وهذه المرة لا تدخل في المرة الأولى، بل هي من مرات الفترة الثانية، بدليل دخول المسجد لأن الكفار لم يدخلوا المسجد قط، ولأن اليهود لم يكونوا شيئاً يذكر أيام الفتح الإسلامي لبيت المقدس حيث أخذ من الروم، ودخول المسجد دليل الاحترام له أول مرة، ولم يكن ذلك إلا للمسلمين حيث دخلوه وصلّوا فيه ﴿وليتبِّروا ما علوا تتبيرا﴾ أي ليدمروا في حال علوهم عليكم كل شيء يحقق لهم النصر.

القـــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص: ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ بالياء على الجمع، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿ليسوءَ﴾ بالياء وفتح الهمزة، قرأ الكسائي: ﴿لنسوءَ﴾ بالنون وفتح الهمزة.

٨ ـ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ إن تبتم وآمنتم وتركتم الفساد ﴿وإن عدتم﴾ للفساد والظلم والكفر، فإن الله سوف يسلِّط عليكم في كل مرة من يعاقبكم، وتقدير زمن العقاب بيده تعالى لا بيد البشر ﴿عدنا﴾ أي للعقاب ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا﴾ حبساً من قولك حصرت الرجل، والحصير المنسوج. وفي الآية دليل على أن عقابهم سوف يتكرر عدة مرات إفسادهم وأنه نازل بهم حسب تقدير العزيز الحكيم.

ثم لما شرح فعله في حق عباده المخلصين، كمحمد ﷺ وموسى عليه السلام، وفي حق عبيده العاصين، كأكثر بني إسرائيل وكان في ذلك تنبيه على أنّ طاعة الله توجب كل خير وكرامة، ومعصيته تقتضي كل شر وغرامة، عظّم شأن القرآن المبين للأحكام الهادي للأنام فقال:

٩ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ يهدي إلى الخصال التي هي أقوم الخصال وهي توحيد الله والإيمان به وبرسوله والعمل بطاعته ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا﴾ الجنة.

١٠ ـ ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

أي وبشرهم بالعذاب.

ولما بيّن أن القرآن كاف في الهداية ذكر أن الإنسان نتيجة لترك أحكام القرآن يكون من تعجله الدعاء بالشر على نفسه فقال:

١١ ـ ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾.

﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ أي أن الإنسان متعجل في حكمه وتقريره للأمور، فمثلما يدعو لنفسه بالخير في حال الهدوء والسكون، يدعو في حال الضجر والغضب على نفسه وأهله وولده وغيرهم، بما لا يجب أن يستجاب له، ﴿وكان الإنسان عجولا﴾ أي جنس الإنسان وليس كل الناس.

من نعم الله علينا

لما ذكر نعمة الدين وهي القرآن أردفها بنعمة الدنيا فقال:

١٢ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾.

﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي علامتين يدلاّن على قدرة الله خالقهما ﴿فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي جعلنا الليل مظلما، والنهار مبصرا. والمعنى: أنها تبصر الناس، أي تريهم الأشياء ﴿لتبتغوا فضلًا من ربكم﴾ أي لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم وتطلبون رزقكم بالنهار، ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ إشارة إلى علم الفلك الذي منه نعرف الأيام والشهور والسنين، ونؤرخ ونحسب ونعد ﴿وكل شيء فصّلناه تفصيلا﴾.

١٣ ـ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾.

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال ابن قتيبة: والمعنى أن لكل امرىء حظاً من الخير، جرى له الطائر بكذا من الخير وجرى له الطائر بكذا من الشر، على طريق الفأل والطيرة، فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر هو الذي يلزم أعناقهم ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا﴾ هذا كتابه الذي فيه ما عمل من الخير والشر.

القـــراءة

قرأ ابن عامر ﴿كتاباً يُلَقّاه منشورا﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى الملائكة تتلقاه بكتابه الذي فيه نسخة عمله.

١٤ ـ ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.

﴿اقرأ كتابك﴾ الذي فيه عملك ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ شاهداً.

ثم بيّن أنّ ثواب العمل الصالح وعقاب ضدّه مختص بفاعله، ولا يتعدّى منه إلى غيره فقال:

١٥ ـ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي له ثواب اختياره للخير وعليه عقاب ضلاله ﴿ومن ضلّ﴾ ومن اختار الشر والكفر والظلم والعصيان والفساد وغيره، من أنواع المنهي عنه كالشرور واتباع الشيطان ﴿فإنما يضلّ عليها﴾ أي إنما يكون عقابه على حسب اختياره عاقبة أمره على نفسه. ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس أوزار وآثام غيرها من الناس، لا يؤخذ الإنسان بجريرة غيره، وهذه قاعدة من القواعد المهمة في

الإسلام. ﴿وما كنا معذبين﴾ أحداً يوم القيامة ﴿حتى نبعث رسولا﴾ إليه في الدنيا يعلمه آيات ربه منذراً ومبشرا.

وكتب الرسل إلى الناس ورسلهم كالرسل في تبليغ الرسالة، ومن هذه الآية جاءت القاعدة «لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص».

١٦ - ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾.

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية﴾ أي إذا أردنا إن نهلك قرية من القرى السابقة التي قصصناها عليك بعذاب الاستئصال ﴿أمرنا مترفيها﴾ أي أمرنا رؤساءها المنعمين فيها وأشراف القوم فيها، الذين يقودون الناس وهم تبع لهم، أمرناهم بالطاعة على لسان رسلنا ﴿ففسقوا فيها﴾ أي القرية أو المدينة أي تمردوا في كفرهم وعصوا أمر ربهم، وأقرهم أهل القرية من أتباعهم فسكتوا عنهم ورضوا بفعلهم، والله سبحانه لا يظلم أحداً ﴿فحقّ عليها القول﴾ أي وجب عليها العذاب ﴿فدمرناها تدميرا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها.

القــــراءة

قرأ الأكثرون: ﴿أمرنا﴾ مخففة، وروى خارجة[١] عن نافع: ﴿آمرنا﴾ ممدودة مثل ﴿آمنا﴾ وكذلك روى حماد[٢] عن ابن كثير ومعناها كثرنا، وروى ابن مجاهد[٣] أن أبا عمرو قرأ: ﴿أمّرنا﴾ مشددة الميم، وهي رواية أبان[٤] عن عاصم.

ثم ذكر عادته الجارية مع القرون الخالية فقال:

١٧ - ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾.

﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ أي كثيراً أهلكنا من بعد نوح، والمراد الناس الذين مضت عليهم القرون وهي تهديد للمشركين ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ أي حسب هؤلاء القوم الهالكين ألاّ يعلموا فيتعظوا بأنّ الله ناقد لأعمالهم بصير لأفعالهم، لا يفوته شيء منها وإن أمهل فلا يهمل.

ثم أكّد المعاني المذكورة من قوله: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره﴾. ومن قوله: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ بقوله:

١٨ - ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾.

---

(١) هو خارجة بن مصعب، أبو الحجاج الضبعي السرخسي، أخذ القراءة عن نافع وأبي عمرو، وله شذوذ كثير عنهما لم يتابع عليه، وروى عن حمزة حروفاً، روى القراءة عنه جماعة، توفي سنة ١٦٨ هـ.

(٢) هو حماد بن زايد راوي ابن كثير.

(٣) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المتوفّى سنة ٣٢٤ هـ بعد أبي عبيد بمائة عام.

(٤) هو أبان بن تغلب راوي عاصم.

﴿من كان يريد العاجلة﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا، ﴿عجلنا له فيها ما نشاء﴾ من عرض الدنيا والبسط والتقتير ﴿لمن نريد﴾ أن نعجل له وفي هذا ذم لمن أراد بعمله الدنيا وقال ابن جرير الطبري هذه لمن لايوقن بالمعاد ﴿ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا﴾ أي مطروداً من رحمة الله.

١٩ ـ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

﴿ومن أراد الآخرة﴾ الجنة ﴿وسعى لها سعيها﴾ أي عمل لها العمل الذي يصلح لها ﴿وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي مقبولاً وشكر الله عزّ وجلّ لهم ثوابه إياهم.

ثم بيّن كمال رأفته وشمول رحمته فقال:

٢٠ ـ ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾.

﴿كلًّا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ كلًّا نعطي من الدنيا، البر، والفاجر والعطاء الرزق ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ممنوعاً، والمعنى أنّ الرزق يعمّ المؤمن والكافر، والآخرة للمتقين خاصة.

٢١ ـ ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾.

﴿انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض﴾ في الرزق منهم مقلّ ومنهم مكثر ﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾.

دعائم المجتمع الفاضل

لما أجمل أعمال البر في قوله: ﴿وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أخذ في تفصيل ذلك مبتدئاً بأشرفها الذي هو التوحيد فقال:

٢٢ ـ ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾.

لا ناصر لك، والخذلان ترك العون.

ولما ذكر ما هو الركن الأعظم في الإيمان أتبعه سائر الشعائر والشرائع فقال:

٢٣ ـ ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾.

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ أي أمر ﴿وبالوالدين إحساناً إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾ الأف معناه في اللغة وسخ الأذن أو الظفر فاستعملتها العرب فيما يكره، ويستقذر ويضجر منه، ومن معناه الاحتقار والاستصغار ﴿ولا تنهرهما﴾ تزجرهما ﴿وقل لهما قولاً كريما﴾.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿إما يبلغانّ﴾ على التثنية. قرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿أفَّ﴾ بفتح الفاء، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿أفٍ﴾ بالكسر والتنوين. وقرأ الباقون: ﴿أفِّ﴾ خفضاً بغير التنوين.

قال الزجاج[1]: فيها سبع لغات عند العرب، الكسر بلا تنوين، والكسر مع التنوين، والضمّ بلا تنوين، والضم مع التنوين، والفتح بلا تنوين والفتح مع التنوين والسابعة لاتجوز في القراءة وهي ﴿أفي﴾ بالياء.

٢٤ ـ ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾.

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي ألن لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إيّاهما، وخفض الجناح قال فيه عطاء: جناحك يداك فلا ترفعهما على والديك وقال الفراء: الذلّ أن تتذلل لهما من الذل، والذل: أن تتذلل ولست بذليل في الخدمة والذلّ والذلّة: مصدر الذليل، والذلّ بالكسر مصدر الذلول ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ أي مثل رحمتهما إيّاي في صغري حتى ربياني.

٢٥ ـ ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴾.

﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ أي بما تضمرون من البر والعقوق، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يضمر العقوق غفر له ذلك ﴿إن تكونوا صالحين فإنّه كان للأوابين غفورا﴾ الأوّاب التائب مرة بعد مرة.

ثم وصّى بغير الأبوين من الأقارب بعد التوصية بهما فقال:

٢٦ ـ ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾.

﴿وآت ذا القربى حقه﴾ قرابة الرجل من قبل أبيه وأمه، وحقهم هو برّهم وصلتهم ودفع النفقة الواجبة إليهم وقت الحاجة، والوصية لهم عند الوفاة ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ حق المسكين من الصدقة عند الضرورة إليه وحق ابن السبيل من الضيافة ﴿ولا تبذر تبذيرا﴾.

الإســراف

ثم بالغ في تفظيع شأن التبذير قائلاً:

٢٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴾.

﴿إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لكونهم أطاعوا الشياطين ووالوهم على طريقتهم ﴿وكان الشيطان لربه كفورا﴾ شديد الكفر للنعمة فكذلك أخوه المبذر.

ثم علّم أدباً حسناً في ردّ السائل إن أفضى الأمر إلى ذلك ضرورة فقال:

(١) هو إبراهيم بن السريّ بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي. انظر ترجمته في: «بغية الوعاة ص ١٧٩».

٢٨ ـ ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ .

﴿وإما تعرضن عنهم﴾ أي المذكورين في الآيات السابقة من ذوي القربى والمساكين وابن السبيل فلم تقم بالواجب نحوهم ﴿ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي لطلب رزق تنتظره يأتيك فتعطيهم منه ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾ لينا سهلاً بأن تعدهم بالإعطاء عند مجيء الرزق.

ولما ذكر أدب المنع ونهى عن التبذير صرّح بأدب الإنفاق فقال:

٢٩ ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ .

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ أي لا تمسكها عن الإنفاق كل المسك ﴿ولا تبسطها﴾ في الإنفاق ﴿كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ تلوم نفسك، ويلومك الناس ومحسورا قال ابن قتيبة: تحسرك العطية كما يحسر السفر البعير فيبقى منقطعاً به، قال الزجاج: المحسور الذي بلغ الغاية في التعب والإعياء فالمعنى: فتقعد وقد بلغت في الحمل على نفسك وحالك حتى صرت بمنزلة من قد حسر.

ثم إنّه تعالى سلّى نبيه ﷺ بأن الذي يرهقه من الإضافة ليس لهوان منه على الله، ولا لبخل به عليه ولكنّه تابع لمشيئة الخالق الرازق فقال:

٣٠ ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ .

﴿إن ربّك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يضيقه على من يشاء ﴿إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم فيرزقهم على حسب مصالحهم.

٣١ ـ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أي لا تقتلوا أولادكم الصغار بالوأد أي بالدفن مخافة الفقر ﴿نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا﴾ قال الفراء: الخطء: الإثم، يقال قد خطىء يخطأ: إذا أثم وأخطأ يخطىء: إذا فارق الصواب.

القـــراءة

﴿إنّ قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾ قرأ ابن عامر: ﴿إن قتلهم كان خطأً كبيراً﴾ بفتح الخاء والطاء وهو ضد العمد. قرأ ابن كثير: ﴿خطاء﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء، وقرأ الباقون: ﴿خِطْأً﴾ بكسر الخاء وإسكان الطاء.

ولما نهى عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل، ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى مثل ذلك ولا أقلّ من اختلاط النسب فقال:

٣٢ ـ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

ولما فرغ من التكليف بالاحتياط في مبدأ حال الإنسان، شرع بالتكليف بالاحتياط في آخر عمره فقال:

٣٣ - ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾.

﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه﴾ لوارثه ﴿سلطانا﴾ تسلطاً قانونياً على القاتل ينصره بإنصافه في حقه. ﴿فلا يسرف في القتل﴾ بأن يقتل غير قاتله أو أن يستعمل شيئاً في التنفيذ غير ما قتل به، أو يمثل بالمقتول أويعذبه قبل القتل ﴿إنه كان منصورا﴾ أي معاناً عليه بالقوة الجبرية الحكومية.

وفي التصريح بالتحريم بعد النهي تأكيد للحذر، ولا ريب أن الأصل في قتل الإنسان هو التحريم لأنّه ضرر، والأصل في المضار الحرمة.

القـــراءة

﴿فلا يسرف﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿فلا تسرف في القتل﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء.

ولما ذكر النهي عن إتلاف النفوس في المباديء، وفيما وراءها أتبعه النهي عن إتلاف الأموال وكان أهمها بالحفظ والرعاية مال اليتيم فقال:

٣٤ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ إلا بما هو أنفع له، وأصلح لماله واحفظوا له ماله ﴿حتى يبلغ أشده﴾ سن الرشد الذي يدفع إليه فيه المال وهو مفسر في الأنعام (١٥٢) والمسألة ترجع إلى مدى إدراك اليتيم وقدرته على إدارة أمواله بنفسه ﴿وأوفوا بالعهد﴾ عام فيما بين العبد وبين ربه، وفيما بينه وبين الناس، ويدخل في ذلك جميع العقود ﴿إن العهد كان مسؤولا﴾ عنه.

ثم أمر بإيفاء الكيل فيما يكال والوزن فيما يوزن فقال:

٣٥ - ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾ بالبيع والشراء ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ الميزان الذي ليس فيه غش ولا عيب ﴿ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ أي عاقبة في الجزاء.

القـــراءة

﴿قُسطاس﴾ بضم القاف وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو، وابن عامر، وأبي بكر عن عاصم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف ﴿قِسطاس﴾.

ثم أمر بإصلاح اللسان والقلب فقال:

٣٦ ـ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ أي تتبع الظنون والحدس، والقائف الذي يعرف الأثر ويتبعه. والمعنى: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، أو تقول رأيت ولم تر، ولا سمعت ولم تسمع، كما لا تشهد بالزور ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ الإشارة إلى الجوارح المذكورة يسأل العبد يوم القيامة فيما إذا استعملها، وفي هذا زجر عن النظر إلى ما لا يحل، والاستماع إلى ما يحرم والعزم على ما لا يجوز.

٣٧ ـ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾.

﴿ولا تمش في الأرض مرحا﴾ المرح شدة الفرح من الكبر والخيلاء ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ تثقبها بمشيتك عليها، ولا أنت قاطعها لطولها ﴿ولن تبلغ الجبال طولا﴾ أي ارتفاعها فمهما مشيت فيها فإنك سوف تعجز وتنهك وتتعب وتذبل، وهذا مثل للمتكبر بأنه مهما تكبر واختال، لن يبلغ هذا المبلغ فهو أصغر من ذلك بكثير، فلا ينبغي للعاجز أن يبذخ ويتكبر.

٣٨ ـ ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾.

إشارة إلى المنهي عنه من المذكور سلفاً.

القـــراءة

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿سيئة﴾ منوناً غير مضاف على معنى خطيئة فعلى هذا يكون قوله: ﴿كل ذلك﴾ إشارة إلى المنهي عنه من المذكور فقط. وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿سيئه﴾ مضافاً مذكراً فتكون كل يشار بها إلى سائر ما تقدّم ذكره.

٣٩ ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾.

﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ الموعظة المفيدة النافعة في الدنيا لحياة المجتمع ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ شريكاً له في عبادته وتوحيده ﴿فتلقى في جهنم ملوماً مدحورا﴾ مطروداً من رحمة الله.

ثم أنكر على المشركين القائلين بأن الملائكة بنات الله فقال:

٤٠ ـ ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾.

نزلت في المشركين الذين قالوا: الملائكة بنات الرحمن، وأصفاكم: أي اختصّكم واختاركم وهذا توبيخ للكفّار على هذه المقالة.

ولما بيّن أنواع الحكم ومكارم الأخلاق، ذكر غاية مظلومية الإنسان ومجهوليته فقال:

٤١ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ .

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا﴾ معنى التصريف هاهنا: التبيين، وذلك أنه إنما يصرف القول ليبين وقال ابن قتيبة: ﴿صرفنا﴾ بمعنى: وجهنا من الأمثال والوعد والوعيد ﴿ليذكروا﴾ التذكير الاتعاظ والتدبر ﴿وما يزيدهم إلاّ نفورا﴾ أي وما يزيدهم تصريفنا وبياننا وتذكيرنا لهم في القرآن من الآيات الواضحات إلا تتبع الباطل والهرب من الحق.

القــــراءة

﴿ليذكروا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر مشددة. وقرأ حمزة والكسائي وخلف مخففة، وكذلك في الفرقان. ﴿ليذكروا﴾.

ثم دلّ على التوحيد الذي أمر به في قوله: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ فقال:

٤٢ ـ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ .

الرد على من يدعي أن لله شريكاً

﴿قل لو كان معه آلهة﴾ غير الله متعددون ﴿كما يقولون﴾ أي الكفار المشركون بالله ﴿إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾ والمعنى: لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها المراتب العالية والدرجات الرفيعة، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله فكيف يعقل أن تهديكم إلى الله.

القــــراءة

﴿تقولون﴾ قرأ نافع، وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بالتاء، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿يقولون﴾ بالياء.

ثم نزّه نفسه عن أقوالهم فقال:

٤٣ ـ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ .

ثم بيّن غاية ملكه ونهاية عظمته بقوله:

٤٤ ـ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

القــــراءة

﴿تسبح﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿يسبح﴾ بالياء.

ولما فرغ من الإلهيات شرع في النبويات فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾.

أي ساترا.

٤٦ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أغطية ﴿أنْ يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ ثقلاً ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ نطقت بالشهادتين ﴿ولوا على أدبارهم نفورا﴾ وذلك بسبب كفرهم وعنادهم وإصرارهم على المعاصي والمعنى: إن الكفار المشركين بالله لشدة تمسكهم بعبادة الأصنام وتشرب عقيدة الشرك في نفوسهم صار بينك وبينهم ساترٌ ماديٌ يحجبهم عن سماع القرآن وتفهم معانيه عندما تقرأه، حتى صارت قلوبهم مغطاة عن دخول النور فيها وتدبر آيات القرآن ليفهموها وفي آذانهم ثقلٌ يمنع من السمع ويشتد ذلك فيهم عندما يسمعون كلمة التوحيد التي تمس آلهتهم فيخشون عليها وعلى مراكزهم ومناصبهم وتقاليدهم فيفروا مدبرين نافرين كما تنفر الوحوش في البرية.

فأوعدهم الله على ذلك بقوله:

٤٧ ـ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ إليك من القرآن إذا دعوتهم إليه ﴿إذ يستمعون إليك وإذْ هم نجوى﴾ يقولون بينهم هو ساحر، وهو مسحور، وما أشبه ذلك من القول ﴿إذْ يقول الظالمون﴾ أي أولئك المشركون ﴿إنْ تتبعون إلا رجلا مسحورا﴾ مخدوعا.

٤٨ ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ بينوا لك الأشباه حتى شبهوك بالساحر والشاعر والمجنون ﴿فضلوا﴾ عن الحق حيث اختاروا طريق الشر ﴿فلا يستطيعون سبيلا﴾ إلى الهدى بعد سلوكهم هذا السبيل الصعب والعقيدة الفاسدة التي صرفتهم عن التفكير باختيار الطريق السليم وأثقلت آذانهم عن سماع آيات الله، ووضعت بينهم وبين الإسلام غطاءً أو ستاراً يحجبهم عن نور الله.

شبهتهم في البعث والردّ عليها

وحين فرغ من شبهات القوم في النبوات حكى شبهتهم في أمر المعاد فقال:

٤٩ ـ ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾.

القــــراءة

﴿أئذا كنا﴾ قرأ ابن كثير ﴿أيْذا﴾ بهمزة ثم يأتي بياء ساكنة من غير مد، وكذلك في كل القرآن. وكذلك روى قالون عن نافع. وقرأ عاصم، وحمزة بهمزتين في الحرفين جميعا، وقرأ ابن عامر ﴿إذا كنا﴾ بغير استفهام بهمزة واحدة ﴿آئذا﴾ بهمزتين بمد بينهما مدة.

٥٠ - ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

٥١ - ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ فالمراد افرضوا شيئاً آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث تستبعد عقولكم كونه قابلاً لوصف الحياة، وعلى هذا لا حاجة إلى تعيين ذلك الشيء، ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم﴾ يحركونها تكذيباً واستهزاء، يحرّكونها كما يحرك الآيس من الشيء والمستبعد له ﴿ويقولون متى هو﴾ أي البعث ﴿قل عسى أن يكون قريبا﴾ لكل إنسان بعد الموت فعمر الإنسان محدود، ومن مات خرج من الدنيا ودخل الآخرة.

٥٢ - ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿يوم يدعوكم﴾ يعني من القبور بالنداء الذي يسمعكم ﴿ فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتم﴾ في الدنيا ﴿إلّا قليلا﴾ لهول ما ترون.

ثم أمر المؤمنين بالرفق والتدرج عند إيراد الحجة على المخالفين فقال:

٥٣ - ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا

﴿وقل لعبادي﴾ المؤمنين لأن لفظ العباد يختص بهم في أكثر القرآن ﴿يقولوا﴾ للكفار الكلمة أو الحجة ﴿التي هي أحسن﴾ من قولهم لهم حيث يقابلون السّيِّء بالحسن، وأن لا تكون الكلمة مخلوطة بالسب واللعن والغلظة، ثم علل وجه المنفعة بهذا الطريق فقال ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ يفسد ما بينهم من الصلة وكل ما يقرب إلى نشر الدعوة بالتي هي أحسن وهذا مثل قول الله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[(1)] وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه ولي حميم﴾[(2)] ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا﴾ أي خلق طبعه هكذا فيه عنصر الشر والعدو الظاهر العداوة.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

٥٤ ـ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ أيها الناس ﴿إن يشأ يرحمكم﴾ لاختياركم الإيمان لأنكم من أهله ﴿أو إن يشأ يعذّبكم﴾ لاختياركم الشر والكفر لأنّكم في علمه من أهله فتموتوا على الكفر ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلا﴾ رقيبا تحاسب على أعمالهم إن أنت إلّا نذير وبشير فقط، ولا تستطيع النفاذ بهدايتهم والقدرة على إصلاح قلوبهم، فالله له حكمة في البشر، وسنته تجري حسب نظام الكون الذي يدبّره.

وحين قال: ﴿ربكم أعلم بكم﴾ عمم الحكم فقال:

٥٥ ـ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

﴿وربك أعلم بمن في السمٰوات والأرض﴾ يعني أن علمه غير مقصور عليكم ولا على أحوالكم، بل علمه متعلق بالخلق جميعاً ممن يعقل ولا يعقل لأنه خالقهم ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا﴾ وفي البقرة ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾[1] فالتفضيل بين الأنبياء والرسل حاصل بالكتب المنزلة وبالآيات الكونية، وفي بعض الاختصاصات التي اختص فيها بعضهم بالكلام والرفع وبعموم الرسالة، ومنهم من قص الله علينا ذكره، ومنهم من لم يقصص وإنما ختم الآية بقوله: ﴿وآتينا داود زبورا﴾ ليعلم أن التفاضل ليس بالمال والملك، وإنما هو بالعلم والدين، فإن داود كان ملكاً عظيماً ولم يذكره الله سبحانه إلا بمزية إيتاء الكتاب، وفيه إشارة إلى أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، وأمته خير الأمم بدليل قوله ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، أي محمد وأمته وكانت اليهود تقول إنه لا نبي بعد موسى، ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله كلامهم بإنزال الزبور على داود بعد موسى.

ثم ردّ على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنّها صور الملائكة أو على طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بألوهية عيسى ومريم وعزير فقال:

٥٦ ـ ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾.

﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه﴾ من الأوثان والأصنام، والطواغيت الإنس والجن والشياطين ﴿فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا﴾ أي إن الذين تدعونهم من دون الله لا يستطيعون شفاءكم من المرض ولا إغناءكم من الفقر والجوع إذا حلّا بكم ولا يستطيعون تحويل ذلك عنكم إلى عدوكم أو من تشاؤون.

ثم إنّه تعالى أكّد عدم اقتدار معبوديهم ببيان غاية افتقارهم إلى الله تعالى في جذب المنافع ودفع المضار فقال:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

٥٧ ـ ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ .

﴿أولئك الذين يدعون﴾ أي أولئك آلهة الذين يدعونهم ويسمونهم آلهة ويدعونهم وينادونهم لكشف الضر عنهم ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ القربة بالطاعة والعبادة في قضاء الحوائج، ﴿أيهم أقرب﴾ أي ينظرون أي أولئك الآلهة أقرب إليهم أو أنهم أقرب إلى الله حسب زعمهم فيتوسلون إليه به، وهذا على حد زعمهم ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[1] ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ عطف على يبتغون، والمعنى: كيف تدعونهم آلهة إذا كانوا لا يستطيعون كشف الضر عنكم، وتتخذونهم واسطة يشفعون لكم عند الله ابتغاء رحمته والخوف من عقابه ﴿إن عذاب ربك كان محذورا﴾ أي حقيقاً بأن يحذره كل أحد.

ثم بيّن مآل حال الدنيا وأهلها فقال:

٥٨ ـ ﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ .

﴿وإن من قرية﴾ أي ما من قرية ظالمة من القرى السالفة قبل بعثة النبي محمد ﷺ ﴿إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة﴾ وهذا الهلاك هو عذاب الاستئصال، وهذا خاص بالظالمين الأولين قال الله تعالى في سورة القصص ﴿وما كنّا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[2] وقال في الأنعام ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾[3] ﴿أو معذبوها عذاباً شديدا﴾ أي أن الظالمين من أمة محمد، سوف يكون عذابهم في الآخرة شديداً وذلك لدلالة الآيات الكثيرة على تأخير العذاب في الدنيا عن أمة محمد ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ في اللوح المحفوظ.

ثم ذكر نوعاً آخر من سننه فقال:

٥٩ ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ .

﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون﴾ والمعنى: ما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات الكونية، إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم كعاد وثمود، وكان الكفار قد طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا تلك الأراضي، ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ آية كونية بينة

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٢) الآية: ٥٩.
(٣) الآية: ٤٧.

﴿فظلموا بها﴾ أنفسهم بقتلها وكفروا بها، وجحدوا كونها من الله آية مبصرة ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ أي ما نرسل بالآيات المقترحة التي يطلبها الكفار إلا تخويفا من نزول العذاب العاجل، وهو عذاب الاستئصال والهلاك لمن أنكرها.

وحين امتنع من إرسال الآيات المقترحة على رسوله للمصارف المذكورة قوى قلبه بوعد النصر بالغلبة فقال:

٦٠ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ أي أنهم في قبضته وقدرته، فلا يقدرون على خلاف إرادته، فينصرك ويقويك حتى تبلغ الرسالة، ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ أي الرؤيا التي رأيتها ليلة الإسراء، وقد صارت فتنة للناس ما بين مصدق ومكذب، فمن صدق زادته إيماناً على إيمانه بالنبي محمد ﷺ، ومن كذّب فقد انكشف أمره، وزال خطره، الذي يتستر به على المسلمين من إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

الشجرة الملعونة في القرآن

﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ هي الشجرة الخبيثة التي ذكرها الله سبحانه بقوله في سورة إبراهيم(١): ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾، ولم يعينها الله سبحانه لا في هذه الآية ولا في آية الإسراء، وقد تشمل الشجرة التي نهي أبونا آدم عن قربانها، وسماها الشيطان شجرة الخلد وملك لا يبلى، فبان أنها شجرة الشؤم والذم والذنب، ومن ثمرتها نبتت في بني آدم المعصية وقد تكون شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، فهي إذاً جنس للشجرة الخبيثة.

﴿ونخوفهم﴾ أي نخوفهم في ذكر تلك الأوصاف والوعيد والتهديد ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيرا﴾.

آدم وإبليس

إنه لما ذكر أن الرسول ﷺ كان من قومه في بلية عظيمة ومحنة شديدة، أراد أن يبيّن أن جميع الأنبياء كانوا كذلك حتى آدم عليه السلام فقال:

٦١ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾.

﴿طيناً﴾ نصب بنزع الخافض أي من طين.

---

(١) الآية: ٢٦.

٦٢ ـ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿قال أرءيتك﴾ أي أخبرني ﴿هذا الذي كرّمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا﴾ لاستقصينهم والمعنى: لأقودنهم، وهذه القصة ذكرناها في البقرة والأعراف، والحجر، وسوف يأتي الكلام عليها في الكهف و طه و ص، قال أبو مسلم: هو افتعال من الحنك، يقال منه حنك الدابة يحنكها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به، وإنما ظن إبليس بهم ذلك لأنه سمع قول الملائكة في حقهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ والقليل هم أولياء الله الذين عصمهم.

القـــراءة

﴿أخرتن﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بياء في الوصل، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بغير ياء في وصل، لا في وقف.

٦٣ ـ ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾.

﴿قال اذهب﴾ امض لشأنك الذي اخترته خذلاناً وتخليةً وإمهالاً، ثم رتّب على الإمهال قوله: ﴿فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءاً موفورا﴾ الموفور الموفر وقيل بمعنى الوافر.

ثم أكّد الإمهال والخذلان بقوله:

٦٤ ـ ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

والمعنى: أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من الوسوسة وغير ذلك، مما يمكنك استعماله، وقد شبّه عدو الله باستعداده للإنسان وكأنما هو قائد جيش يدعو ويصيح، ويجلب الخيل يجمعها وما يملك من الخيل والرجال من الجن والذرية، ومن اتبعه من الإنس، وليس المراد الحقيقة وإنما كناية عما يقابل به الإنسان من شدة العداوة وتصوير الأمر، كأنه يجابه معركة بين الحق والباطل بقيادة الشيطان، فليحذر الناس ذلك وليستعدوا له. قال ابن الجوزي. وهذه الآية لفظها لفظ الأمر، ومعناها التهديد، ومثلها في الكلام أن نقول للإنسان أجهد جهدك فسترى ما ينزل بك، قال الزجاج: إذا تقدم الأمر نهي عما يؤمر به، فمعناه التهديد والوعيد، ومثله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ كما في سورة فصلت وقد نهوا عن أن يعملوا بالمعاصي، قال ابن الأنباري: هذا أمر معناه التهديد، تقديره إن فعلت هذا، عاقبناك وعذّبناك كقوله تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الكهف[1].

---

(١) الآية: ٤٩.

القــــراءة

﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ قرأ الباقون غير حفص ﴿ورجلك﴾ بإسكان الجيم جمع راجل.

ولما قال للشيطان على سبيل الوعيد والتهديد افعل ما تقدر عليه ربط جأش سائر المكلفين بقوله:

٦٥ ـ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾.

﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي حجة وهم عباد الله المخلصون ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ فهو يدفع كيد الشيطان ويعصمهم من إغوائه.

ثم عدّد على بني آدم بعض ما أنعم به عليهم ليكون تذكيراً لهم وتحذيراً فقال:

٦٦ ـ ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾.

﴿ربكم الذي يزجي لكم﴾ أي يسير لأجلكم ﴿الفلك في البحر﴾ والإزجاء سوق الشيء حالا بعد حال ﴿لتبتغوا من فضله﴾ الربح والتجارة ﴿إنه كان بكم رحيما﴾ لذلك هداكم.

٦٧ ـ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا

﴿وإذا مسّكم الضر في البحر﴾ يعني خوف الغرق ﴿ضل من تدعون﴾ من آلهتكم وأصنامكم وشياطينكم، فنسيتموهم وأخلصتم الدعاء لله طلباً للنجاة، ﴿إلا إياه﴾ ولم يبق لكم غير الله ﴿فلما نجّاكم﴾ الله ﴿إلى البر أعرضتم﴾ عن الإيمان والإخلاص ﴿وكان الإنسان﴾ الكافر ﴿كفورا﴾ بنعمة الله لأنّه عند الشدة يتمسك برحمة الله، وفي الرخاء يعرض عنه.

ثم أنكر عليهم سوء معاملتهم قائلاً:

٦٨ ـ ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾.

﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ والمعنى أن حكمي نافذ في البر نفوذه في البحر، ﴿أو يرسل عليكم حاصبا﴾ الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء، وهي الحصى الصغار ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلا﴾ يصرف ذلك عنكم، يمنعنا وينصركم.

القــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿أفأمنتم أن نخسف بكم ... أو نرسل ... أو نعيدكم ... فنرسل ... فنغرقكم...﴾ كلها بالنون يخبر الله عز وجل عن نفسه.

٦٩ ـ ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾.

﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه﴾ أي في البحر ﴿تارة أخرى﴾ مرة أخرى مثل ما كنتم من قبل ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم﴾ القاصف ريح لها قصيف: أي صوت شديد ومن شدتها تقصف الشجر والحجر وكل ما أمامها فتكسره ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾ من يتبع بدمائكم أي: يطالبنا.

ريح العذاب أربع

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اثنتان في البر، واثنتان في البحر، فاللتان في البر: الصرصر والعقيم، واللتان في البحر: العاصف والقاصف.

تكريم جنس بني آدم

ثم أجمل ذكر النعمة بقوله:

٧٠ ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ جنس ابن آدم بجعل الملائكة تسجد لأبيهم آدم، وأعطيناهم العقل المميز ﴿وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات﴾ من كل عذب نباتي وحيواني، ثم التكريم لا يدل على التفضيل، لأن تكريم زيد لا ينافي تكريم غيره بأزيد من ذلك، ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ ويدخل في هذا التفضيل من يعقل وما لا يعقل كالملائكة وغيرهم.

ولما ذكر أنواع كرامات الإنسان في الدنيا شرح أحوال درجاته في الآخرة فقال:

٧١ ـ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

﴿يوم ندعوا كل أناس بإمامهم﴾ يوم القيامة، والمراد بإمامهم نبيهم ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤون كتابهم ولايظلمون فتيلا﴾ الفتيل هو الخيط الذي في شق النواة، وجاء ذكره كذلك في سورة النساء بقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا﴾.

٧٢ ـ ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿ومن كان في هذه﴾ الدنيا أعمى القلب عن معرفة الله وآياته وقدرته ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ عن دخول الجنة، وعن مغفرة الله ونعمته ﴿وأضلّ سبيلا﴾ أي أشدّ وأبعد طريقاً عنه.

القــراءة

﴿أعمى﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ بكسر الميم فيهما.

لما عدد في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على بني آدم وشرح أحوال السعداء أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس الأشقياء فقال:

٧٣ ـ ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ .

﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾ بالقرآن ﴿لتفتري علينا غيره﴾ غير الذي أوحينا إليك وتقول شيئاً من عندك ﴿وإذاً﴾ لو فعلت ذلك ﴿لاتخذوك خليلا﴾ أي والوك وصافوك. والمعنى: أن المشركين كانوا يسعون بكل الطرق ومختلف الأساليب وأنواع الكلام والوعود لاستمالة النبي إلى طرفهم أو السكوت عن آلهتهم، والكف عن دعوته لهم، فتارة يقولون لو عبدت آلهتنا عبدنا إلهك فنزل قول الله ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون﴾ وقوله ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ أي تلين فيلينون وتارة يعرضون عليه الأموال والنساء الجميلات، فقال الله له ﴿ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به﴾[1] وأخرى دعوه إلى طرد المستضعفين من المؤمنين فقال له الله محذّراً ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾[2] من مجلسك، وكل ذلك دليل على أنّهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه ويستزلّوه عن منهجه ليجنح إليهم، وأصل الفتنة الاختبار، ومنه فتن الصائغ الذهب أي اختبره.

٧٤ ـ ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ .

﴿ولولا أنْ ثبتناك﴾ على الحق بالعصمة والوحي ﴿لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا﴾ أي قاربت أن تميل. والمعنى: ولولا سبق تثبيتنا لك بالعصمة المانعة لكونك نبياً مرسلا، لكان الشأن أن يكونوا قاربوا أن يخدعوك فاتنين لك ليستزلوك عما أنت عليه ويستميلوك إليهم متخذين منك ولياً وصديقا، وتكون أنت قد انخدعت وركنت إليهم ولو بسكوتك عنهم أو بالردّ عليهم، لكن الأمر مختلف حيث كان التثبيت على الحق سابقاً لما يتصوّرونه وفوق ما يمكن أن تسيطر به نفسك عليك.

ثم توعّده في ذلك أشد الوعيد فقال:

٧٥ ـ ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ .

﴿إذاً﴾ لو لم يسبق التثبيت لك وملت إليهم ﴿لأذقناك ضعف﴾ عذاب ﴿الحياة وضعف﴾ عذاب ﴿الممات﴾ أي لأذقناك مثلي ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾ مانعا منه.

والمعنى: أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك، وعقدت على الركون إليه لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك. وقد سبق تفسير الضعف في الأعراف الآية: (٣٨).

ثم ذكر طرفاً آخر من مكايدهم فقال:

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.

٧٦ ـ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض﴾ أي المشركون من أهل مكة ﴿ليخرجوك منها﴾ من مكة بالقوة فأخبره الله بما كانوا يبيتون من إخراجه أو قتله كما في الأنفال «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك»[1] ﴿وإذاً﴾ لو فعلوا ذلك ﴿لا يلبثون خلافك إلا قليلا﴾ ثم يهلكون أو يسلمون، لأن وعد الله لا بد أن يتحقق لرسوله بالنصر، وخلفك وخلافك بمعنى واحد، أي بعدك.

القـــراءة

﴿خلفك﴾ قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم ﴿خلفك﴾ وقرأ ابن عامر، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿خلافك﴾.

ثم بيّن أن عادته تعالى جارية بأن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فإنّه يهلكهم فقال:

٧٧ ـ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

لما قرر الإلهيات والمعاد والجزاء أردفها بذكر أشرف الطاعات فقال:

٧٨ ـ ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ أي من وقت زوالها والدلوك في كلام العرب الزوال ﴿إلى غسق الليل﴾ أي إقبال ظلمته ﴿وقرآن الفجر﴾ أي صلاة الفجر ﴿إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ تشهده الملائكة.

ثم حثّ على قيام الليل فقال:

٧٩ ـ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ أي صل صلاة تطوع لك ثم وعده على إقامة الفرائض والنوافل بقوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ مقام الشفاعة الذي يحمدك فيه الأولون والآخرون يوم القضاء بالآخرة.

٨٠ ـ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ عام في كل ما يدخل في الإنسان ويلابسه من الأمور المادية والمعنوية، ثم يتركه من أمر أو مكان، ولا دليل صحيحاً يخص الآية في مكة أو المدينة أو القبر أو الدنيا أو غير ذلك ﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا﴾ حجة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني، ثم شرّف الله نبيه باستجابة دعائه بقوله:

٨١ ـ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ أي قل للكفار منذراً وللمؤمنين مبشراً، جاء الإسلام والحق والنور

(١) الآية ٣٠.

والهدى يزحفون نحو الكفر والشرك والباطل لإزهاق روحهم وإخراجهم من نفوس الناس وطردهم، وبمجيء الحق اضمحل الشرك وزهق مِنْ زهقت نفسه إذا خرجت ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ غير ثابت في كل وقت.

القرآن شفاء لما في الصدور

٨٢ ـ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾ لما في الصدور العليلة من الأمراض الروحانية، كالعقائد الفاسدة لما فيه من البراهين القاطعة، وشفاء من الأخلاق الذميمة، لما فيه من العبر والعظات للناس ﴿ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا﴾ المشركون لا ينتفعون بمواعظه فصاروا كالخاسر في تجارته خسران على خسران، راجع تفسيرنا في سورة يونس الآية (٥٧).

ثم ذكر قبح شيمة الإنسان الذي جبل عليه فقال:

٨٣ ـ ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ الجاحد لنعمة الله عليه الكافر بربه وسعة رزقه له ﴿أعرض ونأى بجانبه﴾ النأي البعد مولياً ظهره دون أن يذكر النعم ﴿وإذا مسّه الشر كان يؤوسا﴾ قنوطاً شديد اليأس من روح الله بتأييده ورحمته.

القـــراءة

قرأ ابن عامر: ﴿وناء بجانبه﴾ وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ونِأى﴾ بإمالة الألف بعد الهمزة وكسر النون وقرأ أبو بكر وخلاّد(١) عن حمزة: ﴿ونأِى﴾ بفتح النون وكسر الهمزة.

٨٤ ـ ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾.

﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ ناحيته والطريقة التي اختارها، والمنهج الذي تمسّك به ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا﴾.

الـــروح

٨٥ ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

الواضح من سياق الآية ومعاني ألفاظها أن الكفار كانوا يسألون النبي عن أشياء تعتبر بالنسبة لهم وله من الغيبيات، أو مما مضى من التاريخ القديم، الذي لا يمكن لمثله، وهو واحد منهم أن يعلمه، فكان يجيبهم عن

---

(١) هو أبو عيسى بن خالد الشيباني بالولاء، الصيرفي الكوفي: ٢٢٠ هـ، إمام في القراءة ثقة عارف محقق أستاذ.

كل ما يسألون، فيندهشون ويتعجبون، فيأخذهم الفضول للسؤال عن مصدر هذا العلم الذي يتفوق به ﴿يسألونك عن الروح﴾ أي الوحي قل مجيباً بأن الوحي من أمر ربي، أي أنني أجيبكم من ربي وأمره، كما قال تعالى في سورة النحل ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾[1] وهو الذي يثبت به الله عباده وهو روح القدس[2] وفي البخاري لما نزل عليه الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ وفيه أن اليهود سألوا ذلك ﴿وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا﴾ بالنسبة لعلم الله مما أجابكم به الرسول محمد عما تسألون.

لما بيّن أنّه ما آتاهم من العلم إلاّ القليل أراد أن يبيّن أنّه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل لقدر عليه فقال:

٨٦ ـ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾.

٨٧ ـ ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾.

﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ به من القرآن والعلم والأخبار عن المغيبات، وكشف ما في النفوس لو شئنا لمحوناه من القلوب والكتب حتى لا يوجد له أثر ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا في رد شيء منه ﴿إلاّ رحمة من ربك﴾ هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين ﴿إن فضله كان عليك كبيرا﴾.

ثم دلّ على أن الذي أوحي إليه ليس من جنس كلام المخلوقين فقال:

٨٨ ـ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن﴾ في الفصاحة والبلاغة والإعجاز مثل الإخبار عن المغيبات، وكشف ما في نفوس المنافقين والمتآمرين، والإجابة عن الأسئلة عن أخبار الماضين ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ الظهير: المعين.

ثم بين أنّهم مع ظهور عجزهم بقوا مصرّين على كفرهم فقال:

٨٩ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي ولقد بينا للناس من كل مثل من الأمثال التي يكون بها الاعتبار ﴿فأبى أكثر الناس إلاّ كفورا﴾ أي جحوداً للحق وإنكاراً له.

---

(١) الآية: ٢.

(٢) راجع في سورة البقرة، الآية: ٨٧.

مقترحات المعاندين

لما بين الله سبحانه إعجاز القرآن حكى مقترحات المعاندين بياناً لتصميمهم على الكفر فقال:

٩٠ ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾.

﴿ينبوعا﴾ عين ينبع منها الماء بكثرة، قالوا ذلك عناداً.

القــــراءة

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿تُفَجِّر﴾ بضم التاء وفتح الفاء وتشديد الجيم.

٩١ ـ ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾.

﴿أو تكون لك جنة﴾ بستان ﴿من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا﴾ أي وسطها.

٩٢ ـ ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾.

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ قطعا ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾ مقابلة وعياناً فنراهم.

القــــراءة

﴿كسفا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بتسكين السين في جميع القرآن إلاّ في الروم، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بتحريك السين في الموضعين، وفي باقي القرآن بالتسكين، وقرأ ابن عامر هاهنا بفتح السين في باقي القرآن بتسكينها.

٩٣ ـ ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ مذهّب مطلي ومنقوش ﴿أو ترقى في السماء﴾ أي تصعد في السماء فنراك أمام أعيننا بدون وسيلة في الهواء ﴿ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا﴾ منها ﴿كتاباً نقرؤه﴾ كتاباً من رب العالمين إلى فلان بن فلان يصبح عند كل واحد منا يقرؤه ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولا﴾.

قال نظام الدين النيسابوري في غرائب القرآن: «ليس من شرط كون النبي صادقاً تواتر المعجزات، وتتالي الآيات، لأن فتح هذا الباب يوجب نقيض المقصود، وهو أن لا تثبت نبوته أبداً ولكن المعجز الواحد يكفي في صدق النبي، واقتراح الزيادة من جملة العناد، فلا جرم لما بين الله سبحانه إعجاز القرآن حكىٰ مقترحات المعاندين بياناً لتصميمهم على الكفر» أي أن هذه الأشياء المادية من الآيات الكونية ليست في وسعي ولا في وسع أي بشر آخر مثلي، بل إنّها من أمر الله الذي يأمر بها في الوقت والزمان والمكان الذي يريده سبحانه، وما يأتي رسول إلاّ بإذن الله، وما أنا إلاّ واحد من أولئك الرسل البشر.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿قال سبحان ربي﴾ على الخبر.

ثم حكى عنهم شبهة أخرى فقال:

٩٤ ـ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾.

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾ أي ما منعهم عن الإيمان إلاّ قولهم في التعجب والإنكار ﴿إلاّ أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا﴾ وهذه شبهة أخرى لهم أجاب الله عليه بقوله:

٩٥ ـ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾.

﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي مستوطنين الأرض ﴿لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا﴾ تطبيقاً لسنة الله، لأن الرسول لا بد أن يكون من جنس المرسل إليهم.

ثم ختم الكلام بما يجري مجرى التهديد قائلا:

٩٦ ـ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾.

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ على صدقي ﴿إنّه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾.

ثم بيّن أن الإقرار والإنكار مستندان إلى مشيئته وتقديره فقال:

٩٧ ـ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾.

﴿ومن يهد الله﴾ أي من يختار هدى الله المتمثل بالخير ﴿فهو﴾ الموصوف بالهداية ﴿المهتد ومن يضلل﴾ يختار الشر والكفر والظلم ﴿فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾ يهدونهم إلى الخير لتركهم له ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ أذلاّء ﴿عمياً وبكماً وصما﴾ أي من غير بصر ولا نطق ولا سمع ﴿مأواهم جهنّم كلما خبت زدناهم سعيرا﴾ أي كلما سكنت قال المفسرون: وذلك أنها تأكلهم، فإذا لم تبق منهم شيئاً وصاروا فحماً ولم تجد شيئاً تأكله سكنت، فيعادون خلقاً جديداً فتعود لهم، قال ابن قتيبة: يقال خبت النار إذا سكن لهبها.

٩٨ ـ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾.

﴿رفاتاً﴾ بالية.

ثم أبدى للجاحدين حجة يستبصر المذعن للحق إذا تأمل فقال:

٩٩ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿أولم يروا أنّ الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أناساً وذلك أن من قدر على خلق السموات والأرض كان على إعادة من هو أدون منها، أقدر، أو أنه قادر على إفنائهم، وإيجاد غيرهم فيه كقوله تعالى: في سورة إبراهيم آية (١٩): ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ يعني أجل البعث ﴿فأبى الظالمون إلاّ كفورا﴾ أي جحوداً بذلك الأجل.

لما طلبوا إجراء الأنهار والعيون في أراضيهم لتتسع معايشهم بيّن الله تعالى أنهم لو ملكوا خزائن الله لبقوا على بخلهم فقال:

١٠٠ ـ ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ لو تملكون أنتم خزائن النعم والأرزاق ﴿لأمسكتم﴾ عن الإنفاق خشية الفاقة ﴿خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا﴾ بخيلا.

آيات موسى التسع لفرعون وقومه

١٠١ ـ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات﴾ معجزات ﴿بينات﴾ وهي: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنون، ونقص الثمرات.

١٠٢ ـ ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء﴾ الآيات البينات التي رأيتها وأحسست بها بحواسك ﴿إلاّ رب السماوات والأرض بصائر﴾ عبرا ولكنّك تعاند، ثم قارع موسى عليه السلام ظن فرعون بظنه فقال ﴿وإنّي لأظنك يا فرعون مثبورا﴾ هالكا: يقال ثبر الرجل فهو ثبور، إذا هلك.

القـــراءة

﴿لقد علمت﴾ قرأ الكسائي ﴿قال لقد علمتُ﴾ برفع التاء..

١٠٣ ـ ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾ أي أراد فرعون أن يستفز بني إسرائيل من أرض مصر بإخراجهم هالكين ﴿فأغرقناه ومن معه جميعا﴾ من الجنود في انطباق البحر عليهم.

١٠٤ - ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾.

﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾ أيّ أرض من أرض الله الواسعة إذ لم يحددها في الآية ولا في غيرها، ثم أخبر عن المعاد قائلا ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ يوم القيامة ﴿جئنا بكم﴾ أي أنتم وقوم فرعون وغيرهم ﴿لفيفا﴾ قبائل شتى ومذاهب مختلفة لأجل الحكم، والجزاء، والفصل والقضاء.

تعظيم شأن القرآن

ولما بين إعجاز القرآن وأجاب عن شبهات القوم أراد أن يعظم شأن القرآن ويذكر جلالة قدره فقال:

١٠٥ - ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

﴿وبالحق أنزلناه﴾ أي القرآن، ما أردنا بإنزاله إلّا تقرير الحق في مركزه وتمكين الصواب في نصابه أي لأجل إحقاق الحق أنزل القرآن أي من أجل وضع الأمور في نصابها، ولا شك أن أعظم شيء هو توحيد الله سبحانه وما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والعبر والحكم والأمثال بما تضمنته من أحكام الحلال والحرام، والثواب والعقاب ﴿وبالحق نزل﴾ أي أن كل ذلك الحق المشتمل عليه القرآن مما ذكر نزل بالصدق الثابت الذي لا مراء فيه ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾[1] ﴿وما أرسلناك إلّا مبشّراً ونذيرا﴾[2].

ثم إن القوم كأنّهم من تعنتهم طعنوا في القرآن من جهة أنه لم ينزل دفعة واحدة فأجاب عن شبهتهم فقال:

١٠٦ - ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

١٠٧ - ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾.

﴿وقرآنا فرقناه﴾ بيناه آيات وسورا ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ على مهل وتؤدة ﴿ونزلناه تنزيلا﴾ أي على حسب المصالح والحوادث.

ثم خاطب نبيه ﷺ بأن يقول للمقترحين ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وهو أمر وعيد وتهديد وخذلان ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي الذين أوتوا العلم من قبل نزول القرآن كالأنبياء، وناس من أهل الكتاب ﴿إذا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٧.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥٦.

يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا﴾ الذقن مجتمع اللحيين وهو عضو من أعضاء الوجه وهو أول ما يلقى الأرض من الساجد ذقنه.

ثم حكى أنهم في سجودهم يراعون شرائط التنزيه والتعظيم فقال:

١٠٨ ـ ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾.

ثم ذكر أنهم كما خروا لأذقانهم في حال كونهم ساجدين فقد خروا له حال كونهم باكين فقال:

١٠٩ ـ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾.

كرّر القول ليدل على تكرار الفعل منهم.

ثم أراد أن يعلمهم كيفية الخشوع والدعاء فقال:

١١٠ ـ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾.

﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ وفي الآية ردّ على المشركين الذين زعموا أن النبي يدعو إلهين اثنين الله والرحمن، ثم ذكر كيفية أخرى للدعاء فقال: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءة صلاتك، ﴿ولا تخافت بها﴾ فلا يسمعك أصحابك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ وسطا، وخير الأمور الوسط.

ولما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلاّ بأسمائه الحسنى نبّه على كيفية التحميد بقوله:

١١١ ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾.

﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل﴾ لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد والمعنى: أنه لا يحتاج إلى موالاة أحد لذل يلحقه، فهو مستغن عن الولي والنصير ﴿وكبّره تكبيرا﴾ أي عظّمه تعظيماً تاما.

سُورَةُ الكَهفِ

سورة الكهف سميت بها لأنها تتحدث عن أصحاب الكهف.

ختم الله سبحانه سورة الإسراء بالتحميد والتوحيد وذكر النبي ﷺ والقرآن، وافتتح سورة الكهف أيضاً بالتحميد والتوحيد وذكر القرآن والنبي ﷺ ليتصل أول هذه بآخر تلك اتصال الجنس بالجنس فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾.

الكتاب هو القرآن نزّله الله على محمد ﷺ ولم يجعل فيه اختلافاً أوتناقضاً.

٢ ـ ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾.

﴿قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا﴾ ﴿قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ قيما أي مستقيماً عدلاً، والبأس الشديد هو العذاب ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا﴾ وهو الجنة.

القــــراءة

قرأ أبو بكر ﴿من لدنهي﴾ بإسكان الدال وإشمام الضم وكسر النون والهاء، ووصل الهاء بالياء.

٣ ـ ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

أي مقيمين في ذلك الأجر الحسن وهو الجنة إلى ما شاء الله.

ثم كرر الإنذار وذكر سببه لخصومه وحذف المنذر به وهو البأس الشديد لتقدّم ذكره فقال:

٤ ـ ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾.

وهم اليهود قالوا عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله، وقول المشركين الملائكة بنات الله كما في قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾[1] وفي سورة النحل ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾[2].

---

(١) الآية: ١٠.
(٢) الآية: ٥٧.

٥ ـ ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ .

﴿ما لهم به من علم ولا لآبائهم﴾ الذين قالوا من قبلهم وتابعوهم على ذلك الافتراء على رب العزة ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾ كبرت أي عظمت مقالتهم اتخذ الله ولدا.

ثم سلى رسول الله ﷺ بقوله:

٦ ـ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .

﴿فلعلّك باخع نفسك﴾ مجهد نفسك ومنهك لها ﴿على آثارهم﴾ من بعد توليهم عنك، ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ أي القرآن والخطاب موجه للنبي ﷺ ﴿أسفا﴾ يعم الغضب والحزن الشديد، والمعنى: قيل للنبي لا تعظم حزنك عليهم بسبب كفرهم، فإنه ليس عليك إلّا البلاغ، وأما اختيارهم للإيمان والعمل الصالح فراجع إلى نفوسهم وقلوبهم، فلا إكراه في الدين.

ثم بيّن سبحانه أنّه ابتدأ خلقه بالنعم وأنّ إليه مصير الأمم فقال:

٧ ـ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ من النبات والحيوان والجماد ﴿لنبلوهم﴾ نختبرهم ﴿أيّهم أحسن عملاً﴾.

ثم زهد في الميل إلى زينة الأرض بقوله:

٨ ـ ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

﴿وإنا لجاعلون ما عليها﴾ من هذه الزينة التي على الأرض ﴿صعيداً جرزا﴾. الصعيد: التراب، ووجه الأرض، والجرز: الأرض التي لا ينبت فيها شيء، كأنها تأكل النبت أكلا.

والمعنى: يجعل الله الأرض مستوية لا نبات فيها ولا ماء.

قصة أهل الكهف والرقيم

ثم إنّ القوم تعجّبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان فقال سبحانه:

٩ ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ .

﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ أي هل علمت يا نبي الله أنت وقومك الذين سألوا عن أصحاب الكهف، والذين عثروا على الكهف وقرأوا الكتاب الرقيم، الذي فيه أسماء وقصة الفتية الذين يتعبدون في الكهف، فراراً من الملك الظالم ﴿كانوا من آياتنا عجبا﴾ أي علمت الآن وتيقنت، أن أولئك القوم الذين عثروا على الفتية، بعد طول زمان كانوا متعجبين ومندهشين لهذه الآية العجيبة، وفي هذا تشويق للإخبار بالقصة.

ثم شرع في ذكر قصتهم فقال:

١٠ ـ ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾.

﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ أي صاروا إليه، وجعلوه مأواهم، والفتى الكامل من الرجال، والكهف غار في الجبل ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا﴾ أي أصلح لنا من أمرنا وأرشدنا إلى ما يقربنا منك ويبعدنا عن الضلال، وأخذوا يتعبّدون فيه.

١١ ـ ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾.

أي أنمناهم ومنعناهم السمع، لأنّ النائم إذا سمع انتبه.

١٢ ـ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾.

﴿ثم بعثناهم لنعلم﴾ أي ثم أيقظناهم ليظهر معلومنا ﴿أي الحزبين﴾ المؤمنين والكافرين، المختلفين في مدة لبثهم ﴿أحصى لما لبثوا أمدا﴾ فكأنّه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف، بعد خروجهم من لبثهم.

ثم بيّن سبحانه قصة أصحاب الكهف فقال:

١٣ ـ ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾.

﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ خبر الفتية بالصدق لتجيب به الذين يسألونك عنهم ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ بالتوفيق والتثبيت والعبادة داخل الكهف.

١٤ ـ ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾.

﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا﴾ ربطنا أي ألهمناها بالصبر، إذ قاموا بين يَدَيْ ملكهم فقالوا كلمة الحق والتوحيد، بسبب أنه كان يدعو إلى عبادة الأصنام. فعصم الله هؤلاء، حتى عصوا ملكهم وقاموا في دعوتهم بين قومهم. والمعنى: أنهم قالوا أمام الملك كلمة التوحيد وإفراد الله بالربوبية وحده، وأنهم لن يدعوا من دون الله إلهاً آخر يشرك بالله لأن هذا القول لو قالوه لكان قولهم شططاً منهم ومن غيرهم وإفراطاً في الكفر.

١٥ ـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

﴿هؤلاء قومنا﴾ يعنون الذين كانوا في زمن دقيانوس ﴿اتخذوا من دونه آلهة﴾ يعبدونها من دون الله

﴿لولا﴾ أي هلا ﴿يأتون عليهم بسلطان مبين﴾ أي بحجة ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ فزعم أن له شريكا.

١٦ ـ ﴿ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾.

﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾ هذا قول بعض الصالحين الذين يكتمون إيمانهم والذين كتبوا الرقيم عن أهل الكهف قولهم إلى الناس الذين اعتزلوا أهل الكهف ونفروا منهم لإيمانهم وألجأوهم إلى العزلة بعبادة الله وحده في الكهف والتردد عليه حتى ضرب الله على آذانهم فيه، ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي اذهبوا إلى الكهف وخاطبوا من فيه وفرجوا عنهم، وكان الملك قد طلبهم لقتلهم، وقيل إنه سدّ عليهم الكهف ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيّء لكم من أمركم﴾ في جناتكم ﴿مرفقا﴾ أى يذلل الصعاب لكم ويأتيكم باليسر والرفق، واللطف والرحمة والمغفرة، ويتوب عليكم ولعلّ هذه الدعوة وجدت فيما بعد آذاناً صاغية حيث آمن القوم وصاروا يبحثون عن أهل الكهف.

القـــراءة

﴿مرفقا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ﴿مِرفَقا﴾ بكسر الميم وفتح الفاء، وقرأ نافع وابن عامر ﴿مَرفِقا﴾ بفتح الميم وكسر الفاء. قال الفراء(١): أهل الحجاز يقولون ﴿مَرفِقا﴾ بفتح الميم وكسر الفاء.

ثم بين سبحانه حالهم في الكهف فقال:

١٧ ـ ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾.

﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾ من الزور، وهو الميل، ومنه زاره إذا مال إليه ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ والمراد أن الشمس تعدل سمتهم إلى الجهتين فلا تقع عليهم، وتتجاوز عنهم فلا تصيبهم البتة ﴿وهم في فجوة منه﴾ متسع من الكهف ينالهم برد الريح ونسيمها ﴿ذلك من آيات الله﴾ حفظهم في ذلك الغار مدة طويلة وقد صان الله تلك الأجساد عن الفساد كما لطف بهم في أول الأمر بالهداية.

الهداية والإضلال

﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي من يختر هداية الله يختر الخير والإيمان، وتوحيد الله على الشر والكفر، فهو الذي نال هداية الله ﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا﴾ أي ومن يختر الشر والكفر فلا يجد له من ينصره ولا من يعينه ويرشده إلى مصيره غير الله، باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، ولد بالكوفة، وكان يتفلسف في تأليفه ومصنّفاته وكان أكثر مقامه ببغداد وتوفّي الفرّاء بطريق مكة سنة: ٢٠٧ هـ (الفهرست لابن النديم ص ١٠٤ ـ ١٠٦).

القـــراءة

﴿تزاور﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿تزَّاور﴾ بتشديد الزاي، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿تزاور﴾ خفيفة، وقرأ ابن عامر ﴿تزْورُّ﴾ مثل ﴿تحمرّ﴾.

ثم حكى طرفاً آخر من غرائب أحوالهم فقال:

١٨ ـ ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.

﴿تحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ لئلا تأكل الأرض أجسادهم، والله سبحانه قادر على حفظهم من غير تقلّب، طالت مدة التقلب أم قصرت، لكن ذكر للعبرة وللمعرفة بحفظ الأجساد بالتقلّب، ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أخبر أن الكلب على مثل حالهم في النوم، وهو في رأي العين يقظ ولكنه مثلهم نائم، والوصيد عتبة الباب وليس للكهف عتبة ولا باب، وإنما أراد أن الكلب منهم موضع العتبة من البيت، وجلوس الكلاب دائماً بعيداً عن أهلها أقرب ما تكون إلى الأبواب، ويؤيد هذا قوله عز وجل في سورة الهمزة ﴿إنّها عليهم موصدة﴾ أي مطبقة مغلقة، والناس يقولون أوصد بابك أي أغلقه ﴿لو اطلعت عليهم﴾ وهم على حالهم المذكورة في الكهف ﴿لولّيت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا﴾ وذلك بسبب طول أظفارهم واسترسال شعرهم وتغير لون بشرتهم.

القـــراءة

﴿ولملئت﴾ قرأ عاصم وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي، خفيفة مهموزة، وقرأ نافع وابن كثير مشددة مهموزة.

١٩ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾.

﴿وكذلك بعثناهم﴾ إشارة إلى المذكور قبله، أي وكما أنمناهم تلك النومة وفعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات كذلك بعثناهم، ثم ذكر غاية بعثهم فقال: ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ عن مدة لبثهم فيفيد تساؤلهم اعتبار المعتبرين بحالهم ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ ذلك أنهم دخلوا غدوة وبعثهم الله آخر النهار ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ وإنما قالوا ذلك لأنّ مظهرهم لا يدل على اللبث يوماً أو بعض يوم ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ أي قالوا ابعثوا شخصاً ببعض الدراهم الفضية، التي كانت معهم في الكهف لكي يذهب إلى المدينة التي خرجوا منها، قبل انسداد الكهف عليهم، ومعنى أزكى طعاماً يقصدون أصلح طعام يناسب حالهم ويصل إليهم دون أن يفسد ويبقى مدة طويلة

﴿وليتلطّف﴾ أي وليمش بالخفاء والتنكر ﴿ولا يشعرن بكم أحدا﴾ ويفسره الآية التالية:

٢٠ ـ ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾.

﴿إنّهم إن يظهروا عليكم﴾ أي يتمكنوا منكم ويعنون أهل المدينة الذين عادوهم قبل الاعتزال ﴿يرجموكم﴾ بالحجارة حتى تموتوا ﴿أو يعيدوكم في ملتهم﴾ في حالة وجود لين منكم وميل لهم ﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ وفي حالة تمكن الكفار منكم لن تفوزوا في أية حال تكونون عليها، وهذا الكلام من أهل الكهف لبعضهم، دون علمهم بأن الناس تغيروا والزمان دار دورته، وأصبح الناس مؤمنين بعد أن ذهب الكفار وهلكوا.

٢١ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾.

﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ أي وكما أنمناهم وبعثناهم، أطلعنا وأظهرنا عليهم، ثم ذكر سبحانه غاية الإعثار فقال: ﴿ليعلموا أن وعد الله﴾ بالبعث والجزاء ﴿حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ أن القيامة لا شك فيها ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ يعني أهل ذلك الزمان المؤمنون والكفار، في أمر الفتية ما يصنعون بهم بعد أن ماتوا إذ لم يلبثوا كثيراً بعد بعثهم واطلاع الناس على أمرهم ﴿فقالوا ابنوا عليهم بنيانا﴾ أي سدوا الكهف عليهم ثانية؛ لأن الله أعلم بهم إذ جعلهم تلك المدة في ذلك الكهف وهم بين الحياة والموت رقود، فالأولى أن يبقوا في مكانهم ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ أي المطاعون والرؤساء وهم الملك وأصحابه المؤمنون ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾.

عدد أهل الكهف

٢٢ ـ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾.

﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي المتنازعون في أمرهم، من الذين يوجهون إليه السؤال في أمرهم ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلاّ قليل﴾ من الناس ممن اطلع على حالهم. ثم نهى نبيّه ﷺ عن الجدال مع أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف ثم قال: ﴿فلا تمار فيهم إلاّ مراء ظاهراً﴾ المراء في اللغة الجدل، قال ابن الأنباري: معنى الآية لا تجادل إلاّ جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر، إذ أنّ الله ألقى إليك ما لا يشوبه باطل. ومعناه: استخراج غضب المجادل من قولهم: مريت الشاة: إذا استخرجت لبنها. ﴿ولا تستفت فيهم﴾ في أهل الكهف ﴿منهم أحداً﴾ يعني من أهل الكتاب، وعندما سأله أهل مكة عن خبر أهل الكهف قال: أخبركم به غداً. ولم يقل: إن شاء الله فنزل قوله تعالى.

٢٣ ـ ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ .

٢٤ ـ ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ .

﴿إلّا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت﴾ شيئاً فذكر الله يعين على التذكر ومن ذلك الاستثناء قوله إن شاء الله عند فعل أي شيء في المستقبل، والمعنى: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت، فقل إن شاء الله ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا﴾ أي قل عسى أن يعرفني جواب مسائلكم قبل الوقت الذي حددته لكم، ويعجل لي من جهته الرشاد، وهذا قول ابن الأنباري.

القــــراءة

﴿ربّيَ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتحريك الياء. ﴿يهديني ربي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بياء في الوصل دون الوقف. وقرأ ابن كثير بياء في الحالين. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بغير ياء في الحالين.

مدة لبث أهل الكهف

٢٥ ـ ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ .

﴿لبثوا﴾ ٣٠٩ سنة هجرية ـ ٣٠٠ ميلادية.

القــــراءة

﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿ثلاث مائةِ سنين﴾ مضافاً بغير تنوين. وقرأ الباقون: ﴿ثلاث مائةٍ سنين﴾ منوناً.

ثم أكد قوله:

٢٦ ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ في الكهف لأنه هو الذي أنامهم وحتى هم أنفسهم لا يعلمون كم لبثوا، ولا الناس الذين كانوا في زمانهم لطول المدة وتغير الأحوال، وموتهم بعد بعثهم، فيكون علم لبثهم من طريق الوحي، الذي أنزل على النبي موسى في التوراة، أو عن طريق الوحي الذي يوحي به الله إلى أنبيائه، ومنهم النبي محمد ﷺ، والآية السابقة تعيين من الله لمدة لبثهم وهي ثلاثمائة وتسع سنين ﴿له غيب السماوات والأرض﴾ وهذا دليل على أن لبثهم من علم الغيب لم يطلع عليه أحد إلّا بالوحي ﴿أبصر به وأسمع﴾ أي أبصر بدين الله وأسمع أي: بصر بهدي الله وسمع ﴿مالهم من دونه من ولي﴾ أي ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله من ناصر ﴿ولا يشرك في حكمه أحدا﴾ أي ولا يجوز أن يحكم بغير ما حكم به وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه فيكون شريكاً لله عزّ وجلّ في حكمه.

القـــراءة

﴿ولا يشرك﴾ قرأ ابن عامر ﴿ولا تشرك﴾ بالتاء والجزم على النهي.

لما أجاب عن سؤالهم بما أجاب، أمر نبيه ﷺ أن يواظب على تلاوة الكتاب الموحى إليه وعلى الصبر مع الفقراء الذين آمنوا بما أنزل عليه فقال:

٢٧ ـ ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته﴾ أي لا تغيير ولا تبديل فيها من أخبار أصحاب الكهف وغيرهم، فلا مغير لما أخبر الله به، وما أمر به وعلى ذلك يكون التقدير لا مبدل لحكم كلماته ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ ملجأ من اللحد أي موضعاً يميل إليه.

٢٨ ـ ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾.

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾ أي احبسها معهم على أداء الصلوات وذكر الله ﴿بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم، من ذوي الغنى والشرف من الذين ليس لهم مثل تلك الصفات، وكان ﷺ حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم، ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط، فأمره الله ألا يفرط في الضعفاء المؤمنين لفقرهم وقلة ما عندهم لإرضاء أولئك النفر من الملأ القليل، ثم نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء الكفرة الذين التمسوا منه طرد الفقراء حتى يؤمنوا به فقال: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾.

والمعنى: لا تطع من اختار الشر والكفر بإطاعة هواه حتى صار أمره سرفاً وتضييعا، ومن إصراره وعناده على الشرك والضلال حتى صار وكأن قلبه غافل عن ذكر الله الذي خلقه مع أن الله سبحانه لم يخلق الغفلة ولا الضلال في قلوب الناس، وإنما وضع أمامهم الخير والشر، وأعطاهم العقل المميز والفكر المدبر، وهم يختارون بإرادتهم، والغفلة هنا في الآية: ليست الغفلة الطبيعية التي تكون من الإنسان، لأنها غفلة مذمومة عن ذكر الله، الذي بلغ به فأباه وجحده وأفرط في تركه وتطارش عن الاهتداء بهديه، والفرط التجاوز للحق والحد والخروج عنها من قولهم أفرط إفراطا، إذا أسرف.

القـــراءة

﴿الغدوٰة﴾ قرأ ابن عامر وحده ﴿بالغدوة والعشي﴾ بضم العين.

ثم بيّن الحق ما هو ومن أين هو قائلاً:

٢٩ ـ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ أي إن عليك تبليغهم بالرسالة بالذكر والقرآن، وهم يختارون بعقولهم وبإرادتهم الحرة، ثم بين الله سبحانه جزاء من يكفر فقال: ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها﴾ السرادق كل ما أحاط بشيء، كالحجرة والخيمة، وقال المفسرون: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الظل ذو ثلاث شعب المذكور في سورة المرسلات، قال ابن قتيبة: وهذه الآية خرجت مخرج الوعيد والإنذار والتهكّم وليس فيها أمر ﴿وإن يستغيثوا﴾ مما هم فيه من العذاب وشدة العطش ﴿يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾ قال أبو عبيدة والزَجّاج: كل شيء أذبته من نحاس أو رصاص أو نحو ذلك من المعادن فهو مُهل. والمرتفق في اللغة ما يرتفق به، وسواء أكانت مكاناً أو منزلاً أو مجلساً أو مجتمعا، وهذه في مقابلة قوله تعالى في أهل الجنة ﴿وحسنت مرتفقا﴾.

ثم شرع في وعد المؤمنين فقال:

٣٠ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾.

٣١ ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

تفسير جنات عدن مرّ في سورة التوبة[1] والرعد[2] والنحل[3].

﴿أساور﴾: الأساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار: وهو ما يلبس في اليد من الذهب أو الفضة. السندس: رقيق الديباج، والإستبرق: ثخينه. الأرائك: جمع أريكة وهو السرير والفرش التي يتكأ عليها.

مثل المؤمن والكافر

ثم إنّ الكفّار كانوا يفتخرون بخدمهم وحشمهم وأموالهم وأصناف تمتّعاتهم على الفقراء المؤمنين فضرب الله مثلاً للطائفتين تنبيهاً على أنّ متاع الدنيا لا يوجب الافتخار فقال:

٣٢ ـ ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾.

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ المؤمن والكافر ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا﴾.

الحف: الإحاطة بالشيء، والمعنى: جعلنا النخل محيطاً بهما، ووجود الزرع المختلف بينهما إعلام عن عمارتهما كاملة.

(١) الآية: ٧٢.
(٢) الآية: ٢٣.
(٣) الآية: ٣١.

٣٣ ـ ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ .

﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ والمعنى: كل واحدة منهما آتت أكلها ولم تنقص ﴿وفجّرنا خلالها نهراً﴾.

٣٤ ـ ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ .

﴿وكان له ثمر﴾ أي الكافر ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره﴾ أي يجادله ويراجعه الكلام في أمور الدنيا والدين ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفرا﴾ قال ذلك على سبيل الاعتزاز والإعجاب بنفسه، وولده وخدمه ورهطه، وفيه تهكم على أخيه وسخر منه، ثم أخذ بيده.

٣٥ ـ ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ .

﴿ودخل جنته﴾ إحدى الجنتين المذكورتين بالنخل والزرع والثمر ﴿وهو ظالم لنفسه﴾ بالكفر. زعم دوام جنته التي هي بصدد الزوال ﴿قال ما أظنّ أن تبيد هذه﴾ الجنة ﴿أبداً﴾ أنكر فناء الدنيا وفناء جنته، ثم أنكر البعث والجزاء بقوله:

٣٦ ـ ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ .

مرجعاً، وفي هذا شك بالبعث ويوم القيامة.

القــــراءة

﴿خيراً منها﴾. قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ﴿خيراً منهما﴾ بزيادة ميم على التثنية. وهي قراءة أهل الحجاز وهي كذلك في مصاحفهم.

ثم رد عليه المؤمن قائلاً:

٣٧ ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ .

﴿قال له صاحبه﴾ المؤمن ﴿وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلاً﴾ والإنسان في الإنسان مخلوق من تراب[1].

٣٨ ـ ﴿ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ .

﴿لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾ لكنا أصله لكن أنا، نقلت حركة الهمز إلى النون أو حذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها، والمعنى: أنا أقول الله ربي ولا أشرك بربي أحدا.

---

(١) سيأتي تفصيله في سورتي الحج والمؤمنون.

القـــــراءة

﴿لكنا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وقالون عن نافع ﴿لكن﴾ بإسقاط الألف في الوصل، وإثباتها في الوقف.

٣٩ ـ ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلّا بالله﴾ والمعنى: لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلّا بالله تعالى، ولا يكون له إلّا ما شاء الله، لأن الملك لله الواحد القهار ﴿إنْ ترن أنا أقل منك مالاً وولدا﴾ والمعنى: لما علّمه الإيمان وتفويض الأمر إلى مشيئة الله، أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال إن ترن أنا أقل.

القـــــراءة

﴿إن ترن﴾ قرأ ابن كثير ﴿إن ترني﴾ بياء في الوصل والوقف، وقرأ نافع وأبو عمرو بياء في الوصل.

٤٠ ـ ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾.

﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ أي في الآخرة ﴿ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا﴾. والمعنى؛ يرسل عليها عذاباً يرميها به من السماء أو ينزل عليها كالنار أو الصاعقة أو الحجارة أو غيرها مما يشاء من أنواع العذاب. والصعيد الأملس المستوي، والزلق: الذي تزل عنه الأقدام.

٤١ ـ ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾.

﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ يذهب غائراً في الأرض ﴿فلن تستطيع له طلباً﴾.

ثم أخبر سبحانه عن تحقيق ما قدّره الرجل المؤمن فقال:

٤٢ ـ ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

﴿وأحيط بثمره﴾ أي الكافر، أي استجاب الله دعاء الرجل المؤمن فأحاط العذاب بثمر الجنة وهو عبارة عن إهلاكها ﴿فأصبح يقلب كفيه﴾ أي يضرب بيد على يد، وهذا فعل النادم المتحسر ﴿على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها﴾ بدون ثمر، والعروش السقوف وهذا يدل على أنّ فيها كروماً كثيرة ﴿ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا﴾.

٤٣ ـ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿لم يكن له فئة﴾ بالياء.

ولما علم من قصة الرجلين أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر علم أن الأمر هكذا يكون في حق كل مؤمن وكافر فقيل:

٤٤ ـ ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾.

﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ أي في مثل ذلك الوقت والمقام الولاية الحق لله، والولاية بالفتح معناها النصرة والتولي، وبالكسر معناها الملك والسلطان ﴿هو خير ثواباً وخير عقبا﴾ هو خير ممن يرجى ثوابه، وعاقبة طاعة الله خير من عاقبة طاعة غيره.

القـــراءة

الولاية الحق. قرأ حمزة بكسر الواو وبكسر القاف أيضاً وقرأ أبو عمرو بفتح الواو ورفع ﴿الحق﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم ﴿الوَلاية بفتح الواو وكسر القاف في ﴿الحقِ﴾. قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو وابن عامر والكسائي ﴿عقُبا﴾ مضمومة القاف، وقرأ عاصم وحمزة ساكنة القاف ﴿عقْبا﴾ قال أبو عبيدة: العقب، والعقب والعقبى والعاقبة بمعنى واحد، وهي الآخرة.

ثم ضرب مثلاً آخر لجبابرة قريش فقال:

٤٥ ـ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.

﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ في تصرف أحوالها، إذ مع كل فرحة ترحة، وقد مر بنا في سورة يونس مثل هذا[٢] ﴿كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما﴾. قال الفراء: الهشيم: كل شيء كان رطباً فيبس، من النبت المتفتت ﴿تذروه الرياح﴾ تنسفه، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرا﴾ مقتدر على الإنشاء والإفناء، وذلك من تكوين الأشياء ثم تنميتها وأخذ زينتها ثم إذهابها، آخراً، ولا ريب أن أحوال الدنيا أيضاً كذلك تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة، ثم تتزايد إلى أن تتكامل، ثم تنتهي إلى الزوال والفناء. وحين مهّد القاعدة الكلية خصصها بصورة جزئية فقال:

زينة الحياة الدنيا

٤٦ ـ ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾.

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ هذا رد على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد، فأخبر

(١) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى (٧٢٨ ـ ٨٢٦)، عالم باللغة والشعر، ولد في البصرة وتوفي فيها.
(٢) الآية: ٢٤.

سبحانه بأن ذلك مما يُتَزَيَّنُ به في الدنيا فقط لا مما ينفع في الآخرة. ﴿والباقيات الصالحات﴾ أعمال الخير والكلام الطيب التي تبقى ثمرتها ﴿خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾ فهي خير أفضل جزاء وخير مما تؤملون، لأن آمالكم كواذب، وهذا أمل لايكذب. وذهب بعض المفسرين إلى أن الباقيات الصالحات، الصلوات الخمس، وقال آخرون هي: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) وكل ذلك لا يخرج عن أعمال الخير والكلام الطيب الذي فسّرنا به.

سير الجبال

لما بيّن خساسة الدنيا وشرف الآخرة أردفه بأحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

٤٧ ـ ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾.

أي واذكر لهم يوم نسير الجبال في الآخرة كما نسير السحاب في الدنيا، وتسيير الجبال يوم القيامة جاء في القرآن على عدة أشكال ومراحل متنوعة منها:

الرجفة: قال الله في سورة المزمل ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي رملاً منهاراً.

النسف: قال تعالى في سورة طه ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾[1].

الدك: وقال تعالى في سورة الحاقة ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾.

وعندما يحصل للجبال كل ذلك، وتكون كالصوف المنفوش، والغبار المنتشر[2] فإنها تسير بسرعة كالسحاب ولعظمها يحسبها الناس أنها واقفة، وقد عبر الله عن ذلك السير بعدة آيات منها: ﴿وسيرت الجبال فكانت سراباً﴾ سورة النبأ وقال تعالى في سورة النمل: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله وكل أتوه داخرين، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب﴾[3] وختمها بآية تتحدث عن أهوال يوم القيامة والفزع منه.

وقال في سورة الطور ﴿يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا﴾[4] وتمور: أي تدور وقال في سورة التكوير ﴿وإذا الجبال سيرت﴾، فسير الجبال هو اقتلاعها من مكانها بالكيفية التي يريدها الله سبحانه يوم القيامة، وسوف نتناول الموضوع في سورة النبأ بتفصيل آخر. وفي ذلك اليوم ترى الأرض بارزة ظاهرة واضحة ليس عليها شيء من جبل أو شجر أو بناء لأن الله سبحانه أخبرنا بأنه يحشر الناس ولم يغادر منهم أحداً عن الموقف والحساب.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠٥.

(٢) وذلك في قوله عزّ وجلّ وتكون الجبال كالعهن.

(٣) سورة النمل، الآيتان: ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) الآية: ٩.

القـــــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ويوم تسيَّر الجبال﴾ بضمّ التاء وفتح السين ﴿الجبالُ﴾ رفع على ما لم يسمّ فاعله.

٤٨ ـ ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾.

﴿وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ عبر الماضي لتحقق الوقوع ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ زعمتم في الدنيا وهو خطاب للكفار خاصة ليتعظوا اليوم بالبعث والجزاء.

٤٩ ـ ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ هو كتاب أعمالهم يوضع في أيديهم وتراهم خائفين مما جاء فيه ﴿ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا﴾ أي وجدوا كل شيء عملوه محصياً مكتوباً وجزاءه حاضرا، لأن الله عادل لا يظلم أحداً وهذا التسجيل غير المكتوب في اللوح المحفوظ بسابق علم الله.

تكريم آدم

ثم إنّه سبحانه عاد على أرباب الخيلاء من قريش فذكر قصة آدم واستكبار إبليس عليه فقال:

٥٠ ـ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾ سجود تكريم ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ الفاء للسبب: أي كونه من الجن سبب فسقه، ولو كان ملكاً لم يفسق لثبوت عصمة الملائكة وسبق تفسير ذلك في أول البقرة: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾ توالونهم بالاستجابة لهم؟ وذريته ما تناسل من أولاده ﴿بئس للظالمين بدلا﴾ أي بئس البدل من الله إبليس، لمن استبدل به فأطاعه.

ثم دلّ على فساد عقيدة أهل الشرك وبطلان طريقتهم بقوله:

٥١ ـ ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾.

﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ أي لم أشهد جميع الخلق ولم أشاور أحداً منهم في خلقهن، وفي هذا بيان للغنى عن الأعوان، وإظهار كمال القدرة. ﴿ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلّين عضدا﴾ أي ما اتخذت منهم أعواناً ولا أنصارا.

٥٢ ـ ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ .

﴿ويوم يقول نادوا شركائي﴾ الطواغيت والأصنام والأوثان ﴿الذين زعمتم﴾ أنهم آلهة ﴿فدعوهم﴾ يوم القيامة ﴿فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً﴾ عذاباً مهلكاً فلا يصلون إليهم، أو برزخاً مانعا، والمراد أن هؤلاء المعبودات لا ينفعون ولا يفيدون من عبدهم في الدنيا، ولا في الآخرة.

القـــراءة

قرأ حمزة: ﴿ويوم نقول﴾ الله أخبر عن نفسه.

٥٣ ـ ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ .

﴿ورأى المجرمون النار فظنّوا أنهم مواقعوها﴾ أي أيقنوا أنّهم داخلوها، ومعنى المواقعة ملابسة الشيء بشدة ﴿ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ أي معدلا أي أنها أحاطت بهم من كل جانب.

ولما ذكر أن الكفرة افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم ومتصرفاتهم أجاب عن شبههم وأقوالهم الفاسدة وضرب الأمثال النافعة وحكى أهوال الآخرة فقال:

٥٤ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ .

التصريف: تنقيل المعنى في الجهات المختلفة، وصرفنا بيّنا ووجّهنا من الأمثال في الحلال والحرام والوعد والوعيد، وقد مر تفسيره في سورة الإسراء الآية: (٤١). والمعنى: يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه وأنه بين فيه من كل مثل موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك ففيه من الأحكام والأخبار والترغيب والترهيب، ما يوجب التسليم لهذا القرآن والانقياد والطاعة وعدم المنازعة، ومع ذلك كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، فالكافر المعاند والمنافق المخادع، يضيع معظم الوقت المخصص للمناقشة أو الاستفهام بالجدل والمنازعة لا لقصور في بيان القرآن وحجته وبرهانه، وإنما لعدم الإيمان بالله والظلم والعناد.

٥٥ ـ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ .

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا﴾ قبلا عياناً أي مقابلاً لهم فيروه.

والمعنى: ما منعهم من الايمان بالله ومن أن يستغفروه على ما سبق من معاصيهم، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الحق والباطل قد وصل إليهم وقامت عليهم حجة الله بعد مجيء الدلالة إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين أي سنة الله وعادته في الأولين من عذاب الاستئصال أو يروا العذاب قد أقبل عليهم مقابلة ومعاينة.

القـــــراءة

قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ بالضم جمع قبيل، وقرأ الباقون: ﴿قبلاً﴾ بالكسر أي عيانا مواجهة.

ثم بيّن سبحانه أنّه قد أزاح العلة وأظهر الحجة فقال:

٥٦ ـ ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾.

﴿وما نرسل المرسلين إلاّ مبشرين ومنذرين﴾ مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار والعقاب ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾. والمعنى: يناظر الكفار المستهزؤون والمقسمون الذين جعلوا القرآن عضين، وجدالهم بالباطل أنهم يطلبون أن يأتي بالآيات من عنده على أهوائهم، ليبطلوا ما جاء به النبي محمد ﷺ.

٥٧ ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾.

﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدّمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ الأكنة جمع كنان وهو الغطاء، والوقر الثقل من الصمم. والمعنى: ليس أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بالقرآن وذكر بآيات الله، ونبّه إلى أدلة التوحيد فلم يتعظ، ولم يتذكر رغم ما سبق له من الأمثال والبيان، ولشدة إعراضه واختياره للشر يستهزىء بالآيات والرسل ويتناسى المعاصي التي استحق بها العقاب، فكان كمن جعل على قلبه غطاء فلا يفقه بطبعه، ومن في أذنيه صمم فلا يسمع لذاته، ولكنهم ليسوا كذلك حقيقة فهم يسمعون ويفقهون، ولكن الله عاقبهم بالعذاب النفسي، بسبب معاداتهم للنبي ﷺ، وفرط نبو قلوبهم وأسماعهم عن فهم القرآن، والانتفاع به كما قال الله تعالى في موضع آخر ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا﴾ والمعنى: كأن على قلوبهم أكنة أن تفقه، وفي آذانهم وقراً أن تسمع، كالذي ينادى من مكان بعيد ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا﴾.

أخبر سبحانه أنهم لا يؤمنون أبداً، وقد خرج مخبره موافقاً لخبره فماتوا على كفرهم، لأن الله قد خلق فيهم داعية الكفر وعلم أنهم قد اختاروا فلا يؤمنون، فيستحيل إيمانهم مع ذلك مهما رأوا من الآيات الدالة على صدق النبي محمد ﷺ.

٥٨ ـ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾.

﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾ في الدنيا ولكنّه أخره عن أمة محمد رحمة بهم وإحساناً منه وفضلا، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا﴾ الموعد يوم القيامة والموئل هو الملجأ.

ثم أشار إلى قرى الأولين اعتباراً لغيرهم فقال:

٥٩ ـ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾.

﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ القرى الماضية عاد وثمود وغيرهما، وعبر سبحانه بأهلكناهم لما ظلموا عن أهل القرى الذين يستحقون العقاب، لا القرى وهي المساكن.

موسى والخضر

٦٠ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾.

﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾ أي قال النبي موسى بن عمران، ولا عبرة بإنكار اليهود أن يكون هو موسى النبي الآخر ويرد عليهم وعلى من أخذ برأيهم أن موسى غاب فعلا عن قومه حينما ذهب لمناجاة الله ومعه يوشع بن نون بن افراتيم بن يوسف عليه السلام كان يتبعه ويخدمه، والعرب كانت تسمي الخادم فتى، وإنكار اليهود ذلك راجع إلى أنهم لا يريدون أن يعلم الناس أن نبيهم موسى تعلم من الخضر، وهو أدنى منه مرتبة، أو أنه أكثر منه فضلا، ولكن القصة وردت لمعان وعبر فيها ولا مانع أبداً أن يتعلم العالم ممن أقل منه علما، والقصة مذكورة في صحيح البخاري ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أى لا أبرح أي لا أزال أسير حتى أبلغ ملتقى البحرين، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه، وهما البحر الأبيض والأحمر ويسمى الأول بحر الروم ويسمى الثاني بحر القلزم، وملتقاها لعل المراد به مكان يقرب فيه التقاؤهما، ولا حاجة إلى القول بالخروج من سيناء حتى ننطلق إلى طنجة في المغرب، أو إلى الشام في الشمال أو فارس في الشرق ما دام الأمر لم يستند إلى حديث صحيح يحدّد المكان، وما دام لدينا بحران ولهما ملتقى في السويس حتى ولو كان في ذلك الوقت برزخا فهما بحران ملتقيان يحدان أرض التيه ﴿أو أمضي حقبا﴾ الحقب الدهر وبالكسر السنون واحدتها حقبة.

٦١ ـ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾.

﴿فلما بلغا مجمع بينهما﴾ أي المكان الذي بين البحرين، وهذا لا يكون إلاّ للبرزخ الذي يفصل بين البحرين، ويكون البحران كل واحد قريباً من الآخر ﴿نسيا حوتهما﴾ وكانا قد تزودا بسمك في زنبيل وكانا يأكلان منه عند الغداء والعشاء، فلما انتهيا إلى الصخرة على ساحل البحر وضع يوشع الزنبيل الذي فيه السمك بقرب الماء فدنا الماء إليه وابتل ﴿فاتخذ سبيله في البحر سربا﴾ أي انسرب في البحر وقد كان أوحى إلى موسى بالتزود بالسمك، فإذا فقدته وجدت الرجل الصالح الذي يمكنك اتباعه، لأخذ ما عنده من العلم، وكان موسى وفتاه بعد أن وضعا الحوت على الأرض قد نسياه وسارا، في الوقت الذي أتى الماء على الحوت فاتخذ سبيله في البحر سربا، أي مسلكاً ومذهبا.

٦٢ ـ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ .

﴿فلما جاوزا﴾ الموعد المعين وهو الصخرة ﴿قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾تعبا وجوعا، قال الفتى متعجباً:

٦٣ ـ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ .

﴿قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت﴾ عليها ولم أحمله معي ﴿وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا﴾ كان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجبا.

القــــراءة

﴿أنسانيه﴾ قرأ ابن كثير ﴿أنسانيهي﴾ بإثبات ياء في الوصل بعد الهاء، وقرأ الكسائي بإمالة السين مع كسر الهاء.

٦٤ ـ ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

﴿قال ذلك ماكنّا نبغ﴾ أي ذلك ما كنّا نطلبه فإنه علامة لنا على وجود من نطلبه ﴿فارتدا﴾ رجعا ﴿على آثارهما قصصا﴾ رجعا في الطريق الذي سلكاه، يقصان الأثر، والقصص اتباع الأثر.

موسى يلتقي بالخضر

٦٥ ـ ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ .

﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾ هو الخضر ولا شك بنبوته بصريح القرآن، وأما عن حياته فإنّ عمره كسائر الناس وقد توفي، ولا دليل يدل على حياته إلى اليوم لا هو ولا إلياس ولا غيرهما، ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علما﴾ ولا يكون ذلك إلا بوحي ولا يوحى بمثل ذلك إلا لنبيّ.

٦٦ ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .

﴿قال له موسى هل أتبعك﴾ قال العلماء أن موسى راعى مع الخضر في هذا التعبير أنواعاً من الأدب ﴿على أن تُعلّمنِ مما علّمتَ رُشدا﴾ فيه إقرار على أستاذيته له بالعلم، وفيه أنه لم يطلب منه إلا بعض علمه ولم يطلب منه أن يجعله مساوياً له في العلم.

القــــراءة

﴿تعلمن﴾ قرأ ابن كثير ﴿تعلمني﴾ بإثبات الياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع وأبو عمرو بياء في الوصل. وقرأ ابن عامر وعاصم بحذف الياء في الحالين. ﴿رشداً﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وحمزة والكسائي ﴿رشدا﴾ بضم الراء

وإسكان الشين خفيفة وقرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين.

ثم إنّه تعالى حكى عن الخضر أنه:

٦٧ - ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾.

نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد.

٦٨ - ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾.

والمعنى: كيف تصبر على أمر ظاهره منكر وأنت لا تعلم باطنه.

٦٩ - ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾.

قال المحققون في قول الخضر تغليظ وتجهيل وفي قول موسى تحمّل وتواضع فدلّ ذلك على أن المعلّم إن رأى التغليظ على المتعلم فيما يعتقده نفعاً وإرشاداً إلى الخير، فالواجب عليه ذكره وعلى المتعلّم أن يتلقّاه بالبشر والطلاقة.

٧٠ - ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

أي حتى أكون أنا الذي أبيّنه لك لأنّ علمه قد غاب عنك.

٧١ - ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾.

﴿فانطلقا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة ﴿حتى إذا ركبا في السفينة﴾ مع أصحابها ﴿خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾ أتيت شيئاً عظيما.

القـــراءة

قرأ حمزة والكسائي: ﴿ليَغرَق﴾ بفتح الياء والراء، ﴿أهلُها﴾ رفع:

٧٢ - ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾.

﴿قال﴾ الخضر لموسى منكراً تسرعه في السؤال ﴿ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبرا﴾.

٧٣ - ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾.

أي عاملني باليسر لا بالعسر.

٧٤ - ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾.

الزكية البريئة التي لم يظهر ما يوجب قتلها.

القـــراءة

﴿نكراً﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر: ﴿نكراً﴾ بضم الكاف في جميع القرآن. ﴿زكيّة﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿زاكية﴾ بالألف.

ثم إنّه سبحانه حكى عن الخضر أنّه ما زاد على أنْ ذكّره ما عاهد عليه فقال:

٧٥ ـ ﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾.

أكد التقرير الثاني بقوله لك كمن تقول لمن توبّخه لك أقول، وإياك أعني،فعند هذا قال موسى:

٧٦ ـ ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾.

﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها﴾ أي بعد هذه المسألة ﴿فلا تصاحبني﴾ هذا مع حرصه على التعلم لظهور عذره كما قال ﴿قد بلغت من لدني عذرا﴾ وهذا كلام نادم جره المقال، واضطره الحال إلى الاعتراف وسلوك سبيل الانصاف.

٧٧ ـ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾.

﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ أي: سألاهم الضيافة ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾ إذ كانوا لئاما ﴿فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ شاهدا حائطاً في أحد مباني القرية آيلاً للسقوط، أي وجده مائلاً فسوّاه أي هدمه وقعد يبنيه حتى استقام ﴿قال﴾ موسى للخضر ﴿لو شئت لتخذت عليه أجرا﴾ قال هذا موسى لأن أهل القرية لم يضيفوهما، وتركوهما يأكلان مما تنبت الأرض الخالية.

القـــراءة

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لتخِذت﴾ بكسر الخاء. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿لاتخذت﴾ وكلّهم أدغموا إلاّ حفصاً عن عاصم.

٧٨ ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

٧٩ ـ ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾.

﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها﴾ أجعلها ذات عيب، يعني بخرقها ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كلّ سفينة غصباً﴾ أي يأخذ كل سفينة صالحة مصادرة تعمل لحسابه فإذا وجدها معيبة تركها فيرقعها أصحابها وينتفعون بها.

٨٠ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

أعلم الله الخضر بحاله، وأمره بقتله لهذا السبب، ويرهقهما يحملهما على الشر والبعد عن الخير.

٨١ ـ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

﴿زكاة﴾ صلاحاً.

القــــراءة

قرأ نافع وأبو عمرو: ﴿فأردنا أن يبدّلهما﴾ بالتشديد في جميع القرآن. قرأ ابن عامر: ﴿وأقرب رحُماً﴾ بضم الحاء.

٨٢ ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾ يعني القرية المذكورة ﴿وكان تحته كنز لهما﴾ مال ينتفعان به إذا بلغا ويجوز أن يكون ذهباً وفضة أو غيرهما ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ وقد توفي وترك لهما هذا الكنز ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ أي رشدهما الذي يستطيعان منه التصرف بالمال ﴿ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ وهذا يدل دلالة واضحة على أنه نبي، وأن ما صدر عنه كان بوحي من الله عز وجل ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾.

ملاحظة: قال ابن الأنباري: قوله تعالى: ﴿فأراد ربك﴾ وقوله ﴿فأردت﴾ ﴿وأردنا﴾ كل واحد منها يصلح أن يكون خبراً عن الله عز وجل وعن الخضر أتبعهما بما يحصر الإرادة عليه، ويزيلها عن غيره ويكشف البغية من اللفظين الأولين وإنما قال: فأردت، فأردنا، فأراد ربك، لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتفاقه مع تساوي المعاني، لأنه أعذب على الألسن، وأحسن موقعاً في الأسماع.

أقول وفي ذلك تأدب من الخضر مع الله عزّ وجلّ، حيث نسب ما ظاهره الشر والتعدّي على الغير لنفسه فقال: فأردت أن أعيبها، وفي الغلام قال: فأردنا وفيما ظاهره الخير نسبه إلى الله عز وجل فقال فأراد ربك أن يبلغا.

قصة ذي القرنين

لما أجاب عن سؤالين من أسئلة اليهود وانتهى الكلام إلى حيث انتهى شرع في السؤال الثالث والجواب عنه فقال:

٨٣ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾[1]. نزلت جواباً لسؤال وُجِّه للنبي محمد ﷺ من كفار قريش بإيعاز من علماء اليهود، وكان قصدهم من السؤال امتحان النبي لأنّهم يعلمون أنه رجل أمي لم يدرس التاريخ القديم، فضلاً عن هذه المعلومات التي لم يطلع عليها العرب في جاهليتهم، وذو القرنين قد حقق فيه العالم الباحث أبو الكلام آزاد، وانتهى إلى أنه الملك قورش أو كورش، الذي أسس مملكة متحدة من فارس وماري، وهو الجزء الموالي للعراق قبل ميلاد المسيح، وقام بالفتوحات غرباً وشرقاً، ثم استولى على جميع الممالك الآسيوية من البحْر الأسود إلى صحراء بلخ، وسطّرت حوله عجائب الغرائب والأساطير والخيالات، وسمي بذي القرنين، لأنه ملك الروم وفارس وكانت له غديرتان من شعر قال ابن الأنباري والعرب تسمي الضفيرتين من الشعر غديرتين وجميرتين، وقرنين ولأنه كان في رأسه شبه القرنين هذا قول المفسرين، وقد كشفت الآثار الحديثة عن تمثال قورش حيث بان شكله واضحاً بالقرنين تعلوان رأسه مما لا يدع مجالاً للشك بأنها من لباسه الخاص الذي يتميز به عن غيره. (قل سأتلو عليكم منه ذكراً) أي خبراً يتضمن بعض أخباره.

٨٤ ـ ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾.

﴿إنا مكّنا له في الأرض﴾ أي سهلنا عليه السير فيها بجيوشه، وطاعة الناس له، يتصرف كيف يشاء بحيث يصل إلى مسالكها، ويظهر على ملوكها، قال مجاهد ملك الأرض أربعةٌ مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: النمرود وبختنصر. ﴿وآتيناه من كل شيء سببا﴾ عِلماً بمعرفة الأسباب لفعل المسببات.

٨٥ ـ ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

﴿فأتبع سببا﴾ السبب الطريق، والمعنى: تبع طريقاً يؤديه إلى مغرب الشمس في ملكه. وكان إذا ظهر على قوم أخذ منهم جيشاً فسار بهم إلى غيرهم.

القـــراءة

﴿فأتبع سببا﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿فاتّبع﴾ ثم اتّبع مشددات التاء وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بهمزة مقطوعات.

٨٦ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾. زحف إلى الغرب حتى وصل مكاناً يعتبر منتهى الأرض المعروفة لهم من جهة المغرب، كان ذلك عند الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض قرب مدينة أزمير في تركيا ﴿وجدها تغرب في

(١) يراجع معجم البلدان لياقوت الحموي لأنّ ذا القرنين هو باني مدينة مرو بخراسان.

عين حمئة﴾ والمعنى: فلما بلغ موضع تلك العين ذات الحمأة وهي الطين الأسود ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أنّ راكب البحر يرى الشمس وأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشاطىء ﴿ووجد عندها قوما﴾ أي كان وصوله وقت المغرب، ﴿قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذّب﴾ هؤلاء القوم بالقتل لكفرهم إنْ أبوا ما تدعوهم إليه، وإما أن تأسرهم فتبصرهم الرشد. ﴿وإما أن تتخذ فيهم حسنا﴾.

٨٧ ـ ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

﴿قال أما من ظلم فسوف نعذّبه﴾ في الدنيا بالقتل إذا لم يرجع عن الشرك ﴿ثم يرّد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً﴾. على ما اقترف من ذنوب أخرى غير الشرك لأنه علاوة على شركه ظلم ولم يعمل صالحاً.

٨٨ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أي الجنة ﴿وسنقول له من أمرنا يسرا﴾.

القــــراءة

﴿جزاء الحسنى﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿جزاء الحسنى﴾ برفع جزاء.

ثم حكى سفره إلى ناحية الشرق بعد تهيئة أسبابه قائلاً:

٨٩ ـ ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

اتخذ طريقاً آخر نحو المشرق، مضى بفتح المدائن وبجمع الكنوز وبقتل الرجال إلّا من آمن.

٩٠ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾ مكان طلوعها وهو المكان الذي يظن فيه نهاية السكان ونهاية العمران، بالنسبة لهم لبعد المسافة ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ ليس لهم ساتر يسترهم منها من جبال أو بيوت، أو شجر، ولعلّهم كانوا على نصيب كبير من الجهل والبداوة.

٩١ ـ ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا﴾ أي كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها، وحكم فيهم كذلك، فأمره كذلك كما وصفنا لك، وفي ذلك تعظيم لشأنه وقد أحطنا بما لديه من الجند وأسباب العلم الموصل للظفر والملك خبراً، وهذا يفيد كثرة ما لديه وسعة علمه وتجاربه.

٩٢ ـ ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

أي اتخذ طريقاً آخر نحو الشمال.

٩٣ ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ .

﴿حتى إذابلغ بين السدين﴾ جبلان من سلسلة جبال القوقاز كأنهما جدار طبيعي، وقد سد هذا الجدار الجبلي الطرق الموصلة بين الشمال والجنوب، إلا طريقا واحداً بقي مفتوحاً وهو مضيق في وسط سلسلة الجبال يوصل بين الشمال والجنوب ويسمى هذا الطريق اليوم بمضيق دانيال. ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا﴾ يفهمون بعد إبطاء وإنما كانوا كذلك لأنهم لا يعرفون غير لغتهم ويفهمون لغة ذي القرنين بصعوبة لتشابه بعض الكلمات.

القـــراءة

﴿يفقهون﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿يُفقهون﴾ بضم الياء.

يأجوج ومأجوج

٩٤ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ .

﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ تضافرت الشواهد على أنهما قبائل همجية بدوية من السهول الشمالية الشرقية، تدفقت سيولها من قبل العصر التاريخي إلى القرن التاسع الميلادي صوب البلاد الغربية والجنوبية، ويأجوج اسم لقبيلة التتر، ومأجوج اسم لقبيلة المغول، وكانا من أصل واحد، وفسادهم بالنهب والبغي والقتل عند خروجهم، ﴿فهل نجعل لك خرجا﴾ جُعلاً من المال ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا﴾ مانعاً فلا يصلون إلينا.

القـــراءة

﴿خرجا﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿خراجا﴾ بالف.

٩٥ ـ ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ .

﴿قال ما مكّني فيه ربي خير فأعينوني بقوة﴾ أي بالأشياء المادية والرجال وأنا أعينكم بالقوة المعنوية التي هي العلم والخبرة بما لدي ما مكني فيه ربي من الرجال الخبراء، وما عاينت في طريقي بالمشرق والمغرب. ﴿أجعل بينكم وبينهم ردما﴾ حاجزاً والردم ما جعل بعضه على بعض.

٩٦ ـ ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ .

﴿آتوني زبر الحديد﴾ قطعه على قدر معلوم مناسب للبناء فنبني بها، وجعل بينها الحطب والفحم ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي جانبي الجبلين ﴿قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾ فلما

جعل الحديد كالنار حامياً أذاب القطر من النحاس أو الرصاص ثم صبّه عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، حتى صار جبلاً صلداً من حديد وقطر.

القـــراءة

﴿آتوني﴾ قرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم ﴿إيتوني﴾ مقصورة.

٩٧ ـ ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾.

﴿فما اسطاعـوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾ أي فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يصلوا ظهره لارتفاعه وملاسته، ولم يستطيعا خرمه لسمكه.

السد الذي بناه ذو القرنين

توجد في البقعة الواقعة بين بحر قزوين (الخـزر) والبحر الأسود سلسلة جبال القوقاز كأنها جدار طبيعي، وقد سد هذا الجدار الجبلي حيث يوجد إلى الآن آثار جدار حديدي من قديم الأزمان، وهو الجدار الذي بناه كورش وهو ما تنطبق عليه الأوصاف التي وصف بها القرآن الكريم سدَّ ذي القرنين.

٩٨ ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾.

﴿قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا﴾ وهو الوقت الذي يخرج فيه المغول والتتر ويخرب فيه السد أو تكون لهم وسيلة أخرى.

القـــراءة

﴿دكّاً﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر منوناً غير مهموز ولا ممدود.

هل عبرت يأجوج ومأجوج السدّ أم لا؟

لقد أخبر القرآن بأن هذا السدّ سوف لا يمنعهم إلى الأبد بل إنه مؤقت حتى إذا جاء وعد الله تحطم وفتحت الأرض لهم، وكلمة وعد الله ليس بالضرورة أن يكون يوم القيامة بل إنها تدل على الزمن، وقوم يأجوج ومأجوج من البشر من بني آدم ومن البدو الرحل، والحضارة اليوم عمَّت معظم العالم ووصلت الاكتشافات جميع مجاهل الكرة الأرضية، وهم بالكثرة التي وصفها القرآن لا بد أن يكونوا تابعين لإحدى دول العالم، ولا شك أنَّ ذلك السُّد قد تخرب بما تدل عليه الآثار في تلك المناطق فهو سد يتناسب مع ذلك الزمن، قابل للتقادم، ويؤكد هذا قول الله عز وجل في سورة الأنبياء ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون﴾ أي وهم من كل مكان مرتفع من الأرض يسرعون في النزول، من الآكام والمرتفعات وقال الشيخ أحمد المراغي في تفسيره: ﴿وتلك حال تنطبق على قوم جنكيز خان فقد كان خروجهم من هضبات آسيا

الوسطى نقلا عن مؤرخي العرب والإفرنج كل هذا قبل النفخ في الصور بزمن مجهول غير معلوم.

وأما الشيخ عبد الرحمن بن سعدي علامة القصيم فيقول في تفسير اللطيف المنان ﴿وهم من كل حَدَب ينسلون﴾ أي من كل مكان مرتفع ينحدرون سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء ﴿ينسلون﴾ أي يسرعون فيها غير مكترثين ولا حاجز يحجزهم، فإذا جاء ذلك الأجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة والصناعات والاختراعات الهائلة مما يمكن يأجوج ومأجوج من وطيء بلادكم أيها المجاورون بل من وطيء مشارق الأرض ومغاربها أقول:

عاقبة الكفر يوم القيامة

ثم شرع سبحانه في بقية أخبارهم فقال:

٩٩ ـ ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ أي جميع الخلائق بما فيهم يأجوج ومأجوج حيارى، مضطربين مختلطين كاختلاط موج البحر، وذلك قبيل يوم القيامة ﴿ونفخ في الصور﴾ نفخة البعث ﴿فجمعناهم﴾ أي الخلائق الذين يموج بعضهم بالدنيا بالخير أو الشر ﴿جمعا﴾.

١٠٠ ـ ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

١٠١ ـ ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾ الذين كانت قلوبهم في غفلة عن ذكري أي توحيدي والإيمان بكتابي ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ لعداوتهم وعنادهم.

ثم أنفذ في التوبيخ والوعيد قائلاً:

١٠٢ ـ ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

﴿أفحسب الذين كفروا﴾ أي أفظن الكفار ﴿أنْ يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ يعبدونهم من دون الله كالذين يعبدون الشياطين والذين يعبدون الملائكة أو المسيح أو عزيراً وغيرهم من خلق الله ﴿إنّا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا﴾ مسكنا.

١٠٣ ـ ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

اليهود والنصارى ومن يقودهم من القسيسين والرهبان.

١٠٤ ـ ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

﴿الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا﴾ بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا ﴿وهم يحسبون أنّهم يحسنون

صنعا﴾ وهم يظنون أنّهم محسنون بأفعالهم، فعلماؤهم ورؤساؤهم يعلمون الصحيح، ويؤثرون الباطل لبقاء رئاستهم، وأتباعهم مقلدين لهم بغير دليل.

١٠٥ ـ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾.

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ جحدوا دلائل توحيده، وكفروا بالبعث والجزاء، وذلك أنهم بكفرهم برسول الله ﷺ والقرآن صاروا كافرين بهذه الأشياء ﴿فحبطت أعمالهم﴾ لأنه خلاف الإيمان الصحيح ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ قدرا.

١٠٦ ـ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾.

لما تقدّم ذكر حال الكافرين عقّبه سبحانه بذكر حال المؤمنين فقال:

١٠٧ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾.

١٠٨ ـ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾.

لا يريدون عنها تحولاً.

١٠٩ ـ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾.

﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ لو كان ماء البحر مداداً يكتب به القلم ﴿لنفد البحر﴾ من الكتابة ﴿قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله﴾ أبحر مملوءة بالمداد وهو الحبر ﴿مدداً﴾.

١١٠ ـ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

فهرس المجلّد الثاني من تفسير هداية البيان

سورة الأعراف

٤ ـ ٥ عاقبة العصيان ٦
٦ السؤال يوم القيامة ٦
١٠ نعم الله على الناس ٧
١١ تكريم آدم عليه السلام ٧
١٩ جنة آدم في الدنيا ٩
٢٦ بنو آدم ١٢
٢٧ تحذير لبني آدم ١٢
٣٠ هداية الله للناس وإضلالهم ١٣
٣١ توجيهات في الملبس والمطعم ١٣
٣١ الإسراف ١٤
٣٤ لكل أمة أجل ١٥
٤٢ يسر الدين ١٨
من مناظر يوم القيامة ٢١
٥٢ ـ ٥٣ الكفار وما يلاقونه وأمانيهم ٢١
٥٤ أمر الله وإرادته ٢٣
٥٥ ـ ٥٦ من آداب الدعاء ٢٣
٥٧ ـ ٥٨ من أدلّة الحق ٢٤
٥٩ ـ ٦٤ قصة نوح عليه السلام ٢٤
٦٥ ـ ٧٢ قصة هود عليه السلام ٢٦
٧٣ ـ ٧٩ قصة ثمود والناقة ٢٧
٨٠ ـ ٨٤ قصة لوط عليه السلام ٢٩
٨١ عقوبة من عَمِل عمل قوم لوط ٣٠
٨٥ ـ ٩٣ قصة شعيب ٣١

الجزء التاسع

١٠١ ـ ١٠٢ في قصص الماضين عبرة ٣٦
١٠٣ ـ ١٠٨ قصة موسى عليه السلام ٣٦
١٠٩ السحر ٣٨
١١٢ السحر وأنواعه ٣٨
١٢٣ اتهام فرعون للسحرة ٤١
١٣٠ جزاء العصاة منهم في الدنيا ٤٣
١٣٣ الآيات التسع ٤٤
١٣٧ المستضعفون ٤٤
١٣٨ خروج بني إسرائيل من مصر ٤٥
١٤٢ ـ ١٤٥ نزول التوراة ٤٧
١٤٨ اتخاذ بني إسرائيل العجل ٥٠
١٥٢ ـ ١٥٣ جزاءة عبدة العجل ٥٢
١٥٥ ـ ١٥٦ السبعون رجلاً ٥٣
١٥٧ النبي محمد ﷺ وأصحابه ٥٤
١٥٨ محمد رسول الله إلى الناس كافة ٥٥
١٥٩ ـ ١٦٠ من نعم الله على بني إسرائيل ٥٥
١٦٣ ـ ١٦٦ أصحاب السبت ٥٧
١٧٢ آية الميثاق لبني آدم ٦٠
١٧٥ ـ ١٧٧ مثل المكذبين الضالّين ٦٢
١٧٨ ـ ١٧٩ صفة أهل النار ٦٣
١٨٠ أسماء الله الحسنى ٦٤
١٨١ ـ ١٨٦ المهدون والضالّون ٦٤
١٨٧ السؤال عن الساعة ٦٦
١٨٩ ـ ١٩٥ نفي الشرك عن آدم وحواء ٦٧
٢٠٤ قراءة القرآن ٧١

سورة الأنفال

٥ ـ ١٢ غزوة بدر الكبرى ٧٣
١٢ تثبيت الملائكة لجند الله ٧٤
١٥ ـ ١٦ توجيهات حربية في الإسلام ٧٥
٢٠ تحذير من المخالفة ٧٨
٢٤ ـ ٢٦ حياة المسلمين بدينهم ٧٩
٢٧ الأمانات ٨٠
٢٩ تقوى الله وأثرها ٨٠
٣٠ عداوة الكفار للنبي محمد ﷺ بمكة ٨١
٣٢ ـ ٣٤ لا عذاب لأمة محمد في الدنيا ٨١
٣٥ التصفيق والصفير عبادة الجاهلية ٨٢

الجزء العاشر

٤١ الغنائم ٨٤
٤٢ بيان مراكز المسلمين والمشركين يوم بدر ٨٥

٤٥ الأمر بالثبات في لقاء العدو وذكر الله ٨٦
٤٦ ـ ٤٧ النهي عن التنازع والاختلاف ٨٧
٤٨ الشيطان يتخلّص وقت الشدائد من الكفار ٨٧
٥٥ ـ ٥٨ حال من نقض العهد ٩٠
٦٠ الإعداد الحربي للأعداء ٩١
٦١ الميل للسلام وتقوية الروح المعنوية للجيش ٩٢
تأليف قلوب المؤمنين بالإسلام ٩٢
٦٧ القرآن ينزل موافقاً لرأي عمر في الأسرى ٩٤
٧٢ الرابطة الإسلامية هي أقوى الروابط ٩٦

سورة التوبة

٥ وجوب قتال المشركين ٩٩
٧ صلح الحديبية ١٠١
١٢ الحرب في الإسلام مقيدة بالشرع لا بالأهواء ١٠٢
١٣ ـ ١٤ التحريض على قتال المشركين ١٠٢
١٧ ـ ١٨ عمارة المساجد ١٠٤
١٩ ـ ٢٢ فضل الإيمان والجهاد ١٠٤
٢٣ ـ ٢٤ ولاية المؤمنين للكافرين وخطرها ١٠٥
٢٥ ـ ٢٥ وقعة حنين ١٠٦
٢٩ آية الجزية ١٠٨
٣٠ عزير ١٠٨
٣٤ سلوك رجال الدين من أهل الكتاب ١١٠
٣٦ بعض صور الجاهلية ١١١
٣٦ حكم القتال في الشهر الحرام ١١١
٣٧ تأخير حرمة الأشهر الحرم ١١٢
٣٨ ـ ٣٩ لا يجوز التخلّف عن الجهاد في النفير ١١٢
٤٠ الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار ١١٣
٤١ التجنيد العام ١١٤
٤٦ ـ ٤٨ من طبيعة المنافقين تفريق الكلمة ١١٥
٥٠ ـ ٥٢ من أخلاقهم الفاسدة ١١٦
٥٣ ـ ٥٤ جزاء النفاق في الدنيا والآخرة ١١٧
٦٠ مصارف الصدقات في الزكاة ١١٩
٦١ أذى المنافقين للنبي ﷺ ١٢٠
٦٢ ـ ٦٦ من آثار النفاق ١٢٠
٦٧ ـ ٦٩ آية المنافقين وصفاتهم ١٢٢
٧١ ـ ٧٢ المؤمنون وصفاتهم وجزاؤهم ١٢٣
٧٥ ـ ٧٧ قصة ثعلبة بن حاطب ١٢٥
٧٨ إيمان المنافق ١٢٦
٧٩ ـ ٨٠ من أذى المنافقين للمؤمنين وجزاؤهم ١٢٦
٨١ ـ ٨٢ المتخلّفون عن الجهاد ١٢٧
٨٣ ـ ٨٥ كيف عامل النبي ﷺ زعماء النفاق ١٢٨
٨٦ ـ ٨٧ موقف المنافقين من الجهاد ١٢٨
٩٠ المتخلفون من الأعراب ١٢٩
٩١ ـ ٩٢ الضعفاء وأهل الأعذار ١٣٠
٩٦ الأعراب ١٣١
١٠١ المنافقون ١٣٣
١٠٦ المخلفون ١٣٥
١٠٧ مسجد الضرار ١٣٥
١١١ آية المبايعة ١٣٧
١١٨ قبول توبة الثلاثة الذين خلفوا ١٤٠
١٢٠ وجوب الجهاد العام ١٤٠
١٢٢ وجوب التفقه في الدين وتعليم الجيش فيه ١٤١

سورة يونس

الجزء الحادي عشر

٣ المظاهر الكونية تنادي بوحدانية الله ١٤٥
٥ ـ ٦ من مظاهر آياته الكونية ١٤٦
٧ ـ ١٠ المؤمن والكافر ١٤٦
١١ تأخير عذاب الاستئصال في الدنيا ١٤٧
١٢ طبائع الإنسان ١٤٨
١٥ ـ ١٧ الرد على ادعاء النسخ في القرآن بدون نص ١٤٩
١٩ الأمة الواحدة فطر الله الناس عليها ١٥٠
٢١ طبع الإنسان وخلقه ١٥١
٢٢ ـ ٢٣ الإنسان والشدائد ١٥١
٢٤ المثل البليغ للحياة الدنيا ١٥٣
٢٥ ـ ٢٧ ترغيب في الجنة وتنفير من النار ١٥٤
٢٨ ـ ٣٠ مشهد من مشاهد يوم القيامة ١٥٥
٣١ الحي والميت ١٥٥
٣٥ ـ ٣٦ الاحتجاج بالهدى على اتباع الله جل وعلا ١٥٦
٣٧ ـ ٣٩ إعجاز القرآن ١٥٧
٤٩ القدرة والتأثير ورأي المذاهب فيها ١٦٠
٥٥ ما لا يعقل لما في السماوات ١٦١
٥٧ القرآن شفاء لما في الصدور ١٦١
٦١ المثقال والذرة ١٦٣
٦٢ ـ ٦٤ أولياء الله الصالحون ١٦٣
٧٥ موسى وهارون عليهما السلام ١٦٧
٩٠ ـ ٩١ غرق فرعون وجنوده ١٧٠
٩٤ ـ ٩٧ تقرير صدق القرآن الكريم ١٧١

٩٨ قصة يونس عليه السلام ١٧٢
٩٩ ـ ١٠٠ الإيمان عمل قلبي لا إكراه فيه ١٧٣
١٠٧ القضاء والقدر ١٧٦

سورة هود

الجزء الثاني عشر

١٧ السنة شاهد مبين للقرآن ١٨٢
٢٥ ـ ٣٤ قصة نوح عليه السلام ١٨٤
٣٥ آية معترضة في الرد على كفار مكة ١٨٧
٣٦ ـ ٤٨ عود الكلام على قصة نوح ١٨٨
٤٩ الإشارة إلى إعجاز القرآن وأخذ العبرة من قصص الماضين ١٩٢
٥٠ ـ ٦٠ عاد وهود عليه السلام ١٩٢
٦١ ـ ٦٨ ثمود وصالح عليه السلام ١٩٤
٦٧ الصيحة ١٩٦
٦٩ ـ ٧٥ إبراهيم عليه السلام ١٩٧
٧٦ ـ ٨٣ لوط وقومه ١٩٨
٨٤ ـ ٩٥ مدين وشعيب عليه السلام ٢٠٠
٩٤ الصاعقة والصيحة والرجفة ٢٠٣
٩٦ موسى عليه السلام ٢٠٤
١٠٠ ـ ١٠٢ العبرة العامة في إهلاك الأمم الظالمة ٢٠٤
١٠٣ ـ ١٠٨ يوم القيامة ٢٠٥
١٠٩ تأخير العذاب عن أمة محمد إلى يوم القيامة ٢٠٦

سورة يوسف

٢ هل في القرآن لفظ غير عربي ٢١١
٤ ابتداء قصة يوسف ٢١٢
١٢ هل إخوة يوسف أنبياء ٢١٤
١٥ ـ ١٦ يوسف في البئر ٢١٥
٢١ يوسف وامرأة العزيز ٢١٧
٢٣ مراودة زليخا ليوسف ٢١٨
٢٤ تفسير قوله تعالى (وهمّ بها) ٢١٨
٣٥ يوسف في السجن ٢٢٢
٤١ تفسير الأحلام ٢٢٣
٥٠ ـ ٥٢ إعادة التحقيق في إظهار براءة يوسف ٢٢٥

الجزء الثالث عشر

٥٤ الفصل الثالث من قصة يوسف في حكم مصر ٢٢٧
٥٨ لقاء يوسف وإخوته في مصر ٢٢٨
٦٧ ـ ٦٨ وصية يعقوب لبنيه في قول الله تعالى إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ٢٣٠
٧٨ ألقاب يوسف ٢٣٣
٩٩ ـ ١٠٠ يوسف يلتقي بأبيه وأهله في مصر ٢٣٧
١٠١ دعاء يوسف بحسن الخاتمة ٢٣٨

سورة الرعد

٦ جواز مغفرة الكبائر والصغائر ٢٤٤
٨ ـ ٩ عالم الغيب ٢٤٥
١٢ ـ ١٣ البرق والرعد ٢٤٦
١٥ قدرة الله فوق كل شيء ٢٤٧
٢٠ ـ ٢٤ أولو الألباب وجزاؤهم ٢٤٩
٢٥ الأشقياء وأوصافهم ٢٥٠
٣١ رد على المشركين وبيان قدرة الله على كل شيء ٢٥٢
٣٤ عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ٢٥٣

سورة إبراهيم

٥ ـ ٨ قصة موسى عليه السلام ٢٥٨
١٣ ـ ١٤ العاقبة للمتقين ٢٦٠
١٩ ـ ٢١ حوار بين أهل النار الضعفاء والمستكبرين ٢٦٢
٢٤ ـ ٢٦ مثل الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة ٢٦٣
٣٢ ـ ٣٤ نعمة الله لا تحصى ٢٦٦
٣٥ ـ ٤١ دعاء إبراهيم عليه السلام ٢٦٦
٤٢ تأخير العذاب عن أمة محمد ﷺ ٢٦٨
٥٠ القطران ٢٦٩

سورة الحجر

الجزء الرابع عشر

١٦ البروج ٢٧٣
٢٦ قصة آدم وعلاقته بالجن والملائكة ٢٧٥
٢٧ خلق الجان قبل آدم ٢٧٦
٢٩ روح الله في آدم ٢٧٦
٣٧ ـ ٤٤ إبليس وأتباعه ٢٧٧
٤٥ ـ ٤٨ المتقون وجزاؤهم ٢٧٨
٥١ ـ ٥٦ طرف من قصة إبراهيم ٢٧٩
٦١ ـ ٧٧ لوط والملائكة ٢٨٠
٧٨ ـ ٨٤ أصحاب الأيكة ٢٨٣
٨٧ السبع المثاني ٢٨٤

سورة النحل

٥ ـ ٨ الأنعام من الحيوان ٢٨٨

١٠ ـ ١٨ نعم الله علينا في الفواكه والكون ٢٨٩
٢٣ المستكبرون ٢٩٢
٣٠ ـ ٣١ دار المتقين وجزاؤهم ٢٩٤
٣٥ بعض حججهم الواهية ٢٩٥
٣٦ الحثّ على السير في الأرض للعبرة ٢٩٦
٤١ المهاجرون وجزاؤهم في الدنيا ٢٩٧
٤٤ البينات والزبر ٢٩٨
٤٧ لغة أزدشنوءة في التخوّف ٢٩٩
٥١ ـ ٥٥ الدعوة إلى التوحيد ٣٠٠
٦١ تأخير العذاب عن أمة محمد ﷺ ٣٠٢
٦٣ ـ ٦٩ من مظاهر قدرته ونعمه علينا ٣٠٢
٧٠ ـ ٧٢ نهاية الإنسان وعجائب قدرة الله ٣٠٥
٧٥ مثل الأصنام والأوثان ٣٠٦
٨٠ ـ ٨١ من نعم الله علينا ٣٠٨
٨٤ ـ ٨٦ مشهد من مشاهد يوم القيامة ٣٠٩
٩٠ آية العدل والإحسان والنهي عن الفحشاء والمنكر ٣١١
٩١ الوفاء بالمعاهدات والعقود ٣١١
٩٢ مثل ناقضة الغزل ٣١٢
٩٧ من أدب القرآن وتوجيهه ٣١٣
٩٨ الاستعاذة قبل قراءة القرآن ٣١٣
١٠١ ترتيب آيات المصحف ٣١٤
١٠٦ ـ ١٠٩ المرتدون عن الإسلام ٣١٥
١١٢ ـ ١١٣ عاقبة الكفر بالنعمة ٣١٧
١١٤ المطعومات ٣١٧

سورة الإسراء

الجزء الخامس عشر

١ هل الإسراء بالروح أو بالروح والجسد معاً ٣٢١
٤ ـ ٨ فساد بني إسرائيل في الأرض وعقاب الله لهم ٣٢٢
١٢ من نعم الله علينا ٣٢٥
٢٢ ـ ٢٦ دعائم المجتمع الفاضل ٣٢٧
٢٧ الإسراف ٣٢٨
٤٢ ـ ٤٤ الرد على من يدعي أن لله شريكاً ٣٣٢
٤٩ ـ ٥١ شبهتهم في البعث والردّ عليها ٣٣٣
٦٠ الشجرة الملعونة في القرآن ٣٣٧
٦١ ـ ٦٥ آدم وإبليس ٣٣٧
٦٩ ريح العذاب أربع ٣٤٠
٧٠ تكريم جنس بني آدم ٣٤٠
٨٢ القرآن شفاء لما في الصدور ٣٤٣
٨٥ تفسير الروح ٣٤٣
٩٠ ـ ٩٣ مقترحات المعاندين ٣٤٥
١٠١ آيات موسى التسع لفرعون وقومه ٣٤٧
١٠٥ ـ ١٠٩ تعظيم شأن القرآن ٣٤٨

سورة الكهف

٩ ـ ٢١ قصة أهل الكهف والرقيم ٣٥١
٢٢ عدد أهل الكهف ٣٥٥
٢٦ مدة لبث أهل الكهف ٣٥٦
٣٢ ـ ٤٢ مثل المؤمن والكافر ٣٥٨
٤٦ زينة الحياة الدنيا ٣٦١
٤٧ سير الجبال ٣٦٢
٥٠ تكريم آدم ٣٦٣
٦٠ ـ ٦٤ موسى والخضر ٣٦٦
٦٥ ـ ٨٢ موسى يلتقي بالخضر «العبد الصالح» ٣٦٧

الجزء السادس عشر

٨٣ ـ ٩٣ قصة ذي القرنين ٣٧٠
٩٤ ـ ٩٨ يأجوج ومأجوج ٣٧٣
٩٨ هل عبرت يأجوج ومأجوج السدّ أم لا؟ ٣٧٤
٩٩ ـ ١٠٦ عاقبة الكفر يوم القيامة ٣٧٥